الرياض الندية

على

شرح العقيدة الطحاوية

تأليف

الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي

تعليق

فضيلة الشيخ الدكتور

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

خرج أحاديثه وعلق عليه وأعده للنشر

الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الخويطر

الجزء الثاني

دار الصميعي

للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ - ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١
المركز الرئيس : الرياض - شارع السويدي العام
ص.ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢
المملكة العربية السعودية
فرع القصيم : عنيزة ، أمام جامع الشيخ (ابن عثيمين) يرحمه الله
هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تلفاكس ٣٦٢١٧٢٨

الرياض الندية
على
شرح العقيدة الطحاوية

تأليف

الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي

تعليق

فضيلة الشيخ الدكتور

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

خرج أحاديثه وعلق عليه وأعده للنشر

الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الخويطر

الجزء الثاني

دار الصميعي

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الطحاوي:

وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، مِنْهُ بَدَا بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا، وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحْيًا، وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا، وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ، لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ. فَمَنْ سَمِعَهُ فَزَعَمَ أَنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ، وَقَدْ ذَمَّهُ اللَّهُ وَعَابَهُ وَأَوْعَدَهُ بِسَقَرَ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:٢٦]، فَلَمَّا أَوْعَدَ اللَّهُ بِسَقَرَ لِمَنْ قَالَ: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥]، عَلِمْنَا وَأَيْقَنَّا أَنَّهُ قَوْلُ خَالِقِ الْبَشَرِ، وَلَا يُشْبِهُ قَوْلَ الْبَشَرِ.

قال الشارح:

هَذِهِ قَاعِدَةٌ شَرِيفَةٌ، وَأَصْلٌ كَبِيرٌ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ، ضَلَّ فِيهِ طَوَائِفُ كَثِيرَةٌ مِنَ النَّاسِ. وَهَذَا الَّذِي حَكَاهُ الطَّحَاوِيُّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِمَنْ تَدَبَّرَهُمَا، وَشَهِدَتْ بِهِ الْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ الَّتِي لَمْ تُغَيَّرْ بِالشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكِ وَالْآرَاءِ الْبَاطِلَةِ.

وَقَدِ افْتَرَقَ النَّاسُ فِي مَسْأَلَةِ الْكَلَامِ عَلَى تِسْعَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ هُوَ مَا يَفِيضُ عَلَى النُّفُوسِ مِنْ مَعَانٍ، إِمَّا مِنَ الْعَقْلِ الْفَعَّالِ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، أَوْ مِنْ غَيْرِهِ، وَهَذَا قَوْلُ الصَّابِئَةِ وَالْمُتَفَلْسِفَةِ.

وَثَانِيهَا: أَنَّهُ مَخْلُوقٌ خَلَقَهُ اللَّهُ مُنْفَصِلًا عَنْهُ، وَهَذَا قَوْلُ الْمُعْتَزِلَةِ.

وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِذَاتِ اللَّهِ، هُوَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْخَبَرُ

وَالِاسْتِخْبَارُ، وَإِنْ عُبِّرَ عَنْهُ بِالْعَرَبِيَّةِ كَانَ قُرْآنًا، وَإِنْ عُبِّرَ عَنْهُ بِالْعِبْرِيَّةِ كَانَ تَوْرَاةً، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ كِلَابٍ وَمَنْ وَافَقَهُ، كَالْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِ.

وَرَابِعُهَا: أَنَّهُ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ أَزَلِيَّةٌ مُجْتَمِعَةٌ فِي الْأَزَلِ، وَهَذَا قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَمِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ.

وَخَامِسُهَا: أَنَّهُ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ، لَكِنْ تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَكَلِّمًا، وَهَذَا قَوْلُ الْكَرَّامِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ.

وَسَادِسُهَا: أَنَّ كَلَامَهُ يَرْجِعُ إِلَى مَا يُحْدِثُهُ مِنْ عِلْمِهِ وَإِرَادَتِهِ الْقَائِمِ بِذَاتِهِ، وَهَذَا يَقُولُهُ صَاحِبُ «الْمُعْتَبَرِ»[1]، وَيَمِيلُ إِلَيْهِ الرَّازِيُّ فِي «الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ».

وَسَابِعُهَا: أَنَّ كَلَامَهُ يَتَضَمَّنُ مَعْنًى قَائِمًا بِذَاتِهِ هُوَ مَا خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيِّ.

وَثَامِنُهَا: أَنَّهُ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْمَعْنَى الْقَدِيمِ الْقَائِمِ بِالذَّاتِ وَبَيْنَ مَا يَخْلُقُهُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَصْوَاتِ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي الْمَعَالِي وَمَنْ تَبِعَهُ.

وَتَاسِعُهَا: أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ وَمَتَى شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِهِ بِصَوْتٍ يُسْمَعُ، وَأَنَّ نَوْعَ الْكَلَامِ قَدِيمٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الصَّوْتُ الْمُعَيَّنُ قَدِيمًا، وَهَذَا الْمَأْثُورُ عَنْ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ.

وَقَوْلُ الشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: (وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ)، إِنَّ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ،

(١) هو: «المعتبر في الحكمة»، وصاحبه هو: أبو البركات بن ملكا الطبيب الفيلسوف. انظر: هدية العارفين أسماء المؤلفين (٦/ ٥٠٦).

عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: (إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ)، ثُمَّ قَالَ: (وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى). وَكَسْرُ هَمْزَةِ إِنَّ فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ، لِأَنَّهَا مَعْمُولُ الْقَوْلِ، أَعْنِي قَوْلَهُ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ: (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ).

قال الشيخ:

بدأ الشارح ـ رحمه الله ـ الكلام عن القرآن وأنه كلام الله، وسبب ذلك أن صفة كلام الله من أقدم المسائل التي أنكرتها المبتدعة، وكان أول من اشتهر بإنكار أن الله يتكلم، هو الجعد بن درهم شيخ الجهم بن صفوان، وقد قتله خالد القسري في يوم عيد الأضحى، حيث قال: «ضحّوا، تقبّل الله ضحاياكم، فإني مضحٍّ بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليمًا ولم يتخذ إبراهيم خليلًا »[1]، وأنكر الجهم وكذا شيخه الجعد أن يكون الله متكلمًا، وأن يكون القرآن كلام الله، وادّعى أن الكلام لا يحصل إلا من المخلوقين، وأن الكلام يحتاج إلى لهوات ونَفَس ولسان وشفتين وأسنان ولثة... ونحو ذلك، فادّعى أنّ ذلك لا يُتصوَّر إلا من المخلوق، وأنّ الخالق لا يمكن أن يتكلم، فلما أنكر أن الله تعالى متكلمٌ جيء بالقرآن، وقيل: هذا القرآن ماذا تقول فيه؟ أليس هو كلام الله؟ كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٥]،

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٨).

وكما سماه قولاً، بقوله: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء:١٢٢]، وكما ينسب القول إليه بقوله: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة:١١٩]، ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ﴾ [المائدة:١١٦]، ونحو ذلك من النصوص التي فيها إثبات أن الله قال، وأن الله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وأنه كلّم موسى تكليمًا، وأن هذا القرآن كلام الله في قوله: ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٦]، وأن كلمات الله قديمة النوع. حادثة الآحاد، وأنها لا نهاية لها، كما في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾ [الكهف:١٠٩]، وكما في قوله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام:١١٥]، وغير ذلك من النصوص الكثيرة، فلما جيء بهذه النصوص تحيَّر ماذا يقول، فلم يجد بدًّا من أن يقول: إن القرآن مخلوق، وإن الله خلقه كما خلق الإنسان والأجرام والكواكب والحيوانات والنباتات، وأنكر أن يكون كلام الله تعالى، وسيأتي مناقشة قوله وما استدل به، وبيان ضعف تلك الأدلة.

ولما تكلم الجعد ثم الجهم، ثم تلميذهما بشر المَرِّيسي، ثم غيرهم من المبتدعة، كانوا في أول الأمر ضعفاء مقهورين، لا يُلتفت إلى قولهم، ولا أحد ينخدع بهم، ولكن حدث في خلافة المأمون أنه قرّب بعضهم فزينوا له مذهبهم، وبينوا لهم أنهم أولى بالصواب، وأن القرآن مخلوق، ودَعَوْه إلى أن يمتحن الناس بذلك، فأطاعهم الخليفة المأمون ووافقهم، وحصلت بذلك فتنٌ عظيمة وامتُحن فيها أئمة الإسلام، ومنهم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وهو

الذي صمد أمام الفتنة وصبر، وأوذي في ذات الله، ومات المأمون قبل أن يُؤتى بالإمام أحمد وتولَّى بعده أخوه المعتصم، وهو الذي تولَّى ضرب الإمام أحمد، فأمر بضربه بين يديه، وأطال حبسه ولم يزل على ذلك إلى أن تُوفي المعتصم، وتولى بعده ولده الواثق، فخفّت الفتنة في زمنه، ولكن لم يزل على عقيدة أبيه فيما يظهر، ثم بعده تولى ولده المتوكل، وهو الذي نصر السنه وقرّب أهلها وأبعد المبتدعة.

والحاصل: أن مسألة القرآن والقول فيه قديمة، حدثت في أول القرن الثاني، ثم استفحلت في أول القرن الثالث، وتمكَّنت وكثر الخوض في مسألة القرآن وما هو، وكذلك في مسألة كلام الله تعالى وكيف يتكلم، وتشعَّبت المذاهب ـ كما ذكر الشارح ـ إلى تسعة أقوال، كلها فيما يتعلق بالقرآن. والصواب منها هو القول التاسع الأخير الذي هو قول أهل السنة، وهو: إثبات أن الله تعالى تكلم ويتكلم إذا شاء، وأن كلامه قديم النوع، حادث الآحاد، وأن كلامه يُسمع؛ يسمعه من يشاء من خلقه، كما أسمعه موسى لَـمَّا ناداه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ [الشعراء:١٠]، والنداء لابدَّ أن يكون مسموعًا، وكما ناجاه في قوله: ﴿ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم:٥٢]، ولابدَّ أنه سمع مناجاة ربه، وهكذا أيضًا كلم نبينا ﷺ لَـمَّا أُسري به وأوحى إليه منه إليه، وهكذا.

فإذًا يعتقد المسلمون بأن كلام الله قديم النوع، حادث الآحاد، وأن هذا القرآن هو كلام الله حقًّا؛ حروفه ومعانيه، ليس كلامه الحروف دون المعاني

ولا المعاني دون الحروف، بل كلها كلام الله تعالى كما شاء. ويعتقدون أيضًا بأنه لم يزل متكلمًا، وما ذاك إلا أن الكلام صفة كمال، وتركها أو فقدها صفة نقص، ويلزم من فقدها أو نفيها نفي التشريع؛ إذ لو كان الله تعالى غير متكلم، فمن أين يُعرف أنه أمر أو نهى، ومن أين يُعرف أنه يحب هذا ويبغض هذا، ومن أين يُعرف أنه أنزل هذا أو لم ينزله؟ فلا بد أنه متكلم. وكل عاقل يثبت صفة الكلام لله تعالى؛ لأنه موصوف بصفات الكمال، ومنزَّه عن صفات النقائص والعيوب.

وأما قول غلاة الصابئة والفلاسفة ونحوهم: إنه ما يفيض من العقل الفياض، والعقل الفياض عندهم كأنه الخالق، وما يقع في النفوس أو تتحرك به العقول يسمُّونه فيضًا من العقل الفيّاض، فعندهم ـ على هذا ـ كل شيء في الوجود فهو من قول الله ومن كلامه، ولذا طبَّق ذلك أهل الاتحاد، حيث يقول قائلهم[1]:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ ... سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ

وهذا من أمحل المحال وأبطل الباطل؛ لأنه يلزم منه أن يكون كلام الكفار كلام الله، وكلام الإلحاد والكفر والزندقة والنفاق ونحو ذلك ـ عند هؤلاء ـ أنه كلام الله.

---

(١) هو ابن عربي صاحب الفصوص، ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٧٢)، وفي الرد على البكري (ص٢١٣)، وسيذكره ابن أبي العز في شرحه قريبًا.

وأما قول المعتزلة: إنه مخلوق، وإن الله خلقه كما خلق البشر وكما خلق حركات البشر، فهذا قول باطل ستأتي مناقشته.

وأما قول ابن كُلَّاب - وكذلك الأشعريون ونحوهم - أنه معنًى واحدٌ قائمٌ بنفسه، إن عُبِّرَ عنه بالعربية كان قرآنا، وإن عُبِّرَ عنه بالعبرية كان توراة... إلخ، فهذا أيضًا قولٌ باطلٌ، وذلك لأنه يلزم منه أن تكون معنى التوراة هي معنى القرآن، ومعنى القرآن هو معنى الإنجيل، ليس بينهما فرقٌ، وهذا معلومٌ بطلانه؛ فإن في التوراة أحكامًا ومواعظ لم تَرِدْ في القرآن بلفظها، وكذلك في التوراة أشياء ليست في الإنجيل، وفي الإنجيل أشياء ليست في التوراة، فهذا دليل على بطلان هذا القول الذي يدّعون أنه معنًى واحدٌ قائم بذات الله تعالى.

وأما الأقوال الأخرى: الذين يدَّعون أنه حروف وأصوات أزلية - أي: قديمة - فمقتضى ذلك أن الله لا يتكلم الآن، وأنه تكلم في وقتٍ، ثم انقطع من الكلام - تعالى الله عن ذلك - وأشباه ذلك من الأقوال.

فالحاصل: أنّا نعتقد أن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه ﷺ وحيًا من الله، وتلاه المسلمون وقرؤوه وتعبدوا بتلاوته، وصدَّقوا بأنه قول الله، ليس قول البشر، نعتقد أن هذا هو كلامُ الله حقًا، وليس كلام غيره، ويأتينا - إن شاء الله - مناقشة أقوال المخالفين.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَا بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا)، رَدٌّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ، فَإِنَّ الْمُعْتَزِلَةَ تَزْعُمُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَبْدُ مِنْهُ، كَمَا تَقَدَّمَ حِكَايَةُ قَوْلِهِمْ، قَالُوا: وَإِضَافَتُهُ إِلَيْهِ إِضَافَةُ تَشْرِيفٍ، كَبَيْتِ اللَّهِ، وَنَاقَةِ اللَّهِ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ! وَقَوْلُهُمْ بَاطِلٌ.

فَإِنَّ الْمُضَافَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَعَانٍ وَأَعْيَانٌ، فَإِضَافَةُ الْأَعْيَانِ إِلَى اللَّهِ لِلتَّشْرِيفِ، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ لَهُ، كَبَيْتِ اللَّهِ، وَنَاقَةِ اللَّهِ، بِخِلَافِ إِضَافَةِ الْمَعَانِي، كَعِلْمِ اللَّهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَعِزَّتِهِ، وَجَلَالِهِ، وَكِبْرِيَائِهِ، وَكَلَامِهِ، وَحَيَاتِهِ، وَعُلُوِّهِ، وَقَهْرِهِ، فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ مِنْ صِفَاتِهِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ مَخْلُوقًا.

وَالْوَصْفُ بِالتَّكَلُّمِ مِنْ أَوْصَافِ الْكَمَالِ، وَضِدُّهُ مِنْ أَوْصَافِ النَّقْصِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٨]، فَكَانَ عُبَّادُ الْعِجْلِ - مَعَ كُفْرِهِمْ - أَعْرَفَ بِاللَّهِ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا لِمُوسَى: وَرَبُّكَ لَا يَتَكَلَّمُ أَيْضًا. وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْعِجْلِ أَيْضًا: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه:٨٩]، فَعُلِمَ أَنَّ نَفْيَ رُجُوعِ الْقَوْلِ وَنَفْيَ التَّكَلُّمِ نَقْصٌ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى عَدَمِ أُلُوهِيَّةِ الْعِجْلِ.

وَغَايَةُ شُبْهَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: يَلْزَمُ مِنْهُ التَّشْبِيهُ وَالتَّجْسِيمُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: إِذَا قُلْنَا أَنَّهُ تَعَالَى يَتَكَلَّمُ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ انْتَفَتْ شُبْهَتُهُمْ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ:

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾ [يس:٦٥]، فَنَحْنُ نُؤْمِنُ أَنَّهَا تَتَكَلَّمُ، وَلَا نَعْلَمُ كَيْفَ تَتَكَلَّمُ. وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت:٢١]، وَكَذَلِكَ تَسْبِيحُ الحَصَى[1] وَالطَّعَامِ[2]، وَسَلَامُ الحَجَرِ[3]، كُلُّ ذَلِكَ بِلَا فَمٍ يَخْرُجُ مِنْهُ الصَّوْتُ الصَّاعِدُ مِنَ الرِّئَةِ، الْمُعْتَمِدُ عَلَى مَقَاطِعِ الْحُرُوفِ.

وَإِلَى هَذَا أَشَارَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِقَوْلِهِ: (مِنْهُ بَدَا بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا)، أَيْ: ظَهَرَ مِنْهُ، وَلَا نَدْرِي كَيْفِيَّةَ تَكَلُّمِهِ بِهِ. وَأَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: (قَوْلًا)، أَتَى بِالْمَصْدَرِ الْمُعَرِّفِ لِلْحَقِيقَةِ، كَمَا أَكَّدَ اللَّهُ تَعَالَى التَّكْلِيمَ بِالْمَصْدَرِ الْمُثْبِتِ النَّافِي لِلْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤]، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟!

وَلَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِأَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ - أَحَدِ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ -: أُرِيدُ أَنْ

---

(١) كما في حديث أبي ذر ﷺ، قال: «... فَتَنَاوَلَ النَّبِيُّ سَبْعَ حَصَيَاتٍ أَوْ تِسْعَ حَصَيَاتٍ فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ حَتَّى سَمِعْتَ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فَخَرَسْنَ». أخرجه البزار (٩/ ٤٣١)، والطبراني في الأوسط (٤/ ٢٤٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٦٤).

(٢) كما في حديث ابن مسعود ﷺ، قال: «وَلَقَدْ كنا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وهو يُؤْكَلُ». أخرجه البخاري (٣٥٧٩).

(٣) كما في حديث جابر بن سَمُرَةَ ﷺ، قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: «إني لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كان يُسَلِّمُ عَلَيَّ قبل أَنْ أُبْعَثَ، إني لَأَعْرِفُهُ الْآنَ». أخرجه مسلم (٢٢٧٧).

تَقْرَأَ: وَكَلَّمَ اللَّهَ مُوسَى، بِنَصْبِ اسْمِ اللَّهِ؛ لِيَكُونَ مُوسَى هُوَ الْمُتَكَلِّمَ لَا اللَّـهُ! فَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: هَبْ أَنِّي قَرَأْتُ هَذِهِ الْآيَةَ كَذَا، فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف:١٤٣]؟! فَبُهِتَ الْمُعْتَزِلِيُّ!

قال الشيخ:

عرفنا أن صفة الكلام صفةُ شرفٍ وكمال، ونفيها صفةُ نقص، واستدل الشارح بقوله تعالى في حكاية قصة العجل الذي عبده أصحاب موسى. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ ﴾ [الأعراف:١٤٨]، وقال في موضع آخر: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه:٨٩]، وَبَّخَهُم موسى وكذلك هارون ـ عليهما السلام ـ وقالا: كيف تعبدون من لا يتكلم؟ كيف تعبدون من لا يكلمكم؟ فلم يقولوا كما قالت المعتزلة، لو كان الله تعالى لا يتكلم لقال قوم موسى لموسى: وربُّك أيضًا لا يتكلم. ولكنهم أعقل من المعتزلة.

فعُرف بذلك أن صفة الكلام صفة كمال وشرف، وأنها ثابتة لله تعالى عن طريق التواتر؛ لكثرة الأدلة التي تبيِّنها، والتي اتضحت دلالتها من تلك النصوص. وفي هذا أن المعتزلة الذين ادَّعوا أن الكلام مخلوقٌ، وأنه كسائر المخلوقات، خلقه كخلق الإنسان ونحوه، أنهم لم يعتبروا بالأدلة التي بين أيديهم، ولم ينظروا في هذه النصوص التي دلالتها واضحة.

وفي القصة التي أوردها الشارح عن ذلك المعتزلي الذي جاء إلى أبي عمرو ابن العلاء أحد القراء السبعة من أهل العراق، وقال له: اقرأ هذه الآية: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، بنصب لفظ الجلالة (الله)؛ ليكون موسى هو المكلِّم ولا يكون الله متكلِّمًا، ولكن أبا عمرو ـ رحمه الله ـ بيَّن له أن ذلك لا يفيدك، لو قرأنا أنا وأنت هذه الآية «وكلَّم اللهَ» لجاءتنا آية لا يمكن أن نحرِّفها، وهي قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فإنها صريحة في أن الربَّ تعالى هو المكلِّم، وهذا بهت ذلك المعتزلي، ولم يرد شيئًا.

وقد اشتهر أن جمعًا من المعتزلة، أوَّلوا التكليم هنا بأنه التجريح، فقالوا: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾، أي: جرّحه؛ لأن الكَلْم: الجرح، كما في قوله ﷺ: «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكْلَمُ»[1]، أي: ما من مجروح يوم القيامة إلا وجاء يوم القيامة وكَلْمُهُ يدمي. فادّعوا أن قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾، يعني: جرّحه بأظافر الحكمة، ولكن هذا القول باطل؛ فإن النصوص دالّة على أنه هو الكلام المسموع؛ ولذا أثبت الله أنه ناداه في قوله: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء:١٠]، ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات:١٦]، وناجاه:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٣٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه مسلم (١٨٧٦) بلفظ: «مَا مِنْ كَلْمٍ يُكلَمُ...».

﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴾ [مريم:٥٢]، والمناجاة والنداء لا يكونان إلا بكلام مسموع، فكيف يؤوّلون ذلك ويحرفونه تحريفًا لفظيًا أو معنويًا؟

وكذلك ثبت أن الله تعالى خاطب موسى منه إليه، وذكر خطابه في آيات؛ كقوله: ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾[طه:٢٤]، وقوله: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [طه:٤٣، ٤٤]، وقوله: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[طه:٤٦]، فالله تعالى خاطبه وأسمعه ذلك الخطاب، فلا بد أن يكون الخطاب بكلام مسموع، ولا يستطيع المعتزلة أن يحرِّفوا ذلك.

فالحاصل: أن تأويلاتهم وحرصهم على صرف الدلالات لا يفيدهم؛ لكثرة الأدلة.

قال الشارح:

وَكَمْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ دَلِيلٍ عَلَى تَكْلِيمِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَغَيْرِهِمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس:٥٨]، فَعَنْ جَابِرٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمٍ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ، فَرَفَعُوا أَبْصَارَهُمْ، فَإِذَا الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾، فَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ، مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ، وَتَبْقَى بَرَكَتُهُ وَنُورُهُ». رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ(١) وَغَيْرُهُ(٢).

فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْكَلَامِ، وَإِثْبَاتُ الرُّؤْيَةِ، وَإِثْبَاتُ الْعُلُوِّ، وَكَيْفَ يَصِحُّ مَعَ هَذَا أَنْ يَكُونَ كَلَامُ الرَّبِّ كُلُّهُ مَعْنًى وَاحِدًا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ [آل عمران:٧٧]، فَأَهَانَهُمْ بِتَرْكِ تَكْلِيمِهِمْ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ تَكْلِيمَ تَكْرِيمٍ، وَهُوَ الصَّحِيحُ، إِذْ قَدْ أَخْبَرَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى أَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ فِي النَّارِ: ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، فَلَوْ كَانَ لَا يُكَلِّمُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، لَكَانُوا فِي ذَلِكَ هُمْ وَأَعْدَاؤُهُ سَوَاءً، وَلَمْ يَكُنْ فِي تَخْصِيصِ

---

(١) برقم (١٨٤).

(٢) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٣/ ٦٧) برقم (٢٢٥٣)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٨٢)، والآجري في الشريعة (٢/ ١٠٢٨).

أَعْدَائِهِ بِأَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ فَائِدَةٌ أَصْلًا.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ[١]: «بَابُ كَلَامِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، وَسَاقَ فِيهِ عِدَّةَ أَحَادِيثَ. فَأَفْضَلُ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ رُؤْيَةُ وَجْهِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَكْلِيمُهُ لَهُمْ. فَإِنْكَارُ ذَلِكَ إِنْكَارٌ لِرُوحِ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى نَعِيمِهَا وَأَفْضَلِهِ الَّذِي مَا طَابَتْ لِأَهْلِهَا إِلَّا بِهِ.

قال الشيخ:

وهذا أيضًا نوع من الأدلة، ما حكاه الله تعالي من كلامه لأهل الجنة في عدة آيات، فالله تعالي يذكر أنه يخاطب أهل الجنة، فيقول: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الحجر:٤٦]، ويقول تعالى مخاطبًا عباده في يوم القيامة: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [ق:٢٩]، هذا كلام الله في يوم القيامة، كذلك يحكي الله تعالى أنه إذا دخل أهلُ الجنة الجنة سمعوا كلام الله، وذلك معنى قوله: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ [يس:٥٨]، والقول لا بد أن يكون مسموعًا، فلا بدّ أن أهل الجنة يسمعونه، ولا شك أن سماعهم لكلامه يُعد نعمة ونعيمًا ولذّةٌ يلتذُّون بها، فيلتذون بسماع كلام ربهم، كما يلتذون برؤية ربِّهم، ويتنعمون بكل ذلك، ولكن أهل النار محرومون من الجميع؛ فحُرموا مِنْ رؤية ربِّهم، كما حكى الله

---

(١) في كتاب التوحيد (٩/ ١٥١).

عنهم في قوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٥]، فصار حجابهم عذابًا لهم، وحُرموا من سماع كلام الله، الذي هو كلام نعيم وكلام رحمة لهم، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٧٧]، يعني: لا يكلمهم كلام رحمة وكلام نعمة.

ففرَّق الله بين أهل الجنة وأهل النار بأن هؤلاء يكلمهم وهؤلاء لا يكلمهم، فدل على أن كلام الله تعالى حق وثابت، وأن تركه لكلام هؤلاء عذاب أليم في حقهم.

ولا شك أن الكلام اسمٌ لكل ما يسمعه المكلَّم المنادى، وأهل الجنة ينادَوْن فيرفعون أنظارهم، فيسمعون كلام الله منه إليهم، وكذلك موسى ـ عليه السلام ـ لما ناداه ربه سمع كلام الله تعالى.

وروي ـ أيضًا ـ أَنَّ الصحابة قالوا: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦][1]، يعني: أسمعهم وأجيبهم إذا دعوني.

ونزل أيضًا في موسى ـ عليه السلام ـ في خصائصه أن الله خصَّه بإسماعه

---

(١) أخرجه الطبري (٢/ ١٥٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٣١٤). قال الحافظ ابن حجر في العجاب في بيان الأسباب (١/ ٤٣٤): «في سنده ضعف».

كلامه، في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، فأخبر بأن كلامه الحق الذي أسمعه موسى أنه من خصائص موسى ـ عليه السلام ـ دون غيره من أهل زمانه.

وكل ذلك شواهد وأدلّة ظاهرة بأن الله تعالى متكلمٌ، وأنه يتكلم إذا شاء، وأن ذلك من صفات الكمال.

قال الشارح:

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦]، وَالْقُرْآنُ شَيْءٌ، فَيَكُونُ دَاخِلًا فِي عُمُومِ (كُلٍّ)، فَيَكُونُ مَخْلُوقًا!! فَمِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ. وَذَلِكَ: أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ كُلَّهَا عِنْدَهُمْ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا يَخْلُقُهَا الْعِبَادُ جَمِيعَهَا، لَا يَخْلُقُهَا اللَّهُ، فَأَخْرَجُوهَا مِنْ عُمُومِ (كُلٍّ)، وَأَدْخَلُوا كَلَامَ اللَّهِ فِي عُمُومِهَا، مَعَ أَنَّهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، بِهِ تَكُونُ الْأَشْيَاءُ الْمَخْلُوقَةُ، إِذْ بِأَمْرِهِ تَكُونُ الْمَخْلُوقَاتُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ [الأعراف:٥٤]، فَفَرَّقَ بَيْنَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ مَخْلُوقًا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا بِأَمْرٍ آخَرَ، وَالْآخَرُ بِآخَرَ، إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ، فَيَلْزَمُ التَّسَلْسُلُ، وَهُوَ بَاطِلٌ. وَطَرْدُ بَاطِلِهِمْ: أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ صِفَاتِهِ تَعَالَى مَخْلُوقَةً، كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَغَيْرِهِمَا، وَذَلِكَ صَرِيحُ الْكُفْرِ، فَإِنَّ عِلْمَهُ شَيْءٌ، وَقُدْرَتَهُ شَيْءٌ، وَحَيَاتَهُ شَيْءٌ، فَيَدْخُلُ ذَلِكَ فِي عُمُومِ كُلٍّ، فَيَكُونُ مَخْلُوقًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُتَكَلِّمًا بِكَلَامٍ يَقُومُ بِغَيْرِهِ؟ وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ مَا أَحْدَثَهُ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْجَمَادَاتِ كَلَامَهُ! وَكَذَلِكَ أَيْضًا مَا خَلَقَهُ فِي الْحَيَوَانَاتِ، لَا يُفَرَّقُ حِينَئِذٍ بَيْنَ نَطَقَ وَأَنْطَقَ، وَإِنَّمَا قَالَتِ الْجُلُودُ: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ [فصلت:٢١]، وَلَمْ تَقُلْ: نَطَقَ اللَّهُ، بَلْ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مُتَكَلِّمًا بِكُلِّ كَلَامٍ خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ، زُورًا كَانَ أَوْ كَذِبًا أَوْ كُفْرًا أَوْ هَذَيَانًا!! تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ. وَقَدْ طَرَّدَ

ذَلِكَ الِاتِّحَادِيَّةُ، فَقَالَ ابْنُ عَرَبِيٍّ:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ   سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ

وَلَوْ صَحَّ أَنْ يُوصَفَ أَحَدٌ بِصِفَةٍ قَامَتْ بِغَيْرِهِ، لَصَحَّ أَنْ يُقَالَ لِلْبَصِيرِ: أَعْمَى، وَلِلْأَعْمَى: بَصِيرٌ؛ لِأَنَّ الْبَصِيرَ قَدْ قَامَ وَصْفُ الْعَمَى بِغَيْرِهِ، وَالْأَعْمَى قَدْ قَامَ وَصْفُ الْبَصَرِ بِغَيْرِهِ! وَلَصَحَّ أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِالصِّفَاتِ الَّتِي خَلَقَهَا فِي غَيْرِهِ، مِنَ الْأَلْوَانِ، وَالرَّوَائِحِ، وَالطُّعُومِ، وَالطُّولِ، وَالْقِصَرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

قال الشيخ:

نعرف من هذا أن هذه الصفات التي استدلوا بها واردةٌ عليهم، استدلوا بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦]، فقالوا: القرآن شيء، فيكون مخلوقًا داخلًا في عموم (كلّ)، فردّ عليهم الشارح بأن هذا من أعجب العجب، وأنكم تقولون: إن أفعال العباد ليست بمخلوقة لله، وتخرجون أفعالكم وأفعال العباد عن أن تكون مخلوقة لله، فلماذا لم تدخلوها في عموم (كل)، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ومع ذلك تدخلون في ذلك صفةً من صفاته، وهو القرآن الذي هو كلام الله، فتدخلون صفته في كونها مخلوقة، ولا تدخلون أفعالكم ولا حركاتكم في كونها مخلوقة لله، وهذا من العجب.

ثم استدل أيضًا بأنه يلزم من قولهم أن يوصف الله تعالى بالصفات التي قامت بالمخلوقات؛ وذلك لأنهم يقولون: هذا القرآن خلقه في أفواه العباد، أو

خلقه ثم تكلم العباد به، فهو ليس كلامه، ولكنه خلقه ومع ذلك يضاف إليه، وهذا كلام باطل؛ لأنه يلزم منه ـ كما ذكر الشارح ـ أن يكون من تكلم بكلام يوصف به غير المتكلم، فالله تعالى ـ على زعمهم ـ ما تكلم، ولكن يقال كلامه وإن لم يكن هو المتكلم به؛ لأن الكلام قام بمخلوقاته، فيكون مضافًا إليه وإن لم يكن به، فيلزم على هذا ـ كما مر بنا ـ أن يوصف الأعمى بأنه بصير؛ لأن البصر قد قام بغيره، والبصير يوصف بأنه أعمى؛ لأن العمى قد قام بغيره، وأن يوصف الله بصفات المخلوقات كلها، والمخلوقات توصف بصفات النقص، كالعجز، والجهل، والجنون، والكفر، والفسق، والزنا، والغضب، والإلحاد.. وما أشبه ذلك.

فعلى قولهم هذا، يُقال: إن الله عاجز وجاهل... تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وعلى منطوقهم ذلك يجوز إضافة هذه الأفعال كلها إلى الله تعالى، وأن تكون الكلماتُ كلها التي تجري في الخلق من كلام الله، حتى وإن كانت إلحادًا وكفرًا وزندقة وسبًّا وهجاءً وكلامًا قذرًا يتعلق بالأوساخ والقاذورات، ونحو ذلك، والجلود تقشعرُّ من هذه الأقوال وحكايتها؛ لبطلانها.

والقول الصحيح: أن القرآن كلام الله تعالى، وأن ما قالوه وما اعتمدوه لا دلالة لهم عليه، فاعتقد أيها المسلم بأن هذا القرآن كلام الله، تكلم به حقًّا، منه بدأ وإليه يعود كما شاء، وإن لم نعرف كيفية تكلُّمه، وكيفية إنزاله وما يتعلق بذلك، بل نعرف ونتحقق بأن الله متكلِّمٌ بكلام يُسمعُ، وأن من كلامه القرآن وسائرُ الكتب التي أنزلها على عباده، فإذا اعتقدنا ذلك، فقلنا بهذه الكتب التي

أنزلها وضمَّنها شريعته، وضمّنها أمره ونهيه ونحو ذلك، والله تعالى فرَّق بين الخلق والأمر في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، فدل ذلك على أن الأمر ليس خلقًا، فالأمر: هو الكلام، والخلق: إيجاد المخلوقات، التي يخلقها الله - جل وعلا - بأمره، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فالمخلوق يخلق بالكلام؛ لقوله: ﴿كُن﴾، الذي هو أمر، فـ ﴿كُن﴾ ليست مخلوقة؛ لكونها من كلام الله، وإنما المخلوق ما يحدثه بها، يعني: ما يخلقه من المخلوقات بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، هذا الصحيح، وكل تشعباتهم وتأويلاتهم بعيدة عن العقل وعن الفطرة التي فطر الله تعالى عليها العباد.

قال الشارح:

وَبِمِثْلِ ذَلِكَ أَلْزَمَ الْإِمَامُ عَبْدُ الْعَزِيزِ الْمَكِّيُّ بِشْرًا الْمَرِيسِيَّ بَيْنَ يَدَيِ الْمَأْمُونِ، بَعْدَ أَنْ تَكَلَّمَ مَعَهُ مُلْتَزِمًا أَنْ لَا يَخْرُجَ عَنْ نَصِّ التَّنْزِيلِ، وَأَلْزَمَهُ الْحُجَّةَ، فَقَالَ بِشْرٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لِيَدَعْ مُطَالَبَتِي بِنَصِّ التَّنْزِيلِ، وَيُنَاظِرْنِي بِغَيْرِهِ، فَإِنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَهُ وَيَرْجِعْ عَنْهُ، وَيُقِرَّ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ السَّاعَةَ، وَإِلَّا فَدَمِي حَلَالٌ. قَالَ عَبْدُالْعَزِيزِ: تَسْأَلُنِي أَمْ أَسْأَلُكَ؟ فَقَالَ بِشْرٌ: اسْأَلْ أَنْتَ، وَطَمِعَ فِيَّ، فَقُلْتُ لَهُ: يَلْزَمُكَ وَاحِدَةٌ مِنْ ثَلَاثٍ لَا بُدَّ مِنْهَا: إِمَّا أَنْ تَقُولَ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْقُرْآنَ - وَهُوَ عِنْدِي أَنَا كَلَامُهُ - فِي نَفْسِهِ، أَوْ خَلَقَهُ قَائِمًا بِذَاتِهِ وَنَفْسِهِ، أَوْ خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ؟ قَالَ: أَقُولُ: خَلَقَهُ كَمَا خَلَقَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا. وَحَادَ عَنِ الْجَوَابِ.

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: اشْرَحْ أَنْتَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ، وَدَعْ بِشْرًا فَقَدِ انْقَطَعَ.

فَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ: إِنْ قَالَ: خَلَقَ كَلَامَهُ فِي نَفْسِهِ، فَهَذَا مُحَالٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَكُونُ مَحَلًّا لِلْحَوَادِثِ الْمَخْلُوقَةِ، وَلَا يَكُونُ فِيهِ شَيْءٌ مَخْلُوقٌ، وَإِنْ قَالَ: خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ، فَيَلْزَمُ فِي النَّظَرِ وَالْقِيَاسِ أَنَّ كُلَّ كَلَامٍ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي غَيْرِهِ فَهُوَ كَلَامُهُ، فَهُوَ مُحَالٌ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ يُلْزِمُ قَائِلَهُ أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ كَلَامٍ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي غَيْرِهِ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ! وَإِنْ قَالَ: خَلَقَهُ قَائِمًا بِنَفْسِهِ وَذَاتِهِ، فَهَذَا مُحَالٌ؛ لَا يَكُونُ الْكَلَامُ إِلَّا مِنْ مُتَكَلِّمٍ، كَمَا لَا تَكُونُ الْإِرَادَةُ إِلَّا مِنْ مُرِيدٍ، وَلَا الْعِلْمُ إِلَّا مِنْ عَالِمٍ، وَلَا يُعْقَلُ كَلَامٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ مُتَكَلِّمٌ. فَلَمَّا اسْتَحَالَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا، عُلِمَ أَنَّهُ صِفَةٌ لِلَّهِ.

هَذَا مُخْتَصَرٌ مِنْ كَلَامِ الْإِمَامِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي «الْحَيْدَةِ»(١).

قال الشيخ:

رسالة «الحيدة» لكاتبها عبدالعزيز الكناني، وهي مطبوعة، ذكر فيها أنه لما اشتهر عن بشرٍ المريسي أنه يقول: إن القرآن كلامُ الله، حاول أن يجادله، فذكر أنه لما صلى مرة الجمعة قدِم ولده أمام الناس، فسأله بصوت رفيع وقال: يا بني! ما تقول في القرآن، فقال بصوت رفيع: القرآن كلام الله، فلما سُمع قبض عليه؛ لأن ذلك كان زمن فتنةٍ قد افتتن بها خلق كثير، وقد انتشر القول بأن القرآن مخلوق، وهدَّدوا وتوعَّدوا من يقول بأنه كلام الله.

عند ذلك أُحضر بين يدي المأمون، وهو أحد خلفاء بني العباس، وكان ممن دخله كلام المعتزلة وزيّنوا له، حتى اعتقد ما يقولونه: إن القرآن مخلوق، فلما حضر بين يديه أمره بأن يحضر من يناظره، فأحضر بشرًا المرّيسي، وهو رأس المعتزلة أو رأس الجهمية في ذلك الزمان، فتناظرا بين يدي المأمون، وكلَّما أتى بحجةٍ قوية حاد عنها ذلك المعتزليُّ الجهميُّ، فسمّى رسالته بـ«الحيدة».

في هذه المقالة ألزمه بإحدى ثلاث: قال له: إذا قلت: إن القرآن مخلوق، فلا بدّ من واحدة من ثلاثٍ: إما أن تقول: إن الله خلق القرآن في ذاته، وإما أن تقول: إنه خلقه في غيره، وإما أن تقول: إنه خلقه مستقلًا بنفسه. فحاد ولم

---

(١) (ص٨١ ـ ٨٤).

يجب المريسي، ولم يستطع أن يتخلَّص، فشرحها الكناني ـ رحمه الله ـ وقال: إذا قلت إن الله خلقه في ذاته فهذا محال؛ لأنه يكون محلًا للحوادث، والله تعالى منزّه عن أن يكون محلًا للحوادث، أي أنه: لم يحدث له صفة كانت مفقودةً، بل هو قديمٌ بصفاته، كما تقدم في قول المؤلف: (لَيْسَ بَعْدَ خَلْقِ الخَلقِ اسْتَفَادَ اسم «الخَالق»، وَلا بِإِحْدَاثِهِ البَرِيَّةَ اسْتَفَادَ اسم «البَارِي»)، فبطل أن يكون خلقه في ذاته. وإذا قلت: إنه خلقه مستقلًا يعني: مخلوق مستقلٌّ اسمه القرآن، فيلزم بذلك أن نشاهد ذلك المخلوق؛ فالمخلوقات لا بدّ أنها تُشاهَد، وأيضًا لابدَّ أنه يأتي عليه التغيُّر.

وقد سمعت أيضًا حكاية أن أحد الذين امتُحنوا في القرآن، لما أحضروه قالوا له: ماذا عندك، قال: رأيت رؤيا، رأيت أني قمت في الليل لأصلي، فلما كبرَّت وقرأت الفاتحة، وقرأت ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١]، وفي الركعة الثانية قرأت الفاتحة، وأردت أن أقرأ سورة الإخلاص، فلم أستطع ولم أقدر، فرفعتُ رأسي فإذا القرآن مسجّى، قلت: ما هذا؟ قالوا: القرآن ميتٌ، فنزلته أنا ومن معي فغسلناه وكفنَّاه وصلينا عليه. فقالوا له ـ تعجبًا ـ: القرآن يموت؟! قال: نعم، أنتم تقولون: إن القرآن مخلوق، وكل مخلوق يموت. فخصمهم بذلك وبيّن لهم أن هذه وإن كانت رؤيا، فإنها ردٌّ عليكم؛ إذا قلتم إن القرآن مخلوق منفصل مستقل يُرى، فلا بد أنه يأتي عليه التغير؛ يمرض ويشفى، ويكبر ويصغر، ويزيد وينقص، وينطق بنفسه. فإذا كان هو مخلوقًا

مستقلًا، فمن الذي لمسه، ومن الذي شاهده؟ والقرآن إنما هو هذا الكلام الذي نقرؤه، فهو عرض من الأعراض، إذا نطقنا به فإنا لا نشاهد الكلمات التي نتكلم بها تخرج ويراها من يراها، فهو عرضٌ تكلم الله تعالى به، وليس بمخلوق.

وإذا قلتم: إنه كلام خلقه الله في غيره، لزمكم أن كل ما يتكلم به الناس فهو كلام الله خلقه في غيره، يعني: خلقه بألسنة الناس وبقلوبهم، فما ينطقون به فهو من كلام الله.

وقد طرد ذلك كثير من الملاحدة الذين يقال لهم: أهل الاتحاد، حتى استدل بعضهم بقول قائلهم، وهو ابن عربي:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ   سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ

فجعلوا كل ما ينطق به الناس كلام الله، ولو كان كفراً، أو شعرًا، أو هجاءً، أو سخريةً، أو ما أشبه ذلك، تعالى الله عن قولهم.

فلما بطلت هذه الثلاثة ما بقي إلا أنه كلام الله ليس بمخلوق.

قال الشارح:

وَعُمُومُ (كُلٍّ) فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِهِ، وَيُعْرَفُ ذَلِكَ بِالْقَرَائِنِ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وَمَسَاكِنُهُمْ شَيْءٌ، وَلَمْ تَدْخُلْ فِي عُمُومِ كُلِّ شَيْءٍ دَمَّرَتْهُ الرِّيحُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُرَادَ: تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ يَقْبَلُ التَّدْمِيرَ بِالرِّيحِ عَادَةً وَمَا يَسْتَحِقُّ التَّدْمِيرَ. وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ بِلْقِيسَ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، الْمُرَادُ: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ، وَهَذَا الْقَيْدُ يُفْهَمُ مِنْ قَرَائِنِ الْكَلَامِ؛ إِذْ مُرَادُ الْهُدْهُدِ أَنَّهَا مَلِكَةٌ كَامِلَةٌ فِي أَمْرِ الْمُلْكِ، غَيْرُ مُحْتَاجَةٍ إِلَى مَا يَكْمُلُ بِهِ أَمْرُ مُلْكِهَا، وَلِهَذَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ.

وَالْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، أَيْ: كُلُّ شَيْءٍ مَخْلُوقٍ، وَكُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى اللَّهِ فَهُوَ مَخْلُوقٌ، فَدَخَلَ فِي هَذَا الْعُمُومِ أَفْعَالُ الْعِبَادِ حَتْمًا، وَلَمْ يَدْخُلْ فِي الْعُمُومِ الْخَالِقُ تَعَالَى، وَصِفَاتُهُ لَيْسَتْ غَيْرَهُ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْمَوْصُوفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَصِفَاتُهُ مُلَازِمَةٌ لِذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ، لَا يُتَصَوَّرُ انْفِصَالُ صِفَاتِهِ عَنْهُ، كَمَا تَقَدَّمَ الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى عِنْدَ قَوْلِهِ: (مَا زَالَ قَدِيمًا بِصِفَاتِهِ قَبْلَ خَلْقِهِ). بَلْ نَفْسُ مَا اسْتَدَلُّوا بِهِ يَدُلُّ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، مَخْلُوقًا، لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا.

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، فَمَا أَفْسَدَهُ مِنِ اسْتِدْلَالٍ! فَإِنَّ (جَعَلَ) إِذَا كَانَ بِمَعْنَى (خَلَقَ) يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ

وَاحِدٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠، ٣١]. وَإِذَا تَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ لَمْ يَكُنْ بِمَعْنَى خَلَقَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل:٩١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر:٩١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء:٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء:٣٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف:١٩]، وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ، فَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣].

قال الشيخ:

هذا مِمَّا استدلوا به وتقدم نقضُه.

الدليل الأول: أنهم استدلوا بعموم ﴿كُلِّ﴾، في قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦]، فقال بشر المريسي لعبدالعزيز الكناني: إن قلت: إن كلام الله شيء خصمناك؛ لأنه داخل في هذه الآية، وإن قلت: إنه ليس بشيء ضللت وكفرت، وذلك لأن المحسوسات داخلة في ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾. ولكن بشرًا لَـمَّا قال

هذا اعتقد أنه قد غلب الكناني، وأنه ظهر عليه بالحجة، فقال له الكناني: ما أمرتك بأن تجيب على الآية، دعني أتولَّى الجواب، فقال: إن القرآن شيءٌ لا كالأشياء، التي أريد في هذه الآية. هذا جواب.

والجواب الثاني: هو أن كلمة (كل) قد ترد عامَّة، ولكن بحسب ما يُراد منها، لا أنها يدخل فيها كل الأشياء.

وقد استدل الشارح بدليلين:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥]، يحكي الله تعالى عن الريح التي أرسلها على عاد أنها تدمر كل شيء، ومع ذلك مساكنهم أصبحت موجودةً ما دمّرتها، فدلّ على أن كلمة (كل شيء)، يراد بها كل شيء يقبل التدمير.

والدليل الثاني: قوله تعالى - في قصة بلقيس ملكة اليمن -: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٢٣]، ومعلوم أن هناك أشياء لم تؤت منها؛ كالذي أُوتِي سليمانُ، فإنه أوتي ذلك الصرح، والريح التي غدُوّها شهرٌ ورواحها شهر، وسُخّرت له الشياطين كل بناءٍ وغواص، ومع ذلك ما أوتيت مثل ذلك وهي في زمنه، وما تجاوز ملكها جهتها التي هي بها، فإذًا أوتيت من كل شيءٍ عام، ولكنه مخصوص بما يؤتاه مثلها. فعرف أن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، يراد به كلُّ شيء من المخلوقات، ولا يدخلُ في ذلك ذاته الكريمة، وكذلك لا يدخل فيه صفاته؛ كعلمه وسمعه وبصره، فإنها من جملة ذاته، وكذلك

كلامه، فإنه صفة من صفاته، فلا يدخل في عموم الكل، هذا توجيه الدليل الأول.

أما الدليل الثاني الذي استدلوا به والشبهة التي تشبّثوا بها فهي: قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف:٣]، فقالوا: جعلنا بمعنى خلقنا، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام:١]، يعني: خلق الظلمات والنور.

والجواب عن هذه الآية ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾، ما أورده الشارح الشارح، وهو جواب واضحٌ؛ إذ يقول: كلمة (جعل) تأتي متعديةً إلى مفعولٍ واحدٍ، وتأتي متعديةً إلى مفعولين، فإذا كانت متعدية إلى مفعول واحد فهي بمعنى خلق، كما في هذه الآيات التي استدل بها، فإن قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبأ:٩-١١]، هذه بمعنى خلق، وكذلك قوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾، وأما إذا تعدّت إلى مفعولين، فهي بمعنى صيّر، وليست بمعنى خلق، فمنه هذه الآية: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾، يعني: صيّرناه قرآنًا عربيًا، ليست بمعنى خلق، ومنه الآيات التي استدل بها الشارح، وهي كثيرة، فإن قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٤]، هل معناها لا تخلقوا الله؟! وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ [الزخرف:١٩]، هل معناه:

خلقوا الملائكة ؟! المعنى: صيَّروا الملائكة، وكذلك قوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء:٢٩]، ليس معناه: لا تخلق يدك مغلولةً، بل معناها: لا تصيِّر... وهكذا بقية الآيات.

فهاتان شبهتان لا مستند للمعتزلة بالتعلُّق بهما.

قال الشارح:

وَمَا أَفْسَدَ اسْتِدْلَالَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الشَّجَرَةِ، فَسَمِعَهُ مُوسَى مِنْهَا! وَعَمُوا عَمَّا قَبْلَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَمَا بَعْدَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾، وَالنِّدَاءُ هُوَ الْكَلَامُ مِنْ بُعْدٍ، فَسَمِعَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - النِّدَاءَ مِنْ حَافَّةِ الْوَادِي، ثُمَّ قَالَ: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾، أَيْ: أَنَّ النِّدَاءَ كَانَ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ عِنْدِ الشَّجَرَةِ، كَمَا تَقُولُ: سَمِعْتُ كَلَامَ زَيْدٍ مِنَ الْبَيْتِ، يَكُونُ (مِنَ الْبَيْتِ) لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ، لَا أَنَّ الْبَيْتَ هُوَ الْمُتَكَلِّمُ! وَلَوْ كَانَ الْكَلَامُ مَخْلُوقًا فِي الشَّجَرَةِ لَكَانَتِ الشَّجَرَةُ هِيَ الْقَائِلَةُ: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وَهَلْ قَالَ: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، غَيْرُ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟ وَلَوْ كَانَ هَذَا الْكَلَامُ بَدَا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ لَكَانَ قَوْلُ فِرْعَوْنَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، صِدْقًا؛ إِذْ كُلٌّ مِنَ الْكَلَامَيْنِ عِنْدَهُمْ مَخْلُوقٌ قَدْ قَالَهُ غَيْرُ اللَّهِ! وَقَدْ فَرَّقُوا بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ عَلَى أُصُولِهِمُ الْفَاسِدَةِ: أَنَّ ذَاكَ كَلَامٌ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي الشَّجَرَةِ، وَهَذَا كَلَامٌ خَلَقَهُ فِرْعَوْنُ!! فَحَرَّفُوا وَبَدَّلُوا وَاعْتَقَدُوا خَالِقًا غَيْرَ اللَّهِ. وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى مَسْأَلَةِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

وهذا دليل مِمَّا استدلوا به، وهي شبهة داحضة، فقد استدلوا بقوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾[القصص:٣٠]، قالوا: إن موسى سمع الصوت من الشجرة!! فالشجرة هي التي تكلَّمت!! أو خلق الله الكلام في الشجرة!! فلذلك قالوا: إن كلام الله مخلوق. وهذا قول بعيد.

ويقول المؤلف: إنهم عموا عما قبل الآية وما بعدها؛ فإن قوله: ﴿نُودِيَ﴾؛ النداء يكون بصوت مسموع، وهذا مما يُستدل به على أن الله تعالى متكلِّمٌ؛ لأنه أثبت لنفسه النداء في عدة آيات، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾[الشعراء:١٠]، وقال: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[النازعات:١٦]، وقال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، وقال: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف:٢٢]، وقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ [فصلت: ٤٧] ... ونحو ذلك، فالنداء من الله يكون بكلام مسموع.

فإذًا قوله تعالى: ﴿نُودِيَ﴾، يعني: ناداه ربُّه بكلام سمعه، وأما قوله: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾، يعني: أنه نودي وهو في البقعة المباركة التي ذكرها الله بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:١٢]، هذه البقعة ذكر الله

أنها مباركة، ثم قال: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، يعني: سمع الصوت من جهة الشجرة، لا أن الشجرة هي التي نطقت، وإنما سمع الصوت من جهتها، ورأى تلك النار وقال: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾، يعني: رأى نارًا وضوءًا يشتعل عند تلك الشجرة، فظن أنه نارٌ، فذهب ليأتي من النار بشعلة أو جمرة لأهله لعلهم يصطلون، وكان ذلك من شدة البرد، فقال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾[طه: ١٠]، فلما جاء إلى الشجرة سمع هذا النداء، وفي ذلك النداء قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ١٤ ـ ١٨].

كل هذا تكلم الله به وسمعه موسى عليه السلام، ولأجل ذلك يُسمى موسى ـ عليه السلام ـ: كليم الله، بمعنى: أن الله كلّمه وأسمعه كلامه، وليست الشجرة هي التي نطقت بذلك، وإنما سمع الصوت من جهة الشجرة، يعني جاء من تلك الجهة، فهو كما يقول القائل: كلّمني زيد من الدار، يعني: أنَّ الصوت خرج من الدار، لا أن الدار هي التي نطقت.

فإذًا هذا دليلٌ بعيد أن يُتعلَّق به، وهو من جملة أدلتهم الباطلة.

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، [التكوير: ١٩]، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ أَحْدَثَهُ، إِمَّا جِبْرِيلُ أَوْ مُحَمَّدٌ.

قِيلَ: ذِكْرُ الرَّسُولِ مُعَرِّفٌ أَنَّهُ مُبَلِّغٌ عَنْ مُرْسِلِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: إِنَّهُ قَوْلُ مَلَكٍ أَوْ نَبِيٍّ، فَعُلِمَ أَنَّهُ بَلَّغَهُ عَمَّنْ أَرْسَلَهُ بِهِ، لَا أَنَّهُ أَنْشَأَهُ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ.

وَأَيْضًا: فَالرَّسُولُ فِي إِحْدَى الْآيَتَيْنِ جِبْرِيلُ، وَفِي الْأُخْرَى مُحَمَّدٌ، فَإِضَافَتُهُ إِلَى كُلٍّ مِنْهُمَا تُبَيِّنُ أَنَّ الْإِضَافَةَ لِلتَّبْلِيغِ؛ إِذْ لَوْ أَحْدَثَهُ أَحَدُهُمَا امْتَنَعَ أَنْ يُحْدِثَهُ الْآخَرُ.

وَأَيْضًا: فَقَوْلُهُ رَسُولٌ أَمِينٌ[1]، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَزِيدُ فِي الْكَلَامِ الَّذِي أُرْسِلَ بِتَبْلِيغِهِ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ، بَلْ هُوَ أَمِينٌ عَلَى مَا أُرْسِلَ بِهِ، يُبَلِّغُهُ عَنْ مُرْسِلِهِ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ كَفَّرَ مَنْ جَعَلَهُ قَوْلَ الْبَشَرِ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ بَشَرٌ، فَمَنْ جَعَلَهُ قَوْلَ مُحَمَّدٍ - بِمَعْنَى أَنَّهُ أَنْشَأَهُ - فَقَدْ كَفَرَ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ قَوْلُ

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على هذا الشرح (ص١١٤): «الآية التي ذكرها الشارح ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، جاءت مرتين: في سورة الحاقة: (٤٠)، وليس فيها بعدها الوصف بلفظ (آمين)، والأخرى في سورة التكوير: (١٩)، ثم بعدها: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾، فتعبير الشارح بقوله: (وأيضًا فقوله: رسول أمين)، فيه شيء من التساهل، لم يرد به حكاية التلاوة، وإنما أراد المعنى فقط. ولو قال: وأيضًا فوصف الرسول بأنه أمين.. كان أدق وأجود».

بَشَرٍ، أَوْ جِنِّيٍّ، أَوْ مَلَكٍ، وَالْكَلَامُ كَلَامُ مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لَا مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا، وَمَنْ سَمِعَ قَائِلًا يَقُولُ:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمُنْزِلِ...

قَالَ: هَذَا شِعْرُ امْرِئِ الْقَيْسِ.

وَمَنْ سَمِعَهُ يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[1]، قَالَ: هَذَا كَلَامُ الرَّسُولِ، وَإِنْ سَمِعَهُ يَقُولُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٢ - ٥]، قَالَ: هَذَا كَلَامُ اللَّهِ، إِنْ كَانَ عِنْدَهُ خَبَرُ ذَلِكَ، وَإِلَّا قَالَ: لَا أَدْرِي كَلَامُ مَنْ هَذَا؟ وَلَوْ أَنْكَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ذَلِكَ لَكَذَّبَهُ. وَلِهَذَا مَنْ سَمِعَ مِنْ غَيْرِهِ نَظْمًا أَوْ نَثْرًا، يَقُولُ لَهُ: هَذَا كَلَامُ مَنْ؟ هَذَا كَلَامُكَ أَوْ كَلَامُ غَيْرِكَ؟

قال الشيخ:

قد يعترض معترض بهذه الآيات التي في سورة الحاقة، وهي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٢]، وبالآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١]، فالرسول ها هنا هو جبريل

---

(١) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب ﵁.

الذي بلغه عن الله، فمعنى قوله: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾، يعني: تبليغ رسول، ونأخذ من كلمة (رسول) أنه لم يُنْشئه ولم يقُلْه من نفسه، وإنما بلَّغه؛ لأنه مرسل، والرسول: هو الذي يحمل رسالةً من غيره، وكل من حمل كلامًا أو كتابًا فإنه يسمى رسولًا؛ تقول: أرسلتُ خادمي بكذا وكذا، أو يأتيكم رسولي، أي: منتدَبي، فالرسول هو الذي يحمل رسالة.

فهذا القرآن قول رسول، يعني: قولٌ جاء به رسولٌ أُرسلَ به، ذلك الرسول الذي ذكر في هذه الآيات هو جبريل عليه السلام، يُبين ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٣ ـ ١٩٤]، فهكذا قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩ ـ٢١]، فوصف بأنه أمين في الموضعين، ويُؤخذُ من ذلك أنه مأمون على ما أُرسل به، لا يدخل فيه زيادة ولا نقص ولا أيّ نوع من التغيير؛ بل يبلغه كما هو دون أي تحريف أو تغيير.

فإذًا لا متعلق بهذه الآية، بل الآية واضحة في أنه بلغه عمن أرسله، وهو الله سبحانه وتعالى.

ثم يقول الشارح: (وَالْكَلَامُ كَلَامُ مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لَا مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا)، وكلام الله الذي بلغه هو الرسول، سواء كان جبريل أو محمدًا، فإنما منه التبليغ، وقد ذكر الله ذلك في عدة آيات، كقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [النور: ٥٤]، وقوله: ﴿بَلِّغْ

﴿ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

فالتبلغ معناه: إيصالُ ما بُعِث به إلى المرسل إليه كما هو دون نقص أو تغيير. فإذًا هو بلّغه، نشهد بأنه بلَّغ ما أُرسل به إلى هذه الأمه، وأن الأمة قد حفظته، ونقول كما قال الشارح: (**وَالْكَلَامُ كَلَامُ مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لَا مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا**)، فالكلام كلامُ الله - جل وعلا - وتبليغ جبريل عليه السلام، يعني: نزل به جبريل، وقد قرأه وعلمه للأمة محمدٌ ﷺ، فهو كلام الله، ولا يضاف إلى من بلّغه.

واستدل الشارح - رحمه الله - على أن الكلام يُضاف إلى من ابتدأه بقولنا إذا سمعنا من ينشد: قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمُنْزِلِ -: هذا كلام امرئ القيس، ولا نقول هذا كلامك أيها المتكلم، وإذا سمعناك تقول - مثلًا -: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»، هل نقول: هذا كلامك أيها المتكلم؟ نقول: هذا كلام الرسول ﷺ، نعرف أنه أول من قال هذا.

وإذا سمعنا من يقرأ: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ١، ٢]، ونحن نعرف أنه كلام الله، فنقول: هذا كلامُ الله، وليس كلامك أيها المتكلم، إنما أنت مبلِّغ، لا أنك مبتدئ.

فإذًا القرآن كلام الله - جل وعلا - وتبليغ رسوله ﷺ.

قال الشارح:

وَبِالجُمْلَةِ، فَأَهْلُ السُّنَّةِ كُلُّهُمْ، مِنْ أَهْلِ المَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ السَّلَفِ وَالخَلَفِ، مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَلَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ تَنَازَعَ المُتَأَخِّرُونَ فِي أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ هَلْ هُوَ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِالذَّاتِ، أَوْ أَنَّهُ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَكَلِّمًا، أَوْ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ وَمَتَى شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ، وَأَنَّ نَوْعَ الْكَلَامِ قَدِيمٌ.

وَقَدْ يُطْلِقُ بَعْضُ المُعْتَزِلَةِ عَلَى الْقُرْآنِ أَنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَمُرَادُهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُخْتَلَقٍ مُفْتَرًى مَكْذُوبٌ، بَلْ هُوَ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا المَعْنَى مُنْتَفٍ بِاتِّفَاقِ المُسْلِمِينَ.

وَالنِّزَاعُ بَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ إِنَّمَا هُوَ فِي كَوْنِهِ مَخْلُوقًا خَلَقَهُ اللَّهُ، أَوْ هُوَ كَلَامُهُ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ وَقَامَ بِذَاتِهِ؟ وَأَهْلُ السُّنَّةِ إِنَّمَا سُئِلُوا عَنْ هَذَا، وَإِلَّا فَكَوْنُهُ مَكْذُوبًا مُفْتَرًى مِمَّا لَا يُنَازِعُ مُسْلِمٌ فِي بُطْلَانِهِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ مَشَايِخَ المُعْتَزِلَةِ ـ وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ ـ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اعْتِقَادَهُمْ فِي التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ وَالْقَدَرِ لَمْ يَتَلَقَّوْهُ لَا عَنْ كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ، وَلَا عَنْ أَئِمَّةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَإِنَّمَا يَزْعُمُونَ أَنَّ عَقْلَهُمْ دَلَّهُمْ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ تَلَقَّوْا مِنَ الْأَئِمَّةِ الشَّرَائِعَ.

وَلَوْ تُرِكَ النَّاسُ عَلَى فِطَرِهِمُ السَّلِيمَةِ وَعُقُولِهِمُ المُسْتَقِيمَةِ، لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ نِزَاعٌ، وَلَكِنْ أَلْقَى الشَّيْطَانُ إِلَى بَعْضِ النَّاسِ أُغْلُوطَةً مِنْ أَغَالِيطِهِ، فَرَّقَ بِهَا بَيْنَهُمْ، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة:١٧٦].

قال الشيخ:

تقدم - عند سياق اختلاف الأمة في القرآن هل هو كلام الله - أن هناك فرقة قالوا: كلام الله معنى واحد قائم بذاته، وهذا قول الأشعرية والماتريدية، ولهذا قالوا: إنه معنى واحد يُعبَّر عنه مثلًا بالعبرية فيصير توراة، وبالسريانية فيصير إنجيلًا، وبالعربية فيصير قرآنًا، وهو معنى واحد. هذا قول باطل.

ويقولون أيضًا: إن كلام الله تعالى هو المعنى لا اللفظ، ولهم أدلّة ربما يأتي نقاشٌ حولها.

وهناك قول ثانٍ للمبتدعة - أيضًا -: أن كلام الله حروف وأصوات تكلَّم بها بعد أن لم يكن متكلمًا، وهذا أيضًا خطأ، فإن الله تعالى لم يزل موصوفًا بأنه متكلم، ويتكلم إذا شاء. وقول أهل السنة: إن كلام الله قديمُ النوع حادثُ الآحاد، وأنه لم يزل متكلمًا، ويتكلم إذا شاء، وأن القران من كلامه، وأن الكلام لله صفة مدح وليس هو مخلوقًا، كما أن صفاته ليست مخلوقةً، علمه وقدرته وإرادته وحلمه ورحمته، وكذلك صفاته الذاتية: سمعه، وبصره، كل ذلك منسوب إليه ومضافٌ إليه، وليس شيء من ذلك مخلوقًا.

وقد تقول المعتزلة: إن القرآن غير مخلوق، ولكنهم لا يقولون: القرآن كلام الله، بل يقفون عند القول الأول وهو: القرآن غير مخلوق، ولكن هذه العبارة يعبِّرون بها عن معنى صحيح يوافق عليه كل أحد، وهو أنهم يعنون أنه غير مفترى ولا مختلَق ولا مكذوب. وأن محمدًا ﷺ لم يكن اختلقه ولا افتراه،

وهم يتسترون وراء هذا القول، وإلا فإنهم يعتقدون أن الله تعالى خلقه كما خلق سائرَ المخلوقات.

فإذا عرفنا مثل هذه الأقوال بقي أن يعتقد كل مسلم بأن القرآن الذي أنزله الله تعالى هو كلامه، وأنه صفة كمال، وأنه معجز بذاته، وأنه ليس بمخلوق، ولا شيء من صفات الله مخلوقة، ويعتقد أن أهل السنة مجمعون -الصحابة والسلف- على أن القرآن كلام الله تكلم به، وأنه من جملة كلامه، وأنزله وحيًا، وجعله معجزةً لهذا النبي خالدة باقية ما شاء الله أن تبقى، ما دام يُعمل به، منزَّلٌ غيرُ مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، بدأ منه قولًا، وإليه يعود، أي: يُرفَع في آخر الزمان، عندما يقلُّ العمل به.

هذا قول أهل السنة، ولا عبرة بالأقوال الشاذّة المبتدعة التي خالفت هذا القول.

قال الشارح:

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ كَلَامُ الطَّحَاوِيِّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ، وَأَنَّ نَوْعَ كَلَامِهِ قَدِيمٌ. وَكَذَلِكَ ظَاهِرُ كَلَامِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فِي «الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ»، فَإِنَّهُ قَالَ: «وَالْقُرْآنُ فِي الْمَصَاحِفِ مَكْتُوبٌ، وَفِي الْقُلُوبِ مَحْفُوظٌ، وَعَلَى الْأَلْسُنِ مَقْرُوءٌ، وَعَلَى النَّبِيِّ ﷺ مُنَزَّلٌ، وَلَفْظُنَا بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ، وَكِتَابَتُنَا لَهُ مَخْلُوقَةٌ، وَقِرَاءَتُنَا لَهُ مَخْلُوقَةٌ، وَالْقُرْآنُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَمَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ حِكَايَةً عَنْ مُوسَى ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَعَنْ فِرْعَوْنَ وَإِبْلِيسَ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَلَامُ اللَّهِ إِخْبَارًا عَنْهُمْ، وَكَلَامُ مُوسَى وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ مَخْلُوقٌ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ لَا كَلَامُهُمْ، وَسَمِعَ مُوسَى ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمَّا كَلَّمَ مُوسَى كَلَّمَهُ بِكَلَامِهِ الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِهِ لَمْ يَزَلْ، وَصِفَاتُهُ كُلُّهَا خِلَافُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، يَعْلَمُ لَا كَعِلْمِنَا، وَيَقْدِرُ لَا كَقُدْرَتِنَا، وَيَرَى لَا كَرُؤْيَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُ لَا كَكَلَامِنَا». انْتَهَى[1].

فَقَوْلُهُ: (وَلَمَّا كَلَّمَ مُوسَى كَلَّمَهُ بِكَلَامِهِ الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِهِ)، يُعْلَمُ مِنْهُ أَنَّهُ حِينَ جَاءَ كَلَّمَهُ، لَا أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ أَزَلًا وَأَبَدًا يَقُولُ: يَا مُوسَى، كَمَا يُفْهَمُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فَفُهِمَ مِنْهُ الرَّدُّ عَلَى مَنْ يَقُولُ مِنْ أَصْحَابِهِ: إِنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِالنَّفْسِ،

---

(١) انظر: الفقه الأكبر، بشرح د. محمد الخميس (ص٢٠ ـ ٢٤).

لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُسْمَعَ، وَإِنَّمَا يَخْلُقُ اللَّهُ الصَّوْتَ فِي الْهَوَاءِ، كَمَا قَالَ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ وَغَيْرُهُ.

وَقَوْلُهُ: (الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِهِ)، لَمْ يَزَلْ رَدٌّ عَلَى مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ حَدَثَ لَهُ وَصْفُ الْكَلَامِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَكَلِّمًا.

قال الشيخ:

نقل الشارح هنا كلام أبي حنيفة؛ لأنه حنفي المذهب، والماتن، الذي هو الطحاوي، حنفي أيضًا، والعقيدة مشهورة عند الحنفية، ولكن أكثر المتأخرين من الحنفية مالوا في باب الاعتقاد، وفيما يتعلق بالأسماء والصفات، وفيما يتعلق بالإيمان، وفيما يتعلق بالقرآن، انحرفوا بسبب من قرؤوا عليه من الأشاعرة ونحوهم، ولكن الشارح ـ رحمه الله ـ كان على عقيدةٍ سلفيةٍ، تلقَّاها عن مشايخه الذين أخلصوا له في التعليم، وحَسُنَ اعتقاده، فاحتج على أهل ذلك المذهب بأقوال من يحترمونهم، فهذا الطحاوي ـ رحمه الله ـ حنفي وكلامه واضح في أنَّ الربَّ سبحانه وتعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء.

وهذا أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ إمام المذهب قوله صريح في إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى، وفي الاستدلال على ذلك بأن الله كلَّم موسى، وأن موسى ـ عليه السلام ـ سمع كلام الله منه إليه، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾

[الأعـــــراف:١٤٣]، وقـــــال: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف:١٤٤]، وكذلك ناداه وناجاه: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، والنداء لا يكون إلا بكلام، والمناجاة ـ التي هي كلامٌ خفيٌّ بين اثنين ـ لا تكون إلا بكلام. وكل ذلك استدل به أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ على أن الله تعالى هو الذي تكلم بهذا القرآن، وأنه لم يزل متكلمًا، ويكلم من يشاء.

واستدل أيضًا بأن ما في القرآن من حكاية كلام الأمم أو كلام الرسل أو غيرهم، هو عينُ كلام الله، فنحن نقول: قال الله تعالى عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٦، ٣٧]، هذا كلام الله حكاه عن فرعون. كذلك نقول: قال الله تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[ص:٨٢، ٨٣]، ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦]، هذا كلام الله، حكاه عن إبليس.

فكلام الله قديم النوع، أي: أنه سبحانه يتكلم قبل أن يقع كلام إبليس، وكلام فرعون، وكلام قوم نوح لنوحٍ في قولهم: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[هود:٣٢]، وكذلك كلام بقية الأمم. لكن لا يُفهم من ذلك أن الله تعالى لم يزل ولا يزال أزلًا وأبدًا يقول: يا موسى، أو يا نوح، إنما تكلم بهذا الكلام الذي يحكي فيه كلام إبليس، وكلام

فرعون، وكلام قوم نوح، وغيرهم من الأمم، بعدما تكلموا به؛ لأن كلامهم مخلوق، بل الإنسان في جميع حركاته مخلوق، والله هو الذي خلقه وخلق حركاته، وهو الذي يحرك شفتيه ويحرك لسانه، وهو الذي أنطقه بذلك، كما تنطق في الآخرة الجلود والأيدي والأرجل، فالإنسان بجميع ما يُنسبُ إليه مخلوق.

أما الرب تعالى بجميع صفاته، فإنه ليس بمخلوق، بل صفاته كلها مضافة إليه من ذاته، ولا يجوز القول بأن شيئًا من صفاته مخلوق، ولا أنه حادث بعد أن لم يكن.

وتقدم أن صفاته قديمةٌ، لكن يُقال في الكلام: إنه قديمُ النوعِ، حادث الآحاد، بمعنى: أنه لم يزل متكلمًا، ويتكلم إذا شاء.

قال الشارح:

وَبِالجُمْلَةِ: فَكُلُّ مَا تَحْتَجُّ بِهِ المُعْتَزِلَةُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَلَامٌ مُتَعَلِّقٌ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ، وَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، فَهُوَ حَقٌّ يَجِبُ قَبُولُهُ. وَمَا يَقُولُ بِهِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ كَلَامَ اللهِ قَائِمٌ بِذَاتِهِ، وَأَنَّهُ صِفَةٌ لَهُ. وَالصِّفَةُ لَا تَقُومُ إِلَّا بِالمَوْصُوفِ: فَهُوَ حَقٌّ يَجِبُ قَبُولُهُ وَالْقَوْلُ بِهِ. فَيَجِبُ الْأَخْذُ بِمَا فِي قَوْلِ كُلٍّ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ مِنَ الصَّوَابِ، وَالْعُدُولِ عَمَّا يَرُدُّهُ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ مِنْ قَوْلِ كُلٍّ مِنْهُمَا.

فَإِذَا قَالُوا لَنَا: فَهَذَا يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ الحَوَادِثُ قَامَتْ بِهِ. قُلْنَا: هَذَا الْقَوْلُ مُجْمَلٌ، وَمَنْ أَنْكَرَ قَبْلَكُمْ قِيَامَ الحَوَادِثِ بِهَذَا المَعْنَى بِهِ تَعَالَى مِنَ الْأَئِمَّةِ؟ وَنُصُوصُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ تَتَضَمَّنُ ذَلِكَ، وَنُصُوصُ الْأَئِمَّةِ أَيْضًا، مَعَ صَرِيحِ الْعَقْلِ.

قال الشيخ:

مفهوم كلام الشارح أننا نقبل ما في أقوالهم من الحق، ونردُّ الباطل، فإذا قالوا: إن كلام الله تعالى صفةٌ قائمةٌ بذاته، قلنا: إن هذا صحيح، ولكن قولهم إنه معنى واحدٌ، لا نوافقهم عليه؛ وذلك لأن فيه ذكر الجنة وفيه ذكر النار، وكونه معنى واحدًا لا يكون بين آية الوعد والوعيد فرق، وكذلك فيه ذكر العذاب وفيه ذكر الرحمة، وإذا كان معنى واحدًا لم يكن بين هذه الآية وهذه الآية فرق، فإذًا لا يوافقُون على أنه معنى واحد، ولكن يوافقون على أنه قائم

بذاته، كما أن سائر الصفات قائمة بالموصوف، لا يعقل صفة إلا وهي قائمةٌ بالموصوف، البياض مثلًا لا بدّ أن يكون قائمًا بشيء أبيضَ، فلا يوجد منفصلًا، ولا يُنتزعُ البياضُ من هذا النور ويُقبض عليه، ويقال هذا البياض، كذلك الحُمرة أو السواد؛ لابدّ أن تقوم بجرم يوصف بأنه أحمر أو أسود، فكذلك الصفات، فالسمع لا بدّ أن يقوم بمن يسمع، والكلام لا بدّ أن يقوم بمن يتكلم.

فإذًا الصفات نوافق بأنها قائمة بذاته جل وعلا، ولكن قولهم مثلًا: إننا إذا قلنا: إنه يتكلم، وإنه يعلم ويقدر، يكون ذلك سببًا لكون الحوادث تقوم به. هذه أكبر شبهة يتشبَّثُون بها، فيرمون أهل السنة بأنهم يقولون بأن الحوادث تقوم بذاتِ الله، على معتقدهم أن الله تعالى بذاته وبأفعاله قديم، وأنه لا يَحدُثُ منه شيء بعد أن لم يحدث وهذا خطأ، بل الله تعالى يُحدِثُ ما يشاء، فيسمع ما يحدث بعد أن لم يكن حادثًا، يسمع الأصوات التي حدثت بعد أن لم تحدث، ويرى الأشخاص الذين تجدد خلقهم بعد أن لم يكن متجددًا، والرؤية هذه جنسها قديم، وهي حادثة، فيقال: صفة البصر لله تعالى قديمة، ولكن هذا الإبصار حادث، ولا يلزم قيام الحوادث بذات الله.

قال الشارح:

وَلَا شَكَّ أَنَّ الرُّسُلَ الَّذِينَ خَاطَبُوا النَّاسَ وَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَالَ وَنَادَى وَنَاجَى وَيَقُولُ، لَمْ يُفْهِمُوهُمْ أَنَّ هَذِهِ مَخْلُوقَاتٌ مُنْفَصِلَةٌ عَنْهُ، بَلِ الَّذِي أَفْهَمُوهُمْ إِيَّاهُ: أَنَّ اللَّهَ نَفْسَهُ هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ، وَالْكَلَامُ قَائِمٌ بِهِ لَا بِغَيْرِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ وَقَالَهُ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ: «وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِوَحْيٍ يُتْلَى»(١). وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ خِلَافَ مَفْهُومِهِ لَوَجَبَ بَيَانُهُ، إِذْ تَأْخِيرُ الْبَيَانِ عَنْ وَقْتِ الْحَاجَةِ لَا يَجُوزُ.

وَلَا يُعْرَفُ فِي لُغَةٍ وَلَا عَقْلٍ قَائِلٌ مُتَكَلِّمٌ لَا يَقُومُ بِهِ الْقَوْلُ وَالْكَلَامُ، وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ فَرُّوا مِنْ ذَلِكَ حَذَرًا مِنَ التَّشْبِيهِ، فَلَا يُثْبِتُوا صِفَةً غَيْرَهُ، فَإِنَّهُمْ إِذَا قَالُوا: يَعْلَمُ لَا كَعِلْمِنَا، قُلْنَا: وَيَتَكَلَّمُ لَا كَتَكَلُّمِنَا، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الصِّفَاتِ.

وَهَلْ يُعْقَلُ قَادِرٌ لَا تَقُومُ بِهِ الْقُدْرَةُ، أَوْ حَيٌّ لَا تَقُومُ بِهِ الْحَيَاةُ؟ وَقَدْ قَالَ ﷺ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ»(٢)، فَهَلْ يَقُولُ عَاقِلٌ: أَنَّهُ ﷺ عَاذَ بِمَخْلُوقٍ؟ بَلْ هَذَا كَقَوْلِهِ: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ»(٣)، وَكَقَوْلِهِ: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٧٢٦)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٨)، وابن عبدالبر في التمهيد (٢٤/ ١١٢) من حديث ابن مسعود ﷺ، وأخرجه أحمد (٣/ ٤١٩)، وابن أبي شيبة (٥/ ٥١) من حديث عبد الرحمن بن خنبش ﷺ.

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٤٤٠).

أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»(١)، وَكَقَوْلِهِ: «وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ نُغْتَالَ مِنْ تَحْتِنَا»(٢). كُلُّ هَذِهِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى.

وَهَذِهِ المَعَانِي مَبْسُوطَةٌ فِي مَوَاضِعِهَا، وَإِنَّمَا أُشِيرُ إِلَيْهَا هُنَا إِشَارَةً.

قال الشيخ:

يتكلم الشارح عن قولهم: إنكم تقولون: إن الحوادث تقوم بذات الله، وأن هذا تنقُّصٌ لله؛ لأنكم جعلتم صفاته حادثةً، أو الحادث يقوم به، وذلك لأنَّ أخصَّ الصفات عند المعتزلة هي صفة القِدم، فيمتنعون عن إثبات شيءٍ متجدِّد، فيقولون: إذا أثبتنا أنَّ الله متكلِّم الآن صار الكلام متجددًا، وصار قائمًا بالذات، وإذا أثبتنا أنه يعلم، صار هذا العلم جديدًا بعد أن لم يكن موجودًا وهكذا قولهم.

فيرد عليهم بأنه لا تُعقَلُ صفةٌ قائمة بذاتها، بل لا بد أن تكون الصفةُ قائمةً بالموصوف، فلا تقوم صفة بغير موصوف أبدًا.

وفي هذه الأزمنة يوجد شيء قد يتعلقون به، فمثلًا الأشرطة التي تحفظ الكلام وتسجله معلوم أنها لا تنطق بنفسها، وإنما تحفظ كلامًا قد تكلم به إنسان، فتعيده بلهجته، فيقال: هذا صوت فلان، وهذا كلام فلان تكلم به

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٤٠)

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٤٠).

وحُفِظ، قام هذا الكلام بهذا الشريط مثلًا بعد أن قام بالتكلم، فالكلام صدر من متكلِّم، ولم يكن صادرًا من غير متكلم، كذلك ـ مثلًا ـ الأشرطة الضوئية أو الأفلام التي تسجل الأشخاص والحركات، إذا رؤي فيها شخص قيل: هذا فلان وهذه حركته، ولا يقال: إن هذه الحركة قامت بنفسها، ولا أنه ليس هناك حركة بغير متحرك. فلا تكون حركة إلا من متحرك، ولا يكون سمع إلا من سميع، ولا يكون قول إلا من قائل.

وبهذا يُعرَف أن كلام الله تعالى ليس بمخلوق، ومن الأدلة على ذلك: أن الرسول ﷺ استعاذ بكلام الله في قوله: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ**»، وكذلك قوله: «**أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**»، وكذلك قوله: «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ**»، وقوله: «**أَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ**»، وقوله: «**أَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ**»، كل ذلك استعاذة بصفة من صفات الله، لا يلزم منه أنه استعاذ بمخلوق، فعُرف بذلك أن هذه الصفات قائمةٌ بالموصوف، لا يمكن أن تنفصلَ بنفسها، فلا يمكن أن يوجد كلام إلا من متكلم قام بذلك الكلام، ولا نقص في ذلك ولا حادث.

ولا يُقال ـ كما تقول المعتزلة ـ إنه بذلك تقوم به الحوادث، بل يقال: هو الذي يفعل الأشياء وتحدث بعد أن لم تكن حادثةً، وهو سبحانه عالم بذلك كلِّه قبل أن يُوجد، وعالم بما سيحدث، وعالم بما تكلَّم به وما سوف يتكلم به، فلا يقال: حدث له علمٌ تجدد، أو حدث له كلامٌ، بمعنى: أنه لم يكن يعلمه، بل هو عالم بكل شيء سبحانه وتعالى. فعُرِف بذلك أن هذا لا متمسَّك لهم فيه.

قال الشارح:

وَكَثِيرٌ مِنْ مُتَأَخِّرِي الحَنَفِيَّةِ عَلَى أَنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ، وَالتَّعَدُّدُ وَالتَّكَثُّرُ وَالتَّجَزُّؤُ وَالتَّبَعُّضُ حَاصِلٌ فِي الدَّلَالَاتِ، لَا فِي المَدْلُولِ. وَهَذِهِ الْعِبَارَاتُ مَخْلُوقَةٌ، وَسُمِّيَتْ كَلَامَ اللَّهِ لِدَلَالَتِهَا عَلَيْهِ وَتَأَدِّيهِ بِهَا، فَإِنْ عُبِّرَ بِالْعَرَبِيَّةِ فَهُوَ قُرْآنٌ، وَإِنْ عُبِّرَ بِالْعِبْرِيَّةِ فَهُوَ تَوْرَاةٌ، فَاخْتَلَفَتِ الْعِبَارَاتُ لَا الْكَلَامُ. قَالُوا: وَتُسَمَّى هَذِهِ الْعِبَارَاتُ كَلَامَ اللَّهِ مَجَازًا!

وَهَذَا الْكَلَامُ فَاسِدٌ، فَإِنَّ لَازِمَهُ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء:٣٢]، هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة:٤٣]، وَمَعْنَى آيَةِ الْكُرْسِيِّ هُوَ مَعْنَى آيَةِ الدَّيْنِ! وَمَعْنَى سُورَةِ الْإِخْلَاصِ هُوَ مَعْنَى ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد:١]، وَكُلَّمَا تَأَمَّلَ الْإِنْسَانُ هَذَا الْقَوْلَ تَبَيَّنَ لَهُ فَسَادُهُ، وَعَلِمَ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِكَلَامِ السَّلَفِ.

قال الشيخ:

سبق بيان أن المؤلف حنفي المذهب، ولقد يسر الله له مشايخ اعتقدوا عقيدة سلفية، فتلقى تلك العقيدة عنهم، وتأثر بشيخه عماد الدين ابن كثير - رحمه الله - صاحب التفسير، وابن كثير تأثر بابن تيمية؛ حيث قرأ عليه فصلحت عقيدته وأصلح غيره، ولهذا نجد صاحب **هذا الشرح ينقل كثيرًا عن** ابن تيميه وعن تلميذه ابن القيم، وإن لم يصرح بالنقل عنهم؛ وذلك لأنه لو

نقل عنهما صراحة لنُبذ كلامه؛ لكون كثير من الحنفية لا يقبلونهما؛ أولًا: لأنهما من الحنابلة، وثانيًا: لأنهما في نظر أكثر المتأخرين قد أخطآ خطأً كبيرًا بإظهار هذه العقيدة التي ليس عليها أحد في زمانهما.

فالشارح ـ رحمه الله ـ يحكي عن متأخري الحنفية، قولهم: إن كلام الله معنى واحد قائم بذاته ليس متعددًا، فإن عُبِّر عنه بالعربية فهو القرآن، أو بالعبرية فهو التوراة، أو بالسريانية فهو الإنجيل، وردَّ عليهم بأن قولهم هذا فاسد؛ لأن فيه إبطال لما تضمنه القرآن، فعلى قولهم تكون آية الكرسي مثلَ آية الدَّين، ويكون معنى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ مثل معنى سورة الإخلاص، فهل يقول عاقل: إن المعنى الذي في هذه كالمعنى الذي في هذه؟ كل عاقل يقرأ يعرف أن هذه لها مدلول وهذه لها مدلول، وهكذا آية الرحمة غير آية العذاب، وآية ذكر الجنة غير آية ذكر النار، فالذي يتأمل هذه المقالة يعلم بُعدها عن الصواب.

ومع ذلك فقد قالها جموع كثيرون، انخدعوا بذلك، وساروا عليه، واعتقدوا أنه هو القول الصواب، وتلقوه عن مشايخهم، وشبهتهم التي اعتمدوا بها: هو خوفهم من أن يقولوا: إن الله متكلِّم، واعتقادهم أنَّ الكلام لا يصدر إلا من ذات، وأنه حادث، وأن الله منزَّه عن أن تقوم به الحوادثُ، وقد تبيَّن بطلان هذه المقالة.

قال الشارح:

وَالحَقُّ: أَنَّ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْقُرْآنَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ حَقِيقَةً، وَكَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَتَنَاهَى، فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَتَكَلَّمُ بِمَا شَاءَ إِذَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ، وَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧].

وَلَوْ كَانَ مَا فِي الْمُصْحَفِ عِبَارَةً عَنْ كَلَامِ اللَّهِ، وَلَيْسَ هُوَ كَلَامَ اللَّهِ، لَمَا حَرُمَ عَلَى الْجُنُبِ وَالْمُحْدِثِ مَسُّهُ، وَلَوْ كَانَ مَا يَقْرَؤُهُ الْقَارِئُ لَيْسَ كَلَامَ اللَّهِ لَمَا حَرُمَ عَلَى الْجُنُبِ وَالْمُحْدِثِ قِرَاءَتُهُ، بَلْ كَلَامُ اللَّهِ مَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ، مَقْرُوءٌ بِالْأَلْسُنِ، مَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ، كَمَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ فِي «الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ»(١).

وَهُوَ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ كُلِّهَا حَقِيقَةٌ، وَإِذَا قِيلَ: فِيهِ خَطُّ فُلَانٍ وَكِتَابَتُهُ، فُهِمَ مِنْهُ مَعْنًى صَحِيحٌ حَقِيقِيٌّ، وَإِذَا قِيلَ: فِيهِ مِدَادٌ قَدْ كُتِبَ بِهِ، فُهِمَ مِنْهُ مَعْنًى صَحِيحٌ حَقِيقِيٌّ، وَإِذَا قِيلَ: الْمِدَادُ فِي الْمُصْحَفِ، كَانَتِ الظَّرْفِيَّةُ فِيهِ غَيْرَ الظَّرْفِيَّةِ الْمَفْهُومَةِ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: فِيهِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَفِيهِ مُحَمَّدٌ وَعِيسَى، وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَهَذَانِ الْمَعْنَيَانِ مُغَايِرَانِ لِمَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ: فِيهِ خَطُّ فُلَانٍ الْكَاتِبِ، وَهَذِهِ

---

(١) (ص٢٠).

الْمَعَانِي الثَّلَاثَةُ مُغَايِرَةٌ لِمَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ: فِيهِ كَلَامُ اللَّهِ. وَمَنْ لَمْ يَتَنَبَّهْ لِلْفُرُوقِ بَيْنَ هَذِهِ الْمَعَانِي ضَلَّ وَلَمْ يَهْتَدِ لِلصَّوَابِ.

قال الشيخ:

نبَّه الشارح أن كتب الله تعالى متضمِّنة كلامَه، وكل كتاب منها محتوٍ على معان غير المعاني التي في الكتب الأخرى، فالتوراة فيها أحكام، والإنجيل فيه أحكام أخرى؛ ولهذا قال عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، فجاء بالتخفيف عن بني إسرائيل بأشياء قد حُرِّمت في التوراة. وكذلك الزبور فيه مواعظ وأذكار وتنبيهات وتذكير، وكذلك القرآن فيه أحكام، وفيه أوامر ونواهٍ، وفيه قصص وأمثال ونحو ذلك.

فإذًا كيف يقول عاقل: إن المعنى الذي في التوراة هو المعنى الذي في الإنجيل، وهو المعنى الذي في الزبور، وهو المعنى الذي في القرآن، وأن هذا عين هذا، إلَّا أنه اختلفت العبارة، فهذا عربي وهذا عبري وهذا سرياني؟!

نقول: هذا من أبعد البعيد، ومن أمحل المحال.

ثم إن القرآن ـ كما هو معروف ـ لا يمسه إلا المطهرون، وعلى قول هؤلاء الأشاعرة ونحوهم أنه عبارة، بمعنى: أنه تعبير غير كلام الله، فإن الذي عبر به إما جبريلُ وإما محمدٌ أو غيرُهما، جعلوا كلام الله المعنى، وهم عبَّروا عنه بمنزلة المترجم الذي ينقل الكلام من لغة إلى لغة، ومعلوم أنك إذا سمعت إنسانًا

ينقل الكلام من العربية إلى الأوردية، تقول: هذا تعبير فلان المترجم. وعلى قولهم هذا يكون القرآن تعبيرَ محمد أو تعبير جبريلَ، لا أنه نفس كلام الله، فإذا كان تعبيرًا لغير الله، إنما هو تعبير للرسول، لم يكن له حرمة، وعلى هذا يجوز أن يقرأه الجنب والحائض، ويجوز أن يمس المصحف مَنْ هو محدثٌ ولو حدثًا أكبر؛ لأنه ليس فيه كلام الله، وإنما عبارة أو حكاية أو ترجمة لكلام الله، إنما الكلام هو المعنى، وأما الحروف والألفاظ فليست هي كلام الله، فلا يكون له حرمة، وهذا خطأ.

المسلمون مجتمعون على أن هذا المصحف فيه كلام الله، بمعنى أنه مكتوب فيه، وإذا قالوا مثلًا: في هذا المصحف مدادٌ أسود وأحمر، يعني: حبرٌ كتب به، فالمراد أن المداد مخلوق؛ لأنه كتب به، ولكن المكتوب هو كلام الله.

ولهذا يقول ابن القيم في «نونيته»[1]:

إِنَّ الَّذِي هُوَ فِي الْمَصَاحِفِ مُثْبَتٌ ... بِأَنَامِلِ الْأَشْيَاخِ وَالشُّبَّانِ

هُوَ قَوْلُ رَبِّي آيُهُ وَحُرُوفُهُ ... وَمِدَادُنَا وَالرَّقُّ مَخْلُوقَانِ

مدادنا: يعني حبرنا، والرَّقُّ: يعني الصحيفة، وأما الكلام فإنه ليس بمخلوق.

يقول: أنت تقول ـ مثلًا ـ: في هذا القرآن السمٰوات والأرض والأمم. يعني: أنها مكتوبة فيه، ولكن إذا قلت ـ مثلًا ـ: فيه مداد وحبر وأوراق، كان

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٣٢٤).

لك مقصد، وإذا قلت: في هذا المصحف: السموات والأرض والجنة والنار، صدقت في أنها موجودة، يعني: مكتوب فيه، وإذا قلت: فيه كلام الله، صدقت؛ لأنه مكتوب فيه كلام الله.

فالحاصل أن اعتقاد المسلمين أن القرآن كلام الله ينفي ما يقول هؤلاء المبتدعة من أن القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ عبارة أو حكاية عن كلام الله لا أنه عين كلام الله، وقد كتب شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ رسالة في الردِّ على بعض الأشاعرة الذين قدموا للتدريس في هذه البلاد، وأرادوا إظهارَ معتقدهم من أنَّ القرآن حكاية أو عبارة عن كلام الله، وقد بيَّن ـ رحمة الله ـ في تلك الرسالة مذهب أهل السنة، والرد على مَنْ يقول: إن القرآن حكاية أو عبارة عن كلام الله، لا أنه نفس كلام الله أو عينه، وقال: إنما هو كلام الله حروفه ومعانيه، ليس كلامه الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف، والرسالة مطبوعة مفردة وضمن رسائله.

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْقِرَاءَةِ الَّتِي هِيَ فِعْلُ الْقَارِئِ، وَالمَقْرُوءِ الَّذِي هُوَ قَوْلُ الْبَارِي، مَنْ لَمْ يَهْتَدِ لَهُ فَهُوَ ضَالٌّ أَيْضًا، وَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا وَجَدَ فِي وَرَقَةٍ مَكْتُوبًا:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ(١).

مِنْ خَطِّ كَاتِبٍ مَعْرُوفٍ. لَقَالَ: هَذَا مِنْ كَلَامِ لَبِيدٍ حَقِيقَةً، وَهَذَا خَطُّ فُلَانٍ حَقِيقَةً، وَهَذَا كُلُّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، وَهَذَا خَبَرٌ حَقِيقَةً، وَلَا تَشْتَبِهُ هَذِهِ الحَقِيقَةُ بِالْأُخْرَى.

وَالْقُرْآنُ فِي الْأَصْلِ: مَصْدَرٌ، فَتَارَةً يُذْكَرُ وَيُرَادُ بِهِ الْقِرَاءَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]، وَقَالَ ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»(٢). وَتَارَةً يُذْكَرُ وَيُرَادُ بِهِ المَقْرُوءُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤]، وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ»(٣)، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ

---

(١) أخرج البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ: كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ».

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٦٨)، والنسائي (١٠١٥)، وابن ماجه (١٣٤٢)، وأحمد (٤/ ٢٨٣) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤١٩)، ومسلم (٨١٨) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

وَالْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى كُلٍّ مِنَ المَعْنَيَيْنِ المَذْكُورَيْنِ.

فَالحَقَائِقُ لَهَا وُجُودٌ عَيْنِيٌّ وَذِهْنِيٌّ وَلَفْظِيٌّ وَرَسْمِيٌّ، وَلَكِنَّ الْأَعْيَانَ تُعْلَمُ، ثُمَّ تُذْكَرُ، ثُمَّ تُكْتَبُ، فَكِتَابَتُهَا فِي المُصْحَفِ هِيَ المَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ، وَأَمَّا الْكَلَامُ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المُصْحَفِ وَاسِطَةٌ، بَلْ هُوَ الَّذِي يُكْتَبُ بِلَا وَاسِطَةٍ وَلَا لِسَانٍ.

قال الشيخ:

معلوم أن هناك فرقًا بين القراءة والمقروء، فيكون عندنا قارئٌ وقراءة ومقروء، فالقارىء هو الإنسان الذي حرك شفتيه ولسانه، والقراءة هي الصوت الذي سمعناه، والمقروء هو الكلام الذي نطق به، فحركات لسانه وشفتيه مخلوقة، ولكن المقروء الذي قرأه ليس بمخلوق، ولهذا يقول العلماء - إذا عرّفوا ذلك -: الصوت صوت القارىء، والقول قول الباري. فالصوت الذي تسمعه تضيفه إلى القارىء، فتقول: هذه قراءة بصوت فلان، ولكن الكلام المقروء الذي قرأه، تقول: هذا كلامُ الله، سمعت كلامَ الله بصوت القارىء فلان صاحب الصوت الحسن، والذي قراءته فيها تَخَشُّعٌ وتذلُّل.

وتأتي القراءة بمعنى المقروء، وتأتي كلمة القرآن بمعنى القراءة، واستدل الشارح على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]، والمراد هنا: القراءة التي تُقرأ في صلاة الفجر، **فهي**

مشهودة؛ تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فعبَّر عن القراءة بالقرآن، وكذلك قول النبي ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»، المراد: قراءته، فهنا عبَّر عن القرآن بالقراءة.

وأحيانًا تستعمل كلمة القرآن ويراد بها المقروء، يعني: الكلام الذي يقرأ، وهو كلام الله، كما في الآيات الأخرى، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه:١١٤]، وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦، ١٧]، يعني: قراءته.

فإذا عرفنا أنه حيثما قرئ وحيثما كتب فهو كلام الله، نقول: إن كلام الله تعالى هو المعنى المكتوب في المصاحف، المسموع بالآذان، المقروء بالألسن، ونقول أيضًا: إن كل هذه التصرفات لا تخرجه عن كونه كلام الله، ونقول إن المخلوق من ذلك ما للآدميين؛ فالأوراق مخلوقة، والمداد مخلوق، والأيدي التي تكتب والحروف التي يطبع بها مخلوقة، ولكن نفس الكلام غير مخلوق، بل هو كلام الله تعالى، وكل ما يضاف إلى الله فليس بمخلوق.

فالحاصل: أنه كيفما كُتب، وكيفما قُرئ لم يخرج عن كونه كلام الله تكلم به حقيقة، يُمثَّلُ ذلك بأن كل من سمع كلامًا نسبه إلى من تكلم به أولًا، فإذا سمع شعرًا من شعر لبيد ـ مثلًا ـ يقول: هذا كلام لبيد، وهو أحد الشعراء المشهورين، وقد مدح النبي ﷺ شعره، فقال: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ، كَلِمَةُ

لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ»[١].

فإذا رأيت ورقة مكتوبًا فيها شطر هذا البيت قلت: هذا كلام لبيد حقيقة، وهذا خطُّ فلان حقيقة، وهذه كلمة: «كُلُّ شَيْءٍ»، موجودة في هذه الورقة حقيقة، وفي الحقائق ما بينها فرق، حقيقة وحقيقة وحقيقة. فإذا سمعت في الإذاعة صوت قارىء يقرأ القرآن، قلت: هذا كلام الله حقيقة، وهذه الإذاعة إذاعة القرآن حقيقة، وهذه سورة القصص حقيقة، وهذا كلام الله حقيقة، ولا تنافِيَ بين هذه الحقائق: كلام الله، وقراءة فلان، وإذاعة القران، وما أشبه ذلك... تقول على الجميع: إنه حقيقة ولا تخالف بين الحقائق. فكيف يدَّعون أنه لا يمكن أن يعَبَّرَ بالقرآن عن شيئين، ما دمنا نعرف أنه يُعبَّر به عن القراءة بقوله ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»، يعني: القراءة، ويعبَّر به عن المقروء بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء: ٩]، وكلا التعبيرين لا ينافي الآخر، فكذلك بقية الحقائق.

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٧).

قال الشارح:

وَالْفَرْقُ بَيْنَ كَوْنِهِ فِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ، وَبَيْنَ كَوْنِهِ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ، أَوْ لَوْحٍ مَحْفُوظٍ، أَوْ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ: وَاضِحٌ.

فَقَوْلُهُ عَنِ الْقُرْآنِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، أَيْ ذِكْرُهُ وَوَصْفُهُ وَالْإِخْبَارُ عَنْهُ، كَمَا أَنَّ مُحَمَّدًا مَكْتُوبٌ عِنْدَهُمْ؛ إِذِ الْقُرْآنُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مُحَمَّدٍ، لَمْ يُنْزِلْهُ عَلَى غَيْرِهِ أَصْلًا، وَلِهَذَا قَالَ فِي الزُّبُرِ، وَلَمْ يَقُلْ فِي الصُّحُفِ، وَلَا فِي الرَّقِّ؛ لِأَنَّ الزُّبُرَ جَمْعُ زَبُورٍ، وَالزَّبْرَ هُوَ: الْكِتَابَةُ وَالْجَمْعُ، فَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أَيْ: مَزْبُورِ الْأَوَّلِينَ، فَفِي نَفْسِ اللَّفْظِ وَاشْتِقَاقِهِ مَا يُبَيِّنُ الْمَعْنَى الْمُرَادَ، وَيُبَيِّنُ كَمَالَ بَيَانِ الْقُرْآنِ وَخُلُوصِهِ مِنَ اللَّبْسِ.

وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ [الأعراف:١٥٧]، أَيْ: ذِكْرُهُ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾[الطور:٣]، أَوْ ﴿لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[البروج:٢٢]، أَوْ ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾[الواقعة:٧٨]؛ لِأَنَّ الْعَامِلَ فِي الظَّرْفِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَفْعَالِ الْعَامَّةِ، مِثْلَ الْكَوْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالْحُصُولِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، أَوْ يُقَدَّرُ: مَكْتُوبٌ فِي كِتَابٍ، أَوْ فِي رَقٍّ. وَالْكِتَابُ: تَارَةً يُذْكَرُ وَيُرَادُ بِهِ مَحَلُّ الْكِتَابَةِ، وَتَارَةً يُذْكَرُ وَيُرَادُ بِهِ الْكَلَامُ الْمَكْتُوبُ، وَيَجِبُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ كِتَابَةِ الْكَلَامِ فِي الْكِتَابِ، وَكِتَابَةِ الْأَعْيَانِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْخَارِجِ فِيهِ، فَإِنَّ تِلْكَ إِنَّمَا يُكْتَبُ ذِكْرُهَا. وَكُلَّمَا تَدَبَّرَ الْإِنْسَانُ هَذَا الْمَعْنَى وَضَحَ لَهُ الْفَرْقُ.

قال الشيخ:

جاء وصف القرآن في كتب الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، وليس معنى هذه الآية أنه أنزل على الأولين، فما أنزل إلا على نبينا محمد ﷺ، لكن معناها أنه مذكور في زُبُر الأولين، والزبر هي الصحف، واحدها: زَبُور، أي: ذكر هذا القرآن ومدحه موجود في تلك الصحف التي أنزلت على الأنبياء السابقين، هذا معنى كونه في زبر الأولين. مثل أن تقول: محمد ﷺ في التوراة والإنجيل، أي: مذكورٌ اسمه أو وصفه أو نبوته في التوراة وفي الإنجيل، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، يعني: ذكره وصفته واسمه ونبوته وآياته ومعجزاته. والذين قرؤوا التوراة يعرفون وصفه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

أما قول الله تعالى: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج:٢٢]، ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة:٧٨]، فهذا معناه: أن القران مكتوب في اللوح المحفوظ، ففي الحديث: **«أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تعالى الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»**[1]، فجرى بما هو كائن، وكتب الكلام الذي تكلّم به في

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٨١)، وسيأتي الكلام عليه في تعليق سماحة الشيخ على قول الطحاوي: «ونُؤْمِنُ باللَّوحِ والقَلَمِ، وبجَميعِ مَا فيهِ قَدْ رُقِمَ».

اللوح المحفوظ ـ الذي يسمّى أمَّ الكتب، ويسمى الإمامَ؛ ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢]، ويسمى الكتاب المكنون، فالقرآن ـ سوره، وآياته، وحروفه، وكلماته ـ في الكتاب المكنون الذي هو اللوح المحفوظ، الذي لا يمسه إلا المطهرون، والذي هو تنزيلٌ من ربِّ العالمين.

فلا فرق بين هذا وهذا، وليس كما يدّعون أنه لم يكن موجودًا ثم خلق.. قالوا: خلقه الله كما خلق الإنسان، وكما خلق سائر المخلوقات، ولو كان كذلك لما سمّاه تنزيلًا، والله قد أفصح بأنه مُنزَّل، وبأنه تنزيلٌ، ولم يذكر أنه مخلوق، ولا أنه خلقه، ولو كان مخلوقًا لذكره في موضعٍ واحدٍ حتى يُحمَل عليه بقيةُ الأماكن التي فيها ذكر التنزيل.

قال الشارح:

وَحَقِيقَةُ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى الخَارِجِيَّةُ: هِيَ مَا يُسْمَعُ مِنْهُ أَوْ مِنَ المُبَلِّغِ عَنْهُ، فَإِذَا سَمِعَهُ السَّامِعُ عَلِمَهُ وَحَفِظَهُ، فَكَلَامُ اللَّهِ مَسْمُوعٌ لَهُ مَعْلُومٌ مَحْفُوظٌ، فَإِذَا قَالَهُ السَّامِعُ فَهُوَ مَقْرُوءٌ لَهُ مَتْلُوٌّ، فَإِنْ كَتَبَهُ فَهُوَ مَكْتُوبٌ لَهُ مَرْسُومٌ. وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ كُلِّهَا لَا يَصِحُّ نَفْيُهُ، وَالمَجَازُ يَصِحُّ نَفْيُهُ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: لَيْسَ فِي الْمُصْحَفِ كَلَامُ اللَّهِ، وَلَا مَا قَرَأَ الْقَارِئُ كَلَامَ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، وَهُوَ لَا يَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا يَسْمَعُهُ مِنْ مُبَلِّغِهِ عَنِ اللَّهِ. وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى فَسَادِ قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ المَسْمُوعَ عِبَارَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ وَلَيْسَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾، وَلَمْ يَقُلْ حَتَّى يَسْمَعَ مَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ. وَالْأَصْلُ الحَقِيقَةُ، وَمَنْ قَالَ: إِنَّ المَكْتُوبَ فِي المَصَاحِفِ عِبَارَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ، أَوْ حِكَايَةُ كَلَامِ اللَّهِ، وَلَيْسَ فِيهَا كَلَامُ اللَّهِ، فَقَدْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَسَلَفَ الْأُمَّةِ، وَكَفَى بِذَلِكَ ضَلَالًا.

قال الشيخ:

يبيِّن الشارح أنَّ كلام الله تعالى هو الحروفُ والمعاني، وأن الله تكلم به حقيقة، ولكن بلغه رسوله فكلم به الرسول الملكي، ونزل به الملك على الرسول البشري، كما أخبر النبي ﷺ في كيفية نزول الوحي، في قوله: «وَيَتَمَثَّلُ

لِي المَلَكُ أَحْيَانًا رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي، فَأَعِي مَا يَقُولُ»(١)، يعني: أنَّ مِنَ الوحي ما يكون نزوله عليه أن يتمثل له الملك في صورة رجل، ومعلوم أن كلام الله تعالى مسموع بالآذان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٥]، فصرّح بأنه كلام الله. وفي آيات أخرى فيها التصريح بذلك؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨]، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني: الكتابة، ﴿إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾، يعني: تلاوة دون فهم، وعبر بذلك عن القراءة، ثم قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩].

والحاصل: أن سماع كلام الله ممكن، ولكن ليس المراد أنه يسمع كلام الله من الله، بل المراد أن يُسمع ممن يقرؤه ويخبر بأنه كلام الله، إنما الذي سمع كلام الله من الله وجاء الدليل على ذلك: موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف:١٤٤]، وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فأخبر الله أن موسى

---

(١) أخرجه البخاري (٢، ٣٢١٥)، ومسلم (٢٣٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

سمع كلام الله منه إليه، وكذلك نبينا ﷺ لما أُسري به، كلمه الله منه إليه، فكل ذلك يفيد أن كلام الله تعالى مسموع.

أما الصوت الذي نسمعه من قارىء القرآن فمعلوم أنا لا نقول: إن هذا الصوت هو صوت الله تعالى، وإنما نقول: المتكلَّم به هو كلامُ الله، والذي أسمعنا إياه هو هذا القارىء، فسمعنا كلام الله من هذا القارىء، فهذا الفرق بين السماع وبين المقروء والقارىء.

قال الشارح:

وَكَلَامُ الطَّحَاوِيِّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ يَرُدُّ قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ لَا يُتَصَوَّرُ سَمَاعُهُ مِنْهُ، وَأَنَّ الْمَسْمُوعَ الْمُنَزَّلَ الْمَقْرُوءَ وَالْمَكْتُوبَ لَيْسَ كَلَامَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنْهُ. فَإِنَّ الطَّحَاوِيَّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ يَقُولُ: (كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَا)، وَكَذَلِكَ قَالَ غَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ، وَيَقُولُونَ: مِنْهُ بَدَا، وَإِلَيْهِ يَعُودُ. وَإِنَّمَا قَالُوا: مِنْهُ بَدَا؛ لِأَنَّ الْجَهْمِيَّةَ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّهُ خَلَقَ الْكَلَامَ فِي مَحَلٍّ، فَبَدَأَ الْكَلَامُ مِنْ ذَلِكَ الْمَحَلِّ. فَقَالَ السَّلَفُ: مِنْهُ بَدَا، أَيْ: هُوَ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ، فَمِنْهُ بَدَا، لَا مِنْ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر:١]، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة:١٣]، ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢].

وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: وَإِلَيْهِ يَعُودُ: يُرْفَعُ مِنَ الصُّدُورِ وَالْمَصَاحِفِ، فَلَا يَبْقَى فِي الصُّدُورِ مِنْهُ آيَةٌ وَلَا فِي الْمَصَاحِفِ. كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي عِدَّةِ آثَارٍ.

قال الشيخ:

قولهم: (مِنْهُ بَدَا، وَإِلَيْهِ يَعُودُ)، صريح في رد قول المعتزلة الذين ادّعوا أنه خلقه، وأن الذي تكلم به البشر. فلا يكون كلام الله، إنما يكون كلام ذلك الذي ابتدأ كلامه إذا كان مخلوقًا، معناه: أن الله ـ تعالى الله ـ خلقه في غيره، وإذا خلقه في غيره كان ذلك الغير هو الذي ابتدأ به، وهو أولُ مَنْ تكلَّم به،

والسلف أطبقوا على قولهم في وصف القرآن: (كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَا وَإِلَيْهِ يَعُودُ)، يعني: ابتدأ الكلام من الله تعالى، وهو الذي تكلم به.

ويقول العلماء - أيضًا - بل والبلغاء: إن الكلام إنما يُضافُ إلى من قاله مبتدئًا، لا إلى من قاله مبلِّغًا مؤديًا، فالذي ابتدأ رسالةً وكتبها من إنشائه، ثم أعطاها قارئًا يقرؤها، يقال: هذه من كتابة زيد، أو من إنشائه، سمعناها من عمرو حينما قرأها عمرو، فالقارىء إنما بلَّغ، والمبتدئ بالكلام هو الذي أنشأ، فهكذا نقول: سمعنا كلامَ الله من قراءة فلان.

ورد في الأحاديث أن القرآن في آخر الزمان يرفع من الدنيا[1]، وذلك عندما يقلُّ العملُ به، فيُرفع من الصدور، ويُمسح من المصاحف، فتصبحُ المصاحفُ بيضاء ليس فيها شيء، وذلك علامة على انقضاء الدنيا وقرب زوالها، وهذا معنى قولهم: (مِنْهُ بَدَا، وَإِلَيْهِ يَعُودُ)، يُرَدُّ إليه سبحانه ويُرفع من هذه الحياة.

---

(١) كما في حديث حُذَيْفَةَ بن الْيَمَانِ ﷺ قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: «يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حتى لَا يُدْرَى ما صِيَامٌ ولا صَلَاةٌ ولا نُسُكٌ ولا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى على كِتَابِ اللَّهِ عز وجل في لَيْلَةٍ، فلا يَبْقَى في الأرض منه آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ من الناس؛ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا على هذه الْكَلِمَةِ: لَا إِلَهَ إلا الله، فَنَحْنُ نَقُولُهَا». أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩)، وابن حبان (١٥/ ٢٦٦)، والحاكم (٤/ ٤٧٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٥٦). وصحح إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٩٤)، وقوى إسناده ابن حجر في الفتح (١٣/ ١٦).

ولا شك أن رفعه مصيبة كبيرة ولكن الذين يُرفع من بين أيديهم لا يشعرون بالمصيبة، بل لا يهمهم، بل ربما يُهينونه ويمتهنونه، كما في بعض الدول عندهم بعض الملاحدة والزنادقة والشيوعيين والمنافقين يدوسون كلام الله بأحذيتهم - تعالى الله، وعليهم ما يستحقونه من عقاب الله - فإذا انتشر هذا الكفر في الأرض، وأطبق على البلاد كلها، ولم يبقَ أحد يعرف حرمة كلام الله تعالى، عند ذلك يرفع هذا القرآن، ولا يبقى منه حرف.

وهذه منذرات وأمارات على قرب انقضاء الحياة الدنيا، لكن نحن في هذه الحياة ما دُمنا نرى من يعظمه ويحترمه ويقرؤه ويتلوه، فإننا نؤمِّل خيرًا إن شاء الله.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (بِلَا كَيْفِيَّةٍ)، أَيْ: لَا تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ تَكَلُّمِهِ بِهِ قَوْلًا لَيْسَ بِالمَجَازِ، (وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحْيًا)، أَيْ: أَنْزَلَهُ إِلَيْهِ عَلَى لِسَانِ المَلَكِ، فَسَمِعَهُ المَلَكُ جِبْرِيلُ مِنَ اللَّهِ، وَسَمِعَهُ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ المَلَكِ، وَقَرَأَهُ عَلَى النَّاسِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥]، وَفِي ذَلِكَ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْعُلُوِّ لِلَّهِ تَعَالَى.

قال الشيخ:

يقول بعض العلماء: إنه تتبّع ذكر القرآن في المصحف، فوجد ذكره في أكثر من خمسين موضعًا، وغالبًا يُذكر بلفظ الإنزال والتنزيل، ولم يُذكر بلفظ الخلق، ذُكر بلفظ «الجعل» في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣]، ولكن فُسِّر الجَعْلُ بأنه التصيير، يعني: صيَّرناه عربيًّا؛ لأنه أُنزل على قوم من العرب ليفهموهُ وليُعلّموه لمن بعدهم أو غيرهم، وذُكر القرآنُ بلفظ الإنزال؛ كما في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس:٥]، وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت:٢]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:١١٤]، وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، وكل ذلك دليلٌ على أنه منزلٌ من الله.

واستدلُّوا بذلك أيضًا على صفة العلو؛ لأن النزول لا يكون إلا من فوق، فالقرآن منزل من الله تعالى، والله تعالى فوق سمٰواته كما يشاء، والقرآن نزل منه، والذي نزل به هو المَلَك، والذي نُزِّلَ عليه هو الرسول ﷺ، وكذلك الرسل قبله أُنزلت عليهم هذه الكتبُ التي فيها الشرائع التي شرِّعت لهم.

فالتنزيل يدلُّ على أنه نزل بعد أن تكلم الله به، وكتبه في اللوح المحفوظ وأمر به الملك، فأنزله علي رسوله، فأصبح متلوًّا مقروءًا، ولم يخرج بذلك كله عن كونه كلام الله سبحانه وتعالى.

قال الشارح:

وَقَدْ أُورِدَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ نَظِيرُ إِنْزَالِ المَطَرِ، وَإِنْزَالِ الحَدِيدِ، وَإِنْزَالِ ثَمَانِيَةِ أَزْوَاجٍ مِنَ الأَنْعَامِ.

وَالجَوَابُ: أَنَّ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ فِيهِ مَذْكُورٌ أَنَّهُ إِنْزَالٌ مِنَ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر:١، ٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجاثية:٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت:٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان:٣ ـ ٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:١١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢].

وَإِنْزَالُ المَطَرِ مُقَيَّدٌ بِأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَ السَّمَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام:٩٩]، وَالسَّمَاءُ: الْعُلُوُّ، وَقَدْ جَاءَ فِي مَكَانٍ آخَرَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَ المُزْنِ، وَالمُزْنُ: السَّحَابُ، وَفِي مَكَانٍ آخَرَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَ المُعْصِرَاتِ.

وَإِنْزَالُ الحَدِيدِ وَالأَنْعَامِ مُطْلَقٌ، فَكَيْفَ يَشْتَبِهُ هَذَا الإِنْزَالُ بِهَذَا الإِنْزَالِ،

وَهَذَا الْإِنْزَالُ بِهَذَا الْإِنْزَالِ؟! فَالْحَدِيدُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمَعَادِنِ الَّتِي فِي الْجِبَالِ، وَهِيَ عَالِيَةٌ عَلَى الْأَرْضِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ كُلَّمَا كَانَ مَعْدِنُهُ أَعْلَى كَانَ حَدِيدُهُ أَجْوَدَ. وَالْأَنْعَامُ تُخْلَقُ بِالتَّوَالُدِ الْمُسْتَلْزِمِ إِنْزَالَ الذُّكُورِ الْمَاءَ مِنْ أَصْلَابِهَا إِلَى أَرْحَامِ الْإِنَاثِ، وَلِهَذَا يُقَالُ: أَنْزَلَ، وَلَمْ يُنْزِلْ. ثُمَّ الْأَجِنَّةُ تَنْزِلُ مِنْ بُطُونِ الْأُمَّهَاتِ إِلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْأَنْعَامَ تَعْلُو فُحُولُهَا إِنَاثَهَا عِنْدَ الْوَطْءِ، وَيَنْزِلُ مَاءُ الْفَحْلِ مِنْ عُلْوٍ إِلَى رَحِمِ الْأُنْثَى، وَتُلْقِي وَلَدَهَا عِنْدَ الْوِلَادَةِ مِنْ عُلْوٍ إِلَى سُفْلٍ. وَعَلَى هَذَا فَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾ [الزمر:٦]، وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا، أَنْ تَكُونَ (مِنْ) لِبَيَانِ الْجِنْسِ.

الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ (مِنْ) لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ.

وَهَذَانِ الْوَجْهَانِ يَحْتَمِلَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ [الشورى:١١].

قال الشيخ:

أورد الشارح اعتراضات البعض في فهمهم لآيات التنزيل التي وصف الله بها القرآن، والله تعالى كلما ذكر القرآن ذكره بلفظ الإنزال، ولم يذكره بلفظ الخلق، لم يقل خلقنا القرآن، وإنما يقول: أنزلنا القرآن، ثم يزيد على ذلك أنه منزل من الله، أو من عند الله، ولا شك أن هذا يدل على الاختصاص، وكلمة الإنزال تعرف العرب معناها، أنه لا يكون الإنزال إلَّا من الأعلى، أنزله: أي

جاء به بعد أن كان رفيعًا، فتقول: أنزلت الدلو في البئر، أو نزلته إذا دلَّيته من أعلى إلى أسفل، وتقول: نزل فلان من السطح ومن الجبل ومن ظهر المركوب الذي هو راكبه، نزل منه بعد أن كان مرتفعًا.

فلما كان الإنزال من العلو، فالقرآن كذلك نازل من العلو، نازل من السماء، نازل من الله تعالى، منزَّل من ربك، هذا حقيقة ما ذكر الله عن القرآن، وليس مثل إنزال المطر، فإنزال المطر مقيَّد بأنه من السماء، أو بأنه من المزن، أو بأنه من المعصرات... ونحوهما، وإن كان الله هو الذي أنشأه وخلقه فيها.

وإنزال الحديد معناه: خلقه وإيجاده، ولكن أوجده في العلوِّ، ثم نزل إلى السفل، فالمعادن والمناجم عادة تكون في جوف الأرض، فهي مخلوقة في الجبال، ثم تذوب وتنزل إلى جوف الأرض، أو نحو ذلك، وكذلك قد يُعثر عليها وهي في رؤوس الجبال، فينزلونها من الجبال، ولا شك أن ذلك كله إنزال حقيقيٌّ، فهو إنزال، ولكن لم يقل: إنه من عند الله، فحصل بذلك الفرقُ الكبير بين إنزالها وبين إنزال القران.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا)، الْإِشَارَةُ إِلَى مَا ذَكَرَهُ مِنَ التَّكَلُّمِ بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ وَإِنْزَالِهِ، أَيْ: هَذَا قَوْلُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَهُمُ السَّلَفُ الصَّالِحُ، وَأَنَّ هَذَا حَقٌّ وَصِدْقٌ.

وَقَوْلُهُ: (وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ)، رَدُّهُ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ بِهَذَا الْقَوْلِ ظَاهِرٌ. وَفِي قَوْلِهِ: (بِالْحَقِيقَةِ)، رَدٌّ عَلَى مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ قَامَ بِذَاتِ اللَّهِ لَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ الْكَلَامُ النَّفْسَانِيُّ؛ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ لِمَنْ قَامَ بِهِ الْكَلَامُ النَّفْسَانِيُّ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ: إِنَّ هَذَا كَلَامٌ حَقِيقَةً، وَإِلَّا لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْأَخْرَسُ مُتَكَلِّمًا، وَلَزِمَ أَنْ لَا يَكُونَ الَّذِي فِي الْمُصْحَفِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ هُوَ الْقُرْآنُ وَلَا كَلَامَ اللَّهِ، وَلَكِنْ عِبَارَةً عَنْهُ لَيْسَتْ هِيَ كَلَامَ اللَّهِ، كَمَا لَوْ أَشَارَ أَخْرَسُ إِلَى شَخْصٍ بِإِشَارَةٍ فَهِمَ بِهَا مَقْصُودَهُ، فَكَتَبَ ذَلِكَ الشَّخْصُ عِبَارَتَهُ عَنِ الْمَعْنَى الَّذِي أَوْحَاهُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَخْرَسُ، فَالْمَكْتُوبُ هُوَ عِبَارَةُ ذَلِكَ الشَّخْصِ عَنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى. وَهَذَا الْمَثَلُ مُطَابِقٌ غَايَةَ الْمُطَابَقَةِ لِمَا يَقُولُونَهُ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى لَا يُسَمِّيهِ أَحَدٌ أَخْرَسَ، لَكِنْ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْمَلَكَ فَهِمَ مِنْهُ مَعْنًى قَائِمًا بِنَفْسِهِ، لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ حَرْفًا وَلَا صَوْتًا، بَلْ فَهِمَ مَعْنًى مُجَرَّدًا، ثُمَّ عَبَّرَ عَنْهُ، فَهُوَ الَّذِي أَحْدَثَ نَظْمَ الْقُرْآنِ وَتَأْلِيفَهُ الْعَرَبِيَّ، أَوْ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ فِي بَعْضِ الْأَجْسَامِ كَالْهَوَاءِ الَّذِي هُوَ دُونَ الْمَلَكِ هَذِهِ الْعِبَارَةَ.

وَيُقَالُ لِمَنْ قَالَ إِنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ: هَلْ سَمِعَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - جَمِيعَ الْمَعْنَى أَوْ بَعْضَهُ؟ فَإِنْ قَالَ: سَمِعَهُ كُلَّهُ، فَقَدْ زَعَمَ أَنَّهُ سَمِعَ جَمِيعَ كَلَامِ اللَّهِ،

وَفَسَادُ هَذَا ظَاهِرٌ، وَإِنْ قَالَ: بَعْضَهُ، فَقَدْ قَالَ: يَتَبَعَّضُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ كَلَّمَهُ اللَّهُ أَوْ أَنْزَلَ إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْ كَلَامِهِ.

وَلَمَّا قَالَ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وَلَمَّا قَالَ لَهُمْ: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، هَلْ هَذَا جَمِيعُ كَلَامِهِ أَوْ بَعْضُهُ؟ فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُ جَمِيعُهُ، فَهَذَا مُكَابَرَةٌ، وَإِنْ قَالَ: بَعْضُهُ، فَقَدِ اعْتَرَفَ بِتَعَدُّدِهِ.

قال الشيخ:

قول الطحاوي ـ رحمه الله ـ: (وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ)، أكّده بقوله: (بِالْحَقِيقَةِ)؛ ليُبين أن عقيدة أهل السنه أن القرآن كلام الله حقيقة حروفه ومعانيه، ليس أحدهما فقط، وذلك ردٌّ على طائفتين:

الطائفة الأولى: الذين قالوا: إنه مخلوق، وهم المعتزلة الذين ورثوا الجهمية، فإنهم قالوا: إنه خلقه كما خلق السمٰوات والأرض والإنسان والحركات... ونحوها.

الطائفة الثانية: الذين زعموا أن كلام الله هو المعنى وليس اللفظ، وعلى زعمهم لا يكون الله متكلمًا، وهذا الذي نقرؤه ليس هو كلامَ الله، إنما هو عبارة أو حكاية أو ترجمة لكلام الله، والذي عبَّر به هو الملك، كأنه أُلْهِمَهُ إلهامًا، فعبَّر

عما أُلْهِم، وأنزل إلى الرسل ذلك المعنى، وهو الذي صاغ هذه العبارة. فهل نقول: إنه كلام المَلَك؛ لأن الذي صاغه جبريل، أو هو كلام الرسل لا أنه كلام الله؟ ولا شك أن هذا فيه إبطال النصوص، كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٥]، وقوله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٥]، وقوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام:١١٥]، وقوله: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧]، وأشباه ذلك كثير.

ولو كان كذلك لكان الله تعالى موصوفًا بأنه لا يتكلم -تعالى الله عن قولهم- ويلزم على ذلك أن يكون ناقصًا؛ لأن عدم القدرة على الكلام نقص في حق كل عاقل؛ لأن كل عاقل يرى أن الكلام ميزة، وأن نفيه نقيصة، وهؤلاء قد وصفوا الرب تعالى بالنقيصة.

ثم جادلهم الشارح بما بما مر معنا، فقال: أنتم تقولون: إن موسى سمع كلام الله، ولكنه لم يسمع إلا المعنى، فهل هو سمع جميع ما يُنسبُ إلى الله من الكلام أو سمع بعضه؟ فإذا قلتم: سمع بعضه، فلابدَّ أن يكون الذي سمعه سماعًا حقيقيًا لا أنه معنوي.

ونقول بعد ذلك: إن الله تعالى كلَّم بعض خلقه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء:١٠]، وقال: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ [الأعراف:٢٢]، وقال:

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة:٣٦]، أخبر تعالى أنه كلّم هؤلاء، وهذا صريح في أنه كلمهم كلامًا مسموعًا، وليس ذلك هو كلام الله كله؛ لأن كلام الله تعالى لا يحصى، ودليله قول الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ [الكهف:١٠٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

إذًا كلام الله لا نهاية له، فلو قدِّر أن أشجار الأرض كلها من أول ما خلقت في الدنيا إلى نهايتها كلها أقلام، والبحار مع سعتها ومعها سبعة أمثالها من البحار انقلبت حبرًا يكتب به، فكتب بذلك الحبر وبتلك الأقلام، لتكسرت الأقلام ولنفدت البحار قبل أن يفنى كلام الله، هذا مفاد هذه الآيات، فكيف يُقال: إن كلام الله له نهاية، وإنه هو المعنى فقط؟ هذا لا شك أنه تنقُّصٌ للربِّ سبحانه وتعالى. وهكذا وَصْفُهُ أيضًا أنه لا يتكلم، وأن هذا إنما هو عبارة أو حكاية عنه.

قال الشارح:

وَلِلنَّاسِ فِي مُسَمَّى الْكَلَامِ وَالْقَوْلِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ: أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ يَتَنَاوَلُ اللَّفْظَ وَالمَعْنَى جَمِيعًا، كَمَا يَتَنَاوَلُ لَفْظُ الْإِنْسَانِ الرُّوحَ وَالْبَدَنَ مَعًا، وَهَذَا قَوْلُ السَّلَفِ.

الثَّانِي: اسْمٌ لِلَفْظِ فَقَطْ، وَالمَعْنَى لَيْسَ جُزْءَ مُسَمَّاهُ، بَلْ هُوَ مَدْلُولُ مُسَمَّاهُ، وَهَذَا قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنَ المُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ اسْمٌ لِلْمَعْنَى فَقَطْ، وَإِطْلَاقُهُ عَلَى اللَّفْظِ مَجَازٌ؛ لِأَنَّهُ دَالٌّ عَلَيْهِ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ كِلَابٍ وَمَنِ اتَّبَعَهُ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ اللَّفْظِ وَالمَعْنَى، وَهَذَا قَوْلُ بَعْضِ المُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْكِلَابِيَّةِ.

وَلَهُمْ قَوْلٌ خَامِسٌ - يُرْوَى عَنْ أَبِي الحَسَنِ -: أَنَّهُ مَجَازٌ فِي كَلَامِ اللَّهِ، حَقِيقَةٌ فِي كَلَامِ الْآدَمِيِّينَ؛ لِأَنَّ حُرُوفَ الْآدَمِيِّينَ تَقُومُ بِهِمْ، فَلَا يَكُونُ الْكَلَامُ قَائِمًا بِغَيْرِ المُتَكَلِّمِ، بِخِلَافِ كَلَامِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَقُومُ عِنْدَهُ بِاللَّهِ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ كَلَامَهُ. وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِ الْأَخْطَلِ:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا ... جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلَا

فَاسْتِدْلَالٌ فَاسِدٌ، وَلَوِ اسْتَدَلَّ مُسْتَدِلٌّ بِحَدِيثٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ لَقَالُوا: هَذَا خَبَرُ وَاحِدٍ! وَيَكُونُ مِمَّا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى تَصْدِيقِهِ وَتَلَقِّيهِ بِالْقَبُولِ وَالْعَمَلِ بِهِ! فَكَيْفَ وَهَذَا الْبَيْتُ قَدْ قِيلَ: إِنَّهُ مَوْضُوعٌ مَنْسُوبٌ إِلَى الْأَخْطَلِ، وَلَيْسَ هُوَ فِي

دِيوَانِهِ؟! وَقِيلَ: إِنَّمَا قَالَ: (إِنَّ الْبَيَانَ لَفِي الْفُؤَادِ)، وَهَذَا أَقْرَبُ إِلَى الصِّحَّةِ، وَعَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهِ عَنْهُ فَلَا يَجُوزُ الِاسْتِدْلَالُ بِهِ، فَإِنَّ النَّصَارَى قَدْ ضَلُّوا فِي مَعْنَى الْكَلَامِ، وَزَعَمُوا أَنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - نَفْسُ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَاتَّحَدَ اللَّاهُوتُ بِالنَّاسُوتِ! أَيْ: شَيْءٌ مِنَ الْإِلَهِ بِشَيْءٍ مِنَ النَّاسِ! أَفَيُسْتَدَلُّ بِقَوْلِ نَصْرَانِيٍّ قَدْ ضَلَّ فِي مَعْنَى الْكَلَامِ عَلَى مَعْنَى الْكَلَامِ، وَيُتْرَكُ مَا يُعْلَمُ مِنْ مَعْنَى الْكَلَامِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ؟!

وَأَيْضًا: فَمَعْنَاهُ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ إِذْ لَازِمُهُ أَنَّ الْأَخْرَسَ يُسَمَّى مُتَكَلِّمًا لِقِيَامِ الْكَلَامِ بِقَلْبِهِ وَإِنْ لَمْ يَنْطِقْ بِهِ وَلَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ، وَالْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ، وَإِنَّمَا أُشِيرُ إِلَيْهِ إِشَارَةً.

قال الشيخ:

الفِرَقُ لهم في مسمَّى الكلام عدةُ تعريفات؛ فمنهم من يقول: إن الكلام اسم للفظ وللمعنى جميعًا، اللفظ: الذي هو الحروف، والمعنى: الذي اشتملت عليه تلك الحروف وتلك الكلمات.

والنحويون عرفوا الكلام: أنه ما أفاد وصيغ بالألفاظ العربية، وتركَّب من كلمتين فأكثر، فأما إذا كان من كلمة واحدة فلا يسمى كلامًا، وهكذا إذا لم يُفِد فلا يسمى كلامًا، وهكذا إذا كان متركبًا ولكن ليس بالألفاظ العربية، فلا يسمى كلامًا.

هناك من يقول: إن الكلام هو الحروف والكلمات التي يُنطق بها، وأما

المعاني التي اشتمل عليها، فلا تدخل في مسمَّى الكلام، وهذا قول المعتزلة، وهناك قول ثالث بعكسه، وهو أن الكلام هو المعنى، وأما الحروف، فإنما هي دالَّةٌ عليه، وهناك قول رابع: أنه مشتركٌ بينهما.

وبكل حال، فهذه الأقوال كلها خطأ إلا القول الأول، وهو أن الكلام اسم للفظ وللمعنى جميعًا، فلا يسمى كلامًا إلا إذا كان له معنى مفيدًا، وكان بالحروف التي يسمعها المتكلم، ولو كان الكلام مصوغًا بغير العربية سميناه كلامًا بلغة أهله، يعني: أن الأعاجم لهم عدة لغات، وتسمى لغاتهم كلامًا، فنقول: تكلَّم بلغته، أو: لا نفهم كلامه، فسِّر لنا كلامك، فنسميه كلامًا إذا فسَّره بلغةٍ نفهمها.

وعلى هذا فالكلام العربي: اسمُ المصوغ بالحروف وبالكلمات التي استعملتها العرب، إذا كانت ذات معانٍ مفهومة عند الذين وضعوا اللغة وعند الذين تكلموا عليها.

فإذًا القرآن كلمات وحروف وجمل وآيات وسور، وكل جملة لها معنى مستقل، وقد تكون الآية فيها عدة جمل، فآية الكرسي اشتملت على عشر جمل، الجملة الأولى: قوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾، فيها إثبات الإلهية، الجملة الثانية: قوله: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، مشتملة على اسمين من أسماء الله مؤكدين لوصفه، **الجملة الثالثة: قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٥]،** نفيٌ لهذين النقصين؛ السِّنة: هي النعاس، والنوم: معروف... إلى آخر الآية. فتُسمى

الجملة كلامًا، فيقال: هذه جملة من كلام الله، ويقال كذلك في بقية القرآن: إنه مشتمل على كلمات وجمل ذات معانٍ، كل جملة دالة على معنى يفهمه من تعلَّمه وعرفه، ويترجم إلى لغة أخرى لمن لا يفهمه. هذا القول هو الصحيح: أن الكلام اسمٌ للفظ والمعنى، وأن كلام الله اسمٌ للحروف والكلمات مع المعاني التي دلت عليها تلك الكلمات.

وذهبت الأشاعرة إلى أن الكلام هو المعنى، وأنه معنى قائم بنفس الله تعالى، وأنه فهمه الملك مما أشير إليه إشارة، وجعلوا ما يقوم بالنفس هو الكلام، واستدلوا بهذا البيت الذي نسبوه إلى الأخطل، وهو قوله:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلَا

وقد جعلوا هذا البيت عمدتهم وحجتهم، فتراهم دائمًا يستدلون به في كتبهم، وهو استدلال فاسد - كما بيَّن الشارح - ونحن نحتج عليهم بالأحاديث التي في الصحيحين فيردونها ويقولون: هذا خبرُ واحدٍ، وخبر الواحد لا يفيد إلَّا الظن، فيردونه مع أنه ورد في الصحيحين، وهو متفق عليه، ويردون أحاديث النزول، مع أنها رواها نحو عشرة من الصحابة، ويقولون: إنها أخبار آحاد لا نقبلها ولو كانت في الصحيحين، ويردون أحاديث الاستواء والكتابة، كقوله ﷺ: «لَـمَّا قَضَى اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»[1]، ويردون أيضًا أحاديث الرحمة، وأحاديث المحبة،

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ونحو ذلك، ويقولون: إنها أخبار آحاد تفيد الظن.

فيُقال لهم: عجبًا لكم، تردُّون أحاديث الصحيحين، وتحتجُّون بهذا البيت! هذا البيت هل هو متواتر، أو خبر واحد؟ لم يخرج عن كونه خبر واحد، بل ربما لا أصل له، فما نُقل هذا البيت لا بإسناد صحيح ولا بإسناد ضعيف، وإنما تتناقلونه وتنسبونه إلى الأخطل، وقد قال ابن القيم في نونيته[1]:

وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَاكَ بَيْتٌ قَالَهُ ... فِيمَا يُقَالُ الْأَخْطَلُ النَّصْرَانِي

ويقول شيخ الإسلام في قصيدته اللامية[2]:

قُبْحٌ لِمَنْ نَبَذَ الْكِتَابَ وَرَاءَهُ ... وَإِذَا اسْتَدَلَّ يَقُولُ قَالَ الْأَخْطَلُ

إنما دليلهم هذا البيت الذي نُسب إلى الأخطل، ثم بحث عنه المحققون في ديوان الأخطل فلم يجدوه، فدلّ على أنه مصنوع مكذوب، قاله من نسبه إلى الأخطل، وذكره بعضهم بلفظ: (إِنَّ الْبَيَانَ لَفِي الْفُؤَادِ)، بمعنى: إن القلب هو الذي يملك أن صاحبه يقدر على البيان، وهذا هو الأليق على تقدير ثبوت هذا البيت.

ولو قدَّرنا أنه من كلام الأخطل، فهل يكون كلامُ الأخطل حُجَّةً؟ الأخطل نصراني ولو كان عربيًا، فهو من نصارى العرب، أصرَّ على نصرانيته،

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٢٧٠).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٢٩٦، ٢٩٧)، وقد شرحها سماحة الشيخ عبدالله بن جبرين ـ حفظه الله ـ وشرحه مطبوع.

دُعي إلى الإسلام فامتنع أن يقبل الإسلام، وبقي على نصرانيته، وفد على عمر بن عبدالعزيز، وطلب أن يدخل عليه ليجيزه جائزةً، فقال: «أليس هو الذي يقول:

وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمَضَانَ طَوْعًا ... وَلَسْتُ بِآكِلٍ لَحْمِ الْأَضَاحِي
وَلَسْتُ بِزَاجِرٍ عِيسًا بُكُورًا ... إِلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ لِلنَّجَاحِ
وَلَسْتُ بِزَائِرٍ بَيْتًا بَعِيدًا ... بِمَكَّةَ أَبْتَغِي فِيهِ صَلَاحِي
وَلَسْتُ بِقَائِمٍ كَالْعِيرِ أَدْعُو ... قُبَيْلَ الصُّبْحِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ
وَلَكِنِّي سَأَشْرَبُهَا شَمُولًا ... وَأَسْجُدُ عِنْدَ مُنْبَلَجِ الصَّبَاحِ

والله لا يدخل عليَّ وهو كافرٌ أبدًا»[1].

هذه عقيدته ! يتمدّح بأنه سيشرب الخمر، ويسجد للشمس إذا طلعت أو غربت، ويتمدح بأنه لا يحج البيت، ويتمدَّح بأنه لا يأكل لحم الأضاحي، ويشبه المؤذن ـ الذي يؤذن: حيَّ على الفلاح ـ بأنه كالعَيْر، فهل يُقبل مثلُ هذا، وهل يكون كلامُه حجة؟

ثم يحتجُّ أيضًا عليهم الشارح بأن النصارى ضلّوا في مسمى الكلام الذي نحن بصدد تحريفه، فعندهم أن عيسى ـ عليه السلام ـ نفس كلمة الله، يقولون: إنه نفس الكلمة. والصحيح: أنه خلق بها، لا أنه هو الكلمة، يقولون: عيسى هو الكلمة، وهو قوله: كن، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ

---

(١) ذكر الأثر والأبيات ابن الجوزي في المنتظم (٧/ ٣٦).

﴿ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩]، فهو خلقه وقال له: كن، كما خلق آدم وقال له: كن، وسُمِّي كلمة الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ﴾ [النساء:١٧١]، الكلمة التي ألقاها هي قوله: ﴿كُن﴾، وهي كلام الله خلق بها كما خلق سائر المخلوقات، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فالنصارى ضلُّوا في هذا الباب، واعتقدوا أن عيسى نفس الكلمة.

وإذا كان هو شاعرًا نصرانيًّا، فإنه تكلم على عقيدة النصارى، فكيف نقلِّد النصارى فيما اعتقدوا؟ هذا كلّه على تقدير أن البيت ثابت.

ثم لسنا بحاجة إلى الاستدلال بأقوال النصارى، فكتاب الله وسنة نبيِّه وكلام العرب واضحٌ في أن المتكلِّم يُسمَّى متكلِّمًا، والذي لا يتكلَّم يسمى أخرس، ومن معلوم أنه قد يقوم بقلب الأخرس كلام، وقد يشير إليه، وإذا أشار إليه فُهِم منه، فمعناه أن الأخرس الذي لا ينطق يُسمى متكلِّمًا على قول هؤلاء الأشاعرة.

فعُرِف بذلك أنه لا دلالة لهم بذلك، وأن القول الثابت والصحيح، أن الكلام هو اللفظ والمعنى جميعًا، ليس هو المعنى الذي استشهدوا له بهذا البيت.

قال الشارح:

وَهُنَا مَعْنًى عَجِيبٌ، وَهُوَ: أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَهُ شَبَهٌ قَوِيٌّ بِقَوْلِ النَّصَارَى الْقَائِلِينَ بِاللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ! فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: كَلَامُ اللَّهِ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِذَاتِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ سَمَاعُهُ، وَأَمَّا النَّظْمُ الْمَسْمُوعُ فَمَخْلُوقٌ، فَإِفْهَامُ الْمَعْنَى الْقَدِيمِ بِالنَّظْمِ الْمَخْلُوقِ يُشْبِهُ امْتِزَاجَ اللَّاهُوتِ بِالنَّاسُوتِ الَّذِي قَالَتْهُ النَّصَارَى فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الشَّبَهِ مَا أَعْجَبَهُ!

وَيَرُدُّ قَوْلَ مَنْ قَالَ: بِأَنَّ الْكَلَامَ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ: قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّ صَلَاتَنَا هَذِهِ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ»[1]، وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ، وَإِنَّ مِمَّا أَحْدَثَ أَنْ لَا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلَاةِ»[2]. وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْمُصَلِّيَ إِذَا تَكَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ عَامِدًا لِغَيْرِ مَصْلَحَتِهَا بَطَلَتْ صَلَاتُهُ، وَاتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّ مَا يَقُومُ بِالْقَلْبِ مِنْ تَصْدِيقٍ بِأُمُورٍ دُنْيَوِيَّةٍ وَطَلَبٍ، لَا يُبْطِلُ الصَّلَاةَ، وَإِنَّمَا يُبْطِلُهَا التَّكَلُّمُ بِذَلِكَ، فَعُلِمَ اتِّفَاقُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِكَلَامٍ.

قال الشيخ:

اللاهوت عندهم: الإله، والناسوت: الناس. والنصارى يدَّعُون أن

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود (٩٢٤)، والنسائي (١٢٢١)، وأحمد (١/ ٤٣٥)، وابن حبان (٦/ ١٥) من حديث ابن مسعود ﷺ. وأخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم، قبل حديث رقم (٧٥٢٢).

اللاهوت اتصل بالناسوت، فتكوَّن منهما هذا الإنسان، وتبعهم على هذا الاعتقاد أيضًا ملاحدةٌ يقال لهم: أهل الاتحاد وأهل الوحدة؛ عندهم أن اللاهوت متصلٌ بالناسوت ومتحد معه. وفي ذلك يقول حلاّجهم:

سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ نَاسُوتَهُ   سِرَّ سَنَا لَاهُوتِهِ الثَّاقِبِ
حَتَّىٰ بَدَا مُسْتَتِرًا ظَاهِرًا   فِي صُورَةِ الْآكِلِ وَالشَّارِبِ

ولا شك أن هذا الكلام كفر، والله تعالى هو الخالق وما سواه مخلوق، فكلام النصارى في قولهم: إن عيسى هو عين الكلمة، وأن الكلمة جزء من ذات الربِّ سبحانه وتعالى، شبيه بقول الاتحادية الذين يزعمون -كزعم النصارى- أن اللاهوت اتحد مع الناسوت وأصبح شيئًا واحدًا. وأن من جملة ذلك عيسى أنه خلق من أنثى، ولكن بعد اتصال اللاهوت بالناسوت، وجلود المؤمنين تقشعرُّ من أن يتصور هذا التصوّر، ولكن قلوب أولئك صُدَّت عن معرفة الحق فزُيِّن لهم الباطل والعياذ بالله.

ثم استطرد الشارح -رحمه الله- في الرد على من يقول: (إِنَّ الْكَلَامَ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ)، ومعلوم أن الكلام هو ما يُسمع، فلا يُقال للساكت: إنه تكلم، إذا جلست إلى إنسان وهو يحدِّث نفسه هل تقول: إنه تكلّم بكذا وكذا؟ ما دام أنه صامت ما نطق بكلمة، فإنك لا تقول: إنه تكلم، بل تقول: جلستُ معه وقمتُ وهو ساكت، ولو أنه منذ جلست يحدث نفسه.

واستدل الشارح على فساد قولهم، بحديثين:

الحديث الأول: حديث معاوية بن الحكم ﷺ، قال: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ

رَسُول اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فقلت: وَاثكَل أُمِّيَاهْ ما شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إلي؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ على أَفْخَاذِهِمْ، فلما رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي، لَكِنِّي سَكَتُّ، فلما صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبِأَبِي هو وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ ولا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا منه، فَوَاللَّهِ ما كَهَرَنِي وَلا ضَرَبَنِي ولا شَتَمَنِي، قال: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ من كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُو التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ**»(١).

فجعل الكلام هذا كلامًا يبطل الصلاة، ولكنه عذره لجهله، لكونه جاهلًا لم يشعر بما يقول أنه مبطل.

والحديث الثاني: «**إِنَّ اللَّهَ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ، وَإِنَّ مِمَّا أَحْدَثَ أَنْ لَا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلَاةِ**»، يعني: مما تجدد الوحي أن لا تتكلموا في الصلاة، وكانوا أول ما فُرضت يكلم أحدهم أخاه بحاجته، فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، أُمروا بالسكوت، ونهوا عن الكلام.

فالكلام الذي يبطل الصلاة هو اللفظ الذي يسمع، الكلمات التي ينطق بها الإنسان وتخرج من فمه من بين شفتيه يسمعها من حوله، لا شك أنها تبطل الصلاة، فلو أن إنسانًا قال لآخر عمدًا: أنصت، أو قم، أو تعال، أو نحو ذلك، متعمدًا، وهو عالم أنه في صلاة، بطلت صلاته، وإنما رُخِّص في الكلام الذي

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

من مصلحة الصلاة أو نحوها، أو من مكمِّلات أركان الصلاة، كالتسبيح عندما ينوب الإمام شيء أو ما أشبه ذلك.

فالكلام الذي يُسمع، وهو من غير أركان الصلاة، يبطل الصلاة.

وهل تبطل الصلاة بحديث النَّفس؟! لا تبطلُ، فالإنسان لا يسلم غالبًا من حديث النفس، فأيُّنا لا يحدِّث نفسه؟ كما رُوي عن مصعب بن سعد أنه قال لأبيه: «ياأبتِ! أرأيت قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥]، أهو ما يحدِّث به أحدُنا نفسه في صلاته ؟ قال: لا، ولكن السهو أن يؤخروها عن وقتها»[1]؛ لأنه قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمۡ﴾، ولم يقل في صلاتهم، فالسهو في الصلاة وإن كان ينقِّص منها ولكنه لا يبطلها، لأجل ذلك يقع السهو كثيرًا من المصلي، ولأجل ذلك شُرع سجودُ السهو، علم الله أنه يحصلُ السهو، فيزيد في الصلاة بسبب اشتغال قلبه وبسبب حديث قلبه، وينقص منها ويقدم أو يؤخر؛ وذلك لأن قلبه قد يشتغل بشيء من حديثه أو من أموره الدنيوية، فيغفل عما هو مقبل عليه فيسهو.

فحديث النفس لا يسمى كلامًا، لو كان يسمى كلامًا لبطلت به الصلاة؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِن كَلَامِ النَّاسِ»، فَعُلِم أن حديث النفس لا يُسمَّى كلامًا، ولأجل ذلك يرد على

---

(١) أخرجه الطبري (٣٠/ ٣١١)، والبيهقي في الكبرى (٢/ ٢١٤).

هؤلاء الذين يقولون: (إِنَّ الْكَلَامَ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ)، بل نقول: ليس كذلك، إنما الكلام هو ما يُسمع وما ينطق به المتكلِّم. هذا هو حقيقة الكلام، وأما ما هو غير ذلك، فإنه يسمى وسوسة، أو حديث نفس، أو سهوًا، أو ما أشبه ذلك.

قال الشارح:

وَأَيْضًا: فَفِي (الصَّحِيحَيْنِ) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ أَوْ تَعْمَلْ بِهِ». فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ عَفَا عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ إِلا أَنْ تَتَكَلَّمَ، فَفَرَّقَ بَيْنَ حَدِيثِ النَّفْسِ وَبَيْنَ الكَلامِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لا يُؤَاخِذُ بِهِ حَتَّى يَتَكَلَّمَ بِهِ، وَالْمُرَادُ: حَتَّى يَنْطِقَ بِهِ اللسَانُ، بِاتِّفَاقِ العُلَمَاءِ. فَعُلِمَ أَنَّ هَذَا هُوَ الكَلامُ فِي اللُّغَةِ؛ لأَنَّ الشَّارِعَ إِنَّمَا خَاطَبَنَا بِلُغَةِ العَرَبِ.

قال الشيخ:

لا زال الشارح ـ رحمه الله ـ يأتي بالأدلة التي ترد على الذين يقولون: إن كلام الله نفسي، وأنه شيء في النفس لا أنه تكلم به بكلام مسموع، وذلك لأنهم ينكرون أن الله تعالى يتكلم بحرف وصوت، ويقولون: إن كلام الله هو المعنى، وأن هذه الحروف التي في القرآن ليست نفسها كلام الله، إنما كلام الله هو ما دل عليه المعنى، فيتكلم في الرد على هؤلاء، وهذا قول مشتهر عند الأشاعرة الذين ينكرون أن يكون الله يتكلم بحرف وصوت، فهذا الحديث دليل على أن ما حدثت بها نفسها ـ أي: الأمة ـ لا يُسمى كلامًا، فعلى هذا إذا كان الله تعالى لم يتكلم بهذا، وإنما هو شيء في نفسه فإنه لا يُسمى كلامًا، ولا يُقال: إنه كلام الله.

أخبر ﷺ أن الله عفا عن حديث النفس، إلا أن تتكلم، أو تعمل، ففرق بين حديث النفس وبين الكلام، فدل على أن حديث النفس لا يُسمى كلامًا، فلو

كان القرآن إنما هو حديث النفس لم يتلفظ ولم يتكلم به الله تعالى، لكان لا يُسمى كلامًا، أخبر ﷺ أن الله لا يؤاخذ به - أي: بحديث النفس - حتى يتكلم به، أي: حتى ينطق به اللسان، هكذا اتفاق العلماء أن حديث النفس لا يؤاخذ به لما في هذا الحديث، ولقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فعُلم أن هذا هو الكلام الذي يُعرف عند العرب، والشارع خاطبنا باللغة العربية الفصحى، فدلّ على أن حديث النفس لا يُسمى كلامًا، وإنما يُسمى حديث نفس، أو ما أشبه ذلك.

وهذا الحديث أخرجه البخاري(١) ومسلم(٢) وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ، وهو مروي في أكثر السنن(٣) وفي غيرها، وقد خُصصت به الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤]، أخبر ﷺ بأن الله تعالى لا يؤاخذ بما في النفس.

---

(١) برقم (٢٥٢٨، ٥٢٦٩).

(٢) برقم (١٢٧).

(٣) أبو داود (٢٢٠٩)، والترمذي (١١٨٣)، والنسائي (٣٤٣٣)، وابن ماجه (٢٠٤٠).

قال الشارح:

وَأَيْضًا فَفِي السُّنَنِ: أَنَّ مُعَاذًا ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلا حَصَائِدُ أَلسِنَتِهِمْ؟!». فَبَيَّنَ أَنَّ الكَلامَ إِنَّمَا هُوَ بِاللِّسَانِ، فَلَفْظُ القَوْلِ وَالكَلامِ وَمَا تَصَرَّفَ مِنْهُمَا - مِنْ فِعْلٍ مَاضٍ وَمُضَارِعٍ وَأَمْرٍ وَاسْمِ فَاعِلٍ - : إِنَّمَا يُعْرَفُ فِي القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَسَائِرِ كَلامِ العَرَبِ إِذَا كَانَ لَفْظًا وَمَعْنًى.

وَلَمْ يَكُنْ فِي مُسَمَّى الكَلامِ نِزَاعٌ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَإِنَّمَا حَصَلَ النِّزَاعُ بَيْنَ المُتَأَخِّرِينَ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ البِدَعِ، ثُمَّ انْتَشَرَ.

قال الشيخ:

هذا الحديث أخرجه الترمذي[١]، وأحمد[٢]، والنسائي في «السنن الكبرى»[٣]، وابن ماجه[٤]، من طريقين: عن معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ، لكن ذكروا أنه لم يثبت سماع أبي وائل عن معاذ.

(١) برقم (٢٦١٦).

(٢) (٥/ ٢٣١).

(٣) برقم (١١٣٣٠).

(٤) برقم (٣٩٧٣).

وأخرجه أحمد[١]، والطيالسي[٢]، وابن أبي شيبة[٣] من رواية عروة بن النزال عن معاذ ولم يسمع منه أيضًا، وأخرجه أحمد[٤] من رواية شهر بن حوشب عن عبدالرحمن بن غنم عن معاذ، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف[٥] من طريق عبيدة بن حميد عن الأعمش عن الحكم عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ، وهو موجود في الأحاديث الأربعين النووية، وقد حكم النووي بصحته، وقد شرحه وأطال في شرحه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»[٦].

والشاهد فيه: أنه ﷺ أخبر بأن الكلام إنما هو باللسان لما قال: (بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ)، فأخبر بأنه في حصائد ألسنتهم، فدل على أن ما يقوم في القلب، وما يقوم في النفس لا يُسمى كلامًا، فهؤلاء الأشاعرة الذين يقولون: إن كلام الله هو المعنى، وأن جبريل ـ عليه السلام ـ هو الذي عبَّر بهذا القرآن، أو محمد ﷺ هو الذي عبر بهذه الحروف وبهذه الألفاظ. لاشك أنهم أنكروا أن يكون الله تعالى متكلمًا.

---

(١) (٥/ ٢٣٧).
(٢) برقم (٥٦٠).
(٣) (٥/ ٣٢٠).
(٤) (٥/ ٢٣٦).
(٥) (٥/ ٣٢٠).
(٦) (ص٢٦٨).

قوله: (فَلَفْظُ القَوْلِ وَالكَلامِ وَمَا تَصَرَّفَ مِنْهُمَا، مِنْ فِعْلٍ مَاضٍ وَمُضَارِعٍ وَأَمْرٍ وَاسْمِ فَاعِلٍ)، نحو (قال) و(يقول) و(قل)، و(القول)، (تكلم)، (يتكلم)، (تكلم) (كلامًا).

قوله: (إِنَّمَا يُعْرَفُ فِي القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَسَائِرِ كَلامِ العَرَبِ إِذَا كَانَ لَفْظًا وَمَعْنًى)، يعني: إذا كان الكلام باللفظ، أي بالحروف، وكذلك إذا كان له معنى، فالحروف المركبة التي ليس لها معنى لا تسمى كلامًا، كما بين ذلك النحويون ونحوهم؛ كقول ابن مالك في الألفية: «كلامنا لفظ مفيد كاستقم»[1]؛ وكذلك قال الصنهاجي: «الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع»[2].

يقول: (وَلَمْ يَكُنْ فِي مُسَمَّى الكَلامِ نِزَاعٌ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ)، أي: كلهم لا خلاف بينهم في مسمى الكلام أنه اللفظ والمعنى، كلهم يعرفون ذلك، وكذلك العرب تعرفه.

قوله: (وَإِنَّمَا حَصَلَ النِّزَاعُ بَيْنَ المُتَأَخِّرِينَ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ البِدَعِ، ثُمَّ انْتَشَرَ)، وذلك لأن المعتزلة أنكروا أن يكون القرآن كلام الله، وجعلوه مخلوقًا؛ لأنهم خُيل إليهم أن الكلام إنما يخرج من الفم ومن اللسان واللهوات والشفتين والحنجرة ونحو ذلك، فصعب عليهم أن يقروا بأن الله يتكلم بهذا الكلام على

(١) انظر: ألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل (١/ ١٣).

(٢) انظر: أنواع الكلام في «الآجرومية» بشرح حسن الكفراوي (ص٧).

هذه الصفة؛ فلذلك قالوا: القرآن مخلوق. وقاربهم الأشاعرة الذين وافقوهم على أن الله لا يتكلم بالحرف والصوت لما يستلزمه ـ كما يزعمون ـ من ثبوت هذه الجوارح ونحوها، ولما اشتهر عند أئمتهم أن القرآن كلام الله، لم يقدروا على أن يخالفوا ما نُقل عن السلف ـ رحمهم الله ـ كما نُقل عن الشافعي وأحمد وسفيان الثوري ووكيع والليث بن سعد وشعبة ونحوهم من العلماء، فاصطلحوا على أن الكلام هو المعنى، وأن القرآن إنما هو كلام الله بالمعنى ليس باللفظ، وكان من أكثر ما يستدلون به بيت ويذكرون أنه لشاعر نصراني وهو الأخطل، فيستدلون به دائمًا وهو قوله:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلَا

وقد تقدم الجواب عن هذا البيت وعن بقية استدلالاتهم.

قال الشارح:

وَلا رَيْبَ أَنَّ مُسَمَّى الكَلامِ وَالقَوْلِ وَنَحْوِهِمَا - لَيْسَ هُوَ مِمَّا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلى قَوْلِ شَاعِرٍ، فَإِنَّ هَذَا مِمَّا تَكَلَّمَ بِهِ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ، وَعَرَفُوا مَعْنَاهُ، كَمَا عَرَفُوا مُسَمَّى الرَّأْسِ وَاليَدِ وَالرِّجْلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَلا شَكَّ أَنَّ مَنْ قَالَ: إِنَّ كَلامَ اللَّهِ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ تَعَالى، وَإِنَّ المَتْلُوَّ المَحْفُوظَ المَكْتُوبَ المَسْمُوعَ مِنَ القَارِئِ حِكَايَةُ كَلامِ اللَّهِ وَهُوَ مَخْلُوقٌ، فَقَدْ قَالَ بِخَلْقِ القُرْآنِ فِي المَعْنَى وَهُوَ لا يَشْعُرُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالى يَقُولُ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ [الإسراء:٨٨]، أَفَتَرَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى يُشِيرُ إِلى مَا فِي نَفْسِهِ، أَوْ إِلى المَتْلُوِّ المَسْمُوعِ؟

وَلا شَكَّ أَنَّ الإِشَارَةَ إِنَّمَا هِيَ إِلى هَذَا المَتْلُوِّ المَسْمُوعِ، إِذْ مَا فِي ذَاتِ اللَّهِ غَيْرُ مُشَارٍ إِلَيْهِ، وَلا مُنَزَّلٍ وَلا مَتْلُوٍّ وَلا مَسْمُوعٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾، أَفَتَرَاهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: لا يَأْتُونَ بِمِثْلِ مَا فِي نَفْسِي مِمَّا لَمْ يَسْمَعُوهُ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ، وَمَا فِي نَفْسِ البَارِي - عَزَّ وَجَلَّ - لا حِيلَةَ إِلى الوُصُولِ إِلَيْهِ، وَلا إِلى الوُقُوفِ عَلَيْهِ.

قال الشيخ:

لفظ (الكلام)، ولفظ (القول)، ولفظة (نطق) ونحوها، معروف في لغة العرب، لا يُحتاج في إثباته إلى الاستشهاد بقول شاعر؛ كهذا الشاعر الذي هو

الأخطل، فإن هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللغة، نقلوا الكلام والقول والنطق وما أشبه ذلك، وكذلك كانوا يعرفونه لفظًا ومعنى، كما يعرفون مسمى الرأس واليد والرجل ونحو ذلك، أنها أسماء لأشياء حقيقة، ويفرقون بينها في اللغة فلا أحد يشتبه عليه مسمى الرأس، ولا مسمى اليد والرجل.

والذين يقولون: (**إِنَّ كَلامَ اللَّهِ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ إن عُبر عنه بالعربية فهو قرآن، وإن عُبر عنه بالعبرية فهو توراة، وإن عُبر عنه بالسريانية فهو إنجيل**)، أو كما يقولون، وإنه ليس عين كلام الله تعالى، ويقولون: (**وَإِنَّ الْمَتْلُوَّ الْمَحْفُوظَ الْمَكْتُوبَ الْمَسْمُوعَ مِنَ الْقَارِئِ حِكَايَةُ كَلامِ اللَّهِ وَهُوَ مَخْلُوقٌ**)، مَنْ قال بذلك فقد قال بخلق القرآن في المعنى وهو لا يشعر، إذا قال: إن هذا الذي نقرؤه ونسمعه من القارئ، ونكتبه في المصاحف، ونحفظه في صدورنا، إنه ليس عين كلام الله، وإنما هو حكاية لكلام الله، وأنه مخلوق؛ لأنه ترجمة لكلام الله الذي في نفسه، فالذين قالوا: هذه المقالة يلزمهم أن يكونوا من الذين يقولون: إن القرآن مخلوق في المعنى، وهم لا يشعرون؛ لأن هذا شيء لازم لهم، الله تعالى أخبر بأن هذا القرآن الذي يُتلى هو المعجز في هذه الآية: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾[الإسراء:٨٨]، أخبر تعالى بأنهم لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذي يتلونه، والذي يسمعونه؛ فإنهم يعجزون عن أن يأتوا بمثله، الإشارة في قوله:

﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، ليس إلى ما في نفس الله تعالى، فإن الذي في نفس الله لا يمكن الوصول إليه، وإنما المراد بهذا القرآن أي هذا المسموع المتلو الذي تسمعونه، والذي تقرؤونه وتكتبونه، فالإشارة إنما هي إلى هذا القرآن الذي يُتلى ويُسمع ويُكتب في المصاحف، هو الذي لا يقدرون على أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، أما الذي في ذات الله فإنه غير مشار إليه، وليس منزلاً، ولا متلوًا ولا مسموعًا؛ لأنه أمر يقوم بذات الرب تعالى. فدل على أن المراد هذا القرآن الذي نزل على قلب النبي ﷺ بلسان عربي مبين، وأنه عين كلام الله؛ كما قال بعض المتأخرين في عقيدته[1]:

بَلْ إِنَّهُ عَيْنُ الْكَلَامِ أَتَىٰ بِهِ   جِبْرِيلُ يَنْسَخُ حُكْمَ كُلِّ كِتَاب

قوله: (قوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾، أَفَتُرَاهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: لا يَأْتُونَ بِمِثْلِ مَا فِي نَفْسِي مِمَّا لَمْ يَسْمَعُوهُ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ، وَمَا فِي نَفْسِ البَارِي - عَزَّ وَجَلَّ - لا حِيلَةَ إِلَى الوُصُولِ إِلَيْهِ، وَلا إِلَى الوُقُوفِ عَلَيْهِ)، فعلى هذا إنما قال: لا يأتون بمثل هذا القرآن الذي يسمعونه ويتلونه ويقرؤونه، والذي أُنزل على قلب النبي ﷺ.

---

(١) هذا البيت ينسب لعمران بن رضوان المتوفى سنة ١٢٨٠هـ نزيل لنجة بأرض فارس، طُبعت قصيدته ضمن كتاب الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية للشيخ سليمان بن سحمان.

قال الشارح:

فَإِنْ قَالُوا: إِنَّمَا أَشَارَ إِلَى حِكَايَةِ مَا فِي نَفْسِهِ وَعِبَارَتِهِ، وَهُوَ الْمَتْلُوُّ الْمَكْتُوبُ الْمَسْمُوعُ، فَأَمَّا أَنْ يُشِيرَ إِلَى ذَاتِهِ فَلا - فَهَذَا صَرِيحُ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ، بَلْ هُمْ فِي ذَلِكَ أَكْفَرُ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ، فَإِنَّ حِكَايَةَ الشَّيْءِ بِمِثْلِهِ وَشَبَهِهِ، وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِأَنَّ صِفَاتِ اللَّهِ مَحْكِيَّةٌ، وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ التِّلاوَةُ حِكَايَةً لَكَانَ النَّاسُ قَدْ أَتَوْا بِمِثْلِ كَلامِ اللَّهِ، فَأَيْنَ عَجْزُهُمْ؟! وَيَكُونُ التَّالِي - فِي زَعْمِهِمْ - قَدْ حَكَى بِصَوْتٍ وَحَرْفٍ مَا لَيْسَ بِصَوْتٍ وَحَرْفٍ. وَلَيْسَ الْقُرْآنُ إِلا سُوَرًا مُسَوَّرَةً، وَآيَاتٍ مُسَطَّرَةً، فِي صُحُفٍ مُطَهَّرَةٍ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود:١٣]، ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٩]، ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس:١٣، ١٤]، وَيُكْتَبُ لِمَنْ قَرَأَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ. قَالَ ﷺ: «أَمَا إِنِّي لا أَقُولُ (الٓمٓ) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»(١). وَهُوَ الْمَحْفُوظُ فِي صُدُورِ الْحَافِظِينَ الْمَسْمُوعُ مِنْ أَلْسُنِ التَّالِينَ.

قَالَ الشَّيْخُ حَافِظُ الدِّينِ النَّسَفِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «الْمَنَارِ»: «إِنَّ الْقُرْآنَ اسْمٌ لِلنَّظْمِ وَالْمَعْنَى». وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الأُصُولِ، وَمَا يُنْسَبُ إِلَى أَبِي

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠) من حديث ابن مسعود ﷺ.

حَنِيفَةَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: أَنَّ مَنْ قَرَأَ فِي الصَّلاةِ بِالفَارِسِيَّةِ أَجْزَأَهُ». فَقَدْ رَجَعَ عَنْهُ، وَقَالَ: «لا يَجُوزُ القِرَاءَةُ مَعَ القُدْرَةِ بِغَيْرِ العَرَبِيَّةِ». وَقَالُوا: لَوْ قَرَأَ بِغَيْرِ العَرَبِيَّةِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَجْنُونًا فَيُدَاوَى، أَوْ زِنْدِيقًا فَيُقْتَل؛ لأَنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهِ بِهَذِهِ اللُّغَةِ، وَالإِعْجَازُ حَصَلَ بِنَظْمِهِ وَمَعْنَاهُ.

قال الشيخ:

قوله: (فَإِنْ قَالُوا: إِنَّمَا أَشَارَ إِلَى حِكَايَةِ مَا فِي نَفْسِهِ وَعِبَارَتِهِ، وَهُوَ المَتْلُوُّ المَكْتُوبُ المَسْمُوعُ، فَأَمَّا أَنْ يُشِيرَ إِلَى ذَاتِهِ فَلا)، يرد عليهم ـ رحمه الله ـ فيقول: هذا صريح القول بأن القرآن مخلوق، إذا قلتم: إن قوله: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ [الإسراء:٨٨]، إشارة إلى حكاية ما في نفسه وعبارته، يعني: أن هذا القرآن حكاية وعبارة عن ما في نفس الباري ـ سبحانه وتعالى ـ وقد أصبح مكتوبًا مسموعًا، وليس الإشارة إلى ذاته، هكذا يقولون، فيقول الشارح: هذا صريح القول بأن القرآن مخلوق؛ وذلك لأن هذا المتلو والمسموع ولو كان كما تقولون حكاية ما في نفس الله وعبارته، فإنه ليس هو عين كلام الله، إنما هو عبارة وحكاية.

فعلى هذا يكون مخلوقًا، فالذين يقولون بذلك، هم مثل المعتزلة، أو قد يكونون أكفر من المعتزلة، فإن المعتزلة قالوا: إن القرآن كله مخلوق، ولم يقولوا: إنه حكاية ولا عبارة، فيقال: إن حكاية الشيء مثله وشبهه، حكاية ما في نفسه

وعبارته لاشك أنها مثله وشبهه، فهذا تصريح بأن صفات الله تعالى محكية ومترجمة.

يقول: (وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ التِّلاوَةُ حِكَايَةً لكَانَ النَّاسُ قَدْ أَتَوْا بِمِثْلِ كَلامِ اللَّهِ)، أي: بمثل القرآن؛ لأنهم ترجموا ما في نفس الله تعالى، وأتوا بهذا القرآن فيكون هذا القرآن ليس هو عين كلام الله، إنما هو عين كلام هؤلاء الذين ترجموه: إما الملائكة، وإما محمد ﷺ، ونحو ذلك، فعلى هذا قد قدر الناس وقدر المخلوقون؛ كجبريل عليه السلام، ومحمد ﷺ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فكيف يكونون عاجزين، والله تعالى يقول: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، فعلى قولهم: إن الإشارة إلى حكاية ما في نفسه، فالذين يتلون القرآن ويقرؤونه ـ في زعمهم ـ قد حكوا صوتًا وحرفًا عن الله تعالى ما ليس بحرف وصوت، قد حكوا هذه الأصوات وهذه الحروف وهي ليست حروفًا وليست أصواتًا، ومعلوم أننا نسمعها من القارئ، نسمع أصواتًا ونستمع حروفًا كل حرف وكل كلمة وكل جملة منفصلة ودالة على معنى، القرآن هو سور مسورة كل سورة لها أول ولها آخر، وآيات مسطرة كل آية لها مبدأ ومنتهى، قد تكون آيات قصيرة من كلمة واحدة؛ كقوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٤]، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ [الفجر:١]، وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ [العصر:١]، وقد تكون طويلة؛ كآية الكرسي، وآية الدين، والقرآن ذكر الله أنه ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس:١٣،

١٤]، فإذا كان كذلك دل على أنه ليس هو كلام البشر، وليس هو تعليمهم، وإنما هو عين كلام الله الذي تكلم به كما يشاء.

فعلى هذا نعتقد: أن القرآن كيفما تُلي، وكيفما قُرئ، فإنه عين كلام الله، وأنه سور؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣]، وقوله: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود:١٣]، ونعتقد أنه آيات؛ كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩]، أي: أنهم يحفظونه في صدورهم ويكتبونه في مصاحفهم، وكذلك قوله ـ عز وجل ـ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس:١١ـ ١٤]، بما أن الله تعالى نزهه وأخبر بأنه في صحف الملائكة، أو اللوح المحفوظ مكرمة، وكذلك في هذه المصاحف يجب أن تكون مكرمة مرفوعة مطهرة، تُطهر عن أن يمسها المحدث، وتُرفع عن أن تكون في مستوى الأرض ونحوه، أخبر النبي ﷺ بأنه يُكتب لمن قرأه بكل حرف عشر حسنات في قوله: **«من قَرَأَ حَرْفًا من كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لا أَقُولُ (الٓمٓ) حَرْفٌ، وَلكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»**[1].

قيل: إنه أراد بالحرف الكلمة؛ لأن كلمة (ألف) تتكون من (همزة ولام وفاء)، وكذلك (لام) تتكون من (لام وألف وميم)، وكذلك (ميم) من

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٠٠).

(ميمين وبينهما ياء).

وعلى كل حال إنه دليل على فضل قراءة القرآن، وأن القرآن هو المحفوظ في صدور الحافظين، الذي يسر الله تعالى حفظه بقوله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر:١٧]، وقوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ [مريم:٩٧]، محفوظ في صدور الحافظين، ومسموع من ألسن التالين، نسمعه إذا تلاه التالي، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

ثم قال عن الشيخ حافظ الدين النسفي عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي: كان إمامًا بارعًا في الحديث ومعانيه، له كتاب «منار الأنوار» في أصول الفقه)، والنسفي هذا مشهور أنه من الحنفية، وغالب أهل زمانه على المذهب الأشعري في الصفات، ولكنه ها هنا نطق بالحق، فقال: (إِنَّ القُرْآنَ اسْمٌ لِلنَّظْمِ وَالمَعْنَى)، صحيح أن هذا القرآن يعم حروفه ومعانيه.

قوله: (وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الأُصُولِ)، أي: من أهل أصول الفقه، كلهم يقولون: إن القرآن لفظًا ومعنى هو كلام الله.

قوله: (وَمَا يُنْسَبُ إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: أَنَّ مَنْ قَرَأَ فِي الصَّلاةِ بِالفَارِسِيَّةِ أَجْزَأَهُ)، لعل هذا قاله أبو حنيفة عندما كان بجوار الفارسيين؛ لأن أصله فارسي، وقد يشق عليهم القراءة بالعربية، ولكن ذكر أنه رجع ، يقول المرغيناني في (الهداية) وكذلك العيني في شرحها: «يُروى رجوع أبي حنيفة في أصل المسألة، إلى قول أبي محمد بعدم حجية القراءة بغير العربية، كذلك أيضًا

رواه الرازي وغيره وعليه الاعتماد، وتنزيله منزلة الإجماع، القرآن اسم للنظم والمعنى، جميعًا بالإجماع».

فلا يمكن أن أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ يجوز أن تُقرأ الفاتحة في الصلاة بلغة غير العربية، بل يلزم القراءة بالعربية، الفاتحة وغيرها، ولا يجوز القراءة بغيرها، أما غير القراءة كالخطب والمواعظ والرسائل، فلا مانع من أنه يكتبها ويقرؤها بالفارسية وغيرها، حتى يتبين لهم الكلام الذي يريدون فهمه، فذكر أن أبا حنيفة قال: (**لا يَجُوزُ القِرَاءَةُ مَعَ القُدْرَةِ بِغَيْرِ العَرَبِيَّةِ**).

والأئمة يقولون: (**لوْ قَرَأَ بِغَيْرِ العَرَبِيَّةِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَجْنُونًا فَيُدَاوَى، أَوْ زِنْدِيقًا فَيُقْتَل**)، الذي يستحل القراءة بغير العربية يُتهم بأنه مجنون، فيُعالج حتى يُشفى، أو يُتهم بأنه زنديق ومنافق، والمنافقون والزنادقة يُقتلون؛ لأنهم أنكروا ما جاءت به الرسل، وادعوا كذب الرسل، وصاروا يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

قوله: (**لأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ بِهَذِهِ اللُّغَةِ، وَالإِعْجَازُ حَصَلَ بِنَظْمِهِ وَمَعْنَاهُ**)، نزل القرآن بالعربية؛ لأنها أفصح اللغات، وأكثرها مواد ومعاني؛ فلأجل ذلك نزل هذا القرآن وتكلم الله تعالى بهذه العربية، وقد رُوي عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «تعلموا العربية، فإنها تثبت العقل، وتزيد في المروءة»[1]، وقد ذكر الله

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٠٢)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٥)، وأخرج ابن أبي شيبة (٦/ ١١٦) نحوه عن أُبي بن كعب ﷺ.

تعالى أن هذا القرآن عربي في قوله تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٥]، أي: بلسان العرب الواضح، وكذلك لما أن الكفار قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾، أجاب الله بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل:١٠٣]، أي: ذلك الذي يميلون إليه ويقولون: إن محمدًا تعلم منه أعجمي، وهذا القرآن نزل باللغة العربية، والإعجاز حصل بنظمه ومعناه، فكونهم عجزوا عن أن يأتوا بمثله لقوله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾[الطور:٣٤]، عجزوا عن ذلك، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود:١٣]، عجزوا عن ذلك ولو كانت من السور القصار، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ﴾ [البقرة:٢٣، ٢٤]، أي: أنكم تعجزون عن أن تأتوا بمثله ولو دعوتم أعوانكم وشركاءكم؛ لأنه أفصح الكلام، ولأنه من الله تعالى، فهو معجز بلفظه ومعناه، وقد تكلم العلماء على إعجاز القرآن وبينوا أنه معجز لا يقدر أحد على مثله؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قال الطحاوي ـ رحمه الله ـ:

وَمَنْ سَمِعَهُ، وَقَالَ: إِنَّهُ كَلامُ البَشَرِ، فَقَدْ كَفَرَ.

قال الشارح:

لا شَكَّ فِي تَكْفِيرِ مَنْ أَنْكَرَ أَنَّ القُرْآنَ كَلامُ اللَّـهِ، بَل قَالَ إِنَّـهُ كَـلامُ مُحَمَّـدٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الخَلقِ، مَلكًا كَانَ أَوْ بَشَرًا. وَأَمَّا إِذَا أَقَرَّ أَنَّهُ كَلامُ اللَّـهِ، ثُـمَّ أَوَّل وَحـرَّف فَقَدْ وَافَقَ قَـوْل مَـنْ قَـال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥]، فِي بَعْضِ مَا بِهِ كَفَرَ، وَأُولئِكَ الذِينَ اسْتَزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ، وَسَيَأْتِي الكَلامُ عَليْهِ عِنْدَ قَـوْل الـشَّيْخِ: (وَلا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْل القِبْلةِ بِذَنْبٍ مَا لمْ يَسْتَحِلهُ)، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالى.

قال الشيخ:

كلام الماتن: (وَمَنْ سَمِعَهُ)، يعني: سمع القرآن، (وَقَال: إِنَّـهُ كَـلامُ البَـشَرِ، فَقَدْ كَفَرَ). صريـح في أنـه كفـر إذا أنكـر أن القـرآن كـلام الله؛ لقـول الله تعـالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٥]، معلـوم أنهـم إنـما سمعوا هذا القرآن الـذي أُنـزل عـلى محمـد ﷺ، فـإذا قـال: إنـه كـلام محمـد، أو ترجمته، أو ترجمة غيره من الخلق ملكًا كان أو بشرًا، أو أن محمدًا افتراه؛ كما قال ذلك المشركون في قولـه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود:٣٥]، وغير ذلك من الآيات، فالذي يقول: إنه من

كلام محمد، أو من كلام ملك أو بشر، فإنه يكفر.

ثم يخبر أنه إذا أقر أنه كلام الله، ولكنه أوّل وحرَّف وغيَّره عن ما يدل عليه، أو قال: إنه ترجمة، أو إنه ليس عين كلام الله. فمثل هذا قد وافق قول مَنْ قال: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ [المدثر:٢٥]، وذلك قول الوليد الذي ذكره الله تعالى، فإن الوليد بن المغيرة قال: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ [المدثر:٢٤، ٢٥]، فتوعده الله بقوله: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر:٢٦]، وافق هذا القائل في بعض ما قاله، وفي بعض ما كفر به، هؤلاء الذين يقولون: إنه من قول البشر أولئك الذين ﴿ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ﴾ [آل عمران:١٥٥]، ووعد الشيخ الشارح أنه سوف يتوسع في الكلام عن ذلك عند قول الماتن: (وَلا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلهُ).

قال الطحاوي - رحمه الله -:

وَلا يُشْبِهُ قَوْلَ البَشَرِ.

قال الشارح:

يَعْنِي: أَنَّـهُ أَشْرَفُ وَأَفْـصَحُ وَأَصْـدَقُ. قَـال تَعَـالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء:٨٧]، وَقَال تَعَالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨] الآيَةَ، وَقَال تَعَالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [هود:١٣]، وَقَال تَعَالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [يونس:٣٨]، فَلَمَّا عَجَزُوا - وَهُمْ فُصَحَاءُ العَرَبِ، مَعَ شِدَّةِ العَدَاوَةِ - عَنِ الإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، تَبَيَّنَ صِدْقُ الرَّسُول ﷺ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ الله. وَإِعْجَازُهُ مِنْ جِهَةِ نَظْمِهِ وَمَعْنَاهُ، لا مِنْ جِهَةِ أَحَدِهِمَا فَقَطْ، هَـذَا مَعَ أَنَّهُ قُرْآنٌ عَرَبِيٌّ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ - أَيْ: بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ - فَنَفْيُ المُشَابَهَةِ مِنْ حَيْثُ التَّكَلُّمُ، وَمِنْ حَيْثُ النَّظْمُ وَالمَعْنَى، لا مِنْ حَيْثُ الكَلِمَاتُ وَالحُرُوفُ، وَإِلى هَـذَا وَقَعَتِ الإِشَارَةُ بِالحُرُوفِ المُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِل السُّوَرِ - أَيْ: أَنَّهُ فِي أُسْلُوبِ كَلامِهِمْ وَبِلُغَتِهِمُ التِي يَتَخَاطَبُونَ بِهَا - أَلا تَـرَى أَنَّهُ يَأْتِي بَعْدَ الحُرُوفِ المُقَطَّعَةِ بِذِكْرِ القُرْآنِ؟ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة:١، ٢]، ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [آل عمرن: ١-٣]،

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [يونس:١]، وَكَذَلِكَ البَاقِي يُنَبِّهُهُمْ أَنَّ هَذَا الرَّسُول الكَرِيمَ لمْ يَأْتِكُمْ بِمَا لا تَعْرِفُونَهُ، بَل خَاطَبَكُمْ بِلسَانِكُمْ.

قال الشيخ:

صحيحٌ أنه لا يشبه قول البشر؛ وذلك لأنه أعجزهم عن معارضته مع شدة عداوتهم له، فهو أشرف وأفصح وأصدق من كلام كل البشر مع أنه بلسانهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء:٨٧]، يعني: أنه من كلام الله تعالى، وقال: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء:١٢٢]، أي: أنه قول من الله تعالى، والله تعالى لا أحد أصدق منه؛ وكذلك قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨]، أي: لو اجتمع الخلق من الجن والإنس على معارضة القرآن لعجزوا عنه؛ وكذلك قال تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [هود:١٣]، فتحداهم بذلك فعجزوا، ثم تحداهم أيضًا فقال ـ عز وجل ـ: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [يونس:٣٨]، فلما عجزوا عن معارضته، وعلى أن يأتوا بمثله عندما طلب الله ذلك منهم في قوله: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور:٣٤]، فعجزوا كلهم مع أنهم فصحاء

العرب، ومع شدة العداوة التي عادوه بها؛ لأنه سفه أحلامهم وسبَّ آلهتهم، فعجزوا عن الإتيان بسورة مثله، فضلاً عن الإتيان بمثله كله.

فبذلك تبين صدق النبي ﷺ فيما جاء به، وأن هذا القرآن من عند الله، وأنه كلام الله حقًا ليس كلام أحد من البشر، فيتبين (إِعْجَازُهُ مِنْ جِهَةِ نَظْمِهِ وَمَعْنَاهُ)، أي: أنه أعجزهم لم يقدروا على معارضته من جهة النظم فيأتوا بسورة من مثله نظمًا، وكذلك من جهة معناه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

قوله: (لا مِنْ جِهَةِ أَحَدِهِمَا فَقَطْ)، أي: من جهة النظم، ولا من جهة المعنى، بل من جهة النظم والمعنى.

يقول: (هَذَا مَعَ أَنَّهُ قُرْآنٌ عَرَبِيٌّ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ـ أَيْ: بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ)، التي يتكلمون بها وهم فصحاء، يدل على فصاحتهم ما رُوي من أشعارهم وخطبهم البليغة، ومع ذلك جاء هذا القرآن باللغة العربية الفصحى، فلم يقدروا على معارضته.

قوله: (فَنَفْيُ الْمُشَابَهَةِ مِنْ حَيْثُ التَّكَلُّمُ، وَمِنْ حَيْثُ النَّظْمُ وَالمَعْنَى)، أي: أنهم لا يأتون بما يشبهه من حيث التكلم به؛ لأنه كلام الله، ومن حيث نظمه ومعناه، (لا مِنْ حَيْثُ الكَلِمَاتُ وَالحُرُوفُ)، أما الكلمات والحروف فإن كلامهم يشتمل على هذه الحروف العربية التي يتكلمون بها.

يقول: (وَإِلَى هَذَا وَقَعَتِ الإِشَارَةُ بِالحُرُوفِ المُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ)، وهي

تسع وعشرون سورة أُفتتحت بالحروف المقطعة، وهي: (الٓمٓ) وأخواتها، و(المص)، (المر)، (طسم)، (حم) (عسق)، وكذلك (طه)، (كهعيص)، (ص)، (ق)، (**أَيْ: أَنَّهُ فِي أُسْلُوبِ كَلامِهِمْ وَبِلُغَتِهِمُ التِي يَتَخَاطَبُونَ بِهَا**).

ثم قال: (**أَلا تَرَى أَنَّهُ يَأْتِي بَعْدَ الحُرُوفِ المُقَطَّعَةِ بِذِكْرِ القُرْآنِ ؟**)، في سورة (البقرة): ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ ﴾ [البقرة:١، ٢]، بعد الحروف الثلاثة أشار إلى الكتاب، أي: هذا الكتاب الذي لا ريب فيه، وفي أول سورة (آل عمـــــران): ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [آل عمرن: ١-٣]، ذكر إنزال الكتاب بالحق بعد الحروف، وبعد كلمة التوحيد؛ كذلك في أول سورة (الأعراف): ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الأعـــراف: ١، ٢]، وكـــذلك في ســـورة (يـــونس): ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [يـونس:١]،، وفي ســورة (الرعــد): ﴿ الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد:١]، وغيرهن من البواقي كلهن بعدما تُذكر الحروف يُذكر بعد ذلك إشارة إلى القرآن، قد يُستثنى من ذلك أول سورة (مريم): ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ [مريم:١، ٢]، فإن هذا فيه نوع إشارة إلى أن رحمة ربك التي نزلت على زكريا - عليه السلام - من كلام الله، وكذلك أول سورة (العنكبوت)، وأول سورة (الروم)، ولكن فيها نوع الإشارة إلى شيء من كلام الله، ينبههم إلى أن هذا الرسول الكريم لم يأتكم بها لا تعرفونه، لم يأتكم بشيء

غريب، بل خاطبكم بلسانكم الذي تتكلمون به؛ ولهذا لما قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾، قال الله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾، أي: يميلون إليه، ﴿أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣]، أي: هذا القرآن جاء بلسانكم العربي الواضح المبين.

قال الشارح:

وَلكِنَّ أَهْلَ المَقَالاتِ الفَاسِدَةِ يَتَذَرَّعُونَ بِمِثْلِ هَذَا إِلى نَفْيِ تَكَلُّمِ الله بِهِ، وَسَمَاعِ جِبْرِيلَ مِنْهُ، كَمَا يَتَذَرَّعُونَ بِقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، إِلى نَفْيِ الصِّفَاتِ. وَفِي الآيَةِ مَا يَرُدُّ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس:٣٨]، مَا يَرُدُّ عَلى مَنْ يَنْفِي الحَرْفَ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾، وَلَمْ يَقُلْ فَأْتُوا بِحَرْفٍ، أَوْ بِكَلِمَةٍ. وَأَقْصَرُ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ ثَلاثُ آيَاتٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ ـ رَحِمَهُمَا اللهُ ـ: إِنَّ أَدْنَى مَا يُجْزِئُ فِي الصَّلاةِ ثَلاثُ آيَاتٍ قِصَارٍ أَوْ آيَةٌ طَوِيلَةٌ؛ لأَنَّهُ لا يَقَعُ الإِعْجَازُ بِدُونِ ذَلِكَ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

قال الشيخ:

يريد بأهل المقالات الفاسدة: المعتزلة، وغلاة الأشاعرة، والماتريدية، والكلابية ونحوهم، الذين يتذرعون بمثل هذا، ويقول: هو كتاب أنزل إليك، أو هو كتاب، يتذرعون به إلى نفي تكلم الله به، أنه ما تكلم به، مع صريح الآيات أنه كلام الله، مثل قول الله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٥]، وكذلك ينفون سماع جبريل منه، وجبريل بلغه وإنما نُسب القول إليه في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٤٠]، يعني: تبليغ رسول كريم، الذي هو

جبريل - عليه السلام - لا أنه هو الذي أنشأه، فهكذا يتذرعون بهذه الآيات لنفي أن الله تعالى تكلم به، أو أن جبريل - عليه السلام - سمعه منه بهذه الحروف.

وهكذا يتذرع المعتزلة والمعطلة بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، إلى نفي جميع الصفات، فيقولون: إذا أثبتنا صفةً فإن الصفة موجودة في المخلوق فيكون ذلك تشبيهًا، والله ليس كمثله شيء.

نقول: إن في هذه الآية ما يرد قولكم، وهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، فأول الآية رد على الممثلة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وآخر الآية: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، رد على المعطلة الذين نفوا صفات الله تعالى.

كما في قول الله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس:٣٨]،فدل على أنه سور، وأن بعضها يشبه بعضًا، ففي قوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾، ما يرد قول من ينفي الحرف، فيقولون: إن كلام الله ليس بصوت ولا بحرف، وأنه معنى قائم بنفسه. هكذا يقولون، والله تعالى يقول: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾، ولم يقل فأتوا بحرف أو بكلمة.

قوله: (وَأَقْصَرُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ثَلاثُ آيَاتٍ)، أقصر سورة في القرآن هي سورة (الكوثر) ثلاث آيات، وكذلك سورة (العصر)، وكذلك سورة (النصر)، كلها ثلاث آيات.

نقل الشارح عن أبي يوسف ومحمد صاحبي أبي حنيفة - رحمهما الله - أنهما يقولان: (إِنَّ أَدْنَى مَا يُجْزِئُ فِي الصَّلاةِ ثَلاثُ آيَاتٍ قِصَارٍ أَوْ آيَةٌ طَوِيلَةٌ؛ لأَنَّهُ لا يَقَعُ الإِعْجَازُ بِدُونِ ذَلِكَ. وَاللهُ أَعْلَمُ). أبو يوسف قد تقدم ذكره في مقدمة الكتاب، وكذلك محمد بن الحسن الشيباني، وكلاهما رويا عن الإمام أبي حنيفة.

يقول المرغيناني في «الهداية» - وهو حنفي -: «أدنى ما يجزئ من القراءة في الصلاة آية عند أبي حنيفة، وقالا:» - يعني: أبا يوسف ومحمد - «ثلاث آيات قصار أو آية طويلة؛ لأنه لا يسمى قارئًا بدونها، فأشبه قراءة ما دون الآية».

ونقل العيني في (البناية) التي هي شرح (الهداية): «أن قولهما هو رواية عن أبي حنيفة».

على كل حال: هذا كله دليل على أن القرآن كلام الله، وأنه ليس يشبه قول البشر.

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قال الطحاوي - رحمه الله -:

وَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِمَعْنًى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ، فَقَدْ كَفَرَ، فَمَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتَبَرَ، وَعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُفَّارِ انْزَجَرَ، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كَالْبَشَرِ.

قال الشارح:

لَمَّا ذَكَرَ - فِيمَا تَقَدَّمَ - أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ حَقِيقَةً، مِنْهُ بَدَا، نَبَّهَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كَالْبَشَرِ، نَفْيًا لِلتَّشْبِيهِ عَقِيبَ الْإِثْبَاتِ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَإِنْ وُصِفَ بِأَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ، لَكِنْ لَا يُوصَفُ بِمَعْنًى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ الَّتِي يَكُونُ الْإِنْسَانُ بِهَا مُتَكَلِّمًا، فَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. وَمَا أَحْسَنَ الْمَثَلَ الْمَضْرُوبَ لِلْمُثْبِتِ لِلصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، بِاللَّبَنِ الْخَالِصِ السَّائِغِ لِلشَّارِبِينَ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ فَرْثِ التَّعْطِيلِ وَدَمِ التَّشْبِيهِ، وَالْمُعَطِّلُ يَعْبُدُ عَدَمًا، وَالْمُشَبِّهُ يَعْبُدُ صَنَمًا. وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّيْخِ: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ)، وَكَذَا قَوْلُهُ: (وَهُوَ بَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ)، أَيْ: دِينُ الْإِسْلَامِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّعْطِيلَ شَرٌّ مِنَ التَّشْبِيهِ؛ لِمَا سَأَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَيْسَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا مَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ تَشْبِيهًا، بَلْ صِفَاتُ الْخَالِقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ، وَصِفَاتُ الْمَخْلُوقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ.

وَقَوْلُهُ: (فَمَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتَبَرَ)، أَيْ: مَنْ نَظَرَ بِعَيْنِ بَصِيرَتِهِ فِيمَا قَالَهُ مِنْ إِثْبَاتِ الْوَصْفِ وَنَفْيِ التَّشْبِيهِ وَوَعِيدِ الْمُشَبِّهِ، اعْتَبَرَ وَانْزَجَرَ عَنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُفَّارِ.

قال الشيخ:

ذكر في هذا الكلام أن من الناس من غلا وجعل كلام الله ككلام البشر، ومنهم من جفا ونفى أن يكون لله كلام أصلًا، وادعى أن القرآن مخلوق، ومنهم من أثبت لله تعالى كلامًا، ونفى أن يكون مثل كلام المخلوقين، وهذا هو القول الوسط، وهو قول أهل السنة. ويقال كذلك في سائر الصفات، وهو أن كل صفة نثبتها لله تعالى فإنا نعتقد أنها على ما يليق به، وننزِّه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن أن يكون شبيهًا بالمخلوقين في أي صفةٍ، كما ننزهه عن أن تُسلب عنه صفات الكمال، فسَلْبُ الصفات يُسمى تعطيلًا، وإثباتها واعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين يُسمى تشبيهًا، وكلاهما طرفا نقيض، وكلاهما باطل لا يجوز القول به، والقول الوسط ـ الذي هو قول أهل السنة ـ اعتقاد أن صفات الله وكلامه وأفعاله ثابتة وحقٌّ ويقين، وليست مماثلةً لصفات المخلوقين، هكذا يجب أن نقول، ولأجل ذلك مثَّله الشارح باللَّبَن الصافي الذي يخرج من بين فَرْثٍ ودم، فجعل اللَّبَن هو قول أهل السنة، والفَرْثُ والدم قولَ المعطِّلة والمشبِّهة.

وذكر أن بعض السَّلف كانوا يقولون: «الممثِّل يعبد صنمًا، والمعطِّل يعبد عدمًا، والموحِّد يعبد إلهًا واحدًا فردًا صمدًا». ويقول آخر: من شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومَن نفى عنه ما أثبته لنفسه فقد كفر، وليس في إثبات صفات الله تعالى تشبيه أصلًا، بل فيها إثبات صفاتٍ تليق بجلاله، ينزَّه فيها عن أن يكون مشابهًا لشيء من المخلوقات، وهكذا ينبغي أن نعتقد في صفات ربِّنا سبحانه وتعالى.

وبلا شك، أن كلا الطرفين يعتقده خَلْقٌ، يعني: طرف التشبيه يعتقده أناس، وطرف التعطيل عليه أمم آخرون، ولكن المعطِّلة أكثر، لما يروِّجونه من عقليَّاتهم التي يموِّهون بها في نفي الصفات، فلأجل ذلك يقول الشارح: إن المعطِّلة أشد كفرًا من المشبِّهة، و ما ذاك إلَّا لكثرة ما ابتُلِيَ بهم الخلق؛ فلذلك يرجح كثير من الأئمة أن المعطِّل قد تنَقَّص الله غاية التنقُّص، حتى سلب ربَّه سبحانه صفات الكمال وألحقه بالناقصات أو بالجمادات أو بالمعدومات أو بالمستحيلات الممتنعات، يعني: من لازم أقوالهم مثل هذا، فلذلك يقول ابن القيم في نونيّته[1]:

لَسْنَا نُشَبِّهُ رَبَّنَا بِصِفَاتِنَا ... إِنَّ الْمُشَبِّهَ عَابِدُ الْأَوْثَانِ

كَلَّا وَلَا نُخْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ ... إِنَّ الْمُعَطِّلَ عَابِدُ الْبُهْتَانِ

يعني: ما كأنه يعبد شيئًا، ولا يؤمن بشيء - تعالى الله عن قولهم - ويأتي لذلك أيضًا زيادة بيان في الردِّ على الطائفتين.

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٢١٢).

قال الطحاوي:

وَالرُّؤْيَةُ حَقٌّ لِأَهْلِ الجَنَّةِ، بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا كَيْفِيَّةٍ، كَمَا نَطَقَ بِهِ كِتَابُ رَبِّنَا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣]، وَتَفْسِيرُهُ عَلَى مَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى وَعَلِمَهُ.

وَكُلُّ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ مِنَ الحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَمَعْنَاهُ عَلَى مَا أَرَادَ، لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا، فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ.

قال الشارح:

المُخَالِفُ فِي الرُّؤْيَةِ: الجَهْمِيَّةُ وَالمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الخَوَارِجِ وَالْإِمَامِيَّةِ، وَقَوْلُهُمْ بَاطِلٌ مَرْدُودٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَقَدْ قَالَ بِثُبُوتِ الرُّؤْيَةِ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ، وَأَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ المَعْرُوفُونَ بِالْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ، وَأَهْلُ الحَدِيثِ، وَسَائِرُ طَوَائِفِ أَهْلِ الْكَلَامِ المَنْسُوبُونَ إِلَى السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ.

وَهَذِهِ المَسْأَلَةُ مِنْ أَشْرَفِ مَسَائِلِ أُصُولِ الدِّينِ وَأَجَلِّهَا، وَهِيَ الْغَايَةُ الَّتِي شَمَّرَ إِلَيْهَا المُشَمِّرُونَ، وَتَنَافَسَ المُتَنَافِسُونَ، وَحُرِمَهَا الَّذِينَ هُمْ عَنْ رَبِّهِمْ مَحْجُوبُونَ، وَعَنْ بَابِهِ مَطْرُودُونَ.

قال الشيخ:

من هنا بدأ الماتن ثم الشارح بالكلام على مسألة رؤية المؤمنين لربِّهم سبحانه وتعالى، والرؤية في الآخرة ثابتة لأهل السنة في الجنة وفي الموقف أحيانًا، وهذه الرؤية من تمام نعيم أهل الجنة، ومن تمام كرامتهم، ومن تمام إتحافهم والإنعام عليهم، أن يروا ربَّهم، وأن يتجلَّى لهم ربُّهم كما يشاء، وأن يكشف الحجاب بينهم وبينه، وأن ينظروا إليه كما يشاء، وإذا نظروا إليه لم يلتفتوا إلى غيره حتى يحتجب عنهم، فيزدادون بهجةً وسرورًا، وتُسْفِرُ وجوههم وتزدادُ نُضرة، ويزدادون حبرةً وفرحًا.

وأخبر العلماء والعبَّاد والعارفون بأنه لولا يقينهم بأنهم سيرون ربهم تعالى لقتلوا أنفسهم، ولو خافوا أنهم في الآخرة لا يتنعَّمون برؤيته لَمَا قرَّ لهم قرارٌ، ولَمَا سُرُّوا بذلك الموعد، لكن اطمأنوا إلى خبر ربِّهم، والخبر عن نبيِّهم عليه أفضل الصلاة والسلام، وصدَّقُوا بأنهم في يوم القيامة وفي الجنة يتنعَّمون غاية التنعُّم برضا الله سبحانه وتعالى، ثم بعد ذلك برؤيته، ولا شكَّ أن ذلك واردٌ في الأدلة الكثيرة، وفي النصوص الصحيحة التي لا تحتاج إلى تدعيمٍ ولا إلى تقوية، والتي بلغت في كثرتها التواتر، وسيورد الشارح كثيرًا منها، ولكن أنكرها - مع كثرتها - من حُرِموا هذا النعيم، ومن صُدُّوا بقلوبهم عن هذا الأمر العظيم، أولئك هم الجهمية والمعتزلة، وأتباعهم من الخوارج والإمامية.

والجهمية أتباع الجهم بن صفوان، وهو أوَّل من أنكر الصفات، كما أنكر أن يكون الربُّ - سبحانه وتعالى - يُرى، وقال: لا يمكن أن يُرى إلَّا إذا كان في

مقابلة أو كان في جهة، فادّعى أن رؤيته مستحيلة غير ممكنة.

وتَبِعت الجهميَّةَ المعتزلةُ، والمعتزلة فِرقٌ كثيرة، لا يزالون موجودين، ولهم مؤلَّفات ينكرون فيها الصفات، ومن جملة الصفات الرؤية، ينكرون أكبر نعيم وأكبر لذَّة لأهل الجنة، ولأهل الدنيا إذا تذكروها، هداهم ما تذكروه إلى طلبها وإلى المغالاة في العبادة التي تؤهِّلهم لها، ولا شكَّ أن هذه العبادة هي أجلُّ العبادات، وهذا النعيم هو أجلُّ نعيم يحصل لأهل الجنة.

وتبعهم على ذلك المتأخرون من الخوارج، فإنهم على هذا المعتقد، وهو إنكار الرؤية، والقول بأن القرآن مخلوق، والقول بأن العبد ليس له أية قدرة، بل هو مَسلوبُ القدرة، أما المتقدمون من الخوارج فلم يُنقل عنهم كل ذلك.

هذه من عقائد المعتزلة التي وافقهم عليها بعض الخوارج، وقد اطَّلَعتُ على كتاب لبعض المتأخرين سمَّاه «الحقُّ الدامغ»، أنكر فيه الصفات، وركَّز على مسألة الرؤية، وتكلَّف في صرفِ الأدلة التي تدل عليها، وركز فيه أيضًا على مسألة القرآن وأنه مخلوق، وكذلك مسألة القدر، فأنكر قدرة الله على أفعال العباد، فينبغي أن نأخذ حذرنا من مثل هذه الكتب وهؤلاء المؤلفين، وهذا المؤلف موجود في دولة عُمان، وقد ضلَّ بسببه خلق كثير، ولكن بحمد الله أن الحق واضح، ويبشِّرُنا كثيرٌ من الذين ذهبوا إلى تلك الدولة أن كثيرًا من الشباب الذين تفتَّحت معارفهم قد أنكروا معتقد أسلافهم وآبائهم لمثل هذا، وأنهم رجعوا إلى عقيدة أهل السنة، ولو لم يتمكنوا من الإفصاح بها، ولكن الإباضية هناك ـ والذين هم فرقة من الخوارج ـ لهم الدولة ولهم الصَّولة ولهم

القوة، فَهُم من بقية الخوارج يعتقدون هذه العقيدة.

وبكل حال، فإن مسألة الرؤية هي من أجلِّ المسائل ومن أفضلها، اعتقدها أهل السنة، وآمنوا بها، ولا عبرة بمن أنكرها من هؤلاء، فقد أخبر الله تعالى بأن من خلقه من يُحْجَبُ عنه، في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥]، وهؤلاء منهم بلا شك، إذا كانوا ينكرون أن يكون الله تعالى يُرى في الآخرة فمعناه أنهم لا يريدون رؤية الله، وأنهم سيُحجبُون عن الله تعالى، ولا يُحجب عنه إلا الكافرون، فقد حرموا أنفسهم هذه اللذة وأنكروها، فيكونون معاقبون بمثل ما اعتقدوه والعياذ بالله.

قال الشارح:

وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ مِنَ الْأَدِلَّةِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣]، وَهِيَ مِنْ أَظْهَرِ الْأَدِلَّةِ، وَأَمَّا مَنْ أَبَى إِلَّا تَحْرِيفَهَا بِمَا يُسَمِّيهِ تَأْوِيلًا، فَتَأْوِيلُ نُصُوصِ الْمَعَادِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْحِسَابِ، أَسْهَلُ مِنْ تَأْوِيلِهَا عَلَى أَرْبَابِ التَّأْوِيلِ، وَلَا يَشَاءُ مُبْطِلٌ أَنْ يَتَأَوَّلَ النُّصُوصَ وَيُحَرِّفَهَا عَنْ مَوَاضِعِهَا إِلَّا وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ مِنَ السَّبِيلِ مَا وَجَدَهُ مُتَأَوِّلُ هَذِهِ النُّصُوصِ.

وَهَذَا الَّذِي أَفْسَدَ الدُّنْيَا وَالدِّينَ، وَهَكَذَا فَعَلَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي نُصُوصِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَحَذَّرَنَا اللَّهُ أَنْ نَفْعَلَ مِثْلَهُمْ، وَأَبَى الْمُبْطِلُونَ إِلَّا سُلُوكَ سَبِيلِهِمْ، وَكَمْ جَنَى التَّأْوِيلُ الْفَاسِدُ عَلَى الدِّينِ وَأَهْلِهِ مِنْ جِنَايَةٍ، فَهَلْ قُتِلَ عُثْمَانُ ﷺ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ! وَكَذَا مَا جَرَى فِي يَوْمِ الْجَمَلِ، وَصِفِّينَ، وَمَقْتَلِ الْحُسَيْنِ ﷺ، وَالْحَرَّةِ؟ وَهَلْ خَرَجَتِ الْخَوَارِجُ، وَاعْتَزَلَتِ الْمُعْتَزِلَةُ، وَرَفَضَتِ الرَّوَافِضُ، وَافْتَرَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ؟!

وَإِضَافَةُ النَّظَرِ إِلَى الْوَجْهِ، الَّذِي هُوَ مَحَلُّهُ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَتَعْدِيَتُهُ بِأَدَاةِ (إِلَى) الصَّرِيحَةِ فِي نَظَرِ الْعَيْنِ، وَإِخْلَاءُ الْكَلَامِ مِنْ قَرِينَةٍ تَدُلُّ عَلَى خِلَافِهِ حَقِيقَتِهِ وَمَوْضُوعِهِ، صَرِيحٌ فِي أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ بِذَلِكَ نَظَرَ الْعَيْنِ الَّتِي فِي الْوَجْهِ إِلَى الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ.

قال الشيخ:

أصرحُ ما استدلّ به أهل السنة هو هذه الآية التي في سورة القيامة، قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣]، الكلمة الأولى رسمت بالضَّاد، والمراد أنها وجوهٌ مشرقة ناضرةٌ، من النضارة التي هي البهاء والإشراق والسرور والابتهاج، يعني: أنها منيرة، وقد ذكر الله تعالى أن وجوه أهل الخير هكذا فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، تبيضُّ وجوه أهل السنة والجماعة، وتسوَدُّ وجوه أهل الفرقة والابتداع، وقال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، هذه وجوه أهل السعادة أيضًا.

فهكذا ذكر الله في هذه الآية أن هذه الوجوه ناضرة، يعني: بهيَّةٌ مشرقةٌ مستنيرة مضيئة، تغشاها الفرحة والسرور، لماذا؟ لأنها شاعرة بالسعادة، ولأنها أيقنت بحسن العاقبة، ولأنها عرفت الفوز والظفر بالمطلوب، وعرفت أنها ستلقى الجزاء الذي وعدت به، وهو الجزاء الأوفى الذي هو جزاء الحسنات بأضعافها.

والقول الثاني: أنها لـمَّا نظرت إلى الله سبحانه أشرقت من آثار ذلك النظر، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾، أي: مشرقة مضيئة بسبب رؤيتها لله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾، أي: تلك الوجوه الناضرة ناظرة إلى ربها - جل وعلا - نظر عيان، ولم يقل: إلى نعمة ربِّها ناظرة، ولم يقل: إلى ثواب ربها ناظرة،

ولم يقل: إلى النعيم راضية، ولا إلى الجنة ناظرة، بل قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، أي: تنظر إلى ربها.

وفرق بين من يقرؤها ويُمِرُّها كما جاءت، وبين من يتكلف في تأويلها، فالمعتزلة والذين أنكروا الصفات تأوّلوها تأويلاتٍ بعيدة، فيؤول بعضهم قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ﴾ بالنعمة، يعني: آلاء ربِّها أو نِعَم ربِّها ناظرة. ونحن نقول: و﴿إِلَىٰ﴾ معروف أنه حرف جر، ولكن جعلوه اسمًا مضافًا، فقالوا: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾، أي: نعمة ربِّها، أو واحد الآلاء، ولا شك أن هذا تكلُّف بعيد.

وهكذا قال بعضهم: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، أي: إلى ثواب ربها، أو إلى نعمة ربها، أو إلى جزاء ربها، فجعلوا في الكلام مضمرًا، ما الذي دلكم على أن في الكلام مضمرًا أو محذوفًا؟ ولماذا تتركون الظاهر وتأتون بمضمر من قبل أنفسكم؟ لا شك أنه لا دلالة عليه عندهم.

وبعضهم قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، أي: إلى ربِّها منتظرة ما يعطيها أو ما يهبها، مع أن هناك فرقًا بين ناظرة وبين منتظرة.

هذه من أمثال التأويلات، وما هو إلا تكلُّف ويسمونه تأويلًا، وهو في الحقيقة تحريف وتغيير وتصحيف لكلام الله، وصرف له عن ظاهره.

نقول: إذا تسلَّطتم على هذا النص بالتأويل، أمكن غيركم وأمكنكم أن تتأوّلوا آيات المعاد، أنتم الآن يا معتزلة تسلَّطتم فتأوَّلتم آيات الصفات وحرفتموها وصرفتموها عن ظاهرها، وبفعلكم هذا فتحتم الباب لغيركم،

فجاء الفلاسفة وأنكروا المعاد الجسماني، وقالوا: ليس هناك ردٌّ للأرواح في الأجساد، وليس هناك إحياء للأموات، فقيل لهم: كيف تردون على هذه النصوص؟ فقالوا: نتأوَّلها، ليس تأويلكم لآيات الصفات أصعب من تأويلنا لآيات المعاد.

ثم جاءت فرقة أخرى من غُلاة الفلاسفة وغلاة الصوفية، فتأوَّلوا نصوص الأحكام - الحلال والحرام والأوامر والنواهي - وصرفوها أيضًا، وأبطلوها كلَّ الإبطال، حتى قال بعضُهم: المراد بالحجِّ حج القلوب إلى علاَّم الغيوب، أو قالوا مثلًا: المراد بالصلاة اتصال القلب بالربِّ، وليس معناها أن تجتمعوا في المساجد وتركعوا وتسجدوا، هذا ليس المراد منكم، إذا صفت قلوبكم، واتصلت بالملإ الأعلى، فهذه هي الصلاة التي أُمِرتُم بها! هكذا يقول الفلاسفة، ويقول الصوفية ونحوهم.

نقول: إذًا بطلت بهذا التأويل الأحكامُ التي نقلت بالفعل وبالقول الصريح ؟! بسببكم يا أشعرية ويا معتزلة، لَـمَّا فتحتم باب التأويل لآيات الصفات، فدخل من هذا الباب الفلاسفةُ والصوفيةُ وأهلُ الوحدة ونحوهم، وصاروا يتأولون، وحصل بالتأويل مفاسد، فإن الفتن التي وقعت من عهد الصحابة إنما هي بسبب **التأويلات الباطلة**، يعني: قتل عثمان ﷺ، وقتل الحسين ﷺ، وكذلك الفتن التي حصلت، مثل وقعة صفِّين، ووقعة الجمل، ووقعة الحرَّة، حصلت بسبب التأويلات البعيدة عن الصواب.

فلا تتأولوا النصوص، بل أجرُوها على ما يُفهم منها، وفوِّضوا الكيفية،

إذا قصرت أنظارُكم ومعرفتُكم عن شيء فلتتوقّف عن الكيفية، كيفيَّة تلك الرؤية، أو كيفية الصفة التي هي صفة ذات، قولوا: الله أعلم بها، كما قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: «الاستواء معلومٌ، والكيف مجهولٌ». فهكذا نقول: الكلام معلومٌ، والكيف مجهول، والرؤيةُ معلومةٌ وكيفيتها مجهولة لنا، الله أعلم بكيفيتها.

وإذا كان كذلك سَلِمنا من أن نقع في هذا التحريف الذي سمَّاه أهله تأويلًا ترويجًا له؛ حتى يُقبل عند السُّذَّجِ وقِصار الأفهام.

قال الشارح:

فَإِنَّ النَّظَرَ لَهُ عِدَّةُ اسْتِعْمَالَاتٍ، بِحَسَبِ صِلَاتِهِ وَتَعَدِّيهِ بِنَفْسِهِ: فَإِنْ عُدِّيَ بِنَفْسِهِ فَمَعْنَاهُ: التَّوَقُّفُ وَالانْتِظَارُ، كَقَوْلِهِ: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد:١٣]، وَإِنْ عُدِّيَ بِـ (فِي)، فَمَعْنَاهُ: التَّفَكُّرُ وَالاعْتِبَارُ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]، وَإِنْ عُدِّيَ بِـ (إِلَى)، فَمَعْنَاهُ: الْمُعَايَنَةُ بِالْأَبْصَارِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام:٩٩]، فَكَيْفَ إِذَا أُضِيفَ إِلَى الْوَجْهِ الَّذِي هُوَ مَحَلُّ الْبَصَرِ؟

وَرَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ بِسَنَدِهِ إِلَى ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢]، قَالَ: مِنَ الْبَهَاءِ وَالْحُسْنِ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]، قَالَ: فِي وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[(١)]. عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: نَظَرَتْ إِلَى رَبِّهَا فَنَضِرَتْ بِنُورِهِ[(٢)]. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، قَالَ: تَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ[(٣)]. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿وُجُوهٌ

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الديلمي في الفردوس (٤/ ٤٠٩)، وأخرج نحوه: أحمد (٢/ ١٣، ٦٤)، والترمذي (٢٥٥٣)، والطبري (٢٩/ ١٩٣)، وأبو يعلى (١٠/ ٧٦)، والحاكم (٢/ ٥٠٩)، والدارقطني في الرؤية (ص١٤٤).

(٢) أخرجه الطبري (٢٩/ ١٩٢)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٦٤)، والآجري في الشريعة (٢/ ٩٩١)، والدارقطني في الرؤية (ص١٦٢).

(٣) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٦٤)، والآجري في الشريعة
=

﴿يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾، قَالَ: مِنَ النَّعِيمِ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، قَالَ: تَنْظُرُ إِلَى رَبِّهَا نَظَرًا[١]، ثُمَّ حَكَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِثْلَهُ. وَهَذَا قَوْلُ كُلِّ مُفَسِّرٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالحَدِيثِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، قَالَ الطَّبَرِيُّ[٢]: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: هُوَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فَالحُسْنَى: الجَنَّةُ، وَالزِّيَادَةُ: هِيَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، فَسَّرَهَا بِذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالصَّحَابَةُ مِنْ بَعْدِهِ، كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»[٣] عَنْ صُهَيْبٍ، قَالَ: «قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: مَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الجَنَّةَ، وَيُجِرْنَا مِنَ النَّارِ؟ فَيُكْشَفُ الحِجَابُ، فَيَنْظُرُونَ

=

(٢/ ٩٩٠)، والبيهقي في الاعتقاد (ص١٢٦).

(١) أخرجه الطبري (٢٩/ ١٩٢)، والدارمي في الرد على الجهمية (ص١٢١)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٦٥)، والآجري في الشريعة (٢/ ٩٩٢).

(٢) في تفسيره (٢٦/ ١٧٣ ـ ١٧٥).

(٣) برقم (١٨١) بغير هذا اللفظ.

إِلَيْهِ، فَمَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَهِيَ الزِّيَادَةُ». وَرَوَاهُ غَيْرُهُ[1] بِأَسَانِيدَ مُتَعَدِّدَةٍ وَأَلْفَاظٍ أُخَرَ، مَعْنَاهَا أَنَّ الزِّيَادَةَ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَكَذَلِكَ فَسَّرَهَا الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ[2] ذَلِكَ عَنْ جَمَاعَةٍ، مِنْهُمْ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ، وَحُذَيْفَةُ، وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قال الشيخ:

هذه ثلاث آيات من كتاب الله تعالى دالَّةٌ على الرؤية أو مفسَّرة بها، فالآية الأولى هي قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣]، وفي تفاسير الصحابة والتابعين أنهم قالوا: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، أي: إلى وجه ربها، أو تنظر إلى ربِّها، صرّح بذلك عددٌ من الصحابة، وقد ذكرت أن المعتزلة حرَّفوا كلمة النظر، فجعلوه الانتظار، أو حرَّفوا كلمة (إلى) فجعلوها النعمة، أو اعتقدوا ضميرًا، فجعلوا على حذف مُضاف، أي إلى نعمة ربها، أو إلى ثواب ربِّها.

وكلمة النظر تارة تُعدَّى بنفسها، وتارة تعدّى بحرف «في»، وتارة تُعدَّى

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٠٥)، والنسائي في الكبرى (١١١٧٠)، وابن ماجه (١٨٧)، وأحمد (٤/ ٣٣٣).

(٢) في تفسيره (١١/ ١٠٤ ـ ١٠٧).

بحرف «إلى»، فمثال تعديتها بنفسها: قول الله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد:١٣]، قوله: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ هنا ليس معناه النظر بالعين، وإنما معناه انتظروا، أي: أمهلوا حتى نقتبس من نوركم، ليس معناه المعاينة؛ لأنه عُدِّيَ بنفسه، ومثال تعديته بـ «في»: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]، النظر هنا بمعنى الاعتبار، ينظر في الملكوت يعني: نظر اعتبار وتأمُّل؛ ليستدلوا بها على قدرة خالقها، وإذا عُدِّيت بـ «في» فلا تحتمل إلَّا النظر بالاعتبار.

وأما هنا، فإن النظر عُدِّى بـ «إلى»، فهو مثل قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام:٩٩]، ﴿ٱنظُرُوٓا۟﴾ هنا يعني: بأعينكم، وهي لا تحتمل غير المعاينة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧]، يعني: الإبل موجودة أمامهم فينظرون إليها معاينة، فكذلك قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، لا تحتمل إلَّا أن النظر هو المعاينة، فتبيَّن بذلك في صراحة الآية دلالتها على النظر إلى الله سبحانه وتعالى.

الآية الثانية: قوله تعالى في سورة «ق»: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، الله تعالى أخبر بأن لهم فيها ما يشاؤون، كل شيء يشاؤونه وتتمنَّاه نفوسهم أو يخطر على بالهم يحضر إليهم، ثم يقول بعد ذلك: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾،

هذا المزيد زائد عن النعيم الذي بين أيديهم، فلا بدّ أن يكون هذا الزائد له خصوصية، لذلك فُسِّر المزيد بأنه النظر إلى وجه ربِّهم، يعني: نعمة زائدة على ما يستحقونه، وهي: النظر إلى ربهم، يعني: أثابهم الله وأعطاهم ذلك، هكذا فُسِّرت من قبل السَّلف بأن المزيد هو النظر إلى ربهم.

الآية الثالثة: قوله تعالى في سورة «يونس»: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٢٥ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ ﴾ [يونس:٢٥، ٢٦]، دار السلام: هي الجنة، يدعو إليها ويدعو إلى العمل الذي يدخلها، ثم إذا دخلوها فماذا يستحقون؟ ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾، وهي الجنة التي فيها جميع أنواع الحسن، ﴿ وَزِيَادَةٞۖ ﴾، لاشك أن هذه الزيادة شيء زائد على الحسنى التي هي الجنة؛ لذلك فسَّرها رسول الله ﷺ بأنها نظرهم إلى وجه ربهم، كما في الحديث الذي رواه مسلم عن صهيب ﷺ، ورواه أيضًا غيره، وكذلك فسَّره أبو بكر وغيره من الصحابة، واستدلوا بأنه قال بعدها: ﴿ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ ﴾، يعني: أنهم بنظرهم إلى الله لا يرهَقُهم مللٌ، ولا يلحق وجوههم كدر، ولا يلحقها ذلةٌ ولا مهانة ولا غير ذلك.

لأن عادة الإنسان إذا نظر إلى الشمس في شدة وهجها، فإن وجهه قد يَعبس، أو قد يتغير، وعينيه قد تكِلُّ من قوة شُعاعها وقوة نورها، وكذلك بعض الأنوار المشعة شديدة الإضاءة كالبرق ونحوه؛ لقوله تعالى: ﴿ يَكَادُ سَنَا

﴿بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:٤٣]، والله تعالى قد أخبر بأنه نورٌ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]، وأخبر النبي ﷺ بأن حجابه النور(١). فهذا يعني أن النظر إليه مع كثرة تلك الأنوار المشعة، لا يرهق وجوه المؤمنين منه ذلّةٌ، بل تزداد وجوههم إشراقًا، وتزداد بهجة ونضارة وسرورًا، وما ذاك إلّا أنهم يعدُّون ذلك غاية النعيم، ولذلك قال بعض العابدين(٢):

فَلَو أَنِّي اسْتَطَعْتُ غَضَضْتُ طَرْفِي فَلَمْ أَنْظُرْ بِهِ حَتَّىٰ أَرَاكَ

يعني: من شدة الشوق إلى الله تعالى، يقول: لو استطعت لما نظرت إلى أي مخلوق حتى أنظر إليك يا ربي، شوقًا إليك وارتياحًا إلى رؤية ربي، هكذا حالة العارفين المشتاقين إلى ربهم. أمّا الذين أنكروا هذه الرؤية فإنهم محرومون من هذا النعيم كله، محرومون من هذه الزيادة، أو قد اعتقدوا حرمان أنفسهم والعياذ بالله.

ومسألة الرؤية مسألة كبيرةٌ شريفة، قد اهتم بها أهل السنة، وقدَّموا الكلام فيها، من وقت الإمام الشافعي وهم يجادلون فيها لمن أنكرها، ولا يزالون إلى ذلك، وقد كتب فيها ابنُ القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه المسمّى: «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»، الذي يتعلق بصفة الجنة، وقد سرد في باب من أبوابه آيات الرؤية، ثم سرد فيه الأحاديث الواردة في ذلك، والتي يمكن

(١) تقدم تخريجه (١/ ٣٦٣)، وسيورده الشارح مع أحاديث أُخر فيما بعد.

(٢) ذكره ابن الجوزي في المدهش (ص٥٠٢) ونسبه إلى المتنبي.

الاستدلال بها، وإذا كان في بعضها ضعف فإن بعضها يتقوى ببعض، والأكثر قويٌّ من حيث السند، وأعرض عن الأحاديث الموضوعة، فمن قرأه عرف بذلك كثرة ما ورد فيها من الأدلة، وهكذا أيضًا أتبعه بالنقولات ثم ردّ على من أنكر ذلك من المعتزلة، وبيَّن ما أجابوا به، وناقشهم بها استدلوا به.

وتبعه على ذلك الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي في كتابه الذي سماه «معارج القبول في شرح سلّم الأصول»، وكتاب « سُلَّم الأصول »، وهي منظومة نظمها من أول أمره، ثم شرحها في هذا الكتاب الذي يقع في مجلدين، وأفاض في الشرح وتوسع، ولَـمَّا أتى على الأدلة التي تدل على صفة الرؤية توسع أيضًا فيها، فنحيل إلى هذين الشرحين لمن أراد أن يتوسع: كتاب ابن القيم وكتاب الشيخ حافظ الحكمي، وغيرهما أيضًا من الكتب التي اعتنت بمسائل التوحيد والعقيدة، ومِن جملتها مسألة الرؤية، ومناقشة ما فيها من الخلافات، وبيان الحق لأهله.

قال الشارح:

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٥]، احْتَجَّ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الرُّؤْيَةِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، ذَكَرَ ذَلِكَ الطَّبَرِيُّ(١) وَغَيْرُهُ عَنِ الْمُزَنِيِّ عَنِ الشَّافِعِيِّ. وَقَالَ الْحَاكِمُ: حَدَّثَنَا الْأَصَمُّ حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: حَضَرْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيَّ، وَقَدْ جَاءَتْهُ رُقْعَةٌ مِنَ الصَّعِيدِ فِيهَا: مَا تَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾؟ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: «لَمَّا أَنْ حُجِبَ هَؤُلَاءِ فِي السُّخْطِ، كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ يَرَوْنَهُ فِي الرِّضَا»(٢).

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُ الْمُعْتَزِلَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف:١٤٣]، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣]، فَالْآيَتَانِ دَلِيلٌ عَلَيْهِمْ.

الْآيَةُ الْأُولَى: فَالِاسْتِدْلَالُ مِنْهَا عَلَى ثُبُوتِ رُؤْيَتِهِ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَا يُظَنُّ بِكَلِيمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ وَأَعْلَمِ النَّاسِ بِرَبِّهِ فِي وَقْتِهِ أَنْ يَسْأَلَ مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ الْمُحَالِ.

الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ سُؤَالَهُ، وَلَمَّا سَأَلَ نُوحٌ رَبَّهُ نَجَاةَ ابْنِهِ أَنْكَرَ

---

(١) في تفسيره (٣٠/ ١٠٠).

(٢) أخرجه البيهقي من طريق أبي عبد الله الحاكم في «أحكام القرآن للشافعي» (١/ ٤٠)، وأخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥٠٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥١/ ٣١٤).

سُؤَالَهُ، وَقَالَ: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦].

الثَّالِثُ: أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، وَلَمْ يَقُلْ: إِنِّي لَا أُرَى، أَوْ لَا تَجُوزُ رُؤْيَتِي، أَوْ لَسْتُ بِمَرْئِيٍّ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ الجَوَابَيْنِ ظَاهِرٌ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ كَانَ فِي كُمِّهِ حَجَرٌ فَظَنَّهُ رَجُلٌ طَعَامًا فَقَالَ: أَطْعِمْنِيهِ، فَالجَوَابُ الصَّحِيحُ: أَنَّهُ لَا يُؤْكَلُ، أَمَّا إِذَا كَانَ طَعَامًا، صَحَّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَأْكُلَهُ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَرْئِيٌّ، وَلَكِنَّ مُوسَى لَا تَحْتَمِلُ قُوَاهُ رُؤْيَتَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ؛ لِضَعْفِ قُوَى الْبَشَرِ فِيهَا عَنْ رُؤْيَتِهِ تَعَالَى. يُوَضِّحُهُ:

الْوَجْهُ الرَّابِعُ: وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، فَأَعْلَمَهُ أَنَّ الجَبَلَ مَعَ قُوَّتِهِ وَصَلَابَتِهِ لَا يَثْبُتُ لِلتَّجَلِّي فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَكَيْفَ بِالْبَشَرِ الَّذِي خُلِقَ مِنْ ضَعْفٍ؟

الخَامِسُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الجَبَلَ مُسْتَقِرًّا، وَذَلِكَ مُمْكِنٌ، وَقَدْ عَلَّقَ بِهِ الرُّؤْيَةَ، وَلَوْ كَانَتْ مُحَالًا لَكَانَ نَظِيرَ أَنْ يَقُولَ: إِنِ اسْتَقَرَّ الجَبَلُ فَسَوْفَ آكُلُ وَأَشْرَبُ وَأَنَامُ. وَالْكُلُّ عِنْدَهُمْ سَوَاءٌ.

السَّادِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف:١٤٣]، فَإِذَا جَازَ أَنْ يَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ الَّذِي هُوَ جَمَادٌ لَا ثَوَابَ لَهُ وَلَا عِقَابَ، فَكَيْفَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَتَجَلَّى لِرُسُلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ؟ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمَ مُوسَى ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ أَنَّ الجَبَلَ إِذَا لَمْ يَثْبُتْ لِرُؤْيَتِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَالْبَشَرُ أَضْعَفُ.

السَّابِعُ: أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَ مُوسَى وَنَادَاهُ وَنَاجَاهُ، وَمَنْ جَازَ عَلَيْهِ التَّكَلُّمُ وَالتَّكْلِيمُ وَأَنْ يُسْمِعَ مُخَاطِبَهُ كَلَامَهُ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ، فَرُؤْيَتُهُ أَوْلَى بِالْجَوَازِ، وَلِهَذَا لَا يَتِمُّ إِنْكَارُ رُؤْيَتِهِ إِلَّا بِإِنْكَارِ كَلَامِهِ، وَقَدْ جَمَعُوا بَيْنَهُمَا. وَأَمَّا دَعْوَاهُمْ تَأْبِيدُ النَّفْيِ بِـ (لَنْ)، وَأَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ فِي الْآخِرَةِ، فَفَاسِدٌ، فَإِنَّهَا لَوْ قُيِّدَتْ بِالتَّأْبِيدِ لَا يَدُلُّ عَلَى دَوَامِ النَّفْيِ فِي الْآخِرَةِ، فَكَيْفَ إِذَا أُطْلِقَتْ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة:٩٥]، مَعَ قَوْلِهِ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧]، وَلِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ لِلتَّأْبِيدِ الْمُطْلَقِ لَمَا جَازَ تَحْدِيدُ الْفِعْلِ بَعْدَهَا، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ [يوسف:٨٠]، فَثَبَتَ أَنَّ (لَنْ) لَا تَقْتَضِي النَّفْيَ الْمُؤَبَّدَ.

قَالَ الشَّيْخُ جَمَالُ الدِّينِ بْنُ مَالِكٍ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى ـ[1]:

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدَا فَقَوْلَهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

قال الشيخ:

أما الآية الأولى التي استدل بها الشافعي على إثبات الرؤية، فهي قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، وهي أوضح دليل على أن أهل الجنة ليسوا محجوبين عن ربهم؛ وذلك لأن هذا وعيدٌ لأعداء الله،

---

(١) انظر: شرح الكافية الشافية (٣/ ١٥١٥).

وعيد للكفار، وعيد للفجَّار الذين قال الله في حقهم: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ [المطففين:٧]، فهؤلاء من وعيدهم أنهم عن ربهم يومئذٍ - أي: يوم القيامة وما بعده - محجوبون، وقد ذكر بعدهم الأبرار في قوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ [المطففين:١٨]، ولو كانوا لا يرون ربهم لكانوا أيضًا عن ربهم محجوبين، فلم يكن هناك فرق بين الأبرار والفجار، وهؤلاء يعتبرون قد عذِّبوا بحجبهم عن ربهم، والحيلولة بينهم وبين نعمة الرؤية ونعيمها، ولا شك أن رؤية المؤمنين وعدم حجبهم نعمة ومنَّة وكرامة يزدادون بها نعيمًا وبهجة، فلو كانوا لا يرون ربهم لم يكن هناك فرق بين الأبرار والفجار، ولكانوا جميعًا عن ربهم محجوبون، فهذه آية استدل بها الشافعي ومن بعده من الأئمة على إثبات رؤية المؤمنين وحجب الكافرين.

وأما الآية الثانية فقد استدل بها المعتزلة على إنكار الرؤية، وهي في قصة موسى - عليه السلام - لـمَّا سأل الله تعالى الرؤية، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأعراف:١٤٣]، فاستدلوا بقوله: ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾، على أنك لا تراني أبدًا لا في الدنيا، ولا في الآخرة، **وهذا تأويل خاطئ**؛ لأن الآية إنما نفت الرؤية في الدنيا، وذلك لأن الإنسان في الدنيا خِلْقَتُهُ ضعيفةٌ، لا يستطيع أن يمثل أمام عظمة الربِّ سبحانه

وتعالى، فإن خلْقَتَنا في هذه الدنيا على هذه الهيئة، خلقةٌ ضئيلة ضعيفة، لا تثبت أمام تجلِّي ربِّنا، ولا أمام أنواره وجلائه وكبريائه، وقد أخبر النبي ﷺ بشيء من ذلك في قوله: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا يَنَامُ، ولا يَنْبَغِي له أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ...»، إلى قوله: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»(١)، يعني: أن هذا الحجاب في الدنيا، حجاب النور أو النار، لو كشفه لأحرق ذلك الضياء وذلك النور ما انتهى إليه من الخلق، فإذا كان كذلك، فجميع الخلق في هذه الدنيا مخلوقون من هذا اللحم والدم على هذه الخلقة الضعيفة، لا يستطيعون أن يمثلوا أمام هذه الرؤية وهذه العظمة، فهذا هو السبب في أن الله منع موسى - عليه السلام - من الرؤية في الدنيا.

ولكن هل يدل على أنه ممنوع من الرؤية في الآخرة؟ لا يدلُّ على ذلك في الآخرة؛ إذ يعطي الله أولياءه من قوة الخلقة ومن عظمها ما يثبُتُون به أمام رؤية ربِّهم، فقد وردَ أن كل من يدخل الجنة يوم القيامة «على خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، على صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا في السَّمَاءِ»(٢)، فإذا كانت هذه الزيادة في خِلَقِهم فلابدَّ أنه سيُزاد في قوة حواسِّهم وفي قوة أعضائهم حتى يتمكنوا من الثبوت أمام رؤيتهم لربهم، ولا يغشى وجوههم قتر ولا ذلّةٌ، ولا ينالهم شيء من

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٣٦٣).

(٢) أخرجهه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الضعف ولا مِمَّا ينالهم في الدنيا.

هذا هو السبب في أنّ الله منع موسى من الرؤية في الدنيا، وكذلك كلُّ أحد في الدنيا لا يستطيع أن يرى ربه، لقوله ﷺ في الحديث: «**تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- حَتَّى يَمُوتَ**»(١)، فأثبت أنه لا أحد يستطيع أن يمثل أمام عظمة ربه، وأنه لن يرى ربه حتى يموت، وذلك في حديث الدجَّال، لما أخبر بأن الدجَّال يأتي ويقول: أنا الربّ، أنا الله. أخبر بأنه كاذبٌ، وأنه لا يمكن في الدنيا لأحدٍ أن يرى ربه، إنما الرؤية في الآخرة.

ثم استدل الشارح بأن هذه الآية دليل على إثبات الرؤية لا على نفيها، فقال: (**فَالِاسْتِدْلَالُ مِنْهَا عَلَى ثُبُوتِ رُؤْيَتِهِ مِنْ وُجُوهٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَا يُظَنُّ بِكَلِيمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ وَأَعْلَمِ النَّاسِ بِرَبِّهِ فِي وَقْتِهِ أَنْ يَسْأَلَ مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ**)، نقول: معلومٌ أن موسى نبيُّ الله وكليمُه الذي كلّمه تكليمًا، ومعلوم أنه اصطفاه؛ قال تعالى: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه:٤١]، اصطفاه واختاره، وأخبر بأنه كلَّمه تكليمًا، فهو من خيار أنبياء الله ورسله وأوليائه، وقد أرسله إلى فرعون، وأرسله إلى بني إسرائيل، وأنزل عليه التوراة، وقربه نجيًّا، فهو أعرف بربه، وهو أعلم بما يستحيل على ربِّه، فكيف تكونون يا معتزلة أعلم من موسى عليه السلام؟! هل يُقال: إن فلانًا المعتزلي أو الجهمي أعلم من موسى عليه السلام؟! حاشا وكلَّا؛ موسى الذي هو أحد أولي العزم من رسل الله،

(١) رواه مسلم (١٦٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الذي ذكره الله أكثر من ذكره من بين أنبيائه في كلامه، لا يكون ذلك المعتزلي أو الجهمي أعلم منه بما يستحيل على الله، وبما يجوز على الله، هذا مما تحيله العقول، ومما لا يجوز في شرع الله.

ثم إن الله تعالى ما أنكر عليه لما قال: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾[الأعراف:١٤٣]، ولم يوبِّخه على ذلك، وقد أنكر على نوحٍ ـ عليه السلام ـ لَـمَّا سأل نجاةَ ولده، لَـمَّا قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود:٤٥]، أنكر عليه وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦]، أنكر على نوح هذا السؤال، ولكن موسى ـ عليه السلام ـ لَـمَّا سَأل وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، ما أنكر عليه، بل قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾، فهل هذا دليل على أن هذا السؤال ليس بمستحيل، وقد قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، ولم يقل: إني لا أُرى، إنه لا تجوزُ رؤيتي، إني لست بمرئيٍّ، بل قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، أي: لن تراني في الدنيا، ولا تستطيع ذلك. والفرق بين العبارتين واضح.

ومثَّل لذلك المؤلف ـ رحمه الله ـ بما إذا كان مع إنسان حجرٌ، وظننته رغيفًا، فقلت: أطعمني من هذا، فقال: لن تُطعمه، هل تفهم أنه ليس بطعامٍ، بل تقول: إنه قد حرمني، إذا قال: لن تأكله، لن تطعمه، تقول: قد حسدني من هذا الطعام. أما إذا قال: ليس بمطعوم، وليس بمأكول، ولا يصحُّ أكله، وليس بما يؤكل، فهمت بذلك أنه اعتذر، وأنه ليس من المأكولات.

فقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، يبيِّن أن الرؤية جائزة، ولكنك لا تقدر عليها في الدنيا.

ثم قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾، علَّق رؤية موسى ـ عليه السلام ـ على استقرار الجبل، أليس استقرار الجبل ممكنًا؟ الله تعالى قادر على أن يثبِّت الجبل حتى يستقر إذا تجلّى له الرب، والله تعالى قد علَّق رؤية موسى على استقرار الجبل، والمعلَّق على الممكن ممكن، فهذا دليل على إمكان الرؤية، وأنها واقعة، وأنه يمكن رؤية الله، وأن رؤية الله ليست بمستحيلة، ما دامت عُلِّقت على ممكن، فالتعليق على الممكن ممكن.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾، تجلّى الله كما شاء للجبل، ولـمَّا تجلّى للجبل ـ والجبل هو الطور من أكبر الجبال ـ انساخ الجبل، وذلك مع كونه جماد، ومع كونه ليس به حركة، انساخ واندكّ وانخسفت به الأرض ولم يثبت، فعند ذلك صعق موسى عليه السلام، وإذا جاز أن يتجلّى الله للجبل، ألا يجوز أن يتجلّى لعباده في الدار الآخرة؟ وأن يكرمهم بهذا التجلِّي، وينعمهم، ويزيد في كرامتهم، بلى، الله ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على ذلك، فكما تجلَّى للجبل لا يستحيل أن يتجلَّى لعباده كما يشاء في دار كرامته.

فعرفنا بذلك أن الآية دليلٌ على إمكان الرؤية، بل دليلٌ على وقوعها، وأن الاستدلال بها على النفي استدلالٌ عكسيٌّ، بل هي على الرؤية أدلُّ منها على ضدِّ الرؤية.

أما قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، فيقولون: إن كلمة ﴿لَن﴾، تدل على النفي المؤبد في الدنيا والآخرة، والجواب: أن كلمة (لن) لا تدلُّ على النفي المؤبد المؤبد ـ كما ذكر الشارح ـ حتى ولو أُكِّدت بأبد؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا﴾ [الجمعة:٧]، نفى أنهم يتمنَّون الموت، وقد ذكر أنهم يتمنُّونه في النار، ويقولون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧]، فهم يتمنون الموت في الآخرة، والله يقول: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا﴾، إذًا المراد في الدنيا، فدلَّ على أن النفي في الدنيا لا يعمُّ النفي في الآخرة.

وهكذا البيت الذي أورده الشارح لابن مالك صاحب الألفية:

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدَا   فَقَوْلَهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

ومعناه: أن من يرى من النحاةِ أن النفي مؤبّد بـ (لن)، فاردُد قوله، واعضد غيره من الأقوال، يعني: انصُر القول الذي يرى أنها لا تقتضي النفي المؤبَّد.

أما احتجاجهم بأن الرؤية مستحيلةٌ فمردود؛ لأنها لو كانت مستحيلة لما علَّقها على ممكن، فإن التعليق على شيء ممكن يدلُّ على الإمكان، والله تعالى منزَّه عن الحاجة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤]، وقرأها بعضهم: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ

(١) انظر: تفسير الطبري (٧/ ١٥٩).

أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات:٥٧]، فبيَّن أنه سبحانه منزه عن الحاجة إلى الطعام والشراب ونحو ذلك، وذكر من نقص عيسى وأمه الحاجة في قوله تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ [المائدة:٧٥]، يعني: أنهما يحتاجان ويأكلان الطعام، فدلَّ على أن الله تعالى منزَّهٌ عن الحاجة إلى ذلك.

فنقول: نحن والمعتزلة وغيرهم متفقون على أن الله ليس بحاجةٍ إلى الأكل والشرب ونحو ذلك، وذلك من المستحيلات، فلا يمكن أن يعلّق على شيء ممكن.

قال الشارح:

وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَةُ: فَالِاسْتِدْلَالُ بِهَا عَلَى الرُّؤْيَةِ مِنْ وَجْهٍ حَسَنٍ لَطِيفٍ، وَهُوَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا ذَكَرَهَا فِي سِيَاقِ التَّمَدُّحِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَدْحَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالصِّفَاتِ الثُّبُوتِيَّةِ، وَأَمَّا الْعَدَمُ الْمَحْضُ فَلَيْسَ بِكَمَالٍ فَلَا يُمْدَحُ بِهِ، وَإِنَّمَا يُمْدَحُ الرَّبُّ تَعَالَى بِالنَّفْيِ إِذَا تَضَمَّنَ أَمْرًا وُجُودِيًّا، كَمَدْحِهِ بِنَفْيِ السِّنَةِ وَالنَّوْمِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ الْقَيُّومِيَّةِ، وَنَفْيِ الْمَوْتِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ الْحَيَاةِ، وَنَفْيِ اللُّغُوبِ وَالْإِعْيَاءِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ الْقُدْرَةِ، وَنَفْيِ الشَّرِيكِ وَالصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَالظَّهِيرِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ وَقَهْرِهِ، وَنَفْيِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ صمديته وَغِنَاهُ، وَنَفْيِ الشَّفَاعَةِ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ تَوَحُّدِهِ وَغِنَاهُ عَنْ خَلْقِهِ، وَنَفْيِ الظُّلْمِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ عَدْلِهِ وَعِلْمِهِ وَغِنَاهُ، وَنَفْيِ النِّسْيَانِ وَعُزُوبِ شَيْءٍ عَنْ عِلْمِهِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ عِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ، وَنَفْيِ الْمِثْلِ الْمُتَضَمِّنِ لِكَمَالِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ.

وَلِهَذَا لَمْ يَتَمَدَّحْ بِعَدَمٍ مَحْضٍ لَمْ يَتَضَمَّنْ أَمْرًا ثُبُوتِيًّا، فَإِنَّ الْمَعْدُومَ يُشَارِكُ الْمَوْصُوفَ فِي ذَلِكَ الْعَدَمِ، وَلَا يُوصَفُ الْكَامِلُ بِأَمْرٍ يَشْتَرِكُ هُوَ وَالْمَعْدُومُ فِيهِ، فَإِنَّ الْمَعْنَى: أَنَّهُ يُرَى وَلَا يُدْرَكُ وَلَا يُحَاطُ بِهِ، فَقَوْلُهُ: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣]، يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ عَظَمَتِهِ، وَأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ لِكَمَالِ عَظَمَتِهِ لَا يُدْرَكُ بِحَيْثُ يُحَاطُ بِهِ، فَإِنَّ الْإِدْرَاكَ هُوَ الْإِحَاطَةُ بِالشَّيْءِ، وَهُوَ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى الرُّؤْيَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ﴾ [الشعراء:٦١، ٦٢]، فَلَمْ يَنْفِ مُوسَى الرُّؤْيَةَ، وَإِنَّمَا نَفَى الْإِدْرَاكَ،

فَالرُّؤْيَةُ وَالْإِدْرَاكُ كُلٌّ مِنْهُمَا يُوجَدُ مَعَ الْآخَرِ وَبِدُونِهِ، فَالرَّبُّ تَعَالَى يُرَى وَلَا يُدْرَكُ، كَمَا يُعْلَمُ وَلَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي فَهِمَهُ الصَّحَابَةُ وَالْأَئِمَّةُ مِنَ الْآيَةِ، كَمَا ذُكِرَتْ أَقْوَالُهُمْ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ. بَلْ هَذِهِ الشَّمْسُ الْمَخْلُوقَةُ لَا يَتَمَكَّنُ رَائِيهَا مِنْ إِدْرَاكِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ.

قال الشيخ:

أكبر ما يستدلُّ به المعتزلة، هذه الآية من سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٠٢، ١٠٣]، فإن هذه الآية عدُّوها أوضح الأدلة في أن الله لا يُرى؛ قالوا: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾، يعني: لا تراه الأبصار، أما أهل السنة فقد استدلوا بها على إثبات الرؤية لا على نفيها؛ وذلك لأن الإدراك هو الإحاطة، أي: لا تحيط به الأبصار إذا رأته، فالفرق بينهما واضح؛ ليست الرؤية هي الإدراك، الإدراك شيء زائد على الرؤية.

وقد ورد عن عكرمة ـ رحمه الله ـ أن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فسَّر قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم:١٣]، فقال: إن النبي ﷺ رأى ربه عز وجل، فقال له رجل: أليس قد قال: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام:١٠٣]، فقال له عكرمة: ألستَ ترى السماء؟ قال: بلى، قال:

فكلّها ترى؟»[1]، يعني: أنك ترى الشمس ولكنك لا تراها كلّها إنما ترى منها ما قابلك، وكذلك إذا رأيت جبلًا بعيدًا فإنك ترى منه ما قابلك، ولم تره كلّه، فرؤيته كلّه أعلاه وأسفله والخفي منه والمقابل وغير المقابل، هذا يقال له: الإدراك، فإدراك البصر معناه: رؤية المرئي كلّه، وعدم خفاء شيء منه، والله تعالى لعظمته ولجلاله ولكبريائه إذا رأته الأبصار فلا تحيط به، ولا ترى إلا ما تجلّى منه، يتجلّى لهم وينظر إليهم وينظرون إليه، ولكن لا يُحيطون بذاته، إنما يدركون منه ما تجلّى، ففرقٌ واضحٌ بين الرؤية وبين الإدراك.

وقد أخبر الله تعالى عن قوم موسى ـ عليه السلام ـ أنهم لا يُدركون، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾، يعني قوم فرعون وقوم موسى عليه السلام، أخبر بأنهم يتراءون، هؤلاء يرون هؤلاء، وهؤلاء يرون هؤلاء، ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، أي: محاط بنا، أي سوف يحيطون بنا ويلحقون ويحدقون بنا، هذا معنى الإدراك، فنفى ذلك موسى، وقال: ﴿كَلَّآ﴾، أي: لا تخافوا، لا يدركونكم، ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦١، ٦٢]، وقد وعده الله بأنهم لا يدركون في قوله تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧]، فلما وعده بأنهم لا يدركون، وثق بوعد ربه، وأنهم لا يدركهم شيء.

والحاصل: أن هذه الآية دليل واضح على أن الله تعالى يُرى؛ حيث ذكرها

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٣٥٦).

في مجال التمدُّح، وقد علمنا أن الله لا يتمدَّح إلا بما هو ثبوت، لا يتمدّح بالنفي المحض، وكونه لا يُرى هذا ليس فيه مدح، النفي المحض عدم، والعدم ليس بشيء، والمعدوم لا يمدح به، وإنما الله مدح نفسه بالنفي الذي تضمَّن ثبوتًا.

وبكل حال يعتقد المسلم أن هذه الآية دليل على إثبات الرؤية لا على نفيها، ففيها أن الأبصار إذا نظرت إلى ربِّها فلا تدركه، يعني: لا تحيط به، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

قال الشارح:

وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - الدَّالَّةُ عَلَى الرُّؤْيَةِ، فَمُتَوَاتِرَةٌ، رَوَاهَا أَصْحَابُ الصِّحَاحِ وَالْمَسَانِيدِ وَالسُّنَنِ.

فَمِنْهَا: حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: «أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ»، الْحَدِيثَ، أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] بِطُولِهِ.

وَحَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَيْضًا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[2] نَظِيرُهُ.

وَحَدِيثُ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»، الْحَدِيثَ أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[3]. وَحَدِيثُ صُهَيْبٍ ﷺ الْمُتَقَدِّمُ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ[4] وَغَيْرُهُ.

وَحَدِيثُ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣).

(٤) برقم (١٨١).

فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»، أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١).

وَمِنْ حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺ: «وَلَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ، وَلَا تُرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَلَيَقُولَنَّ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ يَا رَبِّ»، الْحَدِيثُ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»(٢).

وَقَدْ رَوَى أَحَادِيثَ الرُّؤْيَةِ نَحْوُ ثَلَاثِينَ صَحَابِيًّا، وَمَنْ أَحَاطَ بِهَا مَعْرِفَةً يَقْطَعُ بِأَنَّ الرَّسُولَ قَالَهَا، وَلَوْلَا أَنِّي الْتَزَمْتُ الِاخْتِصَارَ لَسُقْتُ مَا فِي الْبَابِ مِنَ الْأَحَادِيثِ.

قال الشيخ:

هذا النوع الثاني من الأدلة السمعية: الدلالة من السنّة، أي: من الأحاديث النبوية. ومعلوم أن السنّة تفسِّر القرآن، وتبيِّنه، وتدل عليه، وتعبِّر عنه، ومعلوم أن الرسول ﷺ لا يقول إلَّا حقًّا؛ لأنه أعلم بربِّه الذي أرسله، فلا يصفه إلَّا بما هو حقٌّ، وبما هو وحيٌ ومطابق للواقع الحق، فإذا جاءتنا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

(٢) برقم (١٤١٣).

الأحاديث عن النبي ﷺ مشتملة على وصفٍ أو شيء من صفات الله تقبّلناها، وكيف لا نتقبّلها وهي من معدن الرسالة؟ كيف لا نتقبلها وهي من الرسول ﷺ الذي دلّ على ربه، والذي هدى الأمّة إلى الله، وبيَّن لهم حقوقه عليهم، فكذلك بيَّن لهم أنواع التوحيد، ومن جملة ما بيَّنه لهم: توحيد الأسماء والصفات، ولا شكّ أن من أجَلِّها: كون الله تعالى يُرى، ويتجلَّى لعباده.

وأحاديث إثبات الرؤية كثيرة، رواها نحو ثلاثين صحابيًّا، وهي في الجملة أغلبها صحيح، ومنها ما هو حسن، ومنها ما فيه ضعف ينجبر بغيره ويتقوَّى ببقية الأحاديث.

وقد ذكرت في أول هذه المسألة أن الإمام ابن القيم قد فصَّل القول فيها في كتاب «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»، وهو كتاب في صفات الجنة ونعيمها، فإنه جعل من جملة أبوابه باب الرؤية، وأن المؤمنين يرون ربهم، ونقلها كذلك الشيخ حافظ الحكمي في كتابه «معارج القَبول في شرح سلّم الأصول»، سردها أيضًا كما سردها ابن القيمّ، وإن كان اختصر منها بعض الأسانيد، وبعض الألفاظ، وذكر ابن القيم أيضًا جملة كثيرة منها في كتابه«الصواعق المرسلة»، وذُكرت أيضًا متفرقة في كتب الحديث، وفي كتب التفسير، واضحة دلالتها، ولكثرتها يُحكم بأنها متواترة وإن لم تتواتر أفرادها، فهي متواترة أعدادها.

والمتواتر: هو ما نقله العدد الكثير ـ الذين تحيل العادة تواطؤهم على الكذب ـ عن مثلهم إلى منتهاهم، ويكون مستند انتهائهم الحسّ، أي ما يدرك

بالحواس الخمس أو بأحدها.

وقد سرد الشارح ـ رحمه الله ـ بعضًا من هذه الأحاديث، أوضحها حديث جرير ﷺ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»، وفي حديث أبي هريرة ﷺ الذي قبله، قال ﷺ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟»، يعني: ليلة أربع عشرة، وهو من أوضح ما يُرى.

وقوله: «لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»، أي: لا يلحقكم ضيمٌ ولا ضرر، أو «لَا تَضَامُّونَ» بفتح التاء، والأصل: (تَتَضَامُّونَ)[1]، أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض، بل ترونه بأماكنكم ولو كنتم على وجه الأرض وفي أقطار البلاد، ترونه كما يشاء، وتتمة الحديث: قوله ﷺ: «فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا على صَلَاةٍ قبل طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»، والمراد بهاتين الصلاتين: الفجر والعصر، وخصّهما بالمحافظة عليهما؛ لأن الرؤية لخواص المؤمنين تكون بكرةً وعشيًّا، وقد ورد أن خواص المؤمنين في الجنة يرون ربهم في أول النهار وفي آخره، وأما عوامهم فيرونه في كل أسبوع في مثل يوم الجمعة[2]، ويسمى يوم

(١) انظر: فتح الباري (١٣/ ٤٢٧).

(٢) كما في حديث أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إذا دَخَلُوهَا نَزَلُوا فيها بِفَضْلِ أَعْمَالِهِمْ ثُمَّ يُؤْذَنُ في مِقْدَارِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ من أَيَّامِ الدُّنْيَا فَيَزُورُونَ رَبَّهُمْ...». أخرجه الترمذي (٢٥٤٩)، وابن ماجه (٤٣٣٦)، وابن حبان (١٦/ ٤٦٥).

الجمعة: يوم المزيد؛ حيث يزورون ربهم ويتجلّى لهم، ويكون الذين يتقدمون إلى صلاة الجمعة هم أقرب وهم أولى بأن يُقدَّموا، فيدُل ذلك على فضل التقدُّم لصلاة الجمعة، وأن ذلك أكثر ثوابًا وأقدم رؤية وأكثر نعيمًا.

ومن الأدلة التي أوردها الشارح: حديث أبي هريرة وأبي سعيد - رضي الله عنهما - حديث طويل في «الصحيحين» فيه قوله ﷺ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟**»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ**»، ترون ربّكم ولا تضارُّون في رؤيته، يعني: لا تتوهمون، ولا يكون هناك ريبٌ ولا شك، بل ترونه عيانًا، رؤية واضحة، كما لا تتوهمون في رؤية الشمس ولا في رؤية القمر ليلة البدر.

والحديث في سياقه طولٌ، لاسيما حديث أبي سعيد ﷺ، وقد ساقه مسلم بطوله في كتاب الإيمان في أول الجزء الثالث، وبيَّن الرؤية في الموقف والرؤية في القيامة، وكذلك حديث أبي هريرة ﷺ.

ومن الأحاديث أيضًا حديث أبي موسى ﷺ، وفيه قوله ﷺ: «**جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**»، قد ذكر الله الجنتين الأولين في قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦]، وذكر الجنتين الأخريين بقوله: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٦٢]، زاد في

هذا الحديث أنه ليس بينهم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلَّا رداء الكبرياء، وذلك دليل على أنه تعالى يكشف ذلك الرداء وذلك الحجاب، ويتجلّى لعباده متى شاء، فليس بينهم وبين النظر إليه إلاّ ذلك الرداء، وهذا دليلٌ على أنه إذا شاء تجلّى كما يشاء.

وتقدم ـ أيضًا ـ حديث صهيب ﷺ الذي في صحيح مسلم، في قوله ﷺ في تفسير الزيادة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، أنها النظر إلى ربِّهم، وأنهم ما أُعطوا شيئًا ألذّ عندهم من النظر إلى ربهم، عندما يقول: «سَلُونِي»، فيقولون: نسألك رضاك، ثم يسألونه أن يتجلَّى، فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أفضل عندهم من النظر إلى ربهم، وهي الزيادة المذكورة في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

وهذه الأحاديث وأمثالها صحيحة، نطق بها النبي ﷺ وتلقاّها أهل السنة بالقبول، فليس لأولئك المعتزلة أن يردوها، ولكن اعتمدوا في ردِّهم على أنها أخبار آحادية، وكذبوا، ليست أخبارٌ آحاد، فقد تلقَّاها جمع غفير عن مثلهم، ورواها جَمعٌ غفير من الصحابة، ثم مثلهم من التابعين أو أضعافهم، وهكذا إلى أن دوِّنت... فكيف تكون أخبار آحاد؟ ثم لو قُدِّر أنها أخبار آحاد فإنها تفيد العلم، ويستدل بها على العقائد؛ وذلك لأنهم يعملون بهذه في الشرائع، فكذلك يلزمهم أن يعملوا بهذه في العقائد.

قال الشارح:

وَمَنْ أَرَادَ الْوُقُوفَ عَلَيْهَا فَلْيُوَاظِبْ سَمَاعَ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ، فَإِنَّ فِيهَا مَعَ إِثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ أَنَّهُ يُكَلِّمُ مَنْ شَاءَ إِذَا شَاءَ، وَأَنَّهُ يَأْتِي لِفَصْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُ فَوْقَ الْعَالَمِ، وَأَنَّهُ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ، وَأَنَّهُ يَتَجَلَّى لِعِبَادِهِ، وَأَنَّهُ يَضْحَكُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي سَمَاعُهَا عَلَى الجَهْمِيَّةِ بِمَنْزِلَةِ الصَّوَاعِقِ.

وَكَيْفَ تُعْلَمُ أُصُولُ دِينِ الْإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ؟ وَكَيْفَ يُفَسَّرُ كِتَابُ اللَّهِ بِغَيْرِ مَا فَسَّرَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ وَأَصْحَابُ رَسُولِهِ، الَّذِينَ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلُغَتِهِمْ؟ وَقَدْ قَالَ ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1]، وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[2]. وَسُئِلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٣١]، مَا الْأَبُّ؟ فَقَالَ: أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي، إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ؟[3]

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥١)، والنسائي في الكبرى (٨٠٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٥١)، والنسائي في الكبرى (٨٠٣٠)، وأحمد (١/ ٢٣٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص٣٧٥) وابن أبي شيبة (٦/ ١٣٦)، والبيهقي في المدخل إلى السنن (ص٤٣٠)، وأورده ابن كثير (٤/ ٤٧٤) في تفسير سورة عبس، وقال:

=

قال الشيخ:

الأحاديث التي وردت في الرؤية موجودة في كتب أهل السنة، وفي مؤلفاتهم التي ألفوها في بيان سنة النبي ﷺ، من أرادها فليواظب على سماع تلك الأحاديث وتلك الكتب؛ في صحيح البخاري في آخره كتاب التوحيد، وفي صحيح مسلم في أوله كتاب الإيمان، وفي سنن أبي داود في آخره كتاب السنة، وهكذا في بقية الكتب.

لا شك أن الذي يقرأ كتب أهل السنة يجد فيها وصف الله تعالى بأنه يتجلَّى لعباده، وبأنه يكشف الحجاب، وبأنهم ينظرون إلى وجهه، وفيها أن حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وفيها سؤال النبي ﷺ في قوله: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إلى لِقَائِكَ، في غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، ولا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»(١)، وأشباه ذلك.

يقول الشارح: إن هذه الأحاديث التي فيها أن الله تعالى يخاطب العباد، وأنه يتجلّى لهم، وأن له وجهًا كما يشاء، وأنه يضحك إلى عباده، وأنه

=

«وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق ﷺ».

(١) أخرجه النسائي (١٣٠٥)، وابن حبان (٥/ ٣٠٤)، والبزار (٤/ ٢٣٠)، والحاكم (١/ ٥٢٤) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما. وأخرج نحوه أحمد (٥/ ١٩١)، والطبراني في الكبير (٤٨٠٣)، والحاكم (١/ ٥١٦) من حديث زيد بن ثابت ﷺ.

يكلمهم... إلى آخر ذلك، (سَمَاعُهَا عَلَى الجَهْمِيَّةِ بِمَنْزِلَةِ الصَّوَاعِقِ)، فإذا كانوا يتمنون أن يحكّوا آيات الاستواء من القرآن، فكذلك أحاديث الصفات يتمنون أنها لم ترد، ولأجل ذلك يُنَفِّرون من قراءة الكتب التي فيها هذه الأحاديث، وينهون عن جمعها في مكان واحد؛ حتى لا تكون حُجّة عليهم، وحتى لا يتأثر بها تلامذتهم إذا رأوها مجتمعة، وصعب عليهم تأويلها والتكلف في ردِّها.

ومع ذلك كله فإنهم لم يتوقفوا عن الخوض بما لا علم لهم به، بل بالغوا في رد الأحاديث وفي رد الآيات، وتكلفوا في الكلام حولها بكلام لا يليق أن يقوله مسلم فضلًا عن عاقل.

وقولهم هذا يعد من القول على الله بلا علم، الذي هو أعظم من الشرك، ويُعدّ من التخرص في القرآن، والتخرص في القرآن ضلال، كما جاء في الحديث الذي أورده الشارح، فتأويلهم للآيات قول على الله بغير علم، وتكلفهم في ردها قول في القرآن بالرأي، فهم يقولون في القرآن برأيهم، فيقولون ـ مثلًا ـ: إن قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]، معناه: منتظرة للثواب، أو معناه منتظرة إلى نعم ربها؛ حيث قالوا: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ يعني: نعمة ربها! وهذا قول على الله بلا علم، وقول في القرآن بالرأي، فيكونون داخلين في هذا الحديث: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

والصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مع كونهم أعلم بالقرآن، وهم الذين شاهدوا نزوله، إذا لم يعلم أحدهم تفسير آية توقف دون أن يفصح، ولو كان

عندهم علم، فهذا أبو بكر ﷺ - ومن أفضلُ من الصديق ﷺ الذي هو الخليفة الأول للرسول ﷺ - لَـمَّا سُئل عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس:٣١]، مَا الْأَبُّ؟ قَالَ: «أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي، إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّـهِ مَا لَا أَعْلَمُ؟».

وهؤلاء الذين يتخبطون في القرآن ويتكلفون في رد الآيات، يقول أحدهم: إن كلام موسى - عليه السلام - ليس سؤالًا، في قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾ [الأعراف:١٤٣]، وأنه - عليه السلام - لا يريد أن يرى ربّه، وإنما يريد أن يوبّخ قومه الذين قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ ﴾ [النساء:١٥٣]، أو قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ ﴾ [البقرة:٥٥]، قالوا: يريد بذلك توبيخ قومه! من قال هذا قبلكم يا معتزلة أو يا أتباع المعتزلة؟! هذا هو التخرص في كلام الله بغير علم.

قال الشارح:

وَلَيْسَ تَشْبِيهُ رُؤْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِرُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ تَشْبِيهًا لِلَّهِ، بَلْ هُوَ تَشْبِيهُ الرُّؤْيَةِ بِالرُّؤْيَةِ، لَا تَشْبِيهُ الْمَرْئِيِّ بِالْمَرْئِيِّ، وَلَكِنْ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَإِلَّا فَهَلْ تُعْقَلُ رُؤْيَةٌ بِلَا مُقَابَلَةٍ؟ وَمَنْ قَالَ: يُرَى لَا فِي جِهَةٍ، فَلْيُرَاجِعْ عَقْلَهُ!! فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُكَابِرًا لِعَقْلِهِ، أو فِي عَقْلِهِ شَيْءٌ، وَإِلَّا فَإِذَا قَالَ: يُرَى لَا أَمَامَ الرَّائِي، وَلَا خَلْفَهُ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلَا عَنْ يَسَارِهِ، وَلَا فَوْقَهُ، وَلَا تَحْتَهُ. رَدَّ عَلَيْهِ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ بِفِطْرَتِهِ السَّلِيمَةِ.

وَلِهَذَا أَلْزَمَ الْمُعْتَزِلَةُ مَنْ نَفَى الْعُلُوَّ بِالذَّاتِ بِنَفْيِ الرُّؤْيَةِ، وَقَالُوا: كَيْفَ تُعْقَلُ رُؤْيَةٌ بِغَيْرِ جِهَةٍ.

وَإِنَّمَا لَمْ نَرَهُ فِي الدُّنْيَا لِعَجْزِ أَبْصَارِنَا، لَا لِامْتِنَاعِ الرُّؤْيَةِ، فَهَذِهِ الشَّمْسُ إِذَا حَدَّقَ الرَّائِي الْبَصَرَ فِي شُعَاعِهَا ضَعُفَ عَنْ رُؤْيَتِهَا، لَا لِامْتِنَاعٍ فِي ذَاتِ الْمَرْئِيِّ، بَلْ لِعَجْزِ الرَّائِي، فَإِذَا كَانَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَكْمَلَ اللَّهُ قُوَى الْآدَمِيِّينَ حَتَّى أَطَاقُوا رُؤْيَتَهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا تَجَلَّى اللَّهُ لِلْجَبَلِ، خَرَّ مُوسَى صَعِقًا، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، بِأَنَّهُ لَا يَرَاكَ حَيٌّ إِلَّا مَاتَ، وَلَا يَابِسٌ إِلَّا تَدَهْدَهَ، وَلِهَذَا كَانَ الْبَشَرُ يَعْجِزُونَ عَنْ رُؤْيَةِ الْمَلَكِ فِي صُورَتِهِ، إِلَّا مَنْ أَيَّدَهُ اللَّهُ كَمَا أَيَّدَ نَبِيَّنَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام:٨]، قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَا يُطِيقُونَ أَنْ يَرَوُا الْمَلَكَ فِي صُورَتِهِ، فَلَوْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ فِي

صُورَةِ بِشَرٍ، وَحِينَئِذٍ يَشْتَبِهُ عَلَيْهِمْ: هَلْ هُوَ بَشَرٌ أَوْ مَلَكٌ؟ وَمِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا أَنْ بَعَثَ فِينَا رَسُولًا مِنَّا.

وَمَا أَلْزَمَهُمُ الْمُعْتَزِلَةُ هَذَا الْإِلْزَامَ إِلَّا لَـمَّا وَافَقُوهُمْ عَلَى أَنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، لَكِنَّ قَوْلَ مَنْ أَثْبَتَ مَوْجُودًا يُرَى لَا فِي جِهَةٍ، أَقْرَبُ إِلَى الْعَقْلِ مِنْ قَوْلِ مَنْ أَثْبَتَ مَوْجُودًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ لَا يُرَى وَلَا فِي جِهَةٍ.

قال الشيخ:

لا شك أن أقوال أولئك المعتزلة وغيرهم ممن نفى الرؤية، أو أثبت رؤية غير حقيقية، أنها أقوال مضطربة، يردها كل عاقل.

وقد عرفنا أن المعتزلة ينكرون الرؤية، وأما طائفة الأشاعرة فإنهم يثبتون الرؤية، ولكن لا يثبتون العلو، ولا يثبتون الجهة، ينفون أن يكون الله تعالى فوق العالم، وينفون أن يكون الله تعالى فوق عرشه، وفوق سمٰواته، بائنًا من خلقه، فيقولون: إنه يُرى لا في جهة. هذا قول الأشعرية، وحقيقة قولهم أن الرؤية عندهم هي مكاشفات قلبية، وأنوار تسطع للقلب، لا أنهم ينظرون بأعينهم وبأبصارهم إلى ربهم، يقولون: إن هذا يستلزم الرؤية التي هي المقابلة.

فردّ عليهم الشارح ومن قبله بأن هذا قول باطل، وأن من قال: إن الله يرُى لا في جهة، فليراجع عقله؛ لأن المرئي لا بدّ أن يكون في جهةٍ، وإن لم تكن تلك الجهة تحصره، فالله تعالى يتجلَّى لعباده من فوقهم، فينظرون إليه، ولكن لا يدل أنه محصورٌ في جانب أو في جهة أو حيِّز - تعالى الله - بل يرونه كما يشاء.

هذا هو القول الصحيح، فقول هؤلاء المعتزلة ومثلهم الأشعرية الذين قالوا بهذه المقالة يبعده العقل، وهو قول على الله تعالى بلا علم.

والواجب على المسلم إذا جاءته أدلة أن يقبلها ويعرف أحقِّيتها وصحتها، ويؤمن بأنها كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وأن الله أخْبرُ بنفسه، وأن رسله أعلمُ بما يجوز على ربهم، وقد أخبروا بذلك، فليس لأحد أن يردّ بعض خبرهم ويقبل بعضه، فيكون من الذين قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، بل إذا قَبِلَ ما يتعلّق بالأعمال، يقبل أيضًا ما يتعلّق بالعقائد من الأمور الأخروية والأمور الغيبية؛ حتى يكون بذلك سليم الفطرة، صحيح المعتقد، مؤمنًا بما جاء عن الله على مراد الله، كما نقل عن الأمام الشافعي - رحمه الله - أنه قال: «آمنتُ باللَّهِ، وبما جاءَ عَن اللَّهِ، على مُرادِ اللَّهِ، وآمنتُ برسولِ اللَّهِ، وبما جاءَ عَن رسولِ اللَّهِ، على مُرادِ رسولِ اللَّهِ»[١].

---

(١) ذكره ابن قدامة المقدسي في لمعة الاعتقاد (ص١٠)، وشيخ الإسلام ابن تيمية في الرسالة المدنية، انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٣٥٤).

قال الشارح:

وَيُقَالُ لِمَنْ قَالَ بِنَفْيِ الرُّؤْيَةِ لانْتِفَاءِ لازِمِهَا وَهُوَ الجِهَةُ: أَتُرِيدُ بِالجِهَةِ أَمْرًا وُجُودِيًّا أَوْ أَمْرًا عَدَمِيًّا؟ فَإِنْ أَرَادَ بِهَا أَمْرًا وُجُودِيًّا كَانَ التَّقْدِيرُ: كُلُّ مَا لَيْسَ فِي شَيْءٍ مَوْجُودٌ لا يُرَى، وَهَذِهِ المُقَدِّمَةُ مَمْنُوعَةٌ، وَلا دَلِيل عَلَى إِثْبَاتِهَا، بَل هِيَ بَاطِلَةٌ، فَإِنَّ سَطْحَ العَالَمِ يُمْكِنُ أَنْ يُرَى، وَلَيْسَ العَالَمُ فِي عَالَمٍ آخَرَ. وَإِنْ أَرَدْتَ بِالجِهَةِ أَمْرًا عَدَمِيًّا، كانت المُقْدِمَةُ الثَّانِيَةُ مَمْنُوعَةٌ، فَلا نُسَلِّمُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي جِهَةٍ بِهَذَا الاعْتِبَارِ.

قال الشيخ:

الذين نفوا رؤية الله تعالى المعتزلة، وبالغوا في نفيها نفيًا صريحًا، وقالوا: إنه يلزم من إثبات الرؤية وجود الجهة، أن الله تعالى في جهة؛ لأنه لا يمكن أن يُرى إلا في جهة من إحدى الجهات الست.

وكذلك الأشاعرة الذين يقولون: إن الرؤية رؤية قلبية، مكاشفات تتجلى للقلب لا أنها رؤية بصرية؛ لأنه يلزم من الرؤية التي هي تقليب الحدقة نحو المرئي إثبات الجهة، وهذا غير مراد.

قوله: (أَتُرِيدُ بِالجِهَةِ أَمْرًا وُجُودِيًّا)، يعني: أمرًا موجودًا، وهو: الفوق أو التحت، أو اليمين أو اليسار، أو الأمام أو الخلف.

قوله: (فَإِنْ أَرَادَ بِهَا أَمْرًا وُجُودِيًّا كَانَ التَّقْدِيرُ)، أي: تقدير الكلام.

قوله: (كُلُّ مَا لَيْسَ فِي شَيْءٍ مَوْجُودٌ لا يُرَى)، سطح العالم وأعلاه يمكن

أن يُرى (وَلَيْسَ العَالَمُ فِي عَالَمٍ آخَرَ)، وإلا لزم التسلسل، فلابد أن تبطل هذه المقدمة: أن الجهة أمر وجوبي.

قوله: (وَإِنْ أَرَدْتَ بِالجِهَةِ أَمْرًا عَدَمِيًّا، كانت المُقْدِمَةُ الثَّانِيَةُ مَمْنُوعَةً، فَلا نُسَلِّمُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي جِهَةٍ بِهَذَا الاعْتِبَارِ)، بل نعتقد أن الله تعالى في جهة العلو؛ كما دلت على ذلك النصوص الصريحة الواضحة، وكما بالغ الشارح ـ رحمه الله ـ عند قول الماتن: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ)، أي: وفوق كل شيء.

فقولهم: لانتفاء الجهة. نقول: لا نسلم انتفاء الجهة، بل نثبت الجهة بغير تكييف، أو بغير تمثيل.

قال الشارح:

وَكَيْفَ يَتَكَلَّمُ فِي أُصُولِ الدِّينِ مَنْ لا يَتَلَقَّاهُ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا يَتَلَقَّاهُ مِنْ قَوْلِ فُلانٍ؟! وَإِذَا زَعَمَ أَنَّهُ يَأْخُذُهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ لا يَتَلَقَّى تَفْسِيرَ كِتَابِ اللهِ مِنْ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ، وَلا يَنْظُرُ فِيهَا، وَلا فِيمَا قَالَهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، المَنْقُولِ إِلَيْنَا عَنِ الثِّقَاتِ النَّقَلَةِ، الذِينَ تَخَيَّرَهُمُ النُّقَّادُ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَنْقُلُوا نَظْمَ القُرْآنِ وَحْدَهُ، بَلْ نَقَلُوا نَظْمَهُ وَمَعْنَاهُ، وَلا كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ القُرْآنَ كَمَا يَتَعَلَّمُ الصِّبْيَانُ، بَلْ يَتَعَلَّمُونَهُ بِمَعَانِيهِ. وَمَنْ لا يَسْلُكُ سَبِيلَهُمْ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ بِرَأْيِهِ، وَمَنْ يَتَكَلَّمُ بِرَأْيِهِ وَمَا يَظُنُّهُ دِينَ اللهِ وَلَمْ يَتَلَقَّ ذَلِكَ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ مَأْثُومٌ وَإِنْ أَصَابَ، وَمَنْ أَخَذَ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ مَأْجُورٌ وَإِنْ أَخْطَأَ، لكِنْ إِنْ أَصَابَ يُضَاعَفُ أَجْرُهُ.

قال الشيخ:

يقول ـ رحمه الله ـ: لا يجوز لأحد أن يتكلم في أصول الدين، وفي العقيدة، وفي إثبات كلام الله، وفي إثبات رؤية الله، وما أشبه ذلك، لا يتكلم في هذه الأصول إلا من تلقى ذلك من الكتاب والسنة، أي: أخذ أدلة ذلك من كتاب الله تعالى، ومن سنة النبي ﷺ، فإن هذا هو الذي يُقبل قوله، أما الذي يتلقى ما يتكلم به من قول فلان وفلان فإنه يتخبط في كلامه في الأصول ولا يُقبل قوله، فإذا زعم أنه يأخذ من كلام الله، فإنه لا يتلقى تفسير كتاب الله من أحاديث الرسول ﷺ، ولا ينظر فيها، وإذا استدلوا بشيء من الآيات وقالوا: إن دليلنا

الآية الفلانية، نقول: خذوا تفسيرها وتفسير آيات الله تعالى من أحاديث النبي ﷺ، فكيف تأخذون قول فلان وفلان، فإن فلانًا وفلانًا ليسا بمعصومين؟ كيف تعرضون عن كتاب الله تعالى، أو تعرضون عن تفسير الصحابة رضوان الله عليهم، ولا تنظرون في كتاب الله، ولا في أحاديث الرسول، ولا فيما قاله صحابة النبي ﷺ، والتابعون لهم بإحسان، الذي نُقل إلينا عن الثقات نقلاً متواترًا.

قوله: (الذِينَ تَخَيَّرَهُمُ النُّقَّادُ)، نقاد الحديث ونقاد السنة، الأئمة المقتدى بهم؛ كالأئمة الأربعة، وأهل الصحيحين، وأهل السنن ونحوهم، وكذلك علماء التابعين.

نقول: الواجب أن نرجع إلى أقوالهم وإلى تفاسيرهم؛ لأنهم تلقوا تفسير ذلك عن نبيهم ﷺ.

قوله: (فَإِنَّهُمْ لَمْ يَنْقُلُوا نَظْمَ القُرْآنِ وَحْدَهُ، بَل نَقَلُوا نَظْمَهُ وَمَعْنَاهُ)، أي: لفظه وآياته وكذلك تفسيره ومعانيه، فسروا ذلك كله؛ ولهذا قلَّ أن تقرأ آية إلا وتجد فيها تفسيرًا عن علماء الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ والتابعين ومن سار على نهجهم؛ كتفسير ابن جرير، وتفسير ابن أبي حاتم، وتفسير عبدالرزاق، والتفسير الذي ذكره سعيد بن منصور في آخر سننه، وغير ذلك؛ لأن التابعين ونحوهم نقلوا نظم القرآن، ونقلوا معناه.

قوله: (وَلا كَانُوا يَتَعَلمُونَ القُرْآنَ كَمَا يَتَعَلَمُ الصِّبْيَانُ)، أي: يتعلمون الألفاظ فقط.

قوله: (بَل يَتَعَلمُونَهُ بِمَعَانِيهِ)؛ كما ذُكر عن أبي عبدالرحمن عبد الله بن حبيب السلمي أنه قال: «حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن» وعدَّ جماعة من الصحابة «أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات من النبي ﷺ لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا»(١).

يقول: (وَمَنْ لا يَسْلُكْ سَبيلهُمْ فَإِنَّمَا يَتكَلمُ بِرَأْيِهِ، وَمَنْ يَتكَلمُ بِرَأْيِهِ وَمَا يَظُنُّهُ دِينَ اللهِ وَلَمْ يَتَلَقَّ ذَلكَ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ مَأْثُومٌ وَإِنْ أَصَابَ)، الذي لا يسلك سبيل الصحابة والتابعين مأثوم؛ لأنه يتكلم برأيه في كلام الله، وقد رُوي أنه ﷺ قال: «من قال في الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّارِ»(٢)، الذي يتكلم برأيه، ويتكلم بما يظنه دين الله، ويعتقد أنه مصيب وأنه يرجو الصواب في جانبه، وهو مع ذلك لم يتلق ذلك من الأدلة، أي: من الآيات ومن الأحاديث. نقول: إنك مأثوم ولو أصبت في بعض الأحوال؛ ولهذا كان السلف يحذرون أن أحدًا يتكلم في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم.

أما مَنْ أخذ من الكتاب والسنة، واعتمد عليهما كأدلة، فإنه مأجور بفضل الله، وإن أخطأ، ولكن إن أصاب يُضاعف أجره؛ كما في الحديث عن عمرو بن

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٦/ ١٧٢)، وأبو جعفر الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤/ ٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٥٠)، والنسائي في الكبرى (٨٠٣٠)، وأحمد (١/ ٢٣٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

العاص ﷺ وغيره أن النبي ﷺ قال: «إذا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وإذا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[1]، أي: أنه إذا أخطأ فله أجر، وخطأه مغفور؛ لأنه مجتهد، وهكذا إذا أصاب فله أجران: أجر على الاجتهاد، وأجر على الإصابة؛ وذلك لأنه من أهل الإصابة، ومن أهل الاجتهاد، أما هؤلاء الذين يتخبطون في القرآن، ويتخبطون في أمر الاعتقاد، وليس عندهم ما يعتمدون عليه من الآيات والأحاديث فإنهم آثمون لما جاء في الحديث أن الذي يتكلم برأيه متوعد بهذا الوعيد الشديد.

تجد كلامهم في تفاسيرهم يعتمدون فيه على الرأي، ويحرف أحدهم الآيات ويؤولها على معتقده الذي ينتحله ولو كان ذلك بعيدًا؛ لأنه ينكر الصفات، وينكر الرؤية لله تعالى، وينكر أن يكون القرآن كلام الله، كما أن ذلك عقيدة المعتزلة.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

قال الشارح - رحمه الله -:

وقوله: (وَالرُّؤْيَةُ حَقٌّ لأَهْلِ الجَنَّةِ)، تَخْصِيصُ أَهْلِ الجَنَّةِ بِالذِّكْرِ، يُفْهَمُ مِنْهُ نَفْيُ الرُّؤْيَةِ عَنْ غَيْرِهِمْ، وَلا شَكَّ فِي رُؤْيَةِ أَهْلِ الجَنَّةِ لِرَبِّهِمْ فِي الجَنَّةِ؛ وَكَذَلِكَ يَرَوْنَهُ فِي المَحْشَرِ قَبْلَ دُخُولِهِمُ الجَنَّةَ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب:٤٤].

وَاخْتُلِفَ فِي رُؤْيَةِ أَهْلِ المَحْشَرِ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ لا يَرَاهُ إِلا المُؤْمِنُونَ.

الثَّانِي: يَرَاهُ أَهْلُ المَوْقِفِ، مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَنِ الكُفَّارِ وَلا يَرَوْنَهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

الثَّالِثُ: يَرَاهُ مَعَ المُؤْمِنِينَ المُنَافِقُونَ دُونَ بَقِيَّةِ الكُفَّارِ. وَكَذَلِكَ الخِلافُ فِي تَكْلِيمِهِ لأَهْلِ المَوْقِفِ.

قال الشيخ:

عقيدة أهل السنة أن أهل الجنة يرون ربهم - سبحانه وتعالى - وأنهم يتنعمون برؤيته، والأدلة على ذلك كثيرة من الآيات والأحاديث، وقد توسع فيها ابن القيم - رحمه الله - في كتابه «حادي الأرواح»، وكذلك غيره من الذين تكلموا في هذه العقيدة من أهل السنة والجماعة؛ وكذلك أيضًا الدارمي - رحمه الله - في كتابه «الرد على الجهمية» وهو مطبوع.

قول الشارح: (تَخْصِيصُ أَهْلِ الجَنَّةِ بِالذِّكْرِ، يُفْهَمُ مِنْهُ نَفْيُ الرُّؤْيَةِ عَنْ غَيْرِهِمْ)، أن غيرهم لا يرونه، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، وإذا كانوا محجوبين وهم الكفار دل على أن غيرهم لا يُحجبون وهم أهل الجنة، فأهل الجنة يرون الله تعالى لاشك في رؤيتهم لربهم إذا دخلوا الجنة؛ وكذلك أيضًا يرونه في المحشر قبل دخولهم الجنة؛ كما ثبت ذلك في «الصحيحين» حيث قال ﷺ: «يَجْمَعُ اللهُ الناس يوم الْقِيَامَةِ، فيقول: من كان يَعْبُدُ شيئًا فَلْيَتْبَعْهُ، فَيَتْبَعُ من كان يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ من كان يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتْبَعُ من كان يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هذه الأُمَّةُ فيها شَافِعُوهَا أو مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمْ الله فيقول: أنا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: هذا مَكَانُنَا حتى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فإذا جَاءَنَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمْ الله في صُورَتِهِ التي يَعْرِفُونَ، فيقول: أنا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أنت رَبُّنَا فَيَتْبَعُونَهُ»[1].

وفي رواية: «فيقول: هل بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فتَعْرِفُونَهُ بها؟ فَيَقُولُونَ: نعم، فَيُكْشَفُ عن سَاقٍ، فلا يَبْقَى من كان يَسْجُدُ للهِ من تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إلا أَذِنَ الله له بِالسُّجُودِ، ولا يَبْقَى من كان يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إلا جَعَلَ الله ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ على قَفَاهُ»[2]. والحديث قد ذكره ابن كثير[3] عند

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧) واللفظ له، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢).

تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢].

يقول: مما يدل على أنهم يرونه يوم القيامة قبل دخول الجنة قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ﴾ [الأحزاب:٤٤]، قد فُسر اللقاء بأنه الرؤية، كما جعل ذلك ابن القيم من أدلة إثبات الرؤية.

يقول الشارح: (**وَاخْتُلِفَ فِي رُؤْيَةِ أَهْلِ الْمَحْشَرِ**)، أي: هل يراه الناس كلهم؟ على ثلاثة أقوال:

القول الأول: (**أَنَّهُ لا يَرَاهُ إِلا الْمُؤْمِنُونَ**)؛ لأن غيرهم عن ربهم يومئذٍ محجوبون، والحجاب هو: الحيلولة، يعني بينهم وبين الله حجاب لا يرونه، أما المؤمنون فإنهم يرونه.

القول الثاني: (**أنه يَرَاهُ أَهْلُ الْمَوْقِفِ، مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَنِ الْكُفَّارِ وَلا يَرَوْنَهُ بَعْدَ ذَلِكَ**)، ولعل السبب في ذلك أن تقوم عليهم الحجة، يعني: أن يعلموا أن هذا ربهم، الذي هو على كل شيء قدير، والذي أمرهم بعبادته فعصوه.

القول الثَّالثُ: أنه (**يَرَاهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُنَافِقُونَ**)؛ لأنهم مختلطون بالمؤمنين ومعهم، يصلون معهم، ويغزون معهم، وإن كانوا مع الكفار في الباطن، فيراه المنافقون دون بقية الكفار.

يقول: هذا خلاف في رؤية الكفار له على ثلاثة هذه الأقوال.

قوله: (وَكَذَلكَ الخِلافُ فِي تَكْليمِهِ لأَهْلِ المَوْقِفِ)، أي: على ثلاثة أقوال:

قيل: لا يكلم إلا المؤمنين.

وقيل: يكلم الجميع، ويسمعون كلامه.

وقيل: يكلم المؤمنين والمنافقين.

والأقوال مبسوطة أدلتها في كتب العلماء رحمهم الله.

قال الشارح:

وَاتَّفَقَتِ الأُمَّةُ عَلى أَنَّهُ لا يَرَاهُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا بِعَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَتَنَازَعُوا فِي ذَلِكَ إِلا فِي نَبِيِّنَا ﷺ خَاصَّةً: مِنْهُمْ مَنْ نَفَى رُؤْيَتَهُ بِالعَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا لهُ ﷺ.

وَحَكَى القَاضِي عِيَاضٌ فِي كِتَابِهِ «الشِّفَا» اخْتِلافَ الصَّحَابَةِ ﷺ وَمَنْ بَعْدَهُمْ فِي رُؤْيَتِهِ ﷺ، وَإِنْكَارَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنْ يَكُونَ ﷺ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِ رَأْسِهِ، وَأَنَّهَا قَالتْ لمَسْرُوقٍ حِينَ سَأَلَهَا: هَل رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ ؟ فَقَالتْ: لقَدْ قَفَّ شِعْرِي مِمَّا قُلتَ، ثُمَّ قَالتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ.

ثُمَّ قَال: وَقَال جَمَاعَةٌ بِقَوْل عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَهُوَ المَشْهُورُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَاخْتُلفَ عَنْهُ، وَقَال بِإِنْكَارِ هَذَا وَامْتِنَاعِ رُؤْيَتِهِ فِي الدُّنْيَا جَمَاعَةٌ مِنَ المُحَدِّثِينَ وَالفُقَهَاءِ وَالمُتَكَلمِينَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أنه قال: أَنَّهُ ﷺ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِهِ، وَرَوَى عَطَاءٌ عَنْهُ: أَنَّهُ رَآهُ بِقَلبِهِ. ثُمَّ ذَكَرَ أَقْوَالا وَفَوَائِدَ.

ثُمَّ قَال: وَأَمَّا وُجُوبُهُ لنَبِيِّنَا ﷺ وَالقَوْلُ بِأَنَّهُ رَآهُ بِعَيْنِهِ فَليْسَ فِيهِ قَاطِعٌ وَلا نَصٌّ، وَالمُعَوَّلُ فِيهِ عَلى آيَةِ النَّجْمِ، وَالتَّنَازُعُ فِيهَا مَأْثُورٌ، وَالاحْتِمَالُ لهَا مُمْكِنٌ.

قال الشيخ:

هذا كلام القاضي عياض، فيقول الشارح - رحمه الله -: (وَاتَّفَقَتِ الأُمَّةُ عَلى أَنَّهُ لا يَرَاهُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا بِعَيْنَيْهِ)؛ لأن الله تعالى منع موسى - عليه السلام - لَمَّا

قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]،أي: لا يمكن أن تراني في الدنيا؛ وذلك لضعف بنية الآدمي، فلا يحتمل أن يثبت لرؤية الله؛ ولهذا لم يثبت الجبل الشامخ كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾، جبل شامخ أصم، تجلى له الرب تعالى بنوره، فاندك الجبل من عظمة رؤية الله، وعظمة نوره، فكيف يثبت لذلك الإنسان في الدنيا الذي خلقته ضعيفة، وأما في الآخرة فإن الله يقويهم ويعطيهم من القوة ما يتمكنون به من أن يثبتوا لرؤية الله تعالى.

قوله: (**وَلَمْ يَتَنَازَعُوا فِي ذَلِكَ إلا فِي نَبِيِّنَا ﷺ خَاصَّةً**)، تنازعوا: اختلفوا.

قوله: (**مِنْهُمْ مَنْ نَفَى رُؤْيَتَهُ بِالعَيْنِ**)، كما منع الله تعالى موسى ـ عليه السلام ـ الذي كلمه تكليمًا أن يراه، (**وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا لهُ ﷺ**).

ثم ذكر كلام القاضي عياض في كتابه «الشفا»، وهذا القاضي هو: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي المالكي رحمه الله، كان من أجلاء علماء المغرب، إمام في الحديث، له التآليف النفيسة البديعة، وهذا النص مذكور في كتابه «الشفا»[١].

ذكر اختلاف الصحابة ﷺ ومن بعدهم في رؤية النبي ﷺ، وذكر إنكار عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن يكون النبي ﷺ رأى ربه بعيني رأسه، وأنها قالت

---

(١) (١/١٩٥ـ٢٠٢).

لمسروق لما سألها: (هَل رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ؟)، فَقَالتْ: (لقَدْ قَفَّ شَعْرِي مِمَّا قُلتَ). ثُمَّ قَالتْ: (مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ)، هذا الحديث أخرجه البخاري[1]، ومسلم[2]، وأحمد[3]، والترمذي[4]، والنسائي[5]، وغيرهم، ولفظه عند مسلم: (كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ ثَلاَثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ . قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ. قَالَ: وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِينِي وَلاَ تَعْجَلِينِي أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير:٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم:١٣]، فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ، سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ. فَقَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ

---

(١) برقم (٤٨٥٥).

(٢) برقم (١٧٧).

(٣) (٦/ ٤٩، ٥٠).

(٤) برقم (٣٠٦٨).

(٥) في الكبرى (١١٠٨٢).

يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى:٥١]، قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة:٦٧]، قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النمل:٦٥]).

وقد شرح هذا الحديث النووي ـ رحمه الله تعالى ـ في «شرح مسلم»[(١)]، وكأنه يميل إلى القول بأن الله تعالى يمكن رؤيته في الدنيا لبعض الخواص كمحمد ﷺ، وقد أجاب عن آية ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾، كما أجاب عنها أئمة السلف بأن الإدراك غير الرؤية، أي: ما تراه الأبصار لا تدرك كونه، ولا تعرف ماهيته.

ومع ذلك فإن هذا قول ليس بصحيح، والرؤية إذا مُنع منها موسى فمحمد ﷺ كذلك لا يقدر أن يثبت على رؤية الله التي لم يثبت عليها الجبل.

يقول القاضي عياض: (**وَقَالَ جَمَاعَةٌ بِقَوْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَهُوَ الْمَشْهُورُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ**)، يعني: **أنه لا** يمكن رؤيته، وأن الله تعالى لم يره أحد، لا رسول الله ولا غيره، هذا قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ كما في

---

(١) (٣/ ٤ ـ ١١).

صحيح مسلم، وهذا أيضًا قول ابن مسعود وأبي هريرة رضي الله عنهما، وإن كان عن أبي هريرة ﷺ خلاف، وقال آخرون: إن ذلك ممكن، أنه ﷺ قد رأى ربه في الدنيا، قال ذلك جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين.

ومن أشهر مَنْ يقول بذلك ابن عباس رضي الله عنهما، فقد نُقل عنه أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ - عز وجل - اصْطَفَى إبراهيم بِالْخُلَّةِ، وَاصْطَفَى مُوسَى بِالْكَلامِ، وَاصْطَفَى مُحَمَّدًا بِالرُّؤْيَةِ»[1] صلوات الله عليهم، وأخرج البخاري[2]، وأحمد[3]، والترمذي[4]، والنسائي[5]، وغيرهم من طريق سفيان عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قول الله - عز وجل -: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ [الإسراء:٦٠]، قال: «هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيَهَا رسول اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ».

لكن هذا القول موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما، وليس صريحًا في الرؤيا، فإنه لم يذكر متعلق الرؤية.

ثم ذكر أن من جملة من وافقه بعض المفسرين.

---

(١) أخرجه الطبري (٢٧/ ٤٨)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٨٩)، وعبدالله بن الإمام أحمد في السنة (١/ ٢٩٨)، والطبراني في الكبير (١١٩١٤).

(٢) برقم (٤٧١٦).

(٣) (١/ ٢٢١).

(٤) برقم (٣١٣٤).

(٥) في الكبرى (١١٢٢٨).

قوله: (وَرَوَى عَطَاءٌ عَنْهُ: أَنَّهُ رَآهُ بِقَلْبِهِ)، أي: قال عطاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: رآه رؤيا قلب، أي: رآه بقلبه. والأثر عن عطاء أخرجه مسلم في «صحيحه»[1] من طريق ابن أبي شيبة عن حفص عن عبدالملك عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكذلك رواه غيره.

يقول ـ هذا كلام القاضي عياض ـ: (وَأَمَّا وُجُوبُهُ لنَبِيِّنَا ﷺ وَالقَوْلُ بِأَنَّهُ رَآهُ بِعَيْنِهِ فَلَيْسَ فِيهِ قَاطِعٌ وَلا نَصٌّ)، أي: ليس فيه دليل صريح ولا نص قاطع، (وَالْمُعَوَّلُ فِيهِ عَلى آيَةِ النَّجْمِ)، وهي قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهَىٰ ﴾ [النجم:١٣، ١٤]، يعني: لما أُسري به ﷺ، فقيل: الضمير في (رَآهُ): يعود إلى الله تعالى، وقيل: يعود إلى جبريل ـ عليه السلام ـ وهذا هو المشهور.

قوله: (وَالتَّنَازُعُ فِيهَا مَأْثُورٌ، وَالاحْتِمَالُ لَهَا مُمْكِنٌ)، أي: هل رأى جبريل، أو رأى ربه؟ هكذا.

---

(١) برقم (١٧٦).

قال الشارح:

وَهَذَا القَوْلُ الذِي قَالهُ القَاضِي عِيَاضٌ - رَحِمَهُ اللهُ - هُوَ الحَقُّ، فَإِنَّ الرُّؤْيَةَ فِي الدُّنْيَا مُمْكِنَةٌ، إِذْ لوْ لمْ تَكُنْ مُمْكِنَةً، لَمَا سَأَلَهَا مُوسَى عَليْهِ السَّلامُ، لكِنْ لمْ يَرِدْ نَصٌّ بِأَنَّهُ ﷺ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِ رَأْسِهِ، بَل وَرَدَ مَا يَدُلُّ عَلى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ، وَهُوَ مَا رَوَاهُ مُسْلمٌ فِي (صَحِيحِهِ) عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَال: سَأَلتُ رَسُول اللهِ ﷺ هَل رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ فَقَال: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ». وَفِي رِوَايَةٍ: «رَأَيْتُ نُورًا».

وَقَدْ رَوَى مُسْلمٌ أَيْضًا عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلمَاتٍ، فَقَال: «إِنَّ اللهَ لا يَنَامُ وَلا يَنْبَغِي لهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِليْهِ عَمَلُ الليْل قَبْل عَمَل النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْل عَمَل الليْل، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةٍ: النَّارُ - لوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِليْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلقِهِ». فَيَكُونُ - وَاللهُ أَعْلمُ - مَعْنَى قَوْلهِ لأَبِي ذَرٍّ «رَأَيْتُ نُورًا»: أَنَّهُ رَأَى الحِجَابَ، وَمَعْنَى قَوْلهِ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»: النُّورُ الذِي هُوَ الحِجَابُ يَمْنَعُ مِنْ رُؤْيَتِهِ، فَأَنَّى أَرَاهُ؟ أَيْ: فَكَيْفَ أَرَاهُ وَالنُّورُ حِجَابٌ بَيْنِي وَبَيْنَهُ يَمْنَعُنِي مِنْ رُؤْيَتِهِ ؟ فَهَذَا صَرِيحٌ فِي نَفْيِ الرُّؤْيَةِ. وَاللهُ أَعْلمُ.

وَحَكَى عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ اتِّفَاقَ الصَّحَابَةِ عَلى ذَلكَ.

قال الشيخ:

كلام القاضي عياض هو الحق، حيث تكلم على وجوده لنبينا ﷺ، وأنه ليس فيه نص قاطع، وأن المعول فيه على آية النجم، وأن فيهما نزاع،

وأن الاحتمالية ممكنة.

الرؤية في الدنيا وإن كانت ممكنة فإنها قد لا تكون مقدورة للبشر، والدليل على إمكانه سؤال موسى - عليه السلام - الرؤية، فلو لم تكن ممكنة لما سألها موسى عليه السلام، وهو أعرف بالله أن يسأله ما ليس بممكن، هكذا.

قوله: (**لكِنْ لَمْ يَرِدْ نَصٌّ بِأَنَّهُ ﷺ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِ رَأْسِهِ**)، يعني: دليل واضح أنه رأى ربه بعيني رأسه، بل وردت أدلة تدل على نفي رؤيته لربه، ذكر حديث أبي ذر ﷺ قال: (**سَأَلْتُ رَسُول الله ﷺ هَل رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ فَقَال: نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ. وَفِي رِوَايَةٍ: رَأَيْتُ نُورًا**). وهذا الحديث أخرجه مسلم[1]، وأخرجه الإمام أحمد[2] بلفظ: «**قَدْ رَأَيْتُ نُورًا أَنَّى أَرَاهُ**»، وله شاهد من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - بلفظ: «**يوم القيامة أول يوم نظرت فيه عين إلى الله عز وجل**»[3]. وله شاهد مرسل أخرجه الدارمي في (الرد على الجهمية)[4].

فقوله: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**»، أي: كيف أراه ودونه هذه الأنوار، وفي رواية: «**رَأَيْتُ نُورًا**»، أي: إنني رأيت نورًا بيني وبينه.

ثم ذكر حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أنه قال: (**قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ**

---

(١) برقم (١٧٨).

(٢) (٥/ ١٤٧).

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (١٠/ ٣٥١).

(٤) (ص٧٢).

بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ لا يَنَامُ وَلا يَنْبَغِي لهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةٍ: النَّارُ - لوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ). الله تعالى قد أخبر بأنه لا ينام ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ولا ينبغي له أن ينام؛ لأن النوم أخو الموت، فالله تعالى منزه عن ذلك.

وذكر أنه (يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ)، قيل: إن القسط هو الميزان، وقيل: العدل.

وذكر أنه (يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ)، أي: يُرفع إليه عمل النهار قبل أن يصل الليل، أي: قبل أن يدخل الليل، وكذلك عمل الليل يُرفع إليه قبل دخول النهار، فعمل الليل يُرفع إليه قبل ذهاب الليل كله، وقبل أن يبدأ النهار؛ وكذلك عمل النهار يُرفع إليه قبل أن يدخل الليل.

وذكر أن (حِجَابُهُ النُّورُ)، أي: قد احتجب عن المخلوقات بهذا النور، وفي رواية: (النَّارُ)، (لوْ كَشَفَهُ)، أي: لو كشف هذا الحجاب (لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)، جعل بينه وبين الخلق هذا النور الذي هو حجاب قوي، لو كشف ذلك الحجاب لاحترق ما انتهى إليه بصره من خلقه، يعني: من نور وجهه سبحانه وتعالى، (سُبُحَاتُ وَجْهِهِ)، في هذا الحديث دليل

على إثبات الوجه، حيث أخبر النبي ﷺ بأن له سبحات يعني أنوار، وأنه لو كشفه لاحترقت جميع المخلوقات التي ينتهي إليها بصر الله. هذا الحديث أخرجه مسلم[١]، وأحمد[٢]، وابن ماجه[٣]، وغيرهم.

قوله: (**وَمَعْنَى قَوْلِهِ:«نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»: النُّورُ الذِي هُوَ الحِجَابُ يَمْنَعُ مِنْ رُؤْيَتِهِ**)، أي: رأيت ذلك النور الذي هو الحجاب أي أوله، وقوله: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**» أي: دونه هذا النور الذي هو الحجاب يمنعني ويمنع غيري من رؤيته، فكيف أراه والنور حجاب بيني وبينه يمنعني ويمنع غيري من رؤيته؟

قال: (**فَهَذَا صَرِيحٌ فِي نَفْيِ الرُّؤْيَةِ**)، وعدم إثباتها لأي أحد من البشر أو من الملائكة ونحوهم.

ثم ذكر أن عثمان بن سعيد الدارمي حكى اتفاق الصحابة على ذلك، وهذا في كتابه «الرد على الجهمية»، وهو مطبوع.

---

(١) برقم (١٧٩).
(٢) (٤/ ٤٠٥).
(٣) برقم (١٩٥).

قال الشارح:

ونحن إِلى تَقْرِيرِ رُؤْيَتِهِ لِجِبْرِيل أَحْوَجُ مِنَّا إِلى تَقْرِيرِ رُؤْيَتِهِ لِرَبِّهِ تَعَالى، وَإِنْ كَانَتْ رُؤْيَةُ الرَّبِّ تَعَالى أَعْظَمَ وَأَعْلى، فَإِنَّ النُّبُوَّةَ لا يَتَوَقَّفُ ثُبُوتُهَا عَلَيْهَا أَلْبَتَّةَ.

قال الشيخ:

يقول الشارح: إن الآيات تدل على رؤية جبريل عليه السلام، فنحن بحاجة إلى تقرير هذه الرؤية؛ لأنه ﷺ أخبر بأنه ما رأى جبريل ـ عليه السلام ـ في صورته التي خُلق عليها إلا مرة واحدة، ودل على ذلك آية سورة (التكوير): ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [التكوير:٢٣]، أي: رأى جبريل عليه السلام، وكذلك آية سورة (النجم): ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النجم:٧]، فتقرير رؤيته لجبريل ـ عليه السلام ـ أولى بأن يحقق ويقرر، وهو أحوج إلى تقرير رؤيته إلى ربه تعالى؛ لأن الأدلة جاءت بنفي رؤيته لربه تعالى.

نحن نعتقد: أن رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها ألبتة، الأنبياء حتى موسى ـ عليه السلام ـ لم يثبت أنهم رأوا ربهم، وموسى ـ عليه السلام ـ الذي كلمه الله تكليمًا مُنع من إثبات الرؤية.

قال الشارح:

قوله: (بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلا كَيْفِيَّةٍ). هَذَا لِكَمَال عَظَمَتِهِ وَبَهَائِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَلا تُحِيطُ بِهِ، كَمَا يُعْلَمُ وَلا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

قال الشيخ:

قوله: (بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلا كَيْفِيَّةٍ)، يعني: إذا رآه المؤمنون فإنهم لا يحيطون به؛ وكذلك أيضًا لا يدركون ماهيته، ولا كيفيته، وذلك لكمال عظمة الله - سبحانه - وبهائه وجلاله وكبريائه، هذا معنى قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، أي: لا تحيط به كما يُحاط بالمرئي في الدنيا، كما ورد عن عكرمة أنه قال لرجل يحتج على نفي الرؤية بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، فقال له: ألستَ ترى السماء؟ قال: بلى، قال: فكلّها ترى؟[1]، وكما أنه سبحانه يُعلم ولا يُحاط به علمًا، نحن نعلم صفاته، ولكن لا نحيط به علمًا.

---

(١) تقدم تخريجه (١/٣٥٦).

قال الشارح:

قوله: (وَتَفْسِيرُهُ عَلى مَا أَرَادَ اللهُ وَعلمَهُ) إِلَى أَنْ قَالَ: (لَا نَدْخُلُ فِي ذَلكَ مُتَأَوِّلينَ بِآرَائِنَا وَلا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا). أَيْ: كَمَا فَعَلَتِ الْمُعْتَزِلَةُ بِنُصُوصِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي الرُّؤْيَةِ، وَذَلكَ تَحْرِيفٌ لكَلامِ اللَّهِ وَكَلامِ رَسُولِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، فَالتَّأْوِيلُ الصَّحِيحُ هُوَ: الذِي يُوَافِقُ مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ، وَالفَاسِدُ الْمُخَالِفُ لهُ، فَكُلُّ تَأْوِيلٍ لمْ يَدُل عَليْهِ دَليلٌ مِنَ السِّيَاقِ، وَليس مَعَهُ قَرِينَةٌ تَقْتَضِيهِ، فَإِنَّ هَذَا لا يَقْصِدُهُ الْمُبَيِّنُ الهَادِي بِكَلامِهِ، إِذْ لوْ قَصَدَهُ لحَفَّ بالكَلامِ قَرَائِنَ تَدُلُّ عَلى المَعْنَى المُخَالفِ لظَاهِرِهِ، حَتَّى لا يُوقِعَ السَّامِعِينَ فِي اللبْسِ وَالخَطَأ، فَإِنَّ اللهَ أَنْزَل كَلامَهُ بَيَانًا وَهُدًى، فَإِذَا أَرَادَ بِهِ خِلافَ ظَاهِرِهِ، وَلمْ يَحُفَّ بِهِ قَرَائِنَ تَدُلُّ عَلى المَعْنَى الذِي يَتَبَادَرُ غَيْرُهُ إِلى فَهْمِ كُل أَحَدٍ، لمْ يَكُنْ بَيَانًا وَلا هُدًى. فَالتَّأْوِيلُ: إِخْبَارٌ بِمُرَادِ المُتَكَلمِ لا إِنْشَاءٌ.

قال الشيخ:

عبارة الطحاوي: (وَتَفْسِيرُهُ عَلى مَا أَرَادَ اللهُ وَعَلمَهُ)، المراد بذلك النصوص التي ذكر الله تعالى فيها بعضًا من الصفات، وأخبر فيها عن بعض الأمور الغيبية من صفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ فنحن نعرف معناه الذي دل عليه اللفظ، وأما كيفيته وماهيته وما هو عليه فهذا مما لم نطلع عليه ولا نعلمه، ونقول: الله أعلم بمراده. كما يقولون ذلك في الحروف المقطعة في أوائل السور، أنه على ما أراده الله وعلمه، أن الله تعالى أراد بإنزال الآيات البيان والهدى

للناس، وقد علم أنهم يفهمون ذلك، ويعرفونه؛ لأنه بلغتهم، فنقول: الأشياء التي تشكل علينا كيفيتها وماهيتها هي التي نكل الكيفية إلى الله تعالى، (لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا وَلا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا)، أي: لا نتأولها كما فعلت المعتزلة ومثلهم أيضًا في هذه الأزمنة الأباضية الذين عبثوا بنصوص القرآن، وبنصوص السنة الواردة في إثبات الرؤية، فقد تسلطوا عليها، وحاولوا أنها تُصرف عن دلالتها، فحرفوها تحريفًا بعيدًا، فيدخلون في قول الله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة:٤١]، أي: يصرفونه عن ما هو دال عليه، ويسمون ذلك تأويلًا، وهكذا يفعلون بالأحاديث النبوية يصرفونها عن ما دلت عليه، ويسمون ذلك تأويلاً.

التأويل الصحيح: هو الذي يوافق ما جاءت به السنة، وهو الذي يوافق مفهوم الأحاديث الظاهرة التي يتبادر فهمها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، وأما التأويل الفاسد فإنه المخالف لما جاء به كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، فإننا نقول: هذا تأويل فاسد، بل نقول: إنه تحريف لكلام الله وكلام رسوله عن مواضعه، فلا نسميه تأويلاً بل هو في الحقيقة تحريف.

قوله: (فَكُلُّ تَأْوِيلٍ)، بمعنى (لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ مِنَ السِّيَاقِ)، سياق الكلام، (وَلَيس مَعَهُ قَرِينَةٌ تَقْتَضِيهِ)، أي: قرينة تفيد أن المعنى شيء غير ما يتبادر إلى الأفهام.

قوله: (فَإِنَّ هَذَا لا يَقْصِدُهُ الْمُبَيِّنُ الْهَادِي بِكَلامِهِ)، الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر أن القرآن هدى وبيان بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة:٣٣]، وبقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٨]، فإذا كان الكلام ظاهرًا ومفهومًا فإنه لا يحتاج إلى أن يصرفه صارف ويتكلف متكلف فيحرفه عن ظاهره الذي دل عليه، (الْمُبَيِّنُ الْهَادِي بِكَلامِهِ)، الذي هو النبي ﷺ.

قوله: (إِذْ لَوْ قَصَدَهُ لَحَفَّ بِالْكَلامِ قَرَائِنَ تَدُلُّ عَلى الْمَعْنَى الْمُخَالِفِ لظَاهِرِهِ)، أي: لجعل مع الكلام قرينة تبين أنه لم يرد ظاهره، وإنما أراد معنى مخالفًا لِما يتبادر منه.

قوله: (حَتَّى لا يُوقِعَ السَّامِعِينَ فِي اللبْسِ وَالْخَطَأِ)، إذا لم يكن هناك قرينة كان الكلام ظاهرًا، ومع ذلك فإن قصد المتكلم غير المعنى الذي يتبادر إلى الفهم، فإنه يوقع السامعين في اللبس والخطأ، فيفهمون من الكلام غير المراد، كما تقوله المعتزلة ونحوهم ممن يتأول الصفات وأدلتها على غير ما يتبادر منها.

قوله: (فَإِنَّ اللهَ أَنْزَلَ كَلامَهُ بَيَانًا وَهُدًى)، أي: يُبين ما يحتاجون إليه ويهديهم الصراط المستقيم.

قوله: (فَإِذَا أَرَادَ بِهِ خِلافَ ظَاهِرِهِ)، وخلاف متبادره ومع ذلك (وَلَمْ يَحُفَّ بِهِ قَرَائِنَ تَدُلُّ عَلى الْمَعْنَى الَّذِي يَتَبَادَرُ غَيْرُهُ إِلى فَهْمِ كُلِّ أَحَدٍ، لَمْ يَكُنْ بَيَانًا وَلا هُدًى. فَالتَّأْوِيلُ: إِخْبَارٌ بِمُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ لا إِنْشَاءٌ)، ومن أمثلة الكلام الذي

ليس معه قرائن:

قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٠]، فإنه صريح ليس معه قرينة.

وكذلك قوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢].

وكذلك قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وقد تكلفوا وصرفوا المجيء والإتيان بقولهم: (أي: جاء أمره)، ونحو ذلك، قد يستدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ﴾ [الحشر: ٢]، لكن ها هنا قرينة أن المراد أتاهم الله بعذابه، وأتاهم بالمؤمنين الذين تسلطوا عليهم، حتى أخرجهم من ديارهم، وأما قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾، فليس هناك قرينة تجعله مصروفًا عما يتبادر منه.

قال الشارح:

وَفِي هَذَا المَوْضِعِ يَغْلَطُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَإِنَّ المَقْصُودَ فَهْمُ مُرَادِ المُتَكَلِّمِ بِكَلامِهِ، فَإِذَا قِيلَ: مَعْنَى اللَّفْظِ كَذَا وَكَذَا، كَانَ إِخْبَارًا بِالَّذِي عَنَاهُ المُتَكَلِّمُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الخَبَرُ مُطَابِقًا كَانَ كَذِبًا عَلَى المُتَكَلِّمِ.

قال الشيخ:

قوله: (وَفِي هَذَا المَوْضِعِ يَغْلَطُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ)، الكثير الذين يغلطون هم الذين عقيدتهم منحرفة؛ كإنكارهم لإثبات الرؤية، أو إنكارهم لعلو الله تعالى، أو لمجيئه كما يشاء، وكذلك إنكارهم للصفات الفعلية؛ كصفة الاستواء وما أشبهها، وصفة العلو، فيغلطون في هذه المواضع.

قوله: (فَإِنَّ المَقْصُودَ فَهْمُ مُرَادِ المُتَكَلِّمِ بِكَلامِهِ)، أي: المقصود فهم مراد الله تعالى بكلامه، (فَإِذَا قِيلَ: مَعْنَى اللَّفْظِ كَذَا وَكَذَا كَانَ إِخْبَارًا بِالَّذِي عَنَاهُ المُتَكَلِّمُ)، يعني: أنه بذلك حقيقة ظاهرة معلومة ليس فيها خفاء.

قوله: (فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الخَبَرُ مُطَابِقًا كَانَ كَذِبًا عَلَى المُتَكَلِّمِ)، إذا قالوا: معنى ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، جاء أمره. أين الدليل على أنه يكون هناك مستتر أو مقدر؟ لاشك أنه أيضًا كذب، وإذا قالوا: إن معنى النزول نزول الملك، أو نزول العذاب، وإذا قالوا: إن قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، المراد بقوله: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ملائكته، فإن ذلك كله كذب على المتكلم.

قال الشارح:

وَيُعْرَفُ مُرَادُ المُتَكَلِمِ بِطُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ:

مِنْهَا: أَنْ يُصَرِّحَ بِإِرَادَةِ ذَلِكَ المَعْنَى.

وَمِنْهَا: أَنْ يَسْتَعْمِلَ اللفْظَ الذِي لهُ مَعْنًى ظَاهِرٌ بِالوَضْعِ، وَلا يُبَيِّنُ بِقَرِينَةٍ تَصْحَبُ الكَلامَ أَنَّهُ لمْ يُرِدْ ذَلكَ المَعْنَى، فَكَيْفَ إِذَا حُفَّ بِكَلامِهِ مَا يَدُلُّ عَلى أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ حَقِيقَتَهُ وَمَا وُضِعَ لَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٣]، وقوله ﷺ: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»[1]. فَهَذَا مِمَّا يَقْطَعُ السَّامِعُ فيه بِمُرَادِ المُتَكَلمِ، فَإِذَا أَخْبَرَ عَنْ مُرَادِهِ بِمَا دَل عَلَيْهِ حَقِيقَةُ لفْظِهِ الذِي وُضِعَ لهُ مَعَ القَرَائِنِ المُؤَكِّدَةِ، كَانَ صَادِقًا فِي إِخْبَارِهِ، وَأَمَّا إِذَا تَأَوَّلَ الكَلامَ بِمَا لا يَدُلُّ عَليْهِ وَلا اقْتَرَنَ بِهِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَإِخْبَارُهُ بِأَنَّ هَذَا مُرَادُهُ كَذِبٌ عَليْهِ، وَهُوَ تَأْوِيلٌ بِالرَّأْيِ، وَتَوَهُّمٌ بِالهَوَى.

قال الشيخ:

قوله: (مُرَادُ المُتَكَلِمِ)، يعني: ما يريده بالكلام الذي تكلم به، ومنه كلام الله تعالى، وكلام رسوله، كيف يُعرف مراده؟ يُعرف:

أولاً: (أَنْ يُصَرِّحَ بِإِرَادَةِ ذَلِكَ المَعْنَى)، مثل قوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الحشر:٢]،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

معلوم أن الله تعالى ما أتاهم بذاته، وإنما أتاهم بالمؤمنين الذين حاصروهم.

ثانيًا: (أَنْ يَسْتَعْمِلَ اللفْظَ الذِي لهُ مَعْنًى ظَاهِرٌ بِالوَضْعِ، وَلا يُبَيِّنُ بِقَرِينَةٍ تَصْحَبُ الكَلامَ أَنَّهُ لمْ يُرِدْ ذَلكَ المَعْنَى)، أي: إذا استعمل اللفظ الذي هو ظاهر كلفظ النزول، فإن هذا لفظ ظاهر لا يحتاج إلى قرينة، فإذا لم يكن هناك قرينة تصحب الكلام يُفهم منها أنه لم يرد ذلك المعنى عُرف أنه على ظاهره، (فَكَيْفَ إِذَا حُفَّ بِكَلامِهِ مَا يَدُلُّ عَلى أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ حَقِيقَتَهُ وَمَا وُضِعَ لهُ)، أي: ما وضع له اللفظ حقًا، فمثل هذا لا يشك شاك أنه ما أراد ظاهر اللفظ بل يعلم يقينًا أنه ظاهر اللفظ، حيث لم يكن هناك قرينة تصرفه عن ظاهره، بل إن هناك قرائن تدل على أنه أراد حقيقته، وأراد ما وُضع له، وأراد ما يتعارفون عليه، واستدل بقول الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٣]، في إثبات أن الله كلم موسى عليه السلام.

وقد حاول بعض المعتزلة تحريف هذه الكلمة، وطلب من أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة أن يقرأ: {وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تَكْلِيمًا}، بنصب لفظ الجلالة (الله) ليكون موسى -عليه السلام- هو المتكلم لا الله، فقال له أبو عمرو -رحمه الله-: هَبْ أني قرأت هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، هل تستطيع أن تحرفها؟ فانقطع ذلك المعتزلي.

وتسلط أيضًا بعض المعتزلة وقالوا: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾، جرحه بأظافر

الحكمة، سبحان الله! التجريح يعتبر عذابًا، وموسى - عليه السلام - يُسمى كليم الله، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف:١٤٤]، فأين القرينة التي تدل على أن (كلمه) يعني (جرحه)؟ بل إنه كلمه ودل على ذلك آيات النداء، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء:١٠]، ولا يكون النداء إلا بكلام مسموع، وكذلك قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ [طه:١٤]، لا يجوز أن يقول ذلك غير الله.

ومن الكلام الصريح قوله ﷺ في حديث أبي سعيد وأبي هريرة - رضي الله عنهما - لما قال له أناس: هل نَرَى رَبَّنَا يوم الْقِيَامَةِ؟ فقال: «هل تُضَارُّونَ في الشَّمْسِ ليس دُونَهَا سَحَابٌ؟ قالوا: لا يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: «هل تُضَارُّونَ في الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ليس دُونَهُ سَحَابٌ؟ قالوا: لا يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يوم الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ»[1].

وفي حديث جرير ﷺ قال: كنا جُلُوسًا عِنْدَ النبي ﷺ إِذْ نَظَرَ إلى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، قال: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كما تَرَوْنَ هذا الْقَمَرَ لا تُضَامُونَ في رُؤْيَتِهِ»[2]، فإن هذا صريح في إثبات الرؤية؛ لأن «ترون» يعني: تنظرون. وفي رواية: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا»[3]، أكده بقوله: (عيانا)، وأكده بقوله في رواية

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٥٠).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ١٥٠).

(٣) تقدم تخريجه (٢/ ١٥٠).

أخرى: «هل تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ»[1]، وأكد ذلك بقوله: «ليس دُونَهَا سَحَابٌ»، وكذلك «الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»، يقطع السامع فيه بمراد المتكلم.

قوله: (فَإِذَا أَخْبَرَ عَنْ مُرَادِهِ بِمَا دَل عَلَيْهِ حَقِيقَةُ لَفْظِهِ الذِي وُضِعَ لهُ مَعَ القَرَائِنِ المُؤَكِّدَةِ، كَانَ صَادِقًا فِي إِخْبَارِهِ)، الله تعالى أخبر عن مراده بما دل عليه حقيقة اللفظ الذي هو إثبات هذه الرؤية في آيات كثيرة ذُكرت في أدلة إثبات الرؤية.

قوله: (وَأَمَّا إِذَا تَأَوَّلَ الكَلامَ)، أي: متأول (بِمَا لا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَلا اقْتَرَنَ بِهِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَإِخْبَارُهُ بِأَنَّ هَذَا مُرَادُهُ كَذِبٌ عَلَيْهِ)، أي: الذين يتأولونه بما لا يدل عليه وليس هناك قرينة نقول: كذبتم على الله، وتأولتم بالرأي، وتوهمتم بالهوى، فارجعوا وراجعوا الحق.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٩٠).

قال الشارح:

وَحَقِيقَةُ الأَمْرِ: أَنَّ قَوْل القَائِل: نَحْمِلُهُ عَلى كَذَا، أَوْ: نَتَأَوَّلُهُ بِكَذَا، إِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ دَفْعِ دَلالَةِ اللفْظِ عَلى مَا وُضِعَ لهُ، فَإِنَّ مُنَازِعَهُ لَمَّا احْتَجَّ عَلَيْهِ بِهِ وَلَمْ يُمْكِنْهُ دَفْعُ وُرُودِهِ، دَفَعَ مَعْنَاهُ، وَقَال: أَحْمِلُهُ عَلى خِلافِ ظَاهِرِهِ.

قال الشيخ:

قوله: (وَحَقِيقَةُ الأَمْرِ)، أي: الذي نقوله إذا قال قائل: (نَحْمِلُهُ عَلى كَذَا)، نحمل الاستواء على الاستيلاء، أو نتأوله بالاستيلاء، فنقول: هذا (مِنْ بَابِ دَفْعِ دَلالَةِ اللفْظِ عَلى مَا وُضِعَ لهُ)، تدفعون دلالته على ما وُضع له وهو العلو، الذي ينازعونكم ويحتجون به، فالذين ينازعون في هذا اللفظ إذا لم يمكنهم (دَفْعُ وُرُودِهِ، دَفَعَوا مَعْنَاهُ)، لا يقدرون على أن يدفعوا آيات الاستواء فتسلطوا على معانيها، وقالوا: نحملها على خلاف ظاهرها، ويقولون: إن ظاهرها غير مراد. وبذلك تسلطوا على آيات الصفات.

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: بَل للحَمْلِ مَعْنًى آخَرَ لمْ تَذْكُرُوهُ، وَهُوَ: أَنَّ اللفْظَ لَـمَّا اسْتَحَالَ أَنْ يُرَادَ بِهِ حَقِيقَتُهُ وَظَاهِرُهُ، وَلا يُمْكِنُ تَعْطِيلُهُ، اسْتَدْللنَا بِوُرُودِهِ وَعَدَمِ إِرَادَةِ ظَاهِرِهِ عَلَى أَنَّ مَجَازَهُ هُوَ المُرَادُ، فَحَمَلنَاهُ عَلَيْهِ دَلالَةً لا ابْتِدَاءً.

قِيل: فَهَذَا المَعْنَى هُوَ الإِخْبَارُ عَنِ المُتَكَلمِ أَنَّهُ أَرَادَهُ، وَهُوَ إِمَّا صِدْقٌ وَإِمَّا كَذِبٌ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَمِنَ المُمْتَنِعِ أَنْ يُرِيدَ خِلافَ حَقِيقَتِهِ وَظَاهِرِهِ وَلا يُبَيِّنُ للسَّامِعِينَ المَعْنَى الذِي أَرَادَهُ، بَل يَقْرُنُ بِكَلامِهِ مَا يُؤَكِّدُ إِرَادَةَ الحَقِيقَةِ، وَنَحْنُ لا نَمْنَعُ أَنَّ المُتَكَلمَ قَدْ يُرِيدُ بِكَلامِهِ خِلافَ ظَاهِرِهِ، إِذَا قَصَدَ التَّعْمِيَةَ عَلى السَّامِعِ حَيْثُ يَسُوغُ ذَلكَ، وَلكِنَّ المُنْكَرَ أَنْ يُرِيدَ بِكَلامِهِ خِلافَ حَقِيقَتِهِ وَظَاهِرِهِ إِذَا قَصَدَ البَيَانَ وَالإِيضَاحَ وَإِفْهَامَ مُرَادِهِ! كَيْفَ وَالمُتَكَلمُ يُؤَكِّدُ كَلامَهُ بِمَا يَنْفِي المَجَازَ، وَيُكَرِّرُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَيَضْرِبُ لهُ الأَمْثَال.

قال الشيخ:

قوله: (فَإِنْ قِيل: بَل للحَمْلِ مَعْنًى آخَرَ لمْ تَذْكُرُوهُ)، هذا مما يدلي به المتأولون لآيات الصفات فيقولون: إن للحمل معنى آخر لم تذكروه وهو أن اللفظ إذا استحال أن يُراد به حقيقته وظاهره، كأن يُراد به حقيقة الرؤية؛ لأنهم في نظرهم أن هذا مستحيل، أو يُراد حقيقة الاستواء الذي هو العلو، هذا مستحيل عندهم، ثم يقولون: لا يمكن تعطيله، لا يمكن أن نعطل هذه الآيات، ولا أن نجعلها ليس لها معنى، فحينئذٍ استدللنا بوروده في هذه

الآيات، وبعدم إرادة ظاهره أنه ليس حقيقة النزول، وليس حقيقة الاستواء وليس حقيقة الضحك ونحو ذلك، استدللنا على أن مجازه هو المراد فحملناه عليه دلالة لا ابتداء، أي: حملناه على مجاز، وقد توسعوا في ذكر المجاز.

فأجاب الشارح ـ رحمه الله ـ بقوله: (فَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الإِخْبَارُ عَنِ الْمُتَكَلِّمِ أَنَّهُ أَرَادَهُ)، يعني: كأنكم تقولون: إنه أراد المجاز. فنقول: (إِمَّا صِدْقٌ وَإِمَّا كَذِبٌ)، وقد سبق ذلك.

قال: (وَمِنَ الْمُمْتَنِعِ أَنْ يُرِيدَ خِلافَ حَقِيقَتِهِ وَظَاهِرِهِ)، أي: مجازه، ويقول: تكلفوا واصرفوا كلامي عن ظاهره، واحملوه على مجازات بعيدة، من الممتنع أن يريد خلاف ظاهره ومع ذلك (لا يُبَيِّنُ لِلسَّامِعِينَ الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ، بَلْ يَقْرُنُ بِكَلامِهِ مَا يُؤَكِّدُ إِرَادَةَ الْحَقِيقَةِ)، وإرادة ظاهره، لا يكون هناك قرينة تصرفه، بل هناك قرينة وقرائن تؤكد إرادة الحقيقة، مثل: آيات التكليم ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فإن الكلام معروف أنه الكلام المسموع، ومن الأدلة أيضًا آيات النداء فهي مقترنة بما يدل على أن المراد حقيقة لا أنه مجاز.

قوله: (وَنَحْنُ لا نَمْنَعُ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ قَدْ يُرِيدُ بِكَلامِهِ خِلافَ ظَاهِرِهِ، إِذَا قَصَدَ التَّعْمِيَةَ عَلَى السَّامِعِ حَيْثُ يَسُوغُ ذَلِكَ)، قد يريد المتكلم التعمية على السامع، أو تنبهه إذا ساغ ذلك، ومثاله: قول النبي ﷺ لذلك الرجل: «إِنِّي حَامِلُكَ عَلَى وَلَدِ النَّاقَةِ»[1]، يُفهم منه أنه الفصيل الصغير، وكذلك قوله ﷺ لامرأة:

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩٨)، والترمذي (١٩٩١)، وأحمد (٣/ ٢٦٧) من حديث أنس ﷺ.

«زَوْجُكِ الَّذِي فِي عَيْنِهِ بَيَاضٌ»(١)، ظنت أن في عينه بياضًا غير البياض الأصل، وقوله ﷺ: «إِنَّ الجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ»(٢)، هذا يُقصد به التعمية حيث يسوغ ذلك.

قال: (وَلكِنَّ المُنْكَرَ أَنْ يُرِيدَ بِكَلامِهِ خِلافَ حَقِيقَتِهِ وَظَاهِرِهِ)، أي: وخلاف ظاهره، وهو مع ذلك يقصد (البَيَانَ وَالإِيضَاحَ)، ويقصد إفهام مراده، فمثل هذا لا يصير أن يريد حقيقة خلاف ظاهره، وخلاف المراد منه وهو مع ذلك يريد البيان، ويصفه بقوله: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١٣٨]، ويقول: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل:٤٤].

قال: (كَيْفَ وَالمُتَكَلِّمُ يُؤَكِّدُ كَلامَهُ بِمَا يَنْفِي المَجَازَ)، بقوله سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٣]، هذا تأكيد، وبقوله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ [الشعراء:١٠]، هذا تأكيد، وكرر ذلك في غير موضع، وضرب له الأمثال، فكل هذا يريد الحقيقة ولا يريد المجاز.

---

(١) أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح، وأخرجه ابن أبي الدنيا من حديث عبيدة بن سهم الفهري مع اختلاف، كما ذكر العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢/ ٧٩٦).

(٢) أخرجه الترمذي في الشمائل (٢٤٠) عن الحسن مرسلاً، والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال الشارح:

قوله: (فَإِنَّهُ مَا سَلمَ فِي دِينِهِ إِلا مَنْ سَلَّمَ للَّهِ - عَزَّ وَجَل - وَلرَسُولهِ ﷺ، وَرَدَّ عِلمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلى عَالِمِهِ). أَيْ: سَلَّمَ لنُصُوصِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلمْ يَعْتَرِضْ عَليْهَا بِالشُّكُوكِ وَالشُّبَهِ وَالتَّأْوِيلاتِ الفَاسِدَةِ، أَوْ يقول: العَقْلُ يَشْهَدُ بِضِدِّ مَا دَل عَليْهِ النَّقْلُ! وَالعَقْلُ أَصْلُ النَّقْلِ!! فَإِذَا عَارَضَهُ قَدَّمْنَا العَقْل!! وَهَذَا لا يَكُونُ قَطُّ. لكِنْ إِذَا جَاءَ مَا يُوهِمُ مِثْل ذَلكَ: فَإِنْ كَانَ النَّقْلُ صَحِيحًا فَذَلكَ الذِي يُدَّعَى أَنَّهُ مَعْقُولٌ إِنَّمَا هُوَ مَجْهُولٌ، وَلوْ حَقَّقَ النَّظَرَ لظَهَرَ ذَلكَ. وَإِنْ كَانَ النَّقْلُ غَيْرَ صَحِيحٍ فَلا يَصْلُحُ للمُعَارَضَةِ، فَلا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَتَعَارَضَ عَقْلٌ صَرِيحٌ وَنَقْلٌ صَحِيحٌ أَبَدًا، وَيُعَارَضُ كَلامُ مَنْ يَقُولُ ذَلكَ بِنَظِيرِهِ، فَيُقَالُ: إِذَا تَعَارَضَ العَقْلُ وَالنَّقْلُ وَجَبَ تَقْدِيمُ النَّقْل؛ لأَنَّ الجَمْعَ بَيْنَ المَدْلُوليْنِ جَمْعٌ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ، وَرَفْعُهُمَا رَفْعُ النَّقِيضَيْنِ، وَتَقْدِيمُ العَقْل مُمْتَنِعٌ؛ لأَنَّ العَقْل قَدْ دَل عَلى صِحَّةِ السَّمْعِ وَوُجُوبِ قَبُول مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، فَلوْ أَبْطَلنَا النَّقْل لكُنَّا قَدْ أَبْطَلنَا دَلالةَ العَقْل، وَلوْ أَبْطَلنَا دَلالةَ العَقْل لمْ يَصْلُحْ أَنْ يَكُونَ مُعَارِضًا للنَّقْل؛ لأَنَّ مَا ليْسَ بِدَليلٍ لا يَصْلُحُ لمُعَارَضَةِ شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ، فَكَانَ تَقْدِيمُ العَقْل مُوجِبًا عَدَمَ تَقْدِيمِهِ، فَلا يَجُوزُ تَقْدِيمُهُ، وَهَذَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ، فَإِنَّ العَقْل هُوَ الذِي دَل عَلى صِدْقِ السَّمْعِ وَصِحَّتِهِ، وَأَنَّ خَبَرَهُ مُطَابِقٌ لمُخْبِرِهِ، فَإِنْ جَازَ أَنْ تَكُونَ الدَّلالةُ بَاطِلةً لبُطْلانِ النَّقْل لزِمَ أَنْ لا يَكُونَ العَقْلُ دَليلاً صَحِيحًا، وَإِذَا لمْ يَكُنْ دَليلاً صَحِيحًا لمْ يَجُزْ أَنْ يُتَّبَعَ بِحَالٍ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يُقَدَّمَ، فَصَارَ تَقْدِيمُ العَقْل عَلى النَّقْل قَدْحًا فِي العَقْل.

قال الشيخ:

قول الماتن ـ رحمه الله ـ: (فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلا مَنْ سَلَّمَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ ﷺ)، يعني: سلَّم في الآيات لأمر الله، وسلَّم للنبي ﷺ، فالأحاديث التي جاءت على هذا تُقبل ويُسلَّم أمرها إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ.

قوله: (وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ)، أي: وأخر متشابهات نردها إلى الله تعالى، وذلك يُراد به الكيفية والكنه والماهية التي هي عليها، فإن ذلك مما لا تصل إليه علومنا، وهذا معنى قول مالك ـ رحمه الله ـ: «الاستواء معلوم والكيف مجهول»[1].

يقول الشارح: (أَيْ: سَلَّمَ لِنُصُوصِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ)، وقبلها على ما هي عليه، وعلى ما تدل عليه.

قوله: (وَلَمْ يَعْتَرِضْ عَلَيْهَا بِالشُّكُوكِ وَالشُّبَهِ وَالتَّأْوِيلاتِ الفَاسِدَةِ)، أي: لم يسلط عليها التأويلات التي تحرفها وتصرفها عن ظاهرها، ويورد عليها الشبهات، ويورد عليها التشكيك، فإن هذا ما سَلِم ولا سَلَّم، وكذلك الذين يقولون: العقل يشهد بضد ما دل عليه النقل، والعقل أصل النقل فإذا عارضه قدمنا العقل. هكذا يحتجون، يقولون: ما عرفنا صدق الرسل إلا بعقولنا، فإذا جاؤوا بشيء تحيله العقول فإننا ننفي ذلك ونقول: هذا لا تأتي به الرسل؛ لأنه

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٠٣).

ينفيه العقل، وينكره كل عاقل، فلا يمكن أن نقره، ولو كان متواترًا، ولو كان من القرآن، ونسلط عليه التأويلات أو التحريفات ونحمله على المجازات، ولو كثرت الآيات، ولو تنوعت الدلالات، فنقدم العقل؛ لأنه الأصل. هكذا يقولون.

فيقول الشارح: (هَذَا لا يَكُونُ قَطُّ)، إذ لا يمكن حقًا أن يتعارض العقل والنقل.

قوله: (لكِنْ إِذَا جَاءَ مَا يُوهِمُ مِثْل ذَلكَ)، أي: إذا قُدر أنه جاء لفظ يوهم أن العقل يخالف ما دل عليه النقل، فإننا نقول: إذا كان النقل صحيحًا فذلك العقل فاسد.

قوله: (فَذَلكَ الذِي يُدَّعَى أَنَّهُ مَعْقُولٌ)، نقول: إنه مجهول، عقلك ليس بسليم، بل عقلك ومعقولك جهالة وضلالة.

قوله: (وَلوْ حَقَّقَ النَّظَرَ لظَهَرَ ذَلكَ)، أي: لو حققت النظر لظهر لك ذلك أن عقلك غير سليم.

قوله: (وَإِنْ كَانَ النَّقْلُ غَيْرَ صَحِيحٍ)، كالأحاديث الضعيفة (فَلا يَصْلُحُ للمُعَارَضَةِ)، ولا يُعارض بها العقل السليم، فلا يمكن أن يتعارض عقل صريح ونقل صحيح أبدًا، ولا يمكن أن يعارض كلام الله تعالى.

قال: (وَيُعَارَضُ كَلامُ مَنْ يَقُولُ ذَلكَ بِنَظِيرِهِ، فَيُقَالُ: إِذَا تَعَارَضَ العَقْلُ وَالنَّقْلُ وَجَبَ تَقْدِيمُ النَّقْل)، صحيح، نقول: نعكس عليكم الكلام، نقول: يجب تقديم النقل، (لأَنَّ الجَمْعَ بَيْنَ المَدْلُوليْنِ جَمْعٌ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ، وَرَفْعُهُمَا رَفْعُ

النَّقِيضَيْنِ)، أي: رفع النقل والعقل،(وَتَقْدِيمُ العَقْلِ مُمْتَنِعٌ؛ لأَنَّ العَقْلَ قَدْ دَلَّ عَلَى صِحَّةِ السَّمْعِ)، وعلى ثبوت النقل، لاسيما الآيات الصريحة الواضحة الدلالة، والأحاديث الصحيحة التي لا اشتباه في دلالتها، فلا يمكن أن يُقدم عليها هذه العقول المضطربة، فإننا نشاهد أن أحد هؤلاء المتكلمين يبقى مدة وهو يقول: إن العقل ينكر هذا. ثم يتراجع بعد مدة ويقول: بل العقل يقره. شخص واحد أقر عقلاً بشيء ثم أنكره، أنكر شيئًا بالعقل ثم أقره، كذلك شخصان عاقلان عقلهما وذكاؤهما قوي، ومع ذلك يختلفان، هذا يقول: استدل بالعقل. وهذا يقول: استدل بالعقل.

يقول: (فَلَوْ أَبْطَلْنَا النَّقْلَ لَكُنَّا قَدْ أَبْطَلْنَا دَلالَةَ العَقْلِ)؛ لأن النقل هو الصحيح، أما إذا (أَبْطَلْنَا دَلالَةَ العَقْلِ لَمْ يَصْلُحْ أَنْ يَكُونَ مُعَارِضًا لِلنَّقْلِ)، نقول: نرد هذا الفهم الذي تفهمه هذه العقول المنفردة، لا يصلح أن يكون ذلك العقل المضطرب معارضًا للنقل؛ (لأَنَّ مَا لَيْسَ بِدَلِيلٍ لا يَصْلُحُ لِمُعَارَضَةِ شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ)، إذا كان العقل ليس بدليل فلا يُعارض شيئًا من الأشياء، وبذلك يكون (تَقْدِيمُ العَقْلِ مُوجِبًا عَدَمَ تَقْدِيمِهِ، فَلا يَجُوزُ تَقْدِيمُهُ)، تقديمه كيف يكون موجبًا عدم تقديمه؟ هذا يقول: نقدم، وهذا يقول: لا نقدمه.

قال: (وَهَذَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ، فَإِنَّ العَقْلَ هُوَ الَّذِي دَلَّ عَلَى صِدْقِ السَّمْعِ وَصِحَّتِهِ، وَأَنَّ خَبَرَهُ مُطَابِقٌ لِمُخْبَرِهِ)، أي: العقل هو الذي دل على صدق السمع، أي: الأدلة المسموعة، ودل على أن خبره مطابق لمخبره.

قال: (فَإِنْ جَازَ أَنْ تَكُونَ الدَّلالَةُ بَاطِلَةً لِبُطْلانِ النَّقْلِ لَزِمَ أَنْ لا يَكُونَ

العَقْلُ دَليلاً صَحِيحًا)؛ لأنه اضطرب.

قولـه: (وَإِذَا لمْ يَكُنْ دَليلاً صَحِيحًا لمْ يَجُزْ أَنْ يُتَّبَعَ بِحَالٍ)، أي: أن يُتبع العقل.

قوله: (فَضْلا عَنْ أَنْ يُقَدَّمَ، فَصَارَ تَقْدِيمُ العَقْل عَلى النَّقْل قَدْحًا فِي العَقْل)، وقد توسع في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كتابه «درء تعارض العقل والنقل»[1]، وهذا الكتاب من أفضل الكتب، وقد مدحه ابن القيم بقوله[2]:

وَاقْرَأْ كِتَابَ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ الَّذِي ... مَا فِي الْوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانِ

---

(١) (١/ ٧٨ وما بعدها).

(٢) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٢٩٠).

قال الشارح:

فَالوَاجِبُ كَمَالُ التَّسْلِيمِ للرَّسُولِ ﷺ، وَالانْقِيَادُ لأَمْرِهِ، وَتَلَقِّي خَبَرِهِ بِالقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ، دُونَ أَنْ يُعَارِضَهُ بِخَيَالٍ بَاطِلٍ يُسَمِّيهِ مَعْقُولًا، أَوْ نُحَمِّلَهُ شُبْهَةً أَوْ شَكًّا، أَوْ يُقَدِّمَ عَلَيْهِ آرَاءَ الرِّجَالِ وَزُبَالَةَ أَذْهَانِهِمْ، فَيُوَحِّدَهُ بِالتَّحْكِيمِ وَالتَّسْلِيمِ وَالانْقِيَادِ وَالإِذْعَانِ، كَمَا وَحَّدَ المُرْسِلَ بِالعِبَادَةِ وَالخُضُوعِ وَالذُّلِّ وَالإِنَابَةِ وَالتَّوَكُّلِ.

قال الشيخ:

هكذا يقول - رحمه الله - أن الواجب أن نسلم للنبي ﷺ وأن ننقاد لأمره، وأن نتلقى جميع أخباره بالقبول وأن نصدقها؛ لأنه هو الصادق والمصدوق، يحرم أن نعارضه بخيال باطل، وهو الذي يسمونه (معقولاً) فنعارض كلام النبي ﷺ، ويحرم أن نحمل كلامه ﷺ شبهة، أو شكًا، أو نورد عليه تشكيكًا أو نحو ذلك، ويحرم أن نقدم عليه آراء الرجال، وزبالة أذهانهم، فإن الدين ليس بالرأي، وليس بمجرد الأذهان، ويجب أن نوحد الله تعالى بالتحكيم والتسليم والإذعان والانقياد، ونجعله واحدًا ونسلم لأمره؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، كما وحدنا الرب - سبحانه وتعالى - بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل، فنوحد النبي ﷺ بأن نرجع إلى حكمه، ونسلم له ونذعن وننقاد، ونوحد الرب تعالى بالعبادة لا نعبد غيره، ولا نخضع إلا له، ولا نتذلل إلا بين يديه، ونتوب إليه ونتوكل عليه.

قال الشارح:

فَهُمَا تَوْحِيدَانِ، لا نَجَاةَ للعَبْدِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إلا بِهِمَا: تَوْحِيدُ الْمُرْسِلِ، وَتَوْحِيدُ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ، فَلا يُحَاكِمُ إلى غَيْرِهِ، وَلا يَرْضَى بِحُكْمِ غَيْرِهِ، وَلا يَقِفُ تَنْفِيذَ أَمْرِهِ وَتَصْدِيقَ خَبَرِهِ عَلى عَرْضِهِ عَلى قَوْلِ شَيْخِهِ وَإِمَامِهِ وَذَوِي مَذْهَبِهِ وَطَائِفَتِهِ وَمَنْ يُعَظِّمُهُ، فَإِنْ أَذِنُوا لهُ نَفَّذَهُ وَقَبِلَ خَبَرَهُ، وَإِلا فَإِنْ طَلَبَ السَّلامَةَ فَوَّضَهُ إِلَيْهِمْ وَأَعْرَضَ عَنْ أَمْرِهِ وَخَبَرِهِ، وَإِلا حَرَّفَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَسَمَّى تَحْرِيفَهُ تَأْوِيلاً وَحَمْلًا، فَقَال: نُؤَوِّلُهُ وَنَحْمِلُهُ. فَلأَنْ يَلقَى العَبْدُ رَبَّهُ بِكُلِ ذَنْبٍ -مَا خَلا الإِشْرَاكَ بِاللهِ- خَيْرٌ لهُ مِنْ أَنْ يَلقَاهُ بِهَذِهِ الحَال.

قال الشيخ:

قوله: (فَهُمَا تَوْحِيدَانِ)، يريد بالتوحيد: اتباع النبي ﷺ والتسليم لأمره، والانقياد لحكمه، هذا توحيد.

والثاني: توحيد الرب تعالى بالعبادة والخضوع.

فلا نجاة من عذاب الله إلا بهذين التوحيدين: (تَوْحِيدُ الْمُرْسِلِ)، وهو الله، (وَتَوْحِيدُ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ).

قوله: (فَلا يُحَاكِمُ إِلى غَيْرِهِ، وَلا يَرْضَى بِحُكْمِ غَيْرِهِ)؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء:٦٥].

قوله: (وَلا يَقِفُ تَنْفِيذَ أَمْرِهِ وَتَصْدِيقَ خَبَرِهِ عَلى عَرْضِهِ عَلى قَوْل

شَيْخِهِ...)، هكذا يفعل كثير من هؤلاء، فإذا جاءه الأمر من الله فلابد أنهم يتوقفون، فيقولون: هذا الأمر نعرضه على مشايخنا، وعلى أئمتنا، وعلى علماء مذاهبنا، وعلى طوائفنا، وعلى الذين يعظمونهم، فإذا أذنوا لنا نفذناه وقبلنا خبره، وإذا لم يأذنوا لنا فإما أن نفوضه ونقول: نفوض أمره مع اعتقادنا أن هذا ليس له حقيقة. ويقولون: هذا هو السلامة، ويعتقدون أن طريقة السلف التفويض وعدم المعرفة للمعاني، هذه حالة من حالاتهم.

الحالة الثانية: أن يعرضوا عن هذا الأمر، وهذا الخبر مع اعتقادهم أنه لا يجوز العمل به، فيسكتون.

الحالة الثالثة: أن يسلطوا عليه التحريفات التي تصرفه عن ظاهره، ويسمون هذا التحريف تأويلاً وحملاً، فيقولون: نؤوله أو نحمله على كذا وكذا.

يقول الشارح ـ رحمه الله ـ: (فَلأَنْ يَلقَى العَبْدُ رَبَّهُ بِكُلِ ذَنْبٍ ـ مَا خَلا الإِشْرَاكَ بِاللَّهِ ـ خَيْرٌ لهُ مِنْ أَنْ يَلقَاهُ بِهَذِهِ الحَالِ)، التي هي موقفهم من هذه الأدلة: إما التفويض، وإما السكوت، وإما التحريف، اتباعًا لأقوال مشايخهم.

قال الشارح:

بَل إِذَا بَلَغَهُ الحَدِيثُ الصَّحِيحُ يَعُدُّ نَفْسَهُ كَأَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَهَل يَسُوغُ أَنْ يُؤَخِّرَ قَبُولَهُ وَالعَمَل بِهِ حَتَّى يَعْرِضَهُ عَلى رَأْيِ فُلانٍ وَكَلامِهِ وَمَذْهَبِهِ؟! بَل كَانَ الفَرْضُ المُبَادَرَةَ إِلى امْتِثَالِهِ، مِنْ غَيْرِ التِفَاتٍ إِلى سِوَاهُ، وَلا يُسْتَشْكَلُ قَوْلُهُ لِمُخَالَفَتِهِ رَأْيَ فُلانٍ، بَل تُسْتَشْكَلُ الآرَاءُ لِقَوْلِهِ، وَلا يُعَارَضُ نَصُّهُ بِقِيَاسٍ، بَل تُهْدَرُ الأَقْيِسَةُ، وَتُلْغَى لِنُصُوصِهِ، وَلا يُحَرَّفُ كَلامُهُ عَنْ حَقِيقَتِهِ، لِخَيَالٍ يُسَمِّيهِ أَصْحَابُهُ مَعْقُولاً، نَعَمْ هُوَ مَجْهُولٌ، وَعَنِ الصَّوَابِ مَعْزُولٌ! وَلا يُوقَفُ قَبُولُ قَوْلِهِ عَلى مُوَافَقَةِ فُلانٍ دُونَ فُلانٍ، كَائِنًا مَنْ كَانَ.

قال الشيخ:

هذا الواجب أن من سمع الحديث يعد نفسه كأنه سمع النبي ﷺ يتكلم به، فيقول سمعًا وطاعة، ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥]، لا يجوز له (أَنْ يُؤَخِّرَ قَبُولَهُ وَالعَمَل بِهِ حَتَّى يَعْرِضَهُ عَلى رَأْيِ فُلانٍ)، أو على كلام فلان، أو على مذهب فلان، فهذا فعل هؤلاء المتمذهبة والمتأولة.

قوله: (بَل كَانَ الفَرْضُ المُبَادَرَةَ إِلى امْتِثَالِهِ)، أي: الواجب والفرض المبادرة إلى امتثال هذا النص (مِنْ غَيْرِ التِفَاتٍ إِلى سِوَاهُ)، ولا إلى كلام أحد من العلماء الذين يخالفونه، ولا يُستشكل قوله وكلامه لأجل مخالفته لرأي فلان،

بل تُستشكل هذه الآراء لقوله، فإن آراء الناس تُرد وتُعد مشكلة، إذا خالفت تلك الآراء والتخمينات وما أشبهها.

قوله: (وَلا يُعَارَضُ نَصُّهُ بِقِيَاسٍ)، أي: لا يعارض نص النبي ﷺ بالأقيسة.

قال: (بَل تُهْدَرُ الأَقْيِسَةُ وَتُلغَى لنُصُوصِهِ)، أي: لنصوص الله تعالى.

قوله: (وَلا يُحَرَّفُ كَلامُهُ عَنْ حَقِيقَتِهِ)؛ كما يفعل اليهود يحرفون الكلم عن مواضعه، لا يجوز أن يُحرف (لخَيَالٍ يُسَمِّيهِ أَصْحَابُهُ مَعْقُولاً)، بل هو مجهول، هذا الخيال الذي يسمونه (معقولاً) وهو في الحقيقة مجهول كيف يُحرف لأجله كلام الله؟!! فهو في الحقيقة مجهول وعن الصواب معزول بعيد.

قوله: (وَلا يُوقَفُ قَبُولُ قَوْلِهِ عَلى مُوَافَقَةِ فُلانٍ دُونَ فُلانٍ كَائِنًا مَنْ كَانَ)، بل قول الله وقول رسوله مقدم على قول كل أحد، وذلك من كلام الإمام مالك ـ رحمه الله ـ أنه قال: «كل أحد يؤخذ منه ويُرد إلا صاحب هذا القبر» يعني: النبي ﷺ.

قال الشارح:

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ عِيَاضٍ، حَدَّثَنَا أَبُو حَازِمٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: «لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِسًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، أَقْبَلْتُ أَنَا وَأَخِي، وَإِذَا مَشْيَخَةٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ جُلُوسٌ عِنْدَ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ، فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ، فَجَلَسْنَا حَجْرَةً، إِذْ ذَكَرُوا آيَةً مِنَ القُرْآنِ، فَتَمَارَوْا فِيهَا، حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُغْضَبًا، قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، يَرْمِيهِمْ بِالتُّرَابِ، وَيَقُولُ: «مَهْلًا يَا قَوْمِ! بِهَذَا أُهْلِكَتِ الأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ، بِاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمُ الكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، إِنَّ القُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ».

قال الشيخ:

هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد[١]، وعبدالرزاق[٢]، وابن ماجه[٣]، وغيرهم، وقد أخرجه مسلم في (صحيحه)[٤] عن عبد الله بن عمرو مختصرًا،

---

(١) (٢/ ١٨١).

(٢) في مصنفه (١١/ ٢١٦).

(٣) برقم (٨٥).

(٤) برقم (٢٦٦٦).

وهو مشهور عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وقد ذكره ابن كثير[١] عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

أخبر ﷺ بأن القرآن ما نزل يكذب بعضه بعضًا، بل يصدق بعضه بعضًا ما عرفنا منه نعمل به، وما جهلنا منه نتوقف فيه ونرده إلى عالمه إلى الله تعالى، وإلى النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩].

أخبر عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أنه لما رأى الصحابة جلسوا متحلقين كره أن يفرق بينهم، فابتعد عنهم قليلاً، ثم إنهم خاضوا في مسائل من القدر، وجاؤوا بالأدلة يتنازعون فيها، هذا ينزع بآية وهذا ينزع بآية، وارتفعت أصواتهم، ولما سمعهم النبي ﷺ خرج مغضبًا، وقد احمر وجهه، وجعل يرميهم بالتراب، ويقول: «مَهْلاً يَا قَوْمِ»، أي: لا تتجرؤوا على ذلك، فإن بهذا الاختلاف «أُهْلِكَتِ الأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ»، حيث اختلفوا على أنبيائهم واختلفوا بكتبهم، وضربوا كتب الله تعالى بعضها ببعض، القرآن نزل يصدق بعضه بعضًا، لا يكذب بعضه بعضًا، هكذا أرشدهم، فإن أشكلت علينا بعض الآيات فإننا نقول: الله أعلم بمراده بها، يعني: بمراده بما تدل عليه من حيث الكيف، والكنه، والمعنى الغيبي، وما أشبه ذلك.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٠).

قال الشارح:

وَلا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ القَوْلَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ عِلمٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف:٣٣]، وَقَال تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء:٣٦]، فَعَلى العَبْدِ أَنْ يَجْعَل مَا بَعَثَ اللَّـهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَل بِهِ كُتُبَهُ هُوَ الحَقُّ الذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ، فَيُصَدِّقُ بِأَنَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَمَا سِوَاهُ مِنْ كَلامِ سَائِرِ النَّاسِ يُعْرَضُ عَلَيْهِ، فَإِنْ وَافَقَهُ فَهُوَ حَقٌّ، وَإِنْ خَالفَهُ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَإِنْ لمْ يَعْلمْ هَل خَالفَهُ أَوْ وَافَقَهُ لكَوْنِ ذَلكَ الكَلامِ مُجْمَلاً لا يَعْرِفُ مُرَادَ صَاحِبِهِ، أَوْ قَدْ عُرِفَ مُرَادُهُ لكِنْ لمْ يُعْرَفْ هَل جَاءَ الرَّسُولُ ﷺ بِتَصْدِيقِهِ أَوْ بِتكْذِيبِهِ، فَإِنَّهُ يُمْسِكُ عَنْهُ، وَلا يَتكَلمُ إِلا بِعِلمٍ، وَالعِلمُ: مَا قَامَ عَليْهِ الدَّليلُ، وَالنَّافِعُ مِنْهُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَقَدْ يَكُونُ عِلمٌ عَنْ غَيْرِ الرَّسُول، لكِنْ فِي الأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، مِثْل: الطِّبِّ وَالحِسَابِ وَالفِلاحَةِ، وَأَمَّا الأُمُورُ الإِلهِيَّةُ وَالمَعَارِفُ الدِّينِيَّةُ، فَهَذِهِ العِلمُ فِيهَا مَا أُخِذَ عَنِ الرَّسُول ﷺ لا غَيْرَ.

قال الشيخ:

يُخبر بأن الله تعالى حرم أن نقول على الله بغير علم، كما في هذه الآية من سورة (الأعراف)، فإن الله تعالى ذكر فيها المحرمات، وبدأ بالأخف ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾، هذه أخف من الذي بعدها؛ لأنها تحت

مشيئة الله؛ ولأن الله تعالى قد يسترها ويغفرها، ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾، هو: القول أو العمل الذي يترتب عليه ذنب كبير وهو أكبر من الفواحش، ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، وهو: التعدي والظلم؛ التعدي على الله تعالى وعلى شرعه، والتعدي على الناس بغير حق وهو أكبر من الإثم، ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، هو الشرك: الذي يحبط الأعمال، وهو الذي لا يغفره الله، وهو أكبر من البغي، ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، هو: القول على الله بغير علم، أي التخرص في شرع الله، والتخرص في أحكام الله، وهو أعم وأعظم من الشرك؛ وذلك لأنه يدخل نفسه في الشرع، كأنه يزاحم الله تعالى، ويُشرع ما لم يشرعه الله، ويُغير شرع، الله ويقول على الله بغير علم، وهكذا آية (الإسراء): ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، أي: لا تتبع شيئًا ليس لك به علم، بل قف على ما تعلم.

قال: (فَعَلَى العَبْدِ أَنْ يَجْعَلَ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَل بِهِ كُتُبَهُ هُوَ الحَقَّ الذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ)؛ لأنه من الله تعالى، جاءت به الرسل الصادقون، وأنزل الله تعالى به كتبه المحققة، فيجب اتباعه، (فَيُصَدِّقُ بِأَنَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ)، وأنه من الله تعالى، وأن ما سواه كلام من سائر الناس، وهذا الذي من كلام سائر الناس إذا جاءنا نعرضه على كلام الله وكلام رسوله، وعلى الكتاب والسنة، وكذا اصطلاحاتهم: كالجوهر والعرض والأعراض والأبعاض والأعضاء وما أشبه ذلك، وكذلك الجهة والحيز والجسم وما أشبهها، نعرضها على كلام الله

فما وافق كلام الله وكلام رسوله فهو حق، وأما إذا خالفه فهو باطل، نرد الباطل ونأخذ الحق.

قوله: (وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ هَل خَالَفَهُ أَوْ وَافَقَهُ لِكَوْنِ ذَلِكَ الكَلامِ مُجْمَلا لا يَعْرِفُ مُرَادَ صَاحِبِهِ)، أي: أما إذا لم نعلم ولم يتبين لنا هل يوافق أو يخالف؛ لكون ذلك الكلام مجملاً ولم نعلم مراد صاحبه؛ لكونه غير واضح.

قوله: (أَوْ قَدْ عُرِفَ مُرَادُهُ لَكِنْ لَمْ يُعْرَفْ هَل جَاءَ الرَّسُولُ ﷺ بِتَصْدِيقِهِ أَوْ بِتَكْذِيبِهِ فَإِنَّهُ يُمْسِكُ عَنْهُ)، أي: أو نعرف مراده لكن لم نعرف هل جاء الرسول ﷺ بتصديقه أو تكذيبه، فإننا نتوقف ونمسك عنه في هاتين الحالتين:

الأولى: إذا كان الكلام مجملاً فإننا نتوقف.

الثانية: وإذا كان الكلام واضحًا، ولكن ما وجدنا ولم نعرف دليلاً يصدقه أو يكذبه فإننا نمسك عن قبوله ولا نتكلم إلا بعلم؛ لهذه الآية ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال: (وَالعِلْمُ: مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ)، هذا هو العلم الصحيح.

قوله: (وَالنَّافِعُ مِنْهُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ)، أي: العلم النافع ما جاء به الرسول ﷺ؛ لأنه هو الذي بين شرع الله.

قوله: (وَقَدْ يَكُونُ عِلْمٌ عَنْ غَيْرِ الرَّسُول، لَكِنْ فِي الأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، مِثْل: الطِّبِّ وَالحِسَابِ وَالفِلاحَةِ)، الأمور الدنيوية يجوز أن يُتكلم فيها بعد التجربة بحسب المعرفة، وبحسب ما يقوله الناس، يتكلمون في الطب والحساب

والفلاحة والحراثة والنجارة، وسائر الحرف اليدوية وما أشبهها.

قوله: (وَأَمَّا الأُمُورُ الإِلهِيَّةُ وَالمَعَارِفُ الدِّينِيَّةُ، فَهَذِهِ العِلْمُ فِيهَا مَا أُخِذَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ لا غَيْرَ)، أي: وأما الأمور الإلهية التي مرجعها إلى الله وإلى الشرع، وكذلك المعارف الدينية، فهذه العلم فيها موقوف على ما أُخذ عن النبي ﷺ لا غير، نتوقف فيها على الدليل، فنسأل كل مَنْ تكلم هل هناك دليل يدل على ما تقوله من كلامك في الإلهيات أو كلامك في الأسماء والصفات، أو كلامك في الآيات والأحاديث، أو كلامك في الأحكام الشرعية، أو كلامك في العقائد، هل هناك دليل فنقبله؟ إذا لم يكن هناك دليل فإننا نرده، أما إذا كان كلامك في الأمور الدنيوية فإننا نرجع فيها إلى أهل الخبرة وأهل المعرفة، الذين يتعلمون العلوم الدنيوية: كالحساب، والهندسة، والصناعات والطب والأدوية .. وما أشبهها، فإن الناس يتعلمونها وإن كانت في الأصل قد دلت عليها الأدلة الشرعية.

قد تكلم العلماء على المسائل الطبية، كما فعل ذلك ابن القيم في «زاد المعاد»، فإنه تكلم عن الطب النبوي، وتبعه على ذلك زميله الذي هو الذهبي، فتكلم أيضًا عن الأمور الطبية في رسالة له اسمها «الطب النبوي»، وتبعهما على ذلك زميلهما أيضًا الذي هو ابن مفلح فتكلم أيضًا عن الطب وأطال فيه في كتابه «الآداب الشرعية»، وتكلم الناس في علم الحساب وتوسعوا فيه، كما فعل ذلك صاحب ألفية الفرائض في كتابه «العذب الفائض»، فإنه توسع في علم الحساب، مما دل على أن الأولين تكلموا في الحساب.

قال الطحاوي:

وَلا تَثْبُتُ قَدَمُ الإِسْلامِ إِلا عَلى ظَهْرِ التَّسْليمِ وَالاسْتِسْلامِ.

قال الشارح:

هَذَا مِنْ بَابِ الاسْتِعَارَةِ، إِذِ القَدَمُ الحِسِّيُّ لا تَثْبُتُ إِلا عَلى ظَهْرِ شَيْءٍ، أَيْ: لا يَثْبُتُ إِسْلامُ مَنْ لمْ يُسَلمْ لنُصُوصِ الوَحْيَيْنِ، وَيَنْقَادُ إِليْهَا، وَلا يَعْتَرِضُ عَليْهَا وَلا يُعَارِضُهَا بِرَأْيِهِ وَمَعْقُولهِ وَقِيَاسِهِ.

رَوَى البُخَارِيُّ[1] عَنِ الإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ قَال: «مِنَ اللَّهِ الرِّسَالةُ، وَمِنَ الرَّسُولِ البَلاغُ، وَعَليْنَا التَّسْليمُ». وَهَذَا كَلامٌ جَامِعٌ نَافِعٌ.

قال الشيخ:

قوله: (قَدَمُ الإِسْلامِ)، إشارة إلى حقيقة الإسلام، وأن الإسلام الحقيقي لا يثبت إلا إذا سلَّم الإنسان لأمور الله تعالى واستسلم لعبادة الله؛ ولهذا فسر الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - الإسلام بقوله: «الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله»، فلابد من التسليم

(١) في كتاب التوحيد، باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، قبل الحديث رقم (٧٥٣٠).

لأمر الله تعالى، فلا يثبت إسلام كل أحد حتى يسلم لنصوص الوحيين، وحتى ينقاد إليها، ولا يعترض عليها، ولا يورد عليها إشكالات إذا كانت واضحة، ولا يعارضها بالآراء والمعقول والأقيسة، وبذلك يُقال: إنه ثابت قدمه في هذا الدين الذي هو الإسلام.

ذكر كلام ابن شهاب الزهري رحمه الله ـ وهو من التابعين، أنه قال: (**مِنَ الله الرِّسَالةُ، وَمِنَ الرَّسُول البَلاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْليمُ**).

يقول ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «هذا وقع في قصة أخرجها الحميدي في (النوادر) ومن طريقه الخطيب قال الحميدي: حدثنا سفيان قال: قال رجل للزهري: يا أبا بكر قول النبي ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الجيُوب» ما معناه؟ فقال الزهري: من الله العلم، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم»[١]، قيل: هذا الرجل هو أبو عمرو الأوزاعي، وقد رُوي نحو هذا عن ربيعة بن أبي عبدالرحمن أنه فسر الاستواء، فقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»، أي: الاستسلام لأمر الله تعالى.

---

(١) انظر: فتح الباري (١٣/ ٥٠٤).

قال الشارح:

وَمَا أَحْسَنَ المَثَلَ المَضْرُوبَ للنَّقْل مَعَ العقْل، وَهُوَ: أَنَّ العقْل مَعَ النَّقْل كَالعَامِّيِّ المُقلدِ مَعَ العَالمِ المُجْتَهِدِ، بَل هُوَ دُونَ ذَلكَ بِكَثِيرٍ، فَإِنَّ العَامِّيَّ يُمْكِنُهُ أَنْ يَصِيرَ عَالمًا، وَلا يُمْكِنُ للعَالمِ أَنْ يَصِيرَ نَبِيًّا رَسُولاً، فَإِذَا عَرَفَ العَامِّيُّ المُقلدُ عَالمًا، فَدَل عَليْهِ عَامِّيًّا آخَرَ،ثُمَّ اخْتَلفَ المُفْتِي وَالدَّالُّ، فَإِنَّ المُسْتَفْتِيَ يَجِبُ عَليْهِ قَبُولُ قَوْل المُفْتِي، دُونَ الدَّال، فَلوْ قَال الدَّالُّ: الصَّوَابُ مَعِي دُونَ المُفْتِي؛ لأَنِّي أَنَا الأَصْلُ فِي عِلمِكَ بِأَنَّهُ مُفْتٍ، فَإِذَا قَدَّمْتَ قَوْلهُ عَلى قَوْلِي قَدَحْتَ فِي الأَصْل الذِي بِهِ عَرَفْتَ أَنَّهُ مُفْتٍ، فَلزِمَ القَدْحُ فِي فَرْعِهِ! فَيَقُولُ لهُ المُسْتَفْتِي: أَنْتَ لمَّا شَهِدْتَ لهُ بِأَنَّهُ مُفْتٍ، وَدَللتَ عَليْهِ، شَهِدْتَ لهُ بِوُجُوبِ تَقْليدِهِ دُونَكَ، فَمُوَافَقَتِي لكَ فِي هَذَا العِلمِ المُعَيَّنِ، لا تَسْتَلزِمُ مُوَافَقَتَكَ فِي كُل مَسْأَلةٍ، وَخَطَؤُكَ فِيمَا خَالفْتَ فِيهِ المُفْتِيَ الذِي هُوَ أَعْلمُ مِنْكَ، لا يَسْتَلزِمُ خَطَأَكَ فِي عِلمِكَ بِأَنَّهُ مُفْتٍ، هَذَا مَعَ عِلمِهِ أَنَّ ذَلكَ المُفْتِيَ قَدْ يُخْطِئُ.

قال الشيخ:

هذا مثل حسن ضربه العلماء للعقل مع النقل، العقل: هو ما يُفهم بالعقول، والنقل: هو الأدلة التي في الوحيين، فمثل العقل كالعامي المقلد، والنقل كالعالم المجتهد، بل هو دون ذلك بكثير؛ لأن العامي المقلد قد يمكنه أن يكون عالِمًا، ولا يمكن للعالم أن يصير نبيًا ورسولاً، فإذا عرف العامي المقلد عالِمًا، فدل عليه عاميًّا آخر وقال: اذهب إلى فلان فإنه عالم، وإنه أعلم مني،

فاسأله واقبل كلامه. ذهب المستفتي إلى ذلك العالم، واستفتاه، ثم بعد ذلك رجع إلى الدال، فقال: إن فلانًا المفتي قال كذا وكذا. فقال الدال عليه: أنا أخالفه. المستفتي ماذا يجب عليه؟ يلزمه قبول قول المفتي ولا يلزمه قبول قول ذلك الذي دله، لو قال الدال: الصواب معي دون المفتي؛ لأنني أنا الأصل في علمك بأنه عالم، أنا الذي دللتك عليه، فإذا قدمت قوله على قولي، قدحت في الأصل الذي به عرفت أنه مفتٍ، فيلزم القدح في فرعه الذي هو أنه مفتٍ، هكذا، ويقول له المستفتي: أنت أرسلتني إليه وشهدت له بأنه مفتٍ، ودللتني عليه، وشهدت له بوجوب تقليده دونك، وشهدت بأنه أهل أن يُقبل قوله، ولم تفتني أنت أولاً، فلابد أن أوافقه، ولو وافقتك أنت في هذا العلم المعين الذي هو دلالتك فلا يلزم أن أوافقك في كل مسألة، أي: في خطئك فيما خالفت فيه المفتي، وقد شهدت بأنه أعلم منك، وذلك لا يستلزم خطأك بعلمك بأنه مفتٍ، هذا مع علمه أن ذلك المفتي قد يخطئ، ولكن شهادتك أيها الدال على أنه أعلم منك، تستلزم أن لا نرد قوله، ولا نقبل قولك؛ لأنك قد أحلت عليه، وقد بينت أنه أعلم منك، وأنه يجب قبول قوله.

يقول الشارح:

وَالعقْلُ يَعْلمُ أَنَّ الرَّسُول مَعْصُومٌ فِي خَبَرِهِ عَنِ اللهِ تَعَالى، لا يَجُوزُ عَليْهِ الخَطأُ، فَيَجِبُ عَليْهِ التَّسْليمُ لهُ وَالانْقِيَادُ لأَمْرِهِ، وَقَدْ عَلمْنَا بِالاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الإِسْلامِ أَنَّ الرَّجُل لوْ قَال للرَّسُول: هَذَا القُرْآنُ الذِي تُلقِيهِ عَليْنَا، وَالحِكْمَةُ التِي جِئْتَنَا بِهَا، قَدْ تَضَمَّنَ كُلٌّ مِنْهُمَا أَشْيَاءَ كَثِيرَةً تُنَاقِضُ مَا عَلمْنَاهُ بِعُقُولنَا، وَنَحْنُ إِنَّمَا عِلمْنَا صِدْقَكَ بِعُقُولنَا، فَلوْ قَبِلنَا جَمِيعَ مَا تَقُولُهُ مَعَ أَنَّ عُقُولنَا تُنَاقِضُ ذَلكَ لكَانَ ذلك قَدْحًا فِي مَا عَلمْنَا بِهِ صِدْقَكَ، فَنَحْنُ نَعْتَقِدُ مُوجِبَ الأَقْوَال المُنَاقِضَةِ لمَا ظَهَرَ مِنْ كَلامِكَ، وَكَلامُكَ نُعْرِضُ عَنْهُ، لا نَتَلقَّى مِنْهُ هَدْيًا وَلا عِلمًا، لمْ يَكُنْ مِثْلُ هَذَا الرَّجُل مُؤْمِنًا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَلمْ يَرْضَ مِنْهُ الرَّسُولُ بِهَذَا، بَل يَعْلمُ أَنَّ هَذَا لوْ سَاغَ لأَمْكَنَ كُلَّ أَحَدٍ أَنْ لا يُؤْمِنَ بِشَيْءٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، إِذِ العُقُولُ مُتَفَاوِتَةٌ، وَالشُّبُهَاتُ كَثِيرَةٌ، وَالشَّيَاطِينُ لا تَزَالُ تُلقِي الوَسَاوِسَ فِي النُّفُوسِ، فَيُمْكِنُ كُلَّ أَحَدٍ أَنْ يَقُول مِثْل هَذَا فِي كُل مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَمَا أَمَرَ بِهِ!! وَقَدْ قَال تَعَالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [النور:٥٤]، وَقَال: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥]، وَقَال تَعَالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٤]، ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١٥]، ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الدخان: ١، ٢]، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف:٢]، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن

﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩]، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فِي القُرْآنِ.

قال الشيخ:

العقل يعلم أن الرسول ﷺ معصوم في خبره عن الله تعالى، فإن الذين آمنوا به من الصحابة عرفوا صدقه، وعرفوا أنه لا يخبر إلا عن ربه سبحانه وتعالى، وعرفوا أنه لا يجوز عليه الخطأ، وعرفوا أن الواجب عليهم التسليم له، فسلموا له بعقولهم، فالعقل يجب عليه أن يسلم للنبي ﷺ، وأن ينقاد لأمره.

قوله: (وَقَدْ عَلِمْنَا بِالاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الإِسْلامِ أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ قَالَ لِلرَّسُولِ ﷺ: هَذَا القُرْآنُ الذِي تُلْقِيهِ عَلَيْنَا... لا نَتَلَقَّى مِنْهُ هَدْيًا وَلا عِلْمًا)، خلاصة هذا القول: أن إنسانًا لو اعترض على دين الإسلام، وقال: يا رسول الله إن هذا القرآن الذي تلقيه علينا، وهذه الحكمة والأحاديث التي جئتنا بها، قد تتضمن أشياء كثيرة تناقض عقولنا، ولا تستسيغها عقولنا، فكيف نقبلها مع أنَّا ما علمنا أنك صادق إلا بعقولنا، فإذا قبلنا جميع ما تقوله وعقولنا تناقض ذلك، كان هذا قدحًا فيما علمنا به صدقك، فلا نعتقد أو نتقبل تلك الأقوال المناقضة لما ظهر لعقولنا، بل نعرض عنها، ونعرض كلامك كله على عقولنا، ولا نتلقى منه هدى ولا علمًا إذا كان يخالف عقولنا، نعرض كلامك

الذي جئت به من كلام الله، وكلامك الذي من الأحاديث على عقولنا، وننظر هل يوافق عقولنا أو لا يوافقها، فما لم يوافقها نطرحه، سواء من كلامك أو من كلام الله تعالى الذي جئت به؟ فالذي يقول هذا لا يكون مؤمنًا حقًا بما جاء به الرسول ﷺ، بل يعترض عليه، كأنه يقول: لا نقبل إلا ما توافقه عقولنا وما نرضى به وما يوافق ما نفهم، فلا يؤمن حقًا بالنبي ﷺ، ولا يكون راضيًا من الرسول ﷺ بكل ما جاء به، ولا يرضى بالنبي ﷺ.

قوله:(**بَل يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا لَوْ سَاغَ لأَمْكَنَ كُلُّ أَحَدٍ أَنْ لا يُؤْمِنَ بِشَيْءٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ**)، بل يعلم أن هذا الاعتراض لو ساغ، ولو جاز أن تُعرض الأدلة على العقول؛ لأمكن كل أحد أن لا يؤمن بشيء مما جاء به الرسول ﷺ فتكون أقوال النبي ﷺ، وكلام الله تعالى يرد بعضه هذا، ويرد بعضه هذا، ويرد بعضه هذا؛ لأن هذا قد يقول: هذا لا يوافق عقلي فلا أقبله. والثاني يقول: هذا لا يوافق عقلي. وتأتي شبهات كثيرة، والشياطين تلقي بالوساوس في النفوس، فيمكن لكل أحد أن يقول: لا أقبل إلا ما يوافق عقلي، فيقول مثل هذا في كل ما أخبر به النبي ﷺ، وما أمر به.

وكل هذا يخالف الأدلة:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [النور:٥٤]، وقد بلَّغ ما أُنزل إليه، وإذا بلغ فإن علينا أن نتقبله.

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥]،

ونشهد بأنهم قد بلغوا ما أُنزل إليهم وما أُرسلوا به.

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٤]، فكل رسول أرسله الله بلسان قومه الذين أرسل إليهم، وقد بلغوا ما أُنزل إليهم، فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة، والله تعالى هو الذي أضل هؤلاء لحكمة، وهدى هؤلاء برحمة.

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ [المائدة:١٥]، النور: هو القرآن، وكذلك وصفه بأنه كتاب مبين، وكذلك أيضًا مما يُسمى نورًا الرسول ﷺ، وقد سمى الله القرآن نورًا بقوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا ﴾ [التغابن:٨]، ووصف الكتاب بأنه مبين، فلابد أن نتبع هذا النور، ولابد أن نتبع هذا الكتاب، ولا نرد منه شيئًا ولو لم توافقه عقولنا.

الدليل الخامس: قوله تعالى: ﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ [الدخان: ١، ٢]، وصفه بأنه مبين، أي: لابد أنه بين الذي يحتاجون إليه، ولم يكن فيه لبس، ولم يكن فيه خفاء، بل هو واضح بيِّن والحمد لله.

الدليل السادس: قول الله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ [يوسف:٢]، وصف الله الكتاب الذي هو هذا القرآن بأنه مبين، أي: مبين واضح يفهمه كل من تأمله.

الدليل السابع: قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١]، أي: هذا القرآن ليس حديثًا يُفترى، ومنه هذه القصص كقصة يوسف ـ عليه السلام ـ ولكن هذا القرآن تصديق لما بين يديه من الكتب، ومن الرسل، وتفصيل لكل شيء يحتاجون إليه، وذكر أنه هدى يهدي الله به من يشاء، وذكر أنه رحمة للمؤمنين.

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩]، هكذا وصف هذا الكتاب إنه تبيان لكل شيء، فإذا لم يقبل منه إلا ما يوافق عقولنا لم نشهد بأنه تبيان لكل شيء، ولا أنه هدى يُهدى به ويُستدل به على الأحكام، ولا أنه رحمة من الله لعباده، ولا أنه بشرى للمسلمين، فهذه الآيات وما أشبهها فيها بيان الرد على الذين يقولون: لا نقبل إلا ما توافقه عقولنا.

قال الشارح:

فَأَمْرُ الإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ تَكَلَّمَ فِيهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الحَقِّ أَمْ لا؟ الثَّانِي بَاطِلٌ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَكَلَّمَ عَلَى الحَقِّ بِأَلْفَاظٍ مُجْمَلَةٍ مُحْتَمِلَةٍ، فَمَا بَلَغَ البَلاغَ المُبِينَ، وَقَدْ شَهِدَ لَهُ خَيْرُ القُرُونِ بِالبَلاغِ، وَأَشْهَدَ اللَّهَ عَلَيْهِمْ فِي المَوْقِفِ الأَعْظَمِ، فَمَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ فِي أُصُولِ الدِّينِ لَمْ يُبَلِّغِ البَلاغَ المُبِينَ، فَقَدِ افْتَرَى عَلَيْهِ ﷺ.

قال الشيخ:

حقًا إن الإيمان بالله واليوم الآخر قد بلغه النبي ﷺ، وتكلم فيه بما يدل على الحق، وفصله تفصيلاً ظاهرًا، ومن أنكر ذلك فقوله باطل، وإذا علمنا بأنه تكلم بالحق، ثم قيل: إنه تكلم على الحق بألفاظ مجملة محتملة كذا وكذا، فليس ذلك بالبيان الذي أمره الله بقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]؛ لأنه بينه بألفاظ مجملة، تحتمل كذا وكذا، فلا يُقال: إنه بلغ البلاغ المبين، والواقع الصحيح أنه بلغ الرسالة ونصح الأمة ولما خطبهم في حجة الوداع في عرفة، وكذلك في منى، وفصل لهم الكلام الذي أخبرهم به، وبين لهم المحرمات والمباحات عند ذلك قال: «وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فما أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟»، قالوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قد بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ ـ وهؤلاء هم خير القرون الصحابة ﷺ ـ فقال بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إلى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إلى الناس:

«اللهم اشْهَدْ، اللهم اشْهَدْ»[1]، فأشهد الله عليهم في هذا الموقف العظيم الذي حضره جمع عظيم.

فالذين يدَّعون أنه في أصول الدين لم يُبلغ البلاغ، وأنه لم يُعلم الناس ما يحتاجون إليه، وإنما أخبرهم بضد ذلك، أو أخبرهم بأخبار مجملة محتملة.

نقول: قد كذبتم وافتريتم على النبي ﷺ.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١١٥)

عبد الرحمن النجدي أسكنه الله الفردوس

قال الطحاوي:

فَمَنْ رَامَ عِلْمَ مَا حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ، وَلَمْ يَقْنَعْ بِالتَّسْلِيمِ فَهْمُهُ، حَجَبَهُ مَرَامُهُ عَنْ خَالِصِ التَّوْحِيدِ، وَصَافِي المَعْرِفَةِ، وَصَحِيحِ الإِيمَانِ.

قال الشارح:

هَذَا تَقْرِيرٌ لِلْكَلَامِ الأَوَّلِ، وَزِيَادَةُ تَحْذِيرٍ أَنْ يُتَكَلَّمَ فِي أُصُولِ الدِّينِ - بَلْ وَفِي غَيْرِهَا - بِغَيْرِ عِلْمٍ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج:٣، ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج:٨، ٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى هَذَا المَعْنَى.

قال الشيخ:

الذين يحاولون علم ما حُجب عنهم، أو ما حُظر عنهم علمه، ويتكلفون ولا يقتنعون بالتسليم، ولا ترضى بذلك أفهامهم، فإنهم عن ربهم محجوبون.

قوله: (حَجَبَهُ مَرَامُهُ)، يعني: مقصدهم، (عَنْ خَالصِ التَّوْحِيدِ)؛ لأنهم تكلفوا، فحُجبوا عن صافي المعرفة، حُجبوا عن صحيح الإيمان؛ لأنهم لم يقتنعوا بأمر الله، ولم يقتصروا على ما أخبرهم الله به، وأخذوا يتكلفون، وأخذوا يصرفون الكلام ويحرفونه عن مواضعه.

قوله: (هَذَا تَقْرِيرٌ للكَلامِ الأَوَّل)، الذي هو وجوب الرضا والتسليم لأمر الله تعالى.

قوله: (وَزِيَادَةُ تَحْذِيرٍ أَنْ يُتكَلمَ فِي أُصُول الدِّينِ)، أي: في العقيدة (بَل وَفِي غَيْرِهَا بِغَيْرِ عِلمٍ)، بل بالظن والهوى والرأي.

ثم ذكر أدلة:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦]، الخطاب للنبي ﷺ، ولكنه عام لكل من تعدى وتكلم بغير علم، أي: لا تتبع الشيء الذي ليس لك به علم، ولا تتخرص فإنك مسؤول، سمعك وبصرك وفؤادك مسؤولون كلهم عن تخرصك وقولك في الله بغير علم.

الدليل الثاني: قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج:٣، ٤]، هذا قسم من الناس يجادلون في الله بغير علم، يجادلون في أسماء الله، ويجادلون في وحدانية الله، ويجادلون في صفاته، ويجادلون في أمره ونهيه، وليس عندهم علم بذلك، بل يتبعون شياطين الإنس والجن، والشيطان: المريد، هو العاصي، كُتب على الشيطان أنه من تولاه - أي: من تولاه منكم أيها الإنس - فإن الشيطان يضله ويهديه إلى عذاب السعير، يضله عن الحق، ويهديه إلى عذاب النار، يوقعه في عذاب النار، فكيف تجادلون في الله بغير علم، وتتبعون الشيطان؟!!.

الدليل الثالث: قوله - جل وعلا -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج:٨، ٩]، يجادلون في الله بغير علم، يجادلون في أسمائه وصفاته، يجادلون في وحيه، يجادلون في كلامه، يجادلون في أحكامه، يجادلون في وعده ووعيده، وليس عندهم علم، بل بالظن، وليس عندهم هدى، وليسوا على كتاب مبين كتاب بيّن، ثم قال: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾، يعني: هذا الذي يجادل قد ثنى عطفه، ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: ليضل الناس عن سبيل الله، فوعده بكونه ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، أي: عذاب وذل وإهانة، ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، أي: هذا جزاؤه في الآخرة.

الدليل الرابع: قوله ـ جل شأنه ـ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠]، أي: لا أضل من هذا الذي اتبع هواه بغير هدى من الله، بل يتبع ما تتمناه نفسه، يتبع ما تهواه نفسه بغير هدى، إنما يتبع الظن ليس عنده دلالة، وليس عنده دليل من الله، هؤلاء ظالمون، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الدليل الخامس: قوله ـ عز وجل ـ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣]، أي: هؤلاء الذين يعبدون الأصنام والذين يعصون الله ويعصون رسله يتبعون الظن أي التخرص، ويتبعون هوى أنفسهم، ويتبعون آراءهم.

ثم قال: (إِلى غَيْرِ ذَلكَ مِنَ الآيَاتِ الدَّالةِ عَلى هَذَا المَعْنَى).

قال الشارح:

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ ﷺ، قَال: قَال رَسُولُ الله ﷺ: «مَا ضَل قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إلا أُوتُوا الجَدَل ثُمَّ تَلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف:٥٨]. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَال: حَدِيثٌ حَسَنٌ[(١)].

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قَال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَال إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِيمُ». خَرَّجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ[(٢)].

وَلا شَكَّ أَنَّ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلرَّسُولِ نَقَصَ تَوْحِيدُهُ، فَإِنَّهُ يَقُولُ بِرَأْيِهِ وَهَوَاهُ، أَوْ يُقَلِّدُ ذَا رَأْيٍ وَهَوًى بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ، فَيَنْقُصُ مِنْ تَوْحِيدِهِ بِقَدْرِ خُرُوجِهِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، فَإِنَّهُ قَدِ اتَّخَذَهُ فِي ذَلِكَ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ. قَال تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣]، أَيْ: عَبَدَ مَا تَهْوَاهُ نَفْسُهُ، وَإِنَّمَا دَخَل الفَسَادُ فِي العَالَمِ مِنْ ثَلاثِ فِرَقٍ، كَمَا قَال عَبْدُ الله بْنُ المُبَارَكِ - رَحْمَةُ الله عَلَيْهِ -:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وَقَدْ يُورِثُ الذُّل إِدْمَانُهَا
وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا
وَهَل أَفْسَدَ الدِّينَ إلا المُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا[(٣)]

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وأحمد (٥/ ٢٥٢).

(٢) البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٧٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٦٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/ ٤٦٧).

قال الشيخ:

حديث أبي أمامة ﷺ يدل على أن الجدل سببه الضلال، إذا كانوا على هدى، وكانوا على بيان، وكانوا على نور وبرهان، ثم ضلوا بعد ذلك الهدى، فلابد أن يأتوا بالجدل الذي هو: الخصومات والمنازعات وكثرة الردود وكثرة الافتراض، بحيث إن هذا ينقض قول هذا، وهذا يناقض هذا؛ كما قال بعض الشعراء[(١)]:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا حَقًّا وَكُلٌّ كَاسِرٌ مَكْسُورُ

أي: أنها مثل الزجاج إذا ضرب بعضه ببعض انكسر الضارب والمضروب، فهكذا حججهم وهكذا جدالهم.

وأنشد ابن القيم في كتابه «الصواعق المرسلة»[(٢)] مثل هذا فقال:

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا بِعِمْيَانٍ خَلَوا فِي ظُلْمَةٍ لَا يَهْتَدُونَ سَبِيلَا

فَتَصَادَمُوا بِأَكُفِّهِمْ وَعِصِيِّهِمْ ضَرْبًا يُدِيرُ رَحَا الْقِتَالِ طَوِيلَا

حَتَّىٰ إِذَا مَلُّوا الْقِتَالَ رَأَيْتَهُمْ مَشْجُوجًا اوْ مَفْجُوجًا اوْ مَقْتُولَا

وَتَسَامَعَ الْعِمْيَانُ حَتَّىٰ أَقْبَلُوا لِلصُّلْحِ فَازْدَادَ الصِّيَاحُ عَوِيلَا

فهكذا حجج هؤلاء.

---

(١) انظر: الانتصار لأصحاب الحديث (ص٧٢)، ودرء التعارض (٧/ ٣١٤).

(٢) (٣/ ٩٨١).

يقول ﷺ في حديث عائشة - رضي الله عنها -: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِيمُ»، مأخوذ من قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾ [الحج:٣]، وقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾ [البقرة:٢٠٤]، يعني: أنه خصم وأنه شديد الخصومة، والألد: هو الشديد في الخصام، فهو بغيض إلى الله تعالى.

يقول - رحمه الله -: (وَلا شَكَّ أَنَّ مَنْ لمْ يُسَلمْ للرَّسُول ﷺ)، يعني: في كل ما جاء به، ويتقبل كل ما بلغه فإنه (نَقَصَ تَوْحِيدُهُ)، قد نقص توحيده، (فَإِنَّهُ يَقُولُ بِرَأْيِهِ وَهَوَاهُ)، أي: إن ما يقوله كله رأي ليس عليه دليل، وإنما يتبع ما تهواه نفسه، أو يقلد غيره من أهل الأهواء والآراء بغير هدى من الله، يتبع أقوالهم وهم ليسوا على نور ولا برهان، فينقص بذلك توحيده، ينقص منه بقدر خروجه عما جاء به الرسول ﷺ؛ لأنه لم يسلم للرسول ﷺ، فيكون قد اتخذ في ذلك إلهًا غير الله حيث لم يرضَ بحكم الله، ولم يرضَ بشرعه الذي جاء به الرسول، وجعل دينه تبعًا لما تهواه نفسه، فيدخل في قول الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية:٢٣]، أي: اتخذ ما يهواه إلهًا، أي: لا يهوى شيئًا إلا ركبه، حتى قال بعض العلماء: ما تحت أديم السماء إله يُعبد شر من هوى متبع، الذي كل ما تهواه نفسه، وكل ما تميل إليه يتخذه إلهًا، أي: يعظمه ويتبع ما يجيء به، فالذي يعبد ما تهواه نفسه يكون ضالًا.

قوله: (وَإِنَّمَا دَخَلَ الفَسَادُ فِي العَالَمِ مِنْ ثَلاثِ فِرَقٍ)، كما أنشد ذلك عبدالله ابن المبارك رحمه الله، فقال:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا

فالإصرار على الذنوب سبب لموت القلوب، فإن كل من أذنب ذنبًا نُكت في قلبه نكتة سوداء إلى أن تغطي قلبه، وكذلك يُريه الذل إذا أدمن على الذنوب، يكون ذليلاً عند الله تعالى وعند عباده، أبى الله إلا أن يذل من عصاه؛ كما قال ذلك بعض السلف ـ رحمه الله ـ في أهل الذنوب: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، فإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه».

ثم يقول:

وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

أي: الذي يترك الذنوب ويعمل الصالحات يكون سببًا في حياة قلبه واستنارته، (وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا)، النفس الأمارة بالسوء خير لك أن تعصيها، وأن تخالف ما تأمرك به من المعاصي ونحوها.

ثم قال:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إلا المُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

هؤلاء الثلاثة: الملوك الذين يتسلطون على البشر، والأحبار: الذين هم علماء سوء، والرهبان: الذين هم عباد سيئون.

قال الشارح:

فَالْمُلُوكُ الجَائِرَةُ يَعْتَرِضُونَ عَلَى الشَّرِيعَةِ بِالسِّيَاسَاتِ الجَائِرَةِ، وَيُعَارِضُونَهَا بِهَا، وَيُقَدِّمُونَهَا عَلَى حُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ.

وَأَحْبَارُ السُّوءِ: وَهُمُ العُلَمَاءُ الخَارِجُونَ عَنِ الشَّرِيعَةِ بِآرَائِهِمْ وَأَقْيِسَتِهِمُ الفَاسِدَةِ، المُتَضَمِّنَةِ تَحْلِيلَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَتَحْرِيمَ مَا أَبَاحَهُ، وَاعْتِبَارَ مَا أَلْغَاهُ، وَإِلْغَاءَ مَا اعْتَبَرَهُ، وَإِطْلَاقَ مَا قَيَّدَهُ، وَتَقْيِيدَ مَا أَطْلَقَهُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَالرُّهْبَانُ: وَهُمْ جُهَّالُ المُتَصَوِّفَةِ، المُعْتَرِضُونَ عَلَى حَقَائِقِ الإِيمَانِ وَالشَّرْعِ، بِالأَذْوَاقِ وَالمَوَاجِيدِ وَالخَيَالَاتِ وَالكُشُوفَاتِ البَاطِلَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ، المُتَضَمِّنَةِ شَرْعَ دِينٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ، وَإِبْطَالَ دِينِهِ الذِي شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَالتَّعَوُّضَ عَنْ حَقَائِقِ الإِيمَانِ بِخُدَعِ الشَّيْطَانِ وَحُظُوظِ النَّفْسِ.

قال الشيخ:

هكذا الملوك الجائرون يعترضون على الشريعة بالسياسات، فيقولون: لابد أن نحكم الناس بهذه السياسات ونترك ما يعارضها، مما لم يوافق أقيستنا، فيحكمون بالقوانين الوضعية، ويغيرون شرع الله تعالى، فأباحوا الزنى إذا كان برضا الطرفين، واعترضوا على شرع الله، وأباحوا الخمور، وقالوا: إنها أشربة طيبة، وأباحوا المعاملات الربوية الصريحة وقدموها على حكم الله ورسوله، وقدموا حكمهم الذي تلقوه عن طواغيتهم على أحكام الله تعالى الشرعية، ولم يحكموا شرع الله، فهؤلاء أفسدوا الدين بقدر ما وصلوا إليه.

أما الأحبار: الذين هم العلماء الخارجون عن الشريعة، فإنهم أفسدوه بآرائهم وأقيستهم الفاسدة، التي تتضمن تحليل ما حرم الله ورسوله، وتحريم ما أباحه، فحرموا الحلال، وحللوا الحرام بأهوائهم، واعتبروا ما ألغاه الله تعالى ورسوله، وألغوا كثيرًا مما اعتبره، وأطلقوا ما قيد الله ورسوله، وقيدوا ما أطلقه الله ورسوله، فكونوا بذلك أربابًا يدخلون في قول الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]، لما سمع هذه الآية عدي بن حاتم ﷺ قال: (إنهم لم يعبدوهم)، فقال له ﷺ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟»، يعني: أنهم يحرمون الحلال ويحلون الحرام، قال: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»[(١)].

ثم قال: (الرُّهْبَانُ: وَهُمْ جُهَّالُ المُتَصَوِّفَةِ، المُعْتَرِضُونَ عَلى حَقَائِقِ الإِيمَانِ وَالشَّرْعِ، بِالأَذْوَاقِ وَالمَوَاجِيدِ وَالخَيَالاتِ وَالكُشُوفَاتِ البَاطِلَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ، المُتَضَمِّنَةِ شَرْعَ دِينٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ، وَإِبْطَالَ دِينِهِ الذِي شَرَعَهُ عَلى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَالتَّعَوُّضَ عَنْ حَقَائِقِ الإِيمَانِ بِخُدَعِ الشَّيْطَانِ وَحُظُوظِ النَّفْسِ)، يقول بعض الشعراء كما أنشد ذلك ابن القيم في كتابه الذي سماه «إغاثة اللهفان»[(٢)]:

إِنْ قُلْتَ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ ... هَمَزُوكَ هَمْزَ الْمُنْكِرِ الْمُتَغَالِي

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وابن جرير الطبري (١٠/ ١١٤)، والبخاري في التاريخ الكبير (٧/ ١٠٦)، والبيهقي (١٠/ ١١٦).

(٢) (١/ ٢٣٢).

أَوْ قُلْتَ قَدْ قَالَ الصَّحَابَةُ وَالْأُلىٰ تبعُوهُمُ فِي الْقَوْلِ وَالْأَعْمَالِ
أَوْ قُلْتَ قَالَ الْآلُ آلُ الْمُصْطَفَىٰ صَلَّىٰ عَلَيْهِ اللَّهُ أَفْضَلُ آلِ
أَوْ قُلْتَ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَالْإِمَامُ الْعَالِي
أَوْ قُلْتَ قَالَ صِحَابُهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ فَالْكُلُّ عِنْدَهُمُ كَشِبْهِ خَيَالَ
وَيَقُولُ قَلْبِي قَالَ لِي عَنْ سِرِّهِ عَنْ سِرِّ سَرِّي عَنْ صَفَا أَحْوَالِي
عَنْ حَضْرَتِي عَنْ فِكْرَتِي عَنْ خَلْوَتِي عَنْ شَاهِدِي عَنْ وَارِدِي عَنْ حَالِي
عَنْ صَفْوِ وَقْتِي عَنْ حَقِيقَةِ مَشْهَدِي عَنْ سِرِّ ذَاتِي عَنْ صِفَاتِ فِعَالِي
دَعْوَىٰ إِذَا حَقَّقْتَهَا أَلْفَيْتَهَا أَلْقَابَ زُورٍ لُفِّقَتْ بِمُحَالِ
تَرَكُوا الْحَقَائِقَ وَالشَّرَائِعَ وَاقْتَدَوا بِظَوَاهِرِ الْجُهَّالِ وَالضُّلَّالِ

هكذا حال هؤلاء المتصوفين، فإن أحدهم يقول: قال لي قلبي عن ربي، حدثني قلبي عن ربي، ويقول: لا أوافق شيئًا يخالف ما في قلبي، وما تتحدث بي نفسي، يُخيل إليهم أنهم على صواب في تلك البدع التي تخيلوا، والتي يحسبونها حقائق وهي في الحقيقة خيالات لا أصل لها.

قال الشارح:

فَقَالَ الأَوَّلُونَ: إِذَا تَعَارَضَتِ السِّيَاسَةُ وَالشَّرْعُ قَدَّمْنَا السِّيَاسَةَ! وَقَالَ الآخَرُونَ: إِذَا تَعَارَضَ العَقْلُ وَالنَّقْلُ قَدَّمْنَا العَقْلَ ! وَقَالَ أَصْحَابُ الذَّوْقِ: إِذَا تَعَارَضَ الذَّوْقُ وَالكَشْفُ، وَظَاهِرُ الشَّرْعِ قَدَّمْنَا الذَّوْقَ وَالكَشْفَ.

قال الشيخ:

قوله: (فَقَالَ الأَوَّلُونَ: إِذَا تَعَارَضَتِ السِّيَاسَةُ وَالشَّرْعُ قَدَّمْنَا السِّيَاسَةَ)، الأولون: هم الملوك ومَنْ حول الملوك الذين يقدمون السياسية على الشرع، وفي نظرهم أن السياسة تسوس الناس، وأنها تحركهم، وأن السياسة تكون سببًا لاستقامتهم؛ فلأجل ذلك يقدمون السياسة على الشرع، ولاشك أن الشرع هو الأصل وهو المقدم، وهو الذي فيه سياسة الناس، وفيه إقامتهم على الحق، وفيه تهذيبهم، وفيه حثهم على الطاعات وعلى الامتثال، وقد ألَّف شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ الرسالة المشهورة «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية»، وبيَّن في هذه الرسالة أن الشريعة فيها سياسة الناس بما يهذبهم، وبما يستقيمون به، وبما يحملون به العمل الذي فيه ضبطهم، وعدم خروجهم عن الشريعة، وعن ما يصلح الناس، فهكذا تكون السياسة الشرعية، وقد بين فيها ـ رحمه الله ـ حال الأمراء الذين يسوسون الناس، وبيَّن أنهم إذا كانوا ظلمة جائرين فإن الناس يمقتونهم ويبغضونهم، كما حصل في ولاية الحجاج بن يوسف، فإن الناس أبغضوه لقوته ولشراسته، ولأخذه بالتهمة، ولظلمه ولقتله

الكثير، ولحبسه الكثير من الناس، زعمًا أن هذا هو السياسة التي يسوس بها الناس، والتي يتهذبون بها، ولما جاء بعده عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - وعدل في الناس سمعوا له وأطاعوا، ولم يخرجوا عليه، ولم يظلم في ولايته أحدٌ أحدًا، مما يدلّ على أن السياسة هي بالشريعة التي هي: أوامر الله تعالى، وإقامة حدوده، فالملوك والأمراء ونحوهم يسوسون الناس بإقامة الحدود، فيرجمون الزاني أو يجلدونه إذا ثبت ذلك عليه، أو قامت التهمة نحوه، ويقطعون يد السارق؛ حتى يأمن الناس على أموالهم، ويجلدون القاذف، ويقيمون الحدود على قُطاع الطريق بما ذكر الله من قوله: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة:٣٣]، وكذلك يقتلون أهل الردَّة، ويقتلون السحرة ونحوهم، ويجلدون شارب الخمر أو يقتلونه، إذا تكرر ذلك منه أربع مرات، فإذا كانوا كذلك فإن الناس يطيعون ويستسلمون، ويكون ذلك سببًا في استقامتهم، وعدم عصيانهم، وعدم خروجهم، وبذلك تكون السياسة هي الشريعة.

أما أن تُقدم السياسة التي فيها قتل وسجن وظلم، يحبسون أو يقتلون بالتهمة، أو يسلبون الأموال، وينكلون بالتهم، ويحبسون من ليس أهلاً أن يحبس ونحو ذلك، فإن ذلك لا يكون سببًا في العدل، ولا في الطمأنينة ولا في إراحة الناس، ولا في موافقتهم وسمعهم وطاعتهم.

قوله: (وَقَالَ الآخَرُونَ)، الآخرون: هم أهل الكلام الذين يقولون: (إِذَا

تَعَارَضَ العَقْلُ وَالنَّقْلُ قَدَّمْنَا العَقْل)، وشبهتهم يقولون: إنما عرفنا صدق الرسل بالعقل، فإذا جاؤوا بشيء يخالف العقل لم نقبله؛ لأننا نعرف أنهم جاؤوا بما يوافق العقل، فنقدم العقل وما دل عليه.

قد يُقال: إن هذا صحيح في الأمور العادية والمعلومة، ولكن لا يُقال: إن الرسل جاؤوا بما يخالف العقل، بل جميع الشريعة توافق العقل وتصدقه، وكذلك أيضًا الأخبار الأخروية، فالخبر عن عذاب القبر، والبعث والنشور، والأخبار عن ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ وعما يليق به من الصفات، كل ذلك نصدق به ولو خالف عقولاً ليست مستقيمة، بل نقول: إن الأصل هو النقل، الأصل هو الشرع، فنقدم الشرع على هذه العقول المضطربة، ونبين أن تلك العقول التي يردون بها النقل، ويردون بها الشرع عقول مضطربة؛ ولأجل ذلك يقع بينهم كثير من الاختلاف، فيكون هناك اثنان كلاهما ذكي وكلاهما عاقل، ومع ذلك يختلفان، هذا يقول: أقر بكذا؛ لأن العقل وافقه، وهذا يقول: أنفيه وأنكره؛ لأن العقل لم يوافقه.

كذلك قد ينكر بعضهم شيئًا وقتًا طويلاً، ويقول: إن العقل قد خالفه، ثم بعد مدة يعترف به ويقول: إن العقل يوافقه، شخص واحد يوافق عقله مرة، ثم يخالف مرة أخرى.

على هذا فإن الأصل هو النقل والشرع، يُقدم على تلك العقول، ونسلم ما جاء به النقل والشرع، ولو أنكر ذلك من أنكره.

قوله: (وَقَالَ أَصْحَابُ الذَّوْقِ)، وهم المتصوفة، وكذلك غلاة الصوفية،

وغلاة القبوريين، وغلاة المتكلمين في هذه المواجيد وما أشبهها، فإنهم يقولون: (**إِذَا تَعَارَضَ الذَّوْقُ وَالكَشْفُ، وَظَاهِرُ الشَّرْعِ قَدَّمْنَا الذَّوْقَ وَالكَشْفَ**)، والجواب: أن هذا خطأ، وأن الواجب تقديم الشرع على الأذواق، وعلى المواجيد، وعلى الكشوفات، وما أشبهها؛ لأن هذه الأذواق حادثة ولا أصل لها، ولأنها مختلفة ومضطربة، وهكذا أيضًا ما يدعونه من الكشوفات، وأنه يُكشف لهم عن أمور غيبية، وأنهم يطَّلعون على الأمور الغائبة ونحو ذلك، وأن عندهم أذواقًا بقلوبهم ومواجيد.

كل هذه ليس لها أصل، وليس لها شرع، والواجب أن ننكرها، وأن نردها ونقدم عليها ظاهر الشرع، وبذلك نكون مستسلمين لأمر الله تعالى، ومطيعين له.

قال الشارح:

وَمِنْ كَلامِ أَبِي حَامِدٍ الغَزَالِيِّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ فِي كِتَابِهِ الذِي سَمَّاهُ «إِحْيَاءَ عُلُومِ الدِّينِ»، وَهُوَ مِنْ أَجَلِ كُتُبِهِ، أَوْ أَجَلِهَا: «فَإِنْ قُلْتَ: فَعِلْمُ الجَدَلِ وَالكَلامِ مَذْمُومٌ كَعِلْمِ النُّجُومِ، أَوْ هُوَ مُبَاحٌ أَوْ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ لِلنَّاسِ فِي هَذَا غُلُوًّا وإِسْرَافًا فِي أَطْرَافٍ:

فَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّهُ بِدْعَةٌ وَحَرَامٌ، وَإِنَّ العَبْدَ أَنْ يَلْقَى اللهَ بِكُلِّ ذَنْبٍ سِوَى الشِّرْكِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَلْقَاهُ بِالكَلامِ.

وَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّهُ فَرْضٌ، إِمَّا عَلَى الكِفَايَةِ، وَإِمَّا عَلَى الأَعْيَانِ، وَإِنَّهُ أَفْضَلُ الأَعْمَالِ وَأَعْلَى القُرُبَاتِ، فَإِنَّهُ تَحْقِيقٌ لِعِلْمِ التَّوْحِيدِ، وَنِضَالٌ عَنْ دِينِ اللَّهِ.

قَالَ: وَإِلَى التَّحْرِيمِ ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ وَمَالِكٌ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَسُفْيَانُ وَجَمِيعُ أَئِمَّةِ الحَدِيثِ مِنَ السَّلَفِ. وَسَاقَ الأَلْفَاظَ عَنْ هَؤُلاءِ.

قَالَ: وَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ الحَدِيثِ مِنَ السَّلَفِ عَلَى هَذَا. لا يَنْحَصِرُ مَا نُقِلَ عَنْهُمْ مِنَ التَّشْدِيدَاتِ فِيهِ، وقَالُوا: مَا سَكَتَ عَنْهُ الصَّحَابَةُ ـ مَعَ أَنَّهُمْ أَعْرَفُ بِالحَقَائِقِ، وَأَفْصَحُ بِتَرْتِيبِ الأَلْفَاظِ مِنْ غَيْرِهِمْ ـ إِلا لِمَا يَتَوَلَّدُ مِنْهُ مِنَ الشَّرِّ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ»[1]، أَيِ: المُتَعَمِّقُونَ فِي البَحْثِ وَالاسْتِقْصَاءِ.

وَاحْتَجُّوا أَيْضًا بِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ مِنَ الدِّينِ لَكَانَ أَهَمَّ مَا يَأْمُرُ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَيُعَلِّمُ طَرِيقَهُ، وَيُثْنِي عَلَى أَرْبَابِهِ. ثُمَّ ذَكَرَ بَقِيَّةَ اسْتِدْلالِهِمْ، ثُمَّ ذَكَرَ اسْتِدْلال

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠) من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.

الفَرِيقِ الآخَرِ. إِلى أَنْ قَال: فَإِنْ قُلتَ: فَمَا الْمُخْتَارُ عِنْدَكَ؟ فَأَجَابَ بِالتَّفْصِيلِ، فَقَال: فِيهِ مَنْفَعَةٌ، وَفِيهِ مَضَرَّةٌ: فهو باعتبار منفعته فَهُوَ فِي وَقْتِ الانْتِفَاعِ حَلالٌ أَوْ مَنْدُوبٌ أَوْ وَاجِبٌ، كَمَا يَقْتَضِيهِ الحَالُ. وَهُوَ بِاعْتِبَارِ مَضَرَّتِهِ فِي وَقْتِ الاسْتِضْرَارِ وَمَحِلِهِ حَرَامٌ.

قال الشيخ:

يريد بذلك علم الكلام، لاشك أن السلف ـ رحمهم الله ـ لم يتكلموا في علم الكلام، ولا في علم الجدل، بل كانوا ينهون عنه، ويبتعدون عن مجالسة أهل الجدل، وعن علم الكلام، وعن الإصغاء إلى شبهتهم، وإلى كلامهم، وقد نقل ابن بطة ـ رحمه الله ـ في «الإبانة» كثيرًا من كلام السلف في تحذيرهم عن الإصغاء إلى أهل الكلام، والسماع لكلامهم أو مجادلتهم، حتى ولو كانوا يجادلون بآيات وأحاديث، ويقولون: نخشى أن يؤولوها وأن يظهروا معنى يخالف المتبادر منها، وأن يعلق ذلك بأسماعنا وبقلوبنا، ويصعب علينا إخراج ذلك الذي علق بقلوبنا، فكانوا يبتعدون عن المتكلمين وأهل الجدل، إلا المجادلة بالتي هي أحسن لمن يقصد الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت:٤٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، وأما كثرة الخصومات والتشكيك ونحو ذلك، فإنه

منهي عنه، وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج:٣]، يجادلون في الله بغير علم، ويتبعون أقوال شياطين الإنس والجن، وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة:٢٠٤، ٢٠٥]، فحذَّر من مثل هؤلاء، ونهى الله تعالى عن مجالستهم، فقال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ [الأنعام:٦٨]، وقال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء:١٤٠].

فالحاصل: أن علم الجدل وعلم الكلام بدعة ومحدثة ليس له أصل، ولا يجوز أن يُصار إليه، ولكن قد يجوز تعلمه لأجل مخاصمة أهله، وقطع شبهاتهم، فإن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ تعلم علم المنطق؛ ليرد على أهله ردًا واضحًا، ويبين شبهاتهم، كما فعل في كتابه «الرد على المنطقيين»، من ذم المنطق ونحو ذلك، وما يوجد أيضًا في كلامه من ذكر حكايات أقول المتكلمين يريد بذلك مناقشتها، كما في كتابة «نقض المنطق»، وكذلك في كتابه «درء تعارض العقل والنقل»؛ فقد توسع فيه، وكذلك أيضًا في كتابه الكبير الذي رد فيه على علماء الكلام الذي سماه «نقض التأسيس في الرد على أساس

التقديس»، و«التأسيس» رسالة للفخر الرازي، أكد فيها ما هم عليه من العقيدة السيئة، فنقضها شيخ الإسلام بأدلة قاطعة، حتى لا تروج على الناس.

كذلك أيضًا السلف - رحمهم الله - لم يتكلموا بهذا، فلم يتكلموا في الأعراض، ولا في الأبعاض، ولا في الجوهر، ولا في توليد مثل هذه الكلمات، بل الأصل أنهم أعرضوا عنها، وقد أنكر ذلك السلف كما في كلام لعمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - أورده ابن قدامة في رسالته «لمعة الاعتقاد»[(١)] لما ذكر مثل هذا الخبر، أنكره وحذر منه، ثم قال: «وقال عمر بن عبد العزيز ﷺ: كلامًا معناه: قف حيث وقف القوم، فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، ولهم على كشفها كانوا أقوى، وبالفضل لو كان فيها أحرى، فلئن قلتم: حدث بعدهم» - يعني: هذا العلم حادث بعدهم - يقول: «فما أحدثه إلا مَنْ خالف هديهم ورغب عن سنتهم» وهم هؤلاء المجادلون، فهم الذين ولدوه وأحدثوه، «ولقد وصفوا منه ما يشفي، وتكلموا منه بما يكفي، فما فوقهم محسر، وما دونهم مقصر، لقد قصر عنهم قوم فجفوا، وتجاوزهم آخرون فغلوا، وإنهم فيما بين ذلك لعلى هدى مستقيم». انتهى كلامه رحمه الله.

ومعنى كلامه: أنه لو كان فيه خير لكان السلف أقوى وأحرى أن يحصلوا على ذلك الخير ويحصلوه، فإنهم أحرص على الخير، ولكن تركوه؛ لعلمهم أنه لا خير في هذا الجدل وفي هذا الكلام ونحو ذلك.

---

(١) (ص ٢٠).

وذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أيضًا في «الحموية» كلامًا لبعض العلماء، وفي آخرها ذكر ذم الشافعي ـ رحمه الله ـ وغيره لعلم الكلام، قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ، وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ، وَيُقَالَ: هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلامِ»(١).

وهذا كله ظاهر للتحذير منه، ويُرجع إلى كتاب «الإبانة» لابن بطة، وغيره من الكتب التي نقلت هذه الآثار بالأسانيد، وكذلك كتاب «البدع والنهي عنها» لابن وضاح، وغيرها من الكتب.

فيقول: «مَعَ أَنَّهُمْ أَعْرَفُ بِالْحَقَائِقِ، وَأَفْصَحُ بِتَرْتِيبِ الأَلْفَاظِ مِنْ غَيْرِهِمْ»، أي: أنه لو كان فيه خير لبينوه، ولكنهم سكتوا عنه (لِمَا يَتَوَلَّدُ مِنْهُ مِنَ الشَّرِّ)، واستدل بقول النبي ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»(٢)، قال: (أَيِ: الْمُتَعَمِّقُونَ فِي الْبَحْثِ وَالاسْتِقْصَاءِ)، وما ذُكر أنه ﷺ أخبر عن شر الناس، ووصفهم بأنهم: الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَنَطِّعُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ المتكبرون، فيجب أن يُحذر منهم.

ثم ذكر أنهم (احْتَجُّوا أَيْضًا بِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ مِنَ الدِّينِ لَكَانَ أَهَمَّ مَا يَأْمُرُ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَيُعَلِّمُ طَرِيقَهُ، وَيُثْنِي عَلَى أَرْبَابِهِ)، فلما لم يفعل دلَّ ذلك على أنه لا خير فيه، وأنه ضرر وشر محض يجب أن يُترك، ولا تُقرأ كتبهم

(١) تقدم تخريجه (١/ ١٢٩).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٢٤٠).

التي تحتوي على ذلك، سواء في كتب التفسير التي ملؤوها بمثل هذه الشبهات، كـ«التفسير الكبير» للرازي، فإنه عندما تكلم على آية الاستواء: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، وَلَّدَ شبهات عقلية لا أهمية لها، وكذلك في كثير من الآيات التي تطرق لها، وكذلك أيضًا في كتاب «الإرشاد»، وغيره من الكتب التي تحتوي على هذه الكلمات، وعلى هذه الاصطلاحات، وكذلك أيضًا شروحهم لكتب عقائدهم، كشروحهم لكتب أبي الحسن الأشعري، فإنه تكلم في كتبه القديمة على ما هو مخالف للحق، فإن أبا الحسن الأشعري - رحمه الله - كان في أول أمره معتزليًا، تتلمذ على المعتزلة: كأبي الهذيل، وأبي هاشم الجبائي، ونحوهما، ثم ترك طريقته وتتلمذ على ابن كُلاب، وأكثر كتبه على طريق ابن كُلاب، ثم رجع عن ذلك كله وأخذ طريقة الإمام أحمد - رحمه الله - كما في رسالته «الإبانة».

وعلى كل حال: فكتبهم التي فيها توليد هذا الكلام، الأولى وننصح طالب العلم أن لا يقرأ فيها؛ لذلك يقول ابن القيم - رحمه الله - في النونية[1]:

فَانْظُرْ تَرَى لَكِنْ نَرَى لَكَ تَرْكَهَا ... حَذَرًا عَلَيْكَ مَصَائِدِ الشَّيْطَانِ

أي: انظر في كتبهم ترى فيها العجائب، ولكن الأفضل لك أن تتركها، وتبتعد عنها، ولا تقرأ فيها، حذرًا أن تزل بك قدم بعد ثبوتها، وأن يتعلق شيء من معانيها بقلبك، فيصعب عليك بعد ذلك التخلص منه.

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٧٢).

فهذا هو ما كان عليه السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ وأهل الحديث من السلف والأئمة، كالشافعي ومالك وأحمد وسفيان الثوري ونحوهم، كلهم حذروا من علم الكلام.

وأما الفريق الآخر الذين يقولون: إنه مباح، فلعلهم أرادوا فيمن عنده معرفة بالعقيدة السليمة، بحيث إنه لا ينخدع إذا قرأ في تلك الكتب، وقرأ ذلك الكلام بحيث يكون على عقيدة سليمة، هكذا قالوا: إنه مباح لمن لا يتأثر إذا قرأ فيه.

وكذلك الذين قالوا: إنه مستحب أو مندوب أو نحو ذلك، وأما الذين قالوا: (**إِنَّهُ فَرْضٌ، إِمَّا عَلى الكِفَايَةِ، وَإِمَّا عَلى الأَعْيَانِ**)، فهؤلاء هم غلاة المتكلمين، وقد تكلم أبو حامد الغزالي ـ رحمه الله ـ في أول كتابه «المستصفى» في أصول الفقه، وذكر مقدمة في كتابه مدح بها علم الكلام، وجعله من العلوم الشرعية ـ أي: من العلوم الدينية ـ وساواه بالحديث والتفسير ونحو ذلك، ولعله قصد بذلك من كان عنده معرفة بالعقيدة السليمة، بحيث إنه لا يتأثر، وكتابه هذا الذي هو «إحياء علوم الدين»، فيه مواعظ، وفيه حكم؛ لأن أبا حامد قد أوتي ذكاء وفطنة، فكان إذا تكلم عن الموضوع أوسعه وبين ما يتكلم به، ولكن كتابه دليل على أنه لم يتوغل في علم الحديث، فالآثار التي فيه والأحاديث ليست صحيحة، بل الأكثر منها أو كلها إلا ما قلَّ موضوعة أو ضعيفة شديدة الضعف، وهذا دليل على أنه ليس من أهل الحديث، وقد كان عنده علم بالفلسفة، وندم على تركه لعلم الحديث، ومات وصحيح البخاري

على صدره، كما ذُكر ذلك في هذا الشرح.

وقد حذَّر كثير من العلماء من كتابه «إحياء علوم الدين»، ولعل السبب ما فيه من الموضوعات التي فيها شيء من الفلسفة، وكذلك أيضًا الأحاديث المكذوبة والموضوعة، وإلا فإنه كتاب مفيد، كما ذكر الشارح أنه (مِنْ أَجَلِّ كُتُبِهِ، أَوْ أَجَلِّهَا)، يعني: فيما يتعلق بالمواعظ والكلام على الحقائق، والكلام على الآداب والأخلاق ونحو ذلك.

ثم قال ـ رحمه الله ـ: (فِيهِ مَنْفَعَةٌ، وَفِيهِ مَضَرَّةٌ)، أي: علم الكلام فيه منفعة ومضرة، فإذا كان فيه مضرة، فهو لا يجوز التعمق فيه، ولا الكلام فيه؛ لأجل خطره الذي يتأثر به القارئ في العقيدة، وأما إذا وجدت فيه منفعة خاصة لمن هم من أهل الإيمان ومن أهل المعرفة فإنه (حَلالٌ أَوْ مَنْدُوبٌ أَوْ وَاجِبٌ، كَمَا يَقْتَضِيهِ الحَالُ)، هكذا فَصَّل، ولكل مقام مقال، والأولى الاقتصار على الأدلة وكتب الأحاديث وكتب التفاسير الصحيحة السليمة.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ نقلًا عن الغزالي:

قَال: فَأَمَّا مَضَرَّتُهُ، فَإِثَارَةُ الشُّبُهَاتِ، وَتَحْرِيفُ العَقَائِدِ وَإِزَالَتُهَا عَنِ الجَزْمِ وَالتَّصْمِيمِ، وَذَلِكَ مِمَّا يَحْصُلُ بِالابْتِدَاءِ، وَرُجُوعُهَا بِالدَّلِيل مَشْكُوكٌ فِيهِ، وَيَخْتَلِفُ فِيهِ الأَشْخَاصُ، فَهَذَا ضَرَرُهُ فِي اعْتِقَادِ الحَقِّ، وَلَهُ ضَرَرٌ فِي تَأْكِيدِ اعْتِقَادِ البِدْعَةِ، وَتَثْبِيتِهَا فِي صُدُورِهِمْ، بِحَيْثُ تَنْبَعِثُ دَوَاعِيهِمْ وَيَشْتَدُّ حِرْصُهُمْ عَلى الإِصْرَارِ عَلَيْهِ، وَلكِنَّ هَذَا الضَّرَرَ بِوَاسِطَةِ التَّعَصُّبِ الذِي يَثُورُ مِنَ الجَدَلِ.

قال الشيخ:

هكذا اعترف بهذا هذا العالم الذي هو الغزالي مع أنه ممن خاض في علم الكلام، فأثبت أنه يثير الشبهات، وذلك واقع كثير، شبهات يولدها المتكلمون في إثبات الاستواء، وكذلك في إثبات صفة العلو،وفي إثبات بقية الصفات الفعلية، وكذلك تحريك العقائد وزلزلتها، وكذلك حصول الشك في العقيدة، وإزالة العقيدة بعد الجزم، أو بعد التصميم، أو بعد العقيدة الراسخة وسبب ذلك أنه يحصل هذا ـ إي: إثارة هذا التحريك ـ في الابتداء من حين يبتدئ في علم الكلام تحصل منه هذه الزلزلة وما أشبهها، وأما رجوعها وثبوت العقيدة بالدليل فإن ذلك مشكوك فيه، ويختلف باختلاف الأشخاص فالكثير من المتكلمين يبقى ذلك الشك في قلبه ويصعب أن يتحول؛ فلذلك رجوعه ولو أقيمت عليه الأدلة مشكوك فيه، ومنهم من يهديه الله تعالى ويتراجع فإن الغزالي ـ رحمه الله ـ ندم على فعله وخوضه في علم الكلام، وتمنى أنه لم يخض

فيه، ومات وصحيح البخاري على صدره، كما ذكر ذلك هذا الشارح رحمه الله.

يقول: (فَهَذَا ضَرَرُهُ فِي اعْتِقَادِ الحَقِّ)، ورسوخ العقيدة، (وَلَهُ ضَرَرٌ فِي تَأْكِيدِ اعْتِقَادِ البِدْعَةِ وَتَثْبِيتِهَا فِي صُدُورِهِمْ)، بمعنى: أنه إذا خاض في هذه الافتراضات رسخت عقائد المبتدعة في قلبه، وثبتت في صدره، وانبعثت دواعيها واشتد حرصه على الإصرار عليها، أيًا كانت تلك البدع، وأشدها بدع المعطلة الذين يخوضون في صفات الله، وفي أسمائه الحسنى، وفيما يجب أن يوصف به فإن هؤلاء بدعتهم أشد البدع؛ لأنها توجب الشك، حتى قال بعضهم ـ كما ذكر الشارح ـ: أكثر الناس شكًا عند الموت أهل الكلام. وذكر أيضًا أنهم ندموا في آخر حياتهم، فالبدعة تتأكد في قلوب المتكلمين، وتثبت في صدورهم وترسخ فيها.

ثم قال: (تَنْبَعِثُ دَوَاعِيهِمْ)، أي: تنبعث الدواعي إليها، (وَيَشْتَدُّ حِرْصُهُمْ عَلَى الإِصْرَارِ عَلَيْهِ)، أي: يشتد حرصهم على التمسك بها والإصرار بها.

ويقول سبب هذا الضرر: (التَّعَصُّبِ الذِي يَثُورُ مِنَ الجَدَلِ)، فإنهم إذا انتحلوا هذه البدعة، ثم جادلهم أحد وقد تلقوا هذه البدعة عن مشايخهم فلن ينصاعوا إلى الحق، بل يتمسكون بها ويتلقون تلك البدع، وترسخ في قلوبهم، حتى ولو كانت من البدع الضعيفة، كما يحصل عند المعطلة وعند الأشاعرة، فقد حصل أن شيخ الإسلام ابن تيمية ناظرهم، ومع ذلك تمسكوا بما هم عليه إلا القليل.

يقول الشارح ـ رحمه الله ـ نقلًا عن الغزالي:

قَال: وَأَمَّا مَنْفَعَتُهُ، فَقَدْ يُظَنُّ أَنَّ فَائِدَتَهُ كَشْفُ الحَقَائِقِ وَمَعْرِفَتُهَا عَلى مَا هِيَ عَلَيْهِ وَهَيْهَاتَ فَلَيْسَ فِي الكَلامِ وَفَاءٌ بِهَذَا المَطْلَبِ الشَّرِيفِ، وَلعَل التَّخْبِيطَ وَالتَّضْليل فِيهِ أَكْثَرُ مِنَ الكَشْفِ وَالتَّعْرِيفِ.

قَال: وَهَذَا إِذَا سَمِعْتَهُ مِنْ مُحَدِّثٍ أَوْ حَشْوِيٍّ رُبَّمَا خَطَرَ بِبَالِكَ أَنَّ النَّاسَ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا، فَاسْمَعْ هَذَا مِمَّنْ خَبَرَ الكَلامَ، ثُمَّ قَلاهُ بَعْدَ حَقِيقَةِ الخِبْرَةِ وَبَعْدَ التَّغَلْغُل فِيهِ إِلى مُنْتَهَى دَرَجَةِ المُتَكَلمِينَ، وَجَاوَزَ ذَلكَ إِلى التَّعَمُّقِ فِي عُلُومٍ أُخَرَ تناسب نَوْعِ الكَلامِ، وَتَحَقَّقَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلى حَقَائِقِ المَعْرِفَةِ مِنْ هَذَا الوَجْهِ مَسْدُودٌ. وَلعَمْرِي لا يَنْفَكُّ الكَلامُ عَنْ كَشْفٍ وَتَعْرِيفٍ وَإِيضَاحٍ لبَعْضِ الأُمُورِ، وَلكِنْ عَلى النُّدُورِ.

انْتَهَى مَا نَقَلتُهُ عَنِ الغَزَاليِّ رَحِمَهُ اللهُ.

قال الشيخ:

قوله: (قَال)، يعني: الغزالي. هكذا يقول الغزالي أنه قد يُظن أن فيه منفعة، وتلك المنفعة (فَائِدَتَهُ كَشْفُ الحَقَائِقِ وَمَعْرِفَتُهَا عَلى مَا هِيَ عَلَيْهِ)، أي: أنه يسبب كشف الحقائق الغيبية، وكشف الأمور المحجوزة والمحجوبة عن الإنسان، وكشف حقائق الجواهر والأعراض والأبعاض وما أشبه ذلك، فإنه يظن هذه فائدة له، ولكن يقول: (هَيْهَاتَ فَلَيْسَ فِي الكَلامِ وَفَاءٌ بِهَذَا المَطْلَبِ الشَّرِيفِ)، أي: بكشف الحقائق ومعرفتها، فإنه ليس فيه وفاء بهذا المطلب بل

إنه - كما تقدم - يسبب الشك والحيرة.

ثم قال: (**وَلعَل التَّخْبِيطَ وَالتَّضْليل فِيهِ أَكْثَرُ مِنَ الكَشْفِ وَالتَّعْرِيفِ**)، وهذا صحيح، أن الذين يكونون فيه دائمًا ويتخبطون فيه أنهم يضلون وينحرفون فتخبطهم وضلالهم أكثر من الكشف والتعريف، وأكثر من معرفة الحقائق. فقد يقول قائل: إن هذا الكلام (**إِذَا سَمِعْتَهُ مِنْ مُحَدِّثٍ**)، أي: الذي انشغل بعلم الحديث، (**أَوْ حَشْوِيٍّ**)، أي: الذي تلقى الصفات على ما هي عليه واعتقدها على كيفيتها، كالذين يفهمون منها التكييف والتشبيه، وإن كان لفظ (الحشوي) يطلقه المعطلة خطأً على من أثبت الصفات.

(**رُبَّمَا خَطَرَ بِبَالِكَ**)، أي: إذا سمعته يقول ذلك، تقول: (**أَنَّ النَّاسَ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا**)، أي: إن هذا المحدث جاهل بهذا الكلام، وأنه ليس من أهله.

ثم يقول الغزالي: (**فَاسْمَعْ هَذَا مِمَّنْ خَبَرَ الكَلامَ**)، يعني: نفسه، أنه قد خبر الكلام، وأنه قد توغل فيه، وأنه قد تتبع المقالات التي فيه، وعرف حقيقته ونهايته، (**ثُمَّ قَلاهُ**)، أي: تركه (**بَعْدَ حَقِيقَةِ الخِبْرَةِ وَبَعْدَ التَّغَلْغُلِ فِيهِ إِلى مُنْتَهَى دَرَجَةِ المُتَكَلِّمِينَ**)، أي: أنه خبره، ثم أبغضه وتركه، وأنه تركه بعد حقيقة الخبرة، وطول الكلام، وطول التغلغل، إلى أن انتهى إلى درجة المتكلمين الذين تجاوزوا ذلك (**إِلى التَّعَمُّقِ فِي عُلُومٍ أُخَرَ تناسب نَوْعِ**)، أي: علم (الكَلامِ)، يقول: (**وَتَحَقَّقَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلى حَقَائِقِ المَعْرِفَةِ مِنْ هَذَا الوَجْهِ مَسْدُودٌ**) يعني: أن العلم بالكلام جهل، وليس هو طريقًا إلى المعرفة واليقين.

قال الشارح:

وَكَلامُ مِثْلِهِ فِي ذَلكَ حُجَّةٌ بَالِغَةٌ، وَالسَّلَفُ لمْ يَكْرَهُوهُ لمُجَرَّدِ كَوْنِهِ اصْطِلاحًا جَدِيدًا عَلى مَعَانٍ صَحِيحَةٍ، كَالاصْطِلاحِ عَلى أَلفَاظٍ لعُلُومٍ صَحِيحَةٍ، وَلا كَرِهُوه أَيْضًا للدَلالَةَ عَلى الحَقِّ وَالمُحَاجَّةِ لأَهْلِ البَاطِلِ، بَل كَرِهُوهُ لاشْتِمَالِهِ عَلى أُمُورٍ كَاذِبَةٍ مُخَالِفَةٍ للحَقِّ. وَمِنْ ذَلكَ: مُخَالفَتُهَا للكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا فِيهِ مِنْ عُلُومٍ صَحِيحَةٍ، فَقَدَ وَعَّرُوا الطَّرِيقَ إِلى تَحْصِيلِهَا، وَأَطَالُوا الكَلامَ فِي إِثْبَاتِهَا مَعَ قِلةِ نَفْعِهَا، فَهِيَ لحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ عَلى رَأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ، لا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى، وَلا سَمِينٌ فَيُنْتَقَى، وَأَحْسَنُ مَا عِنْدَهُمْ فَهُوَ فِي القُرْآنِ أَصَحُّ تَقْرِيرًا، وَأَحْسَنُ تَفْسِيرًا، فَليْسَ عِنْدَهُمْ إِلا التَّكَلُّفُ وَالتَّطْوِيلُ وَالتَّعْقِيدُ. كَمَا قِيل:

لوْلا التَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا لمَا وُضِعَتْ ... كُتْبُ التَّنَاظُرِ لا المُغْنِي وَلا العَمَدُ

يُحَلِّلُونَ بِزَعْمٍ مِنْهُمُ عُقَدًا ... وَبِالذِي وَضَعُوهُ زَادَتِ العُقَدُ

فَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْفَعُونَ بِالذِي وَضَعُوهُ الشُّبَهَ وَالشُّكُوكَ، وَالفَاضِلُ الذَّكِيُّ الذِي يَعْلمُ أَنَّ الشُّبَهَ وَالشُّكُوكَ زَادَتْ بِذَلكَ.

قال الشيخ:

كلام الشارح هذا يرد على أهل الكلام، مع أنهم اعترفوا على أنفسهم بأنهم ما ازدادوا إلا شكًا، فيقول بعضهم لما حضره الموت: «قرأت خمسين ألفًا في خمسين ألفًا، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة،

وركبت البحر الخضم، وغصت في الذي نهى عنه أهل الإسلام، وكل ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد، والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف بره، فأموت على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل على كلمة الإخلاص لا إله إلا الله، فالويل لابن الجويني» انتهى. وكذلك قول الفخر الرازي لما ذكر كلام أهل الكلام في قوله:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ العُقُولِ عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَعْيِ العَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَغَايَةُ دُنْيَانَا أَذىً وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

ثم قال: «لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الكَلامِيَّةَ، وَالمَنَاهِجَ الفَلْسَفِيَّةَ، فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَلِيلاً، وَلا تَرْوِي غَلِيلاً، وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ القُرْآنِ، اقْرَأ فِي الإِثْبَاتِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، وَاقْرَأ فِي النَّفْيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي» انتهى.

قوله: (وَكَلامُ مِثْلِهِ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ بَالِغَةٌ) أي: وكذلك كلام غير الرازي والغزالي، يقول: إنه حجة في هذا الباب؛ وذلك لأنهم قالوه عن تجربة ونهوا عن علم الكلام، فالسلف ـ رحمهم الله ـ كرهوا علم الكلام وأكثروا من النهي عنه، وقد قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «حكمي في أهل الكلام حكم عمر في

صبيغ أن يضربوا بالجريد، ويُحملوا على الإبل، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، وينادى عليهم: هذا جزاء مَنْ ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم الكلام» انتهى(١).

قوله: (**وَالسَّلَفُ لَمْ يَكْرَهُوهُ لِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ اصْطِلاحًا جَدِيدًا عَلى مَعَانٍ صَحِيحَةٍ**) ولو كان فيه معان صحيحة فإنهم - في الحقيقة - صعبوا الوصول إليها من طريق الكلام، ومن طريق المنطق؛ ولهذا يقول المشايخ: إن هذا العلم ينقض بعضه بعضًا. علم الكلام وعلم المنطق وما أشبهها يبطل بعضه بعضًا، فلو أن إنسانًا ذكر حجة وبالغ فيها بعلم الكلام أو بعلم المنطق ففي إمكان الآخر أن يبطلها، وأن يردها بنفس العلم الذي هو علم الكلام فيكون كلامهم يرد بعضه بعضًا، ولاشك أن الاصطلاح على ألفاظ لعلوم جديدة جائز، أو كون علم الكلام علمًا جديدًا دليلاً على معان صحيحة جائز، ولكن يمكن الوصول إليها بغير علم الكلام.

قوله: (**وَلا كَرِهُوه أَيْضًا للدَلالَةَ عَلى الحَقِّ وَالمُحَاجَّةِ لأَهْل البَاطِلِ**)، يعني: بعلم الكلام، ولكن كرهوا علم الكلام؛ لأنه يشتمل على علوم كاذبة، وعلى أمور كاذبة وعلى مخالفات للحق، وتلبيس للباطل.

قوله: (**مُخَالفَتُهَا للكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا فِيهِ مِنْ عُلُومٍ صَحِيحَةٍ**)، أي: ولاشك أيضًا أن الاشتغال بعلم الكلام يوقع في مخالفة الكتاب والسنة، ومخالفة العلوم

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١٢٩).

الصحيحة التي هي الكتاب والسنة.

قوله: (فَقَدَ وَعَّرُوا الطَّرِيقَ إِلى تَحْصِيلِهَا) أي: إن أهل الكلام قد وعروا الطريق إلى تحصيل العلوم الصحيحة حيث جعلوا هذا الاصطلاح الذي هو علم الكلام، فوعروا الطريق أو شددوا فيه، وأطالوا الكلام في إثبات تلك العلوم مع قلة نفعها، فهكذا قلَّت فائدة تلك العلوم، وتغني عنها العلوم الشرعية، وهي: الآيات والأحاديث.

ثم شبه هذه العلوم الجديدة من علوم المتكلمين بقوله: (فَهِيَ لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ، لا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى، وَلا سَمِينٌ فَيُنْتَقَى)، هذا لفظ جملة في حديث أم زرع الذي في الصحيحين[1] عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً، فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ أَنْ لاَ يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا، قَالَتِ الأُولَى: زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ، عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ، لاَ سَهْلٍ فَيُرْتَقَى، وَلاَ سَمِينٍ فَيُنْتَقَلُ»، هذا لفظه في الصحيحين، فالمؤلف الشارح اختار هذه الجملة تشبيهًا بتلك العلوم التي يطيل فيها المتكلمون ويتوسعون، شبهها بلحم جمل، ومعلوم أن الرغبة في لحم الجمل قليلة، وأنه أيضًا غثّ، أي: هزيل ليس فيه دسم، إنما هو لحم هزيل لا رغبة فيه، ومع ذلك فإنه على رأس جبل، أي: جُعل على رأس جبل، وذلك الجبل أيضًا وعر صعب الوصول إليه، فليس الجبل سهلاً فيُرتقى ويُصعد إليه حتى يؤخذ ذلك اللحم، وليس اللحم سمينًا

(١) أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨).

فيُنتقل، أي: فيُنقل ويؤخذ، أو يُنتقى على ما في بعض الروايات، ويُنتقى يعني: يؤخذ منه النقي الذي هو السمن، هكذا شبه علم الكلام.

يقول: (وَأَحْسَنُ مَا عِنْدَهُمْ فَهُوَ فِي القُرْآنِ أَصَحُّ تَقْرِيرًا، وَأَحْسَنُ تَفْسِيرًا، فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ إِلا التَّكَلُّفُ وَالتَّطْوِيلُ وَالتَّعْقِيدُ)، أي: أحسن ما عندهم موجود في القرآن ومقرر أصح تقرير وأحسن تفسير، هذا أحسن شيء عندهم يُستغنى عنه بالقرآن، ولا يأتي صاحب شبهة إلا وفي القرآن ما يبطلها؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣]، أما أهل الكلام فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد، وهو التكلف في نحت الكلام وتصويره، والإطالة بما لا فائدة تحته، وتعقيد الكلام والتكلف فيه هذا هو الذي عندهم.

ثم استشهد ـ رحمه الله ـ بهذا الشعر:

لَوْلا التَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا لَمَا وُضِعَتْ ... كُتُبُ التَّنَاظُرِ لا الْمُغْنِي وَلا العَمَدُ
يُحَلِّلُونَ بِزَعْمٍ مِنْهُمُ عُقَدًا ... وَبِالذِي وَضَعُوهُ زَادَتِ العُقَدُ

(التَّنَافُسُ) هو المنافسة بين أهل الدنيا، فلولا ذلك لما وضعت كتب التناظر، أي الكتب التي في المناظرات، حملهم على تأليفها التنافس في العلوم، وكلٌّ يحاول أن يغلب، فوضعوا هذه الكتب التي في المناظرات، ومنه كتاب اسمه «المغني» للقاضي عبدالجبار المعتزلي، ومنه كتب العمد، لكثير من المتكلمين.

ثم يقول:

يُحَلِّلُـونَ بِـزَعْمٍ مِـنْهُمُ عُقَـدًا   وَبِالـذِي وَضَـعُوهُ زَادَتِ العُقَـدُ

أي: في زعمهم أنهم يحللون بعلم الكلام عقدًا وشبهات في نظرهم، ولكن ما زادت تلك الشبهات إلا تعقيدًا وتشديدًا.

ثم يقول: (فَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْفَعُونَ بِالذِي وَضَعُوهُ الشُّبَهَ وَالشُّكُوكَ)، أي: عندما يتكلمون على آية ونحوها - كآية الاستواء - يوردون شبهًا كثيرة، وتلك الشبه ينقض بعضها بعضًا، وهم يدعون أنهم يزيلون تلك الشبه.

قوله: (وَالفَاضِلُ الذَّكِيُّ الذِي يَعْلَمُ أَنَّ الشُّبَهَ وَالشُّكُوكَ زَادَتْ بِذَلِكَ)، أي: والعاقل الذكي يعلم أن الشبه - وهي الشكوك - زادت بكلامهم هذا، فلم يزيدوا الأمر إلا شدة.

قال الشارح:

وَمِنَ الْمُحَالِ أَنْ لَا يَحْصُلَ الشِّفَاءُ وَالْهُدَى وَالْعِلْمُ وَالْيَقِينُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ، وَيَحْصُلَ مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الْمُتَحَيِّرِينَ، بَلِ الْوَاجِبُ أَنْ يَجْعَلَ مَا قَالَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ هُوَ الْأَصْلُ، وَيَتَدَبَّرَ مَعْنَاهُ وَيَعْقِلَهُ، وَيَعْرِفَ بُرْهَانَهُ وَدَلِيلَهُ، إِمَّا الْعَقْلِيُّ وَإِمَّا الْخَبَرِيُّ السَّمْعِيُّ، وَيَعْرِفَ دَلَالَتَهُ عَلَى هَذَا وَهَذَا، وَيَجْعَلَ أَقْوَالَ النَّاسِ الَّتِي تُوَافِقُهُ وَتُخَالِفُهُ مُتَشَابِهَةً مُجْمَلَةً، فَيُقَالُ لِأَصْحَابِهَا: هَذِهِ الْأَلْفَاظُ تَحْتَمِلُ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ أَرَادُوا بِهَا مَا يُوَافِقُ خَبَرَ الرَّسُولِ قُبِلَ، وَإِنْ أَرَادُوا بِهَا مَا يُخَالِفُهُ رُدَّ.

وَهَذَا مِثْلُ لَفْظِ الْمُرَكَّبِ وَالْجِسْمِ وَالْمُتَحَيِّزِ وَالْجَوْهَرِ وَالْجِهَةِ وَالْحَيِّزِ وَالْعَرَضِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ لَمْ تَأْتِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِالْمَعْنَى الَّذِي يُرِيدُهُ أَهْلُ الِاصْطِلَاحِ، بَلْ وَلَا فِي اللُّغَةِ، بَلْ هُمْ يَخْتَصُّونَ بِالتَّعْبِيرِ بِهَا عَنْ مَعَانٍ لَمْ يُعَبِّرْ غَيْرُهُمْ عَنْهَا بِهَا، فَتُفَسَّرُ تِلْكَ الْمَعَانِي بِعِبَارَاتٍ أُخَرَ، وَيُنْظَرُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنَ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ، وَإِذَا وَقَعَ الِاسْتِفْسَارُ وَالتَّفْصِيلُ تَبَيَّنَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ.

مِثَالُ ذَلِكَ فِي «التَّرْكِيبِ»، فَقَدْ صَارَ لَهُ مَعَانٍ:

أَحَدُهَا. التَّرْكِيبُ مِنْ مُتَبَايِنَيْنِ فَأَكْثَرَ، وَيُسَمَّى: تَرْكِيبَ مَزْجٍ، كَتَرْكِيبِ الْحَيَوَانِ مِنَ الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعِ وَالْأَعْضَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهَذَا الْمَعْنَى مَنْفِيٌّ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ وَصْفِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعُلُوِّ وَنَحْوِهِ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، أَنْ يَكُونَ مُرَكَّبًا بِهَذَا الْمَعْنَى الْمَذْكُورِ.

وَالثَّانِي: تَرْكِيبُ الْجِوَارِ، كَمِصْرَاعَيِ الْبَابِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَلَا يَلْزَمُ أَيْضًا مِنْ ثُبُوتِ صِفَاتِهِ تَعَالَى إِثْبَاتُ هَذَا التَّرْكِيبِ.

الثَّالِثُ: التَّرْكِيبُ مِنَ الْأَجْزَاءِ الْمُتَمَاثِلَةِ، وَتُسَمَّى: الْجَوَاهِرَ الْمُفْرَدَةَ.

الرَّابِعُ: التَّرْكِيبُ مِنَ الْهَيُولَى وَالصُّورَةِ، كَالْخَاتَمِ مَثَلًا، هَيُولَاهُ: الْفِضَّةُ، وَصُورَتُهُ مَعْرُوفَةٌ.

وَأَهْلُ الْكَلَامِ قَالُوا: إِنَّ الْجِسْمَ يَكُونُ مُرَكَّبًا مِنَ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ، وَلَهُمْ كَلَامٌ فِي ذَلِكَ يَطُولُ، وَلَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَهُوَ أَنَّهُ: هَلْ يُمْكِنُ التَّرْكِيبُ مِنْ جُزْءَيْنِ، أَوْ مِنْ أَرْبَعَةٍ، أَوْ مِنْ سِتَّةٍ، أَوْ مِنْ ثَمَانِيَةٍ، أَوْ سِتَّةَ عَشَرَ؟ وَلَيْسَ هَذَا التَّرْكِيبُ لَازِمًا لِثُبُوتِ صِفَاتِهِ تَعَالَى وَعُلُوِّهِ عَلَى خَلْقِهِ.

وَالْحَقُّ أَنَّ الْجِسْمَ غَيْرُ مُرَكَّبٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَإِنَّمَا قَوْلُهُمْ مُجَرَّدُ دَعْوَى، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

الْخَامِسُ: التَّرْكِيبُ مِنَ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ، هُمْ سَمَّوْهُ تَرْكِيبًا لِيَنْفُوا بِهِ صِفَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى، وَهَذَا اصْطِلَاحٌ مِنْهُمْ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ، وَلَا فِي اسْتِعْمَالِ الشَّارِعِ، فَلَسْنَا نُوَافِقُهُمْ عَلَى هَذِهِ التَّسْمِيَةِ وَلَا كَرَامَةَ. وَلَئِنْ سَمَّوْا إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ تَرْكِيبًا، فَنَقُولُ لَهُمْ: الْعِبْرَةُ لِلْمَعَانِي لَا لِلْأَلْفَاظِ، سَمُّوهُ مَا شِئْتُمْ، فَلَا يَتَرَتَّبُ عَلَى التَّسْمِيَةِ بِدُونِ الْمَعْنَى حُكْمٌ، فَلَوِ اصْطُلِحَ عَلَى تَسْمِيَةِ اللَّبَنِ خَمْرًا، لَمْ يَحْرُمْ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ.

السَّادِسُ: التَّرْكِيبُ مِنَ الْمَاهِيَّةِ وَوُجُودِهَا، وَهَذَا يَفْرِضُهُ الذِّهْنُ أَنَّهُمَا غَيْرَانِ، وَأَمَّا فِي الْخَارِجِ، هَلْ يُمْكِنُ ذَاتٌ مُجَرَّدَةٌ عَنْ وُجُودِهَا، وَوُجُودُهَا مُجَرَّدٌ عَنْهَا؟ هَذَا

مُحَالٌ، فَتَرَى أَهْلَ الْكَلَامِ يَقُولُونَ: هَلْ ذَاتُ الرَّبِّ وُجُودُهُ أَمْ غَيْرُ وُجُودِهِ؟ وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ خَبْطٌ كَثِيرٌ، وَأَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً رَأْيُ الْوَقْفِ وَالشَّكِّ فِي ذَلِكَ، وَكَمْ زَالَ بِالْاسْتِفْسَارِ وَالتَّفْصِيلِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَضَالِيلِ وَالْأَبَاطِيلِ.

قال الشيخ:

قد علمنا أنَّ الشَّرع الشَّريف كامل في جميع ما يحتاج إليه البشر، وأنَّ الرسول ﷺ قد بيَّن للأمَّة ما تحتاج إليه، وبالأخصِّ ما يقولونه بألسنتهم وما يعتقدونه بقلوبهم في صفات ربِّهم، ولا يليق أنه يقال: إنه علَّمهم الفروع وترك الأصول؛ بل الأصول أولى بالتَّعليم، علَّمهم الأصول الَّتي هي العقائد: علمعهم ما يقولونه في ربِّهم بألسنتهم وما يعتقدونه بقلوبهم، قبل أن يعلِّمهم الأوامر والنَّواهي ونحو ذلك، وذلك لأنَّ العقيدة سببُ الأعمال، فالذي لا يكون معه عقيدة لا ينبعث جسمه بالعمل، وإذا رسخت العقيدة - الَّتي هي معرفة الرَّبِّ سبحانه ومعرفة عظمته وكبريائه وجلاله في القلب - أورثت أعمالًا، أورثت الخوف من الله، ورجاءه، ومحبَّته، والخضوع والخشوع له، والإخبات والإنابة والتَّوبة والرُّجوع إليه، وأورثت تعظيمه وتألُّهه ودعاءه وعبادته.

فإذا انتفت هذه المعرفة من القلب انتفت العبادة، ونحن نشاهد أنَّ الصَّحابة - رضي الله عنهم وتابعيهم بإحسان - أكثر النَّاس أعمالًا، وأتمَّهم خشوعًا، وأتمَّهم تذلُّلًا، فما الَّذي حملهم على ذلك؟! أليس هو قوَّة المعرفة؟!

أليس هو قوَّة العقيدة؟! أليس العقيدة رسخت في قلوبهم وهي معرفة ربِّهم؟!

إذًا فنحن نحثُّ المسلم على أن يقوِّي عقيدته، ونقول له: تعلَّم ما ترسخ به عقيدتك في قلبك، قوِّ العقيدة الَّتي هي معرفة الله ومعرفة عظمته ومعرفة جلاله وكبريائه، واحرص على ترسيخ هذه العقيدة في قلوب أولادك، وفي قلوب إخوتك، وفي قلوب المسلمين عامة، فإنَّها متى رسخت في القلوب آتت أُكُلَهَا، وأثمرت العبادات الكثيرة الَّتي هي فعل الصَّالحات وترك المحرمات.

إذًا لو كان علم الكلام هذا وتفاصيلُه من الشَّريعة ما أهملته الرُّسل، ولَعَلَّمته لأممهم، ونحن لم يُنقل لنا عن نبيِّنا شيءٌ من ذلك، ما نُقل عنه أنَّه خاض بأصحابه في هذا العلم الذي هو الجدل والخصومات والمنازعات ونحوها، نعلم أنَّه ما تكلَّم بها، بل كلامه في معرفة الله، وفي عظمته، وفي صفاته، وكلامه في أحكامه وأوامره ونواهيه وما إلى ذلك، هذا هو الذي بلَّغه لأمَّته، وبلَّغته أمَّته بعضهم لبعض.

يقول بعض السلف: أنا أحلف - لو حُلِّفت - أن أبا بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصَّحابة - رضي الله عنهم - ماتوا ولم يتكلَّموا في لفظ التَّركيب ولا الحيِّز ولا الجهة ولا الجوهر ولا العرض بالمعنى الذي أراده المتكلِّم، وإذا لم يتكلَّم بها هؤلاء، فلا خير فيها.

ثبت أنَّ بعض المتكلِّمين - وهو ابن أبي دؤاد، الذي زيَّن للخلفاء أن يمتحنوا النَّاس في علم الكلام، ومنه القول بخلق القرآن - جاءه أحد العلماء فقال له: أخبرنا عن هذا الَّذي تدعو النَّاس إليه؛ هل عَلِمَه نبيُّ الله ﷺ

وأبوبكر وعمر وعثمان وعليّ أو ما علموه؟ فإذا قلت: ما علموه. قلنا: كيف تعلم شيئًا ولا يعلمونه؟! أنت أعلم من الرَّسول؟! أنت أعلم من الخلفاء الراشدين؟! حاشا وكلاَّ أن تكون أعلم منهم، وإذا قلت : بل يعلمونه؛ فهلَّا وسعك ما وسعهم؟! هل دعوا إليه وهل نشروه وهل علَّموه الناس وهل ألزموهم باعتقاده؟! إذا لم يفعلوا، فاتبعهم: لا تنشره ولا تظهره، إذا كان عقيدة لك فاكتُمها في نفسك ولا تُلزم غيرك بأن يعتقدها، لماذا لا يسعك ما وسعهم؟! لا وسَّع الله على من لم يسعه ما وَسِعَ رسول الله ﷺ وخلفاءه الراشدين وصحابته والتَّابعين وأئمَّة الدِّين.

مرَّ بنا من أمثلة ما تكلَّم به المتكلِّمون: كلامهم في التركيب، وفي العرض، وفي الجوهر، وفي الحيِّز، وفي الجهة وفي الأبعاض، وفي الأعضاء ونحو ذلك؛ فيقولون: إنَّ الله منزَّه عن التركيب، ومنزَّه عن الجسم، وعن الجوهر، وعن العرض وعن البعض، وعن الجهة، وعن الحيِّز، وما أشبه ذلك، يقولون: ننزِّه الله تعالى عن ذلك، ثم يشرحون هذه الكلمات ويتوسَّعون فيها.

ومر بنا ما نقله عنهم الشَّارح في معنى التَّركيب، ولا شكَّ أنَّ هذه الكلمة بدعيَّةٌ لم يتكلَّم بها السَّلف، وقد جعل المتكلمون لهذه الكلمة ستَّة معانٍ، آخرها قولهم: التَّركيب هو التَّركيب من الصِّفات والذَّات. أرادوا أنَّ الله تعالى ليس له صفات، إذا قالوا: إنَّ الله ليس بمركَّب، فقالوا: التَّركيب يعمُّ التَّركيب بالصِّفات والذَّات.

وقد بيَّن العلماء ـ رحمهم الله ـ أنَّ إثبات الصِّفات لله إثباتَ وجود، لا إثبات

تحديد، كما أنَّ إثبات الذَّات إثبات وجود، لا إثبات تحديد ولا إثبات تكييف، وذلك لحجب البشر وقصورهم على أن يصلوا بمعارفهم إلى تحديد الصِّفات وكيفيتها، وقد ذكروا أنَّ علم الصِّفات ملحقٌ بعلم الَّذات، يحذو حذوه ويسير على مثاله، فإذا كنَّا نثبت لله تعالى ذاتًا ولا نكيِّفها، فهكذا نثبت له صفات ولا نكيِّفها.

وكثيرٌ من السَّلف يقولون في الصِّفات: أمرُّوها كما جاءت بلا كيف. وفي الأثر المشهور عن مالك ـ رحمه الله ـ قوله: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول». وفي أثر عن شيخه ربيعة قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول». يعني: لا تصله العقول، له كيفيَّة ولكنَّها محجوبة عنَّا، فنؤمن به ونتوقَّف عن تلك الكيفيَّة، فإذا سأل سائل: ما كيفيَّة الاستواء؟ قلنا: الكيف مجهول. فإثبات الصِّفات إثبات وجود، لا إثبات تكييف ولا إثبات تمثيل.

فهؤلاء الَّذين يقولون: إنَّ الله تعالى غير مركَّب، ثمَّ يريدون بالتَّركيب التَّركيب من الصِّفات والذَّات، يريدون بذلك نفي الصِّفات، فيُقال لهم: أنتم تثبتون الذَّات؛ فهل لها كيفيَّة؟ فإذا قالوا: لا يعلم كيفيَّة الذَّات إلَّا الله. قلنا: كذا الصِّفات لا يعلم كيفيَّتها إلَّا الله تعالى.

إذًا الحاصل هنا كلامُهم في التَّركيب وأنَّه أقسام، وهي الأقسام السِّتَّة الَّتي أوردها الشارح، هذا لا يحتاج إلى البحث فيه، بل هو من علم الكلام، وإنَّما أورده الشَّارح ليبيِّن تهافتهم، وليبيِّن أنهم خاضوا في شيءٍ لا فائدة فيه، ولا حاصل له.

وهذه التركيبات للأقسام السِّتَّة القصد منها هو القِسم السَّادس، وإلَّا فالأقسام الأولى من جملة ما ولَّدوه، وقالوا: التركيب من الأعضاء والتَّركيب من الصُّورة، وهيَّؤوا له ذلك، قالوا ذلك بالتَّتبُّع أو بعلم الكلام الَّذي ولَّدوه، فنقول: لا يجوز الخوض في مثل هذا، بل يقال: الله تعالى منزَّه عن النقائص، وموصوف بصفات الكمال.

قال الشارح:

وَسَبَبُ الضَّلَالِ الْإِعْرَاضُ عَنْ تَدَبُّرِ كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ، وَالِاشْتِغَالُ بِكَلَامِ الْيُونَانِ وَالْآرَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ هَؤُلَاءِ: أَهْلَ الْكَلَامِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُفِيدُوا عِلْمًا لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا، وَإِنَّمَا أَتَوْا بِزِيَادَةِ كَلَامٍ قَدْ لَا يُفِيدُ، وَهُوَ مَا يَضْرِبُونَهُ مِنَ الْقِيَاسِ لِإِيضَاحِ مَا عُلِمَ بِالْحِسِّ، وَإِنْ كَانَ هَذَا الْقِيَاسُ وَأَمْثَالُهُ يُنْتَفَعُ بِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَمَعَ مَنْ يُنْكِرُ الْحِسَّ.

وَكُلُّ مَنْ قَالَ بِرَأْيِهِ وَذَوْقِهِ وَسِيَاسَتِهِ - مَعَ وُجُودِ النَّصِّ، أَوْ عَارَضَ النَّصَّ بِالْمَعْقُولِ - فَقَدْ ضَاهَى إِبْلِيسَ، حَيْثُ لَمْ يُسَلِّمْ لِأَمْرِ رَبِّهِ، بَلْ قَالَ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٞ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف:١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظٗا﴾ [النساء:٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران:٣١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمٗا﴾ [النساء:٦٥]، أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوا نَبِيَّهُ وَيَرْضَوْا بِحُكْمِهِ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا.

قال الشيخ:

يبين الشارح - رحمه الله - أن سبب ضلال هؤلاء هو إعراضهم عن تدبر

كلام الله تعالى، وما جاء عن رسوله ﷺ، واشتغالهم بعلوم الفلسفة والمنطق التي أتوا بها من كتب اليونان القديمة، فيطرحون النصوص الصحيحة الصريحة إذا خالفت المعقول عندهم، معتمدين في ذلك على أقيسة وآراء مختلفة، لم يفيدوا بها علمًا لم يكن معروفًا، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد، فكان ذلك سببًا لتسميتهم: أهل الكلام.

يقول: (**وَكُلُّ مَنْ قَالَ بِرَأْيِهِ وَذَوْقِهِ وَسِيَاسَتِهِ - مَعَ وُجُودِ النَّصِّ، أَوْ عَارَضَ النَّصَّ بِالمَعْقُولِ - فَقَدْ ضَاهَى إِبْلِيسَ**)، فهؤلاء الذين يعارضون النصوص بالمعقول، قد خالفوا ما أمرهم الله به، وشابهوا في ذلك إبليس حينما تكبر ولم يستسلم لأمر ربه، واحتج بقياس فاسد استدل به على أنه خيرٌ من آدم عليه السلام، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]، لكن لم ينفعه هذا القياس؛ لأنه خالف به أمر الله - جل وعلا - فأصبح من الكافرين المطرودين من رحمة الله.

وكذلك كل من جعل رأيه وذوقه وسياسته دليله وقائده، وقدمه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قد خرج عن مسمى الإيمان؛ حيث أقسم الله تعالى بنفسه على ذلك، فقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، فعُلِم بذلك أن طريق النجاة هو الإعراض عن طرق أهل الكلام، والإقبال على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قال الطحاوي:

فَيَتَذَبْذَبُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ، وَالْإِقْرَارِ وَالْإِنْكَارِ، مُوَسْوِسًا تَائِهًا، شَاكًّا، لَا مُؤْمِنًا مُصَدِّقًا، وَلَا جَاحِدًا مُكَذِّبًا.

قال الشارح:

يَتَذَبْذَبُ: يَضْطَرِبُ وَيَتَرَدَّدُ. وَهَذِهِ الحَالَةُ الَّتِي وَصَفَهَا الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّـهُ - حَالُ كُلِّ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِلَى عِلْمِ الْكَلَامِ المَذْمُومِ، أَوْ أَرَادَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَعِنْدَ التَّعَارُضِ يَتَأَوَّلُ النَّصَّ وَيَرُدُّهُ إِلَى الرَّأْيِ وَالْآرَاءِ المُخْتَلِفَةِ، فَيَؤُولُ أَمْرُهُ إِلَى الحَيْرَةِ وَالضَّلَالِ وَالشَّكِّ، كَمَا قَالَ ابْنُ رُشْدٍ الحَفِيدُ، وَهُوَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِمَذَاهِبِ الْفَلَاسِفَةِ وَمَقَالَاتِهِمْ، فِي كِتَابِهِ «تَهَافُتِ التَّهَافُتِ»: «وَمَنِ الَّذِي قَالَ فِي الْإِلَهِيَّاتِ شَيْئًا يُعْتَدُّ بِهِ؟». وَكَذَلِكَ الْآمِدِيُّ، أَفْضَلُ أَهْلِ زَمَانِهِ، وَاقِفٌ فِي المَسَائِلِ الْكِبَارِ حَائِرٌ. وَكَذَلِكَ الْغَزَالِيُّ - رَحِمَهُ اللَّـهُ - انْتَهَى آخِرُ أَمْرِهِ إِلَى الْوَقْفِ وَالحَيْرَةِ فِي المَسَائِلِ الْكَلَامِيَّةِ، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْ تِلْكَ الطُّرُقِ وَأَقْبَلَ عَلَى أَحَادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ، فَمَاتَ وَالْبُخَارِيُّ عَلَى صَدْرِهِ. وَكَذَلِكَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الرَّازِيُّ، قَالَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي صَنَّفَهُ فِي «أَقْسَامِ اللَّذَّاتِ»:

نِهَايَـةُ إِقْـدَامِ الْعُقُـولِ عِقَـالُ ... وَغَايَـةُ سَـعْيِ الْعَالَمِينَ ضَـلَالُ
وَأَرْوَاحُنَـا فِي وَحْـشَةٍ مِـنْ ... وَحَاصِـلُ دُنْيَـانَا أَذًى وَوَبَـالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا
فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ رِجَالٍ وَدَوْلَـةٍ ... فَبَـادُوا جَمِيعًا مُسْرِعِينَ وَزَالُوا

وَكَمْ مِنْ جِبالٍ قَدْ عَلَتْ شُرُفَاتِهَا رِجَالٌ فَـزَالُوا والجِبَالُ جِبَـالُ

لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ، وَالمَنَاهِجَ الْفَلْسَفِيَّةَ، فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَلِيلًا، وَلَا تُـرْوِي غَلِيلًا، وَرَأَيْـتُ أَقْـرَبَ الطُّـرُقِ طَرِيقَـةَ الْقُـرْآنِ، اقْـرَأْ فِي الْإِثْبَـاتِ: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فَاطِر:١٠]، وَاقْـرَأْ فِي النَّفْـيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشُّورَى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، ثُمَّ قَالَ: «وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي».

قال الشيخ:

أورد الشارح هذا الكلام ليبيِّن أنَّ هؤلاء نهايتهم الحيرة والتذبذب؛ وذلك لأنَّهم ليسوا على عقيدة راسخة، بل إنَّ كلامهم هذا الذي يولِّدونهُ هو سبب الشَّكِّ؛ لأنَّه لا يأتي ببرهان بل بعضه يردُّ بعضًا، ويكذب بعضه بعضًا، فيأتي أحدهم بمسائل جدليَّة ويجمعها في مؤلَّفاته، ثمَّ يأتي آخر أجدل منه فينقضها واحدة واحدة، فلا يبقى معه شيء، يقول: كما أنَّك تولِّد كذا فأنا أولِّد مثله.

وقد تعلَّمها كثير من العلماء ليردُّوا عليها، ومِن جملة مَن عرفها وأتقنها شيخ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله، فإنَّه درس علومهم، وإن لم يصرف فيها وقتًا، ولكن ما أعطيه من الذَّكاء ومن الفطنة ومن قوَّة الذَّاكرة، جعله يفهمها بمجرَّد ما يقرؤها، فناقش كتبهم، وردَّ عليهم ردًّا متقنًا، فكتابه «منهاج السُّنَّة» الذي هو في الرد على الرافضة، جعل ثلثه في مناقشة المتكلّمين فيما يتعلَّق

بالصِّفات ونحو ذلك، وهكذا كتابه «درء تعارض العقل والنقل»، مطبوع أيضًا في عشرة مجلَّدات، هو أيضًا مناقشة لهم في تلك الشُّبهات، وبيان ما وقعوا فيه من التَّناقضات، وهكذا أيضًا كتابه الَّذي يسمَّى بـ «نقض التأسيس»، فـ«التأسيس» كتاب للرَّازي وهو من المتكلمين، صاحب هذه الأبيات التي أوردها الشارح له، والكتاب مطبوع، واسمه: «تأسيس التَّقديس»، ردَّ عليه شيخ الإسلام وإن لم يردَّ عليه كله، فناقشه كأنَّه درس كلامهم وتوغَّل فيه، وكلُّ ذلك ليعرف المسلمون أنَّهم لا يثبتون على فعلة، بل نهايتهم الحيرة، ونهايتهم التَّذبذب، كما ذكر الشارح عن أمثال هؤلاء منهم.

ومنهم ابن رشد ـ ويسمى ابن رشد الحفيد ـ له كتاب في الانتصار للفلاسفة؛ وذلك لأنَّ الغزالي صنَّف كتابًا سمَّاه: «تهافت الفلاسفة»، ولـمَّا صنَّفه ردَّ عليه ابن رشد وانتصر لهم وسمَّى ردَّه: «تهافت التَّهافت».

وسبق أن نقل الشارح كلام الغزالي أو بعض كلامه من كتاب «إحياء علوم الدِّين»، فالحاصل أنَّ الغزالي يبيِّن أنَّهم ليسوا على عقيدة راسخة، بل إنَّهم متهافتون مضطربون متذبذبون، ولا عبرة لمن انتصر لهم من أفرادهم، فإنَّ ابن رشد فيلسوف، لم يكن على عقيدة راسخة، بل ينقل عنهم أنَّهم متذبذبون، وأنَّهم مهما وصلوا إليه لا يثبتون أيضًا على طريقة.

الثاني: أبو الحسن الآمدي، صاحب كتاب «الإحكام في أصول الأحكام»، من علماء المتكلِّمين، ولكن من الذين تكلَّموا في هذا العلم، وتكلَّموا أيضًا في العلوم الأخرى؛ كأصول الفقه، ومع ذلك فقد اعترف عنهم

وعن من خاض منهم في علم الكلام بأنَّ هذه نهايتهم: الحيرة والشَّكُّ والاضطراب.

الثالث: الغزالي صاحب «الإحياء»، يقولون: إن «إحياء علوم الدين» من خير كتبه وأحسنها، وإن كان فيه شيء من البدع، والغزالي لم يكن من المحدِّثين، فحشد فيه أحاديث موضوعة لا أصل لها، وإن كان جاء فيه بأفكار وبفوائد مهمة، وقد كان في أوَّل أمره مشتغلًا بعلم الكلام، وبالجدل والفكر، وما أشبه ذلك، وهذا هجِّيراه[1]، ولأجل ذلك قدَّم في أوَّل كتابه «المستصفى» مقدّمة في المنطق، وفي آخر حياته ندم على أنَّه أضاع حياته في شيء لا فائدة فيه؛ فأقبل على الحديث وجعل يقرؤه، ووافاه الأجل وكتاب «صحيح البخاري» على صدره؛ كأنَّه يقول: ندمت على إعراضي عن كتب الحديث، فأنا الآن أشتغل بها في آخر حياتي. ولعلَّه خُتم له خاتمة حسنة.

الرابع: أبو عبدالله الرَّازي، ويسمى: فخر الدين الرازي، صاحب «التَّفسير الكبير» الذي هو أكبر التَّفاسير الموجودة لهذا العَالِم الكبير، وصنَّف كتابًا له سمَّاه «أقسام اللَّذات»، وكأنَّه ينقض أكثر عمله، فحياته ذهبت في شيء لا فائدة فيه من علم الجدل، روُي أنَّه مرَّة كان يمشي مع طريق وخلفه تلاميذ له كثير يزيدون على مئة أو مئتين مرُّوا على عجوز فاستغربته، وقالت: من

---

(١) يُقال: هذا هِجِّيراه، وإهْجيراهُ، وإهْجِيرَاؤُه بالمدّ والقَصْر، وهِجِّيرُه كسِكِّيتٍ، وأُهْجورَته بالضمّ، وهِجْرِيَّاهُ وإجْرِيّاه، أي: دَأْبه ودَيْدنُه وشَأْنه وعادَتُه. انظر: لسان العرب (هجر).

هذا؟ قالوا: هذا أبو عبدالله الرَّازي العالم الجليل، يحفظ ألف دليل على وجود الله تعالى. قالت العجوز: أفي الله شكٌّ؟! عجوز على فطرتها تقول: هذا الذي حرص على جمع هذه الأدلة في قلبه شكٌّ، وفي قلبه توقُّف، لا يحرص على تتبُّع هذه الأدلة إلَّا من هو في حيرةٍ أو في شكٍّ.

فهو يقول في هذه الأبيات:

نِهَايَــةُ إِقْــدَامِ العُقُــولِ عِقَــالُ وَأَكْثَـرُ سَـعْيِ العَـالَمِينَ ضَـلاَلُ

نهاية: يعني نهاية هذا الأمر، إقدامهم يعني: تقدُّمهم، وسعيهم يعني: عملهم أكثره ضلالٌ. ثم يقول في أثنائها:

وَلَمْ نستَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُول عُمْرِنا سوى أَنْ جَمَعْنَا فيه: قِيلَ وَقَالوا

هذا الَّذي استفدنا، ما استفدنا من جمعنا ومن تأليفاتنا إلَّا قال فلان، وقيل كذا..

يقول بعد هذه الأبيات: (لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ، وَالمَنَاهِجَ الْفَلْسَفِيَّةَ)، يعني: طرق الكلام ومناهج الفلاسفة، (فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَلِيلًا، وَلَا تُرْوِي غَلِيلًا)، والعليل: المريض، والغليل: الظمآن، (وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ، اقْرَأْ فِي الإِثْبَاتِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، وَاقْرَأْ فِي النَّفْيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي).

فهذا كلامه، في هذا الكتاب «أقسام اللَّذات»، أليس ذلك دليلًا على أنَّه اعترف على نفسه وعلى بني جنسه من المتكلمين أنَّ سعيهم ضلالٌ، وأنَّهم في حيرة، وأنَّ عملهم تائه؟!

فإذًا نقول: هذه نهايتهم، أمَّا أصل العقيدة الرَّاسخة الَّتي هي معرفة الله بصفاته وتفويض كيفيتها، فهؤلاء - والحمد لله - لم يقعوا في شيء من هذا التَّزلزل.

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ قَالَ الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الشَّهْرَسْتَانِيُّ[١]، إِنَّهُ لَمْ يَجِدْ عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ إِلَّا الْحَيْرَةَ وَالنَّدَمَ، حَيْثُ قَالَ:

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ الْمَعَاهِدَ كُلَّهَا ... وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ

فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ ... عَلَى ذَقَنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ

وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو الْمَعَالِي الْجُوَيْنِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: يَا أَصْحَابَنَا لَا تَشْتَغِلُوا بِالْكَلَامِ، فَلَوْ عَرَفْتُ أَنَّ الْكَلَامَ يَبْلُغُ بِي إِلَى مَا بَلَغَ مَا اشْتَغَلْتُ بِهِ. وَقَالَ عِنْدَ مَوْتِهِ: لَقَدْ خُضْتُ الْبَحْرَ الْخِضَمَّ، وَخَلَّيْتُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَعُلُومَهُمْ، وَدَخَلْتُ فِي الَّذِي نَهَوْنِي عَنْهُ، وَالْآنَ فَإِنْ لَمْ يَتَدَارَكْنِي رَبِّي بِرَحْمَتِهِ، فَالْوَيْلُ لِابْنِ الْجُوَيْنِيِّ، وَهَا أَنَا ذَا أَمُوتُ عَلَى عَقِيدَةِ أُمِّي، أَوْ قَالَ: عَلَى عَقِيدَةِ عَجَائِزِ نَيْسَابُورَ.

وَكَذَلِكَ قَالَ شَمْسُ الدِّينِ الْخُسْرَوْشَاهِيُّ - وَكَانَ مِنْ أَجَلِّ تَلَامِذَةِ فَخْرِ الدِّينِ الرَّازِيِّ - لِبَعْضِ الْفُضَلَاءِ، وَقَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا، فَقَالَ: مَا تَعْتَقِدُ ؟ قَالَ: مَا يَعْتَقِدُهُ الْمُسْلِمُونَ، فَقَالَ: وَأَنْتَ مُنْشَرِحُ الصَّدْرِ لِذَلِكَ مُسْتَيْقِنٌ بِهِ؟ أَوْ كَمَا قَالَ، فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: أَشْكُرُ اللَّهَ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، لَكِنِّي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَعْتَقِدُ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَعْتَقِدُ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَعْتَقِدُ، وَبَكَى حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ.

وَلِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ الْفَاضِلِ الْمَشْهُورِ بِالْعِرَاقِ:

فِيكَ يَا أُغْلُوطَةَ الْفِكَرِ ... حَارَ أَمْرِي وَانْقَضَى عُمُرِي

---

(١) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٧٣).

سَافَرَتْ فِيكَ العُقُولُ فَمَا رَبِحَتْ إِلَّا أَذَى السَّفَرِ
فَلَحَى اللهُ الأُلَى زَعَمُوا أَنَّكَ المَعْرُوفُ بِالنَّظَرِ
كَذَبُوا إِنَّ الَّذِي ذكروا خَارِجٌ عَنْ قُوَّةِ البَشر

وَقَالَ الخَوْنَجِيُّ عِنْدَ مَوْتِهِ: مَا عَرَفْتُ مِمَّا حَصَّلْتُهُ شَيْئًا سِوَى أَنَّ الْمُمْكِنَ يَفْتَقِرُ إِلَى الْمُرَجِّحِ، ثُمَّ قَالَ: الِافْتِقَارُ وَصْفٌ سَلْبِيٌّ، أَمُوتُ وَمَا عَرَفْتُ شَيْئًا.

وَقَالَ آخَرُ: أَضْطَجِعُ عَلَى فِرَاشِي وَأَضَعُ الْمِلْحَفَةَ عَلَى وَجْهِي، وَأُقَابِلُ بَيْنَ حُجَجِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ، وَلَمْ يَتَرَجَّحْ عِنْدِي مِنْهَا شَيْءٌ.

وَمَنْ يَصِلْ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الحَالِ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ وَإِلَّا تَزَنْدَقَ، كَمَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: مَنْ طَلَبَ الدِّينَ بِالْكَلَامِ تَزَنْدَقَ، وَمَنْ طَلَبَ الْمَالَ بِالْكِيمْيَاءِ أَفْلَسَ، وَمَنْ طَلَبَ غَرِيبَ الحَدِيثِ كَذَبَ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلَامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ، وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ، وَيُقَالُ: هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلَامِ.

وَقَالَ: لَقَدِ اطَّلَعْتُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ عَلَى شَيْءٍ مَا ظَنَنْتُ مُسْلِمًا يَقُولُهُ، وَلَأَنْ يُبْتَلَى الْعَبْدُ بِكُلِّ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ ـ مَا خَلَا الشِّرْكَ بِاللَّهِ ـ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُبْتَلَى بِالْكَلَامِ. انْتَهَى.

وَتَجِدُ أَحَدَ هَؤُلَاءِ عِنْدَ الْمَوْتِ يَرْجِعُ إِلَى مَذْهَبِ الْعَجَائِزِ، فَيُقِرُّ بِمَا أَقَرُّوا بِهِ وَيُعْرِضُ عَنْ تِلْكَ الدَّقَائِقِ الْمُخَالِفَةِ لِذَلِكَ، الَّتِي كَانَ يَقْطَعُ بِهَا، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهُ فَسَادُهَا، أَوْ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ صِحَّتُهَا، فَيَكُونُونَ فِي نِهَايَاتِهِمْ ـ إِذَا سَلِمُوا مِنَ الْعَذَابِ ـ

بِمَنْزِلَةِ أَتْبَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَعْرَابِ.

وَالدَّوَاءُ النَّافِعُ لِمِثْلِ هَذَا الْمَرَضِ، مَا كَانَ طَبِيبُ الْقُلُوبِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَقُولُهُ ـ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ ـ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ(1).

تَوَسَّلَ ﷺ إِلَى رَبِّهِ بِرُبُوبِيَّةِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ أَنْ يَهْدِيَهُ لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، إِذْ حَيَاةُ الْقَلْبِ بِالْهِدَايَةِ. وَقَدْ وَكَّلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ بِالْحَيَاةِ: فَجِبْرِيلُ مُوَكَّلٌ بِالْوَحْيِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْقُلُوبِ، وَمِيكَائِيلُ بِالْقَطْرِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْأَبْدَانِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانِ، وَإِسْرَافِيلُ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْعَالَمِ وَعَوْدِ الْأَرْوَاحِ إِلَى أَجْسَادِهَا. فَالتَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِرُبُوبِيَّةِ هَذِهِ الْأَرْوَاحِ الْعَظِيمَةِ الْمُوَكَّلَةِ بِالْحَيَاةِ، لَهُ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

قال الشيخ:

ذكر الشارح أوّلًا بقيّة كلام هؤلاء الّذين عُرف عنهم الحيرة، منهم: الشّهرستاني صاحب كتاب «الملل والنّحل».

---

(١) برقم (٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ومنهم: الجويني صاحب كتاب «الإرشاد»، ويسمَّى والد إمام الحرمين، وله أيضًا مؤلَّفات، وكلامه في «الإرشاد» دليل على أنَّه متوغِّل في علم الكلام.

ومنهم: هذا العالم المشهور الَّذي يسمَّى الخسروشاهي، الَّذي يحلف أنَّه لا يدري ما يعتقد، ويغبط العامَّة في عقيدتهم.

هذه الكلمات المنقوله عنهم ـ وكذلك عن غيرهم ـ لا شكَّ أنَّها دليل واضح على أنَّ هذا النَّوع من علم الكلام نهايته الحيرة، وأنَّهم لا يثبتون على طريقة، بل حُجَج هؤلاء تردُّ حُجج هؤلاء. اعترف أحدهم بأنه يبيت اللَّيلة من أوَّلها إلى آخرها وهو يقابل حُجَج هؤلاء بحجج هؤلاء، ويصبح ما ترجَّح عنده منها واحدةٌ، أيُّ فائدة بالعلم بها، وأيُّ فائدة من معرفتها؟!

إذًا أسلم الطُّرق البعد عن هذه الطَّريقة ـ الَّتي هي علم الكلام ـ وهجر أهلها والبعد عنهم، بل عقوبتهم بما قال الشَّافعي رحمه الله، والعلاج مثل ما ورد في هذا الحديث، وهو قوله ﷺ بعدما توسَّل برب هذه الأرواح الثَّلاثة: **«اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»**. كأنَّك ترغب إلى الله وتقول: هؤلاء اختلفوا، وأنا لا أدري مع من الحقُّ، فإذا هديتني ووفَّقتني ودللتني على الصَّواب، فإنِّي أنا المهتدي، أنت الَّذي تهدي من تشاء وتضلُّ من تشاء. إذا رغب العبد وتوسَّل بربوبيَّة هؤلاء الملائكة؛ فإنَّ الله تعالى يقبل دعاءه ويجيبه لما طلب، ويصرفه عن المحظورات، وعن أضرارها وشرورها.

قال الطحاوي:

وَلَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ بِالرُّؤْيَةِ لِأَهْلِ دَارِ السَّلَامِ لِمَنِ اعْتَبَرَهَا مِنْهُمْ بِوَهْمٍ، أَوْ تَأَوَّلَهَا بِفَهْمٍ؛ إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَةِ، وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنًى يُضَافُ إِلَى الرُّبُوبِيَّةِ، تَرْكَ التَّأْوِيلِ، وَلُزُومَ التَّسْلِيمِ، وَعَلَيْهِ دِينُ الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ.

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ إِلَى الرَّدِّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ يَقُولُ بِقَوْلِهِمْ فِي نَفْيِ الرُّؤْيَةِ، وَعَلَى مَنْ يُشَبِّهُ اللَّهَ بِشَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»(١)، الحَدِيثَ. أَدْخَلَ (كَافَ) التَّشْبِيهِ عَلَى (مَا) المَصْدَرِيَّةِ أَوِ المَوْصُولَةِ بِـ (تَرَوْنَ) الَّتِي تَنْحَلُّ إِلَى المَصْدَرِ الَّذِي هُوَ (الرُّؤْيَةُ)، فَيَكُونُ التَّشْبِيهُ فِي الرُّؤْيَةِ لَا فِي المَرْئِيِّ. وَهَذَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ فِي أَنَّ المُرَادَ إِثْبَاتُ الرُّؤْيَةِ وَتَحْقِيقُهَا، وَدَفْعُ الْاحْتِمَالَاتِ عَنْهَا. وَمَاذَا بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذَا الْإِيضَاحِ؟! فَإِذَا سُلِّطَ التَّأْوِيلُ عَلَى مِثْلِ هَذَا النَّصِّ، كَيْفَ يُسْتَدَلُّ بِنَصٍّ مِنَ النُّصُوصِ؟! وَهَلْ يَحْتَمِلُ هَذَا النَّصُّ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: إِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَعْلَمُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟! وَيَسْتَشْهِدُ لِهَذَا التَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٩٠).

بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل:١]، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا اسْتُعْمِلَ فِيهِ (رَأَى) الَّتِي مِنْ أَفْعَالِ الْقُلُوبِ!! وَلَا شَكَّ أَنَّ (رَأَى) تَارَةً تَكُونُ بَصَرِيَّةً، وَتَارَةً تَكُونُ قَلْبِيَّةً، وَتَارَةً تَكُونُ مِنْ رُؤْيَا الْحُلْمِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مَا يَخْلُو الْكَلَامُ مِنْ قَرِينَةٍ تُخَلِّصُ أَحَدَ مَعَانِيهِ مِنَ الْبَاقِي. وَإِلَّا لَوْ أَخْلَى الْمُتَكَلِّمُ كَلَامَهُ مِنَ الْقَرِينَةِ الْمُخَلِّصَةِ لِأَحَدِ الْمَعَانِي لَكَانَ مُجْمِلًا مُلْغِزًا، لَا مُبَيِّنًا مُوَضِّحًا. وَأَيُّ بَيَانٍ وَقَرِينَةٍ فَوْقَ قَوْلِهِ: «تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»(١)؟ فَهَلْ مِثْلُ هَذَا مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِرُؤْيَةِ الْبَصَرِ، أَوْ بِرُؤْيَةِ الْقَلْبِ؟ وَهَلْ يَخْفَى مِثْلُ هَذَا إِلَّا عَلَى مَنْ أَعْمَى اللَّهُ قَلْبَهُ؟

فَإِنْ قَالُوا: أَلْجَأَنَا إِلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، حُكْمُ الْعَقْلِ بِأَنَّ رُؤْيَتَهُ تَعَالَى مُحَالٌ لَا يُتَصَوَّرُ إِمْكَانُهَا!

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذِهِ دَعْوَى مِنْكُمْ، خَالَفَكُمْ فِيهَا أَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ، وَلَيْسَ فِي الْعَقْلِ مَا يُحِيلُهَا، بَلْ لَوْ عُرِضَ عَلَى الْعَقْلِ مَوْجُودٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ لَا يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ لَحَكَمَ بِأَنَّ هَذَا مُحَالٌ.

وَقَوْلُهُ: (لِمَنِ اعْتَبَرَهَا مِنْهُمْ بِوَهْمٍ)، أَيْ: تَوَهَّمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرَى عَلَى صِفَةِ كَذَا، فَيَتَوَهَّمُ تَشْبِيهًا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا التَّوَهُّمِ - إِنْ أَثْبَتَ مَا تَوَهَّمَهُ مِنَ الْوَصْفِ - فَهُوَ مُشَبِّهٌ، وَإِنْ نَفَى الرُّؤْيَةَ مِنْ أَصْلِهَا - لِأَجْلِ ذَلِكَ التَّوَهُّمِ - فَهُوَ جَاحِدٌ مُعَطِّلٌ. بَلِ الْوَاجِبُ دَفْعُ ذَلِكَ الْوَهْمِ وَحْدَهُ، وَلَا يَعُمُّ بِنَفْيِهِ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، فَيَنْفِيهِمَا رَدًّا عَلَى

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٩٠).

مَنْ أَثْبَتَ الْبَاطِلَ، بَلِ الْوَاجِبُ رَدُّ الْبَاطِلِ وَإِثْبَاتُ الحَقِّ.

قال الشيخ:

أوّلًا: الواجب علينا أن نقبل الصِّفة الَّتي جاءتنا على ظاهرها، لاسيَّما إذا كانت صريحة بعيدة عن التَّوهُّمات، وأن نحملها على المحمل الذي يمكن أن تتحمَّله، وأن ننزِّه كلام الله وكلام رسوله ﷺ عن الاحتمالات البعيدة الَّتي فيها شيءٌ من التكلُّف، وفيها صرف للَّفظ عن المتبادر منه، وعن ما يفهمه المخاطب لأوَّل وهلة؛ وذلك لأنَّ كلام الله تعالى أفصح الكلام وأوضحه وأجلاه معنىً وأقرب إلى أن يُفهم، ولا يحتاج إلى إيضاح زائد، وليس ككلام الملغزين أهل الألغاز وأهل الإشارات الخفيَّة. وهكذا أيضًا كلام نبيِّه ﷺ، فإنَّه أفصح الخلق وأنصحهم، وإذا كان فصيحًا؛ فلا بدَّ أنَّه سيتكلَّم بما يعرفه المخاطَبون ويفهمونه، بحيث لا يشكُّون في مقصده، وكذلك إذا كان أنصح الخلق وأحبَّهم لمعرفة الأمَّة، وأحبَّهم لنجاتها، وأحبهم لإبعادها عن الأشياء الوهميَّة، إذا كان كذلك، فلا بدَّ أنَّه يوضِّح لهم، ولا يترك لهم الكلام ملتبسًا، ولا يتكلَّم بكلام موهم، حاشاه أن يتكلَّم بكلام يُفهم منه غير ما يُراد.

والصَّحابة - رضي الله عنهم - تقبلوا كلامه ﷺ، وحملوه على ما هو عليه دون أن يسألوه ويناقشوه، ودون أن يفسِّروا كلامه بما لا يحتمله، حتَّى جاء بعض الخلف المتأخِّرين الَّذين ذكروا في قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ

وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ [الأعراف:١٦٩]، يعني: أنَّهم قاموا مقامهم في وراثة الكتاب، ولكنَّهم لم يعملوا به، فهؤلاء الخلف الَّذين جاؤوا بعد السَّلف هم الَّذين عملوا هذه الأعمال، وهي التَّأويلات البعيدة، الَّتي تكلَّفوا فيها، وصرفوها عن ما هو مقصود بها.

فقد تقدم قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، الوجوه معروف أنَّها محلُّ العيون، والعينان مركبَّة في الوجه، فإذا كان الوجه مقابلًا؛ فإن العين تنظر، فالله تعالى قال: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٤]، وفي سورة أخرى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴾ [الغاشية: ٢]، و ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ [الغاشية: ٨]، فجعل الوجوه علامة على الشَّقاء أو السَّعادة، كما في آية أخرى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، فالوجه هو الَّذي تكون فيه علامة الإشراق والسَّعادة أو علامة الاسوداد والشَّقاوة.

فإذا قال الله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾، أيُّ كلام يكون أفصح من هذا الَّذي يفهم منه أن الوجوه تنظر إلى ربِّها؟

جاء قوم من هؤلاء الخلف وسلَّطوا التَّأويل عليه، وقالوا: إنَّ المراد بالنظر هنا الانتظار، أو المراد نظر الثَّواب لا نظر الرَّبِّ تعالى، فيقولون: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا ﴾ يعني: إلى ثواب ربِّها. فما الدليل على أنَّها على هذا القدَّر؟ هل في الكلام

المحذوف؟! الله تعالى أعلى من أن يوهم كلامه ويجعله خفيًّا ليس بجليٍّ، فكيف يقال: ناظرةٌ إلى ثواب الله، أو إلى آلائه ونعمه؟!

وإذا عرفنا ذلك؛ فإنَّ كلام النَّبيِّ ﷺ أيضًا فصيح، بعثه الله باللغة الفصحى، وهو أفصح من نطق بالضَّاد، أفصح العرب، كلامه أيضًا في غاية الوضوح والفصاحة والبيان، فقوله ﷺ - مثلًا - في حديث جرير ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَر، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»(١)، ويقول في حديث أبي هريرة ﷺ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟**»، **قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ:** «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**»، **قَالُوا: لَا، قَالَ:** «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ**»(٢)، أليس هذا واضحًا في أنَّ المراد النَّظر والمعاينة بالعين؟!

جاء هؤلاء الخلف وسلَّطوا عليه التَّأويل، وقالوا: المراد العلم، «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ**»، يعني: ستعلمون ربَّكم. ونحن نقول: هم يعلمونه في الدُّنيا؛ فكيف قال ستعلمون؟! كأنهم ما علموا؟!

حرف السين يفيد الاستقبال لشيء مستقبل، لو كان قائل هذا مراده العلم، لقالوا: نحن نعلم ربَّنا، ونعلم أنَّه ربُّنا، ولكنَّه قال: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ**»، يعني: يوم القيامة، يعني: في الآخرة وفي الجنَّة، ثمَّ لماذا قال: **كَمَا تَرَوْنَ**

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٥٠).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ١٩٠).

هَذَا الْقَمَر ؟ هل هم كانوا يرون القمر في تلك السَّاعة؟ وإذا كانوا يرونه هل يشكُّون في أنَّ هذا هو القمر؟ هذا من التَّأويل البعيد، كيف يقاس على قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ [الفيل:١]، يعني: ألم تعلم، أو: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ [إبراهيم:٢٤]، يعني: ألم تعلم، وكذلك الآيات التَّي فيها: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ ﴾ [البقرة:٢٤٣]، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [البقرة:٢٤٦]، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ ﴾ [غافر:٦٩]، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ [المجادلة:٨]، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ﴾ [الحشر:١١]، فالمراد هنا الرُّؤية العلميَّة، يعني: ألم تر بقلبك، لا مناسبة بين هذه وبين قوله ﷺ: «سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ»، فهنا دخلت السِّين، يعني: أنَّه في المستقبل، وأكد بقوله ﷺ: «كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَر، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»، أي: لا تشكُّون في رؤيته، فبينهما فرق، فعُرف بذلك أنَّ هذه تأويلات بعيدة لا يحتاج إليها عاقل ولا يصدِّقها.

وأما قولهم: حملنا على ذلك أنَّ الرؤية لله فيها تشبيهٌ، فإذا قلنا: إنَّه يُرى، فقد شبهناه بخلقه ـ تعالى الله عن قولهم ـ.

قلنا: ما الذي أشعركم؟ لا يلزم من ذلك لو رأوه كلُّهم هل يلزم أن يكون مشابهًا لخلقه؟ حاشا وكلَّا، فالله سبحانه ليس كمثله شيء، ولا يلزم إذا رأوه أن يكون مماثلًا لشيء من مخلوقاته؛ بل هو كما يشاء، قد أكَّد النَّبي ﷺ **هذه** الرؤية، وأخبر بأنها من أعلى نعيم أهل الجنَّة، وأنَّها غاية مقصدهم و مرامهم،

حتَّى يقول بعضهم:

فَلَو أَنِّي اسْتَطَعْتُ غَضَضْتُ طَرْفِي فَلَـمْ أَنْظُـرْ بِهِ حَتَّىٰ أَرَاكَ[1]

فعلى كلِّ حال لا يُلتفت إلى تلك التَّأويلات، والمؤمن يتقبَّل هذه النُّصوص، ثمَّ يعرف الفائدة، وهي رسوخ عقيدته في قلبه، وأنَّه مؤمن بالله وبما جاء عن الله، ويقينه وتصديقه بأن المؤمنين يرون ربَّهم في دار كرامته، وبأنَّ المؤمنين يتنعَّمون ويلتذُّون بهذه الرُّؤية، وأنَّها من جملة نعيمهم، وقبوله للأدلَّة التي دلَّت على ذلك وعدم تسليطه للتَّأويلات، وإعراضه عن تأويلات المتكلِّمين وعدم الإصغاء إلى أقوالهم، وإعراضه عن الأدلَّة العقليَّة التَّي ولَّدوها، والتَّي زعموا أنَّها براهين، وهي في الحقيقة شبهات وضلالات.

---

(١) راجع (٢/ ١٣٤).

قال الشارح:

وَإِلَى هَذَا المَعْنَى أَشَارَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِقَوْلِهِ: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ)، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ المُعْتَزِلَةَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُنَزِّهُونَ اللَّهَ بِهَذَا النَّفْيِ! وَهَلْ يَكُونُ التَّنْزِيهُ بِنَفْيِ صِفَةِ الْكَمَالِ؟ فَإِنَّ نَفْيَ الرُّؤْيَةِ لَيْسَ بِصِفَةِ كَمَالٍ؛ إِذِ المَعْدُومُ لَا يُرَى، وَإِنَّمَا الْكَمَالُ فِي إِثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ وَنَفْيِ إِدْرَاكِ الرَّائِي لَهُ إِدْرَاكَ إِحَاطَةٍ، كَمَا فِي الْعِلْمِ، فَإِنَّ نَفْيَ الْعِلْمِ بِهِ لَيْسَ بِكَمَالٍ، وَإِنَّمَا الْكَمَالُ فِي إِثْبَاتِ الْعِلْمِ وَنَفْيِ الْإِحَاطَةِ بِهِ عِلْمًا، فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُحَاطُ بِهِ رُؤْيَةً، كَمَا لَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا.

وَقَوْلُهُ: (أَوْ تَأَوَّلَهَا بِفَهْمٍ)، أَيِ: ادَّعَى أَنَّهُ فَهِمَ لَهَا تَأْوِيلًا يُخَالِفُ ظَاهِرَهَا، وَمَا يَفْهَمُهُ كُلُّ عَرَبِيٍّ مِنْ مَعْنَاهَا، فَإِنَّهُ قَدْ صَارَ اصْطِلَاحُ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي مَعْنَى التَّأْوِيلِ: أَنَّهُ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ ظَاهِرِهِ، وَبِهَذَا تَسَلَّطَ الْمُحَرِّفُونَ عَلَى النُّصُوصِ، وَقَالُوا: نَحْنُ نَتَأَوَّلُ مَا يُخَالِفُ قَوْلَنَا، فَسَمَّوُا التَّحْرِيفَ تَأْوِيلًا، تَزْيِينًا لَهُ وَزَخْرَفَةً لِيُقْبَلَ، وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ الَّذِينَ زَخْرَفُوا الْبَاطِلَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]، وَالْعِبْرَةُ لِلْمَعَانِي لَا لِلْأَلْفَاظِ، فَكَمْ مِنْ بَاطِلٍ قَدْ أُقِيمَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ مُزَخْرَفٌ عُورِضَ بِهِ دَلِيلُ الحَقِّ.

وَكَلَامُهُ هُنَا نَظِيرُ قَوْلِهِ فِيمَا تَقَدَّمَ: (لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا)، ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا المَعْنَى بِقَوْلِهِ: (إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَةِ، وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنًى يُضَافُ إِلَى الرُّبُوبِيَّةِ: تَرْكَ التَّأْوِيلِ، وَلُزُومَ التَّسْلِيمِ، وَعَلَيْهِ دِينُ

الْمُسْلِمِينَ). وَمُرَادُهُ: تَرْكُ التَّأْوِيلِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ تَأْوِيلًا، وَهُوَ تَحْرِيفٌ، وَلَكِنَّ الشَّيْخَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ تَأَدَّبَ وَجَادَلَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، كَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، وَلَيْسَ مُرَادُهُ تَرْكَ كُلِّ مَا يُسَمَّى تَأْوِيلًا، وَلَا تَرْكَ شَيْءٍ مِنَ الظَّوَاهِرِ لِبَعْضِ النَّاسِ لِدَلِيلٍ رَاجِحٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا مُرَادُهُ: تَرْكُ التَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ الْمُبْتَدَعَةِ، الْمُخَالِفَةِ لِمَذْهَبِ السَّلَفِ، الَّتِي يَدُلُّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى فَسَادِهَا، وَتَرْكُ الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ.

فَمِنَ التَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ: تَأْوِيلُ أَدِلَّةِ الرُّؤْيَةِ، وَأَدِلَّةِ الْعُلُوِّ، وَأَنَّهُ لَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَلَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا!

قال الشيخ:

نعرف أنَّ هؤلاء المعتزلة ونحوهم هم الذين توسَّعوا في هذا المجال، وحملوا غيرهم على أن يتوسَّعوا فيه، ولم يكن السَّلف ـ رحمهم الله ـ يتوسَّعون في هذا الكلام، بل يقبلونه على ما هو عليه، ولا ينقِّبُون عن شيء من الإيرادات التَّي يوردها عليهم أهل التَّعطيل، فكان كلام السَّلف ـ رحمهم الله ـ قليلًا، ولكنَّ معناه كثير، وكانوا يقبلون النُّصوص، ويعرفون معناها ويفهمونه، ويعلمون ما قصد منها، فيقرؤون ـ مثلًا ـ الآيات التَّي وردت في الصِّفات، ويعلمون أنَّها صفاتٌ ثابتة، ولكن يعلمون أنَّها تخالف صفات المخلوق؛ لأنَّ الله ليس كمثله شيء، ويعلمون أنَّ من تلك الصِّفات صفة العلم وصفة

الرُّؤية، وأنَّها حقيقيَّة، ولكنَّها ليست كصفات المخلوقين.

ويعلمون أنَّ الله تعالى ما نفى عن نفسه إلَّا النقائص، كلُّ شيء فيه نقص فإنَّه قد نفاه، فيقول تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، أي: لا يماثله شيء؛ لأنَّ المخلوق يأتي عليه الفناء، والله تعالى ليس كذلك، ويقول تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، أي: لا أحد يستحقُّ أن يسمَّى «الله» أو «إله» أو نحو ذلك؛ وذلك لنقص المخلوقات الَّتي تسمَّى بذلك، وقال تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، نفى ذلك عن نفسه لأنَّه نقص، فالنوم أخو الموت، وقد نفى الموت أيضًا عن نفسه، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان: ٥٨]، فنفى الموت عن نفسه لأنه نقص، ونفى عن نفسه -أيضًا- عزوب شيء أو نسيانه، فقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس: ٦١]، لا يعزب يعني: لا يغيب عنه، ولا ينسى شيئًا؛ لأنَّ النسيان نقص فنفاه عن نفسه، ونفى عن نفسه اللُّغوب فقال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، واللُّغوب هو: التَّعب والسَّآمة والنَّصب، وذلك أيضًا نقص.

فكل النَّقائص نزَّه الله عنها نفسه؛ وذلك لما يرد عليها من التَّغير، لم ينفِ عن نفسه الرَّؤية أنَّه لا يُرى، ولو كان نقصًا لنفاه، والرؤية صفة كمال وعدمها صفة نقص؛ وذلك لأنَّ المعدوم لا يُرى، والمعدوم ليس بشيء، والذي ليس بشيء هو كاسمه ليس بشيء، فأثبت الله تعالى أنه يُرى، ولكن نفى عن نفسه إحاطة الأبصار به في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، يعني:

لا تحيط به، إذا رأته، فإنَّها لا تحيط به، ترى ما يبدو وما يتجلَّى منه ولا تحيط به، وهو يدرك الأبصار.

وقد تقدَّم أنَّ الرُّؤية غير الإدراك، فالله ما نفى إلَّا الإدراك، والإدراك هو الإحاطة، وقد تقدَّم أنَّ عكرمة قال لرجل يحتج على نفي الرؤية بقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾، فقال له: ألستَ ترى السماء؟ قال: بلى، قال: فكلّها ترى؟[1]، فذلك الإدراك، نحن نرى السَّماء، ولكن لا ندركها، ولا ندري ما ماهيَّتها، ونرى الشَّمس والقمر، ولكن لا ندرك ماهيتها، ولا من أيِّ شيء، ونرى هذا السَّحاب وهذه النَّجوم، ولكن لا ندركها، أبصارنا تضعف عن أن تحيط بها وعن أن تعلم ماهيَّتها.

إذًا فالرؤية شيء غير الإدراك، والإدراك زائد على الرُّؤية، فمن تعظيم الله أنَّه يُرى ولا يُدرك، كذلك من تعظيم الله تعالى أنه يُعلم ولا يحاط بعلمه، قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠]، أي: لا يعلمون إلَّا ما أعلمهم؛ وذلك لنقص المخلوقين وعظمة الخالق سبحانه وتعالى، فهم مهما علموا فإنهم لا يعلمون تفاصيل ذات الله تعالى، ولا ما هو عليه إلَّا ما أطلعهم عليه.

فهذا هو بيان الفرق بين ما يقوله هؤلاء وبين ما يقوله أهل السُّنة.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٣٥٦).

أمَّا كونهم سلَّطوا على ذلك التأويل، فقالوا ـ مثلًا ـ: آية الرُّؤية تدلُّ على إثبات صفة تشبيه، أو نحو ذلك، فنحن نسلِّط عليها التَّأويل.

فنقول: لا حاجة بنا إلى تأويلكم، ولا حاجة بها إلى هذا التأويل، بل انفوا عنها التَّشبيه وتسلمون.

واصطلحوا على أنَّ التأويل صرف اللفظ عن ظاهره، قالوا ـ مثلًا ـ: ظاهر قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، أنَّ لله وجهًا، ولكن نصرفه فنقول: الوجه الذَّات، فنقول: كلُّ شيء هالك إلَّا ذاته! فهذا أيضًا تأويل، ويقولون: ظاهر قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، أنَّ لله يدَين، وفي إثباتها تشبيه، ونحن نفرُّ من التشبيه، فلأجل ذلك نسلِّط عليها التَّأويل، فنقول: المراد باليدين النِّعمة، أو القدرة! وهذا بعيدٌ، فقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، يعني: مبسوطتان بالعطاء، وقد أكد ذلك النَّبي ﷺ فقال: «**يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وقال: أَرَأَيْتُمْ ما أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فإنه لم يَغِضْ ما فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَبِيَدِهِ المِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ**»(١).

وقد أثبت الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنفسه اليمين بقوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، فكيف

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

تقولون: اليد القدرة؟! هذا من التَّأويل البعيد.

وهكذا قولهم: إنَّ كلام الله المعنى لا اللَّفظ، فهذا أيضًا من التَّأويل، وهكذا قولهم: إنَّ رحمة الله إرادة الإحسان، أو غضبه: إرادة الانتقام، كلُّ ذلك يسمونه تأويلًا.

فأهل السُّنَّة لا يدخلون في باب التَّأويل، والواجب عليهم أن يقتصروا على نفي التشبيه، وهذا هو معنى قول الماتن: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ)، كان كثير من السَّلف إذا رأوا الإنسان يبالغ في النَّفي اتَّهموه بالتجهم؛ لأنَّ الَّذين يبالغون في النفي لا يتوقُّون النَّفي ولا يتوقُّون التَّنزيه أو التَّشبيه، وهم أقربُ إلى أن يكونوا مشبهة من غيرهم، وقد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيميَّة ـ رحمه الله ـ في بعض كتبه أنَّ هؤلاء مشبِّهة، ولو ادعوا أنَّهم يهربون من التَّشبية. وكيف يكونون مشبِّهة؟

أوَّلًا: أنَّه ارتسم في قلوبهم أنَّ تلك الصِّفات دالَّة على التَّشبيه، وما فهموا من النُّصوص إلَّا التَّشبيه.

ثانيًا: أنَّهم لـمَّا نفوا الصِّفات نفيًا كليًّا، وقعوا في التشبيه بالجمادات، أو التَّشبيه بالمعدومات، أو التَّشبيه بالمستحيلات، فأصبحوا بذلك مشبِّهين، فقيل لهم: أنتم مشبِّهة.

فعلى كلِّ حال تأويلاتهم الَّتي يتأوَّلون بها النُّصوص يردُّها كلُّ ذي عقل سليم.

قال الشارح:

ثُمَّ قَدْ صَارَ لَفْظُ التَّأْوِيلِ مُسْتَعْمَلًا فِي غَيْرِ مَعْنَاهُ الْأَصْلِيِّ.

فَالتَّأْوِيلُ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ: هُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي يَئُولُ إِلَيْهَا الْكَلَامُ، فَتَأْوِيلُ الْخَبَرِ: هُوَ عَيْنُ الْمُخْبَرِ بِهِ، وَتَأْوِيلُ الْأَمْرِ نَفْسُ الْفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ. كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ[1]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣]، وَمِنْهُ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَا، وَتَأْوِيلُ الْعَمَلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:١٠٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٨]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٨٢]، فَمَنْ يُنْكِرُ وُقُوعَ مِثْلِ هَذَا التَّأْوِيلِ، وَالْعِلْمَ بِمَا تَعَلَّقَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مِنْهُ؟!

وَأَمَّا مَا كَانَ خَبَرًا، كَالْإِخْبَارِ عَنِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَهَذَا قَدْ لَا يُعْلَمُ تَأْوِيلُهُ، الَّذِي هُوَ حَقِيقَتُهُ؛ إِذْ كَانَتْ لَا تُعْلَمُ بِمُجَرَّدِ الْإِخْبَارِ، فَإِنَّ الْمُخْبَرَ إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَصَوَّرَ الْمُخْبَرَ بِهِ، أَوْ مَا يَعْرِفُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، لَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَتَهُ، الَّتِي هِيَ

---

(١) أخرجه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).

تَأْوِيلُهُ، بِمُجَرَّدِ الْإِخْبَارِ. وَهَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، لَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ الْعِلْمِ بِالتَّأْوِيلِ نَفْيُ الْعِلْمِ بِالْمَعْنَى الَّذِي قَصَدَ الْمُخَاطِبُ إِفْهَامَ الْمُخَاطَبِ إِيَّاهُ، فَمَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ إِلَّا وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِتَدَبُّرِهَا، وَمَا أَنْزَلَ آيَةً إِلَّا وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يُعْلَمَ مَا عَنَى بِهَا، وَإِنْ كَانَ مِنْ تَأْوِيلِهِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ. فَهَذَا مَعْنَى التَّأْوِيلِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ السَّلَفِ، وَسَوَاءٌ كَانَ هَذَا التَّأْوِيلُ مُوَافِقًا لِلظَّاهِرِ أَوْ مُخَالِفًا لَهُ.

وَالتَّأْوِيلُ فِي كَلَامِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، كَابْنِ جَرِيرٍ وَنَحْوِهِ، يُرِيدُونَ بِهِ تَفْسِيرَ الْكَلَامِ وَبَيَانَ مَعْنَاهُ، سَوَاءٌ وَافَقَ ظَاهِرَهُ أَوْ خَالَفَ، وَهَذَا اصْطِلَاحٌ مَعْرُوفٌ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ كَالتَّفْسِيرِ، يُحْمَدُ حَقُّهُ، وَيُرَدُّ بَاطِلُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾، الْآيَةَ [آل عمران:٧]، فِيهَا قِرَاءَتَانِ: قِرَاءَةُ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾، وَقِرَاءَةُ مَنْ لَا يَقِفُ عِنْدَهَا، وَكِلْتَا الْقِرَاءَتَيْنِ حَقٌّ، وَيُرَادُ بِالْأُولَى: الْمُتَشَابِهُ فِي نَفْسِهِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِ تَأْوِيلِهِ، وَيُرَادُ بِالثَّانِيَةِ: الْمُتَشَابِهُ الْإِضَافِيُّ الَّذِي يَعْرِفُ الرَّاسِخُونَ تَفْسِيرَهُ، وَهُوَ تَأْوِيلُهُ.

وَلَا يُرِيدُ مَنْ وَقَفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ أَنْ يَكُونَ التَّأْوِيلُ بِمَعْنَى التَّفْسِيرِ لِلْمَعْنَى، فَإِنَّ لَازِمَ هَذَا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ كَلَامًا لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهُ جَمِيعُ الْأُمَّةِ وَلَا الرَّسُولُ، وَيَكُونُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي مَعْرِفَةِ مَعْنَاهَا سِوَى قَوْلِهِمْ: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [الأعراف:٧]، وَهَذَا الْقَدْرُ يَقُولُهُ غَيْرُ

الرَّاسِخِ فِي الْعِلْمِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَجِبُ امْتِيَازُهُمْ عَنْ عَوَامِّ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ. وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: «أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ»[(١)]. وَلَقَدْ صَدَقَ ﷺ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا لَهُ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ[(٢)]. وَدُعَاؤُهُ ﷺ لَا يُرَدُّ. قَالَ مُجَاهِدٌ: «عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ، أَقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا»[(٣)]. وَقَدْ تَوَاتَرَتِ النُّقُولُ عَنْهُ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي جَمِيعِ مَعَانِي الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَقُلْ عَنْ آيَةٍ: إِنَّهَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ.

قال الشيخ:

مناسبة هذا الكلام أنَّ المبتدعة والمعتزلة ونحوهم يستعملون كلمة التَّأويل بمعنى صرف اللَّفظ عن ظاهره كما ذكرنا قريبًا؛ كقولهم في ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف:٥٤]: استولى عليه، فهذا صرفٌ له عن ظاهره، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، أي: في السَّماء علمه، أو في السَّماء ملائكته، وهذا صرف للَّفظ عن ظاهره، وقوله: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ١٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥، ١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧) بنحوه، وأخرجه أحمد (١/ ٢٦٦) كما أورده الشارح.

(٣) أخرجه الطبري (٢/ ٣٩٥)، والطبراني في الكبير (١١٠٩٧).

إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤]، أي: تصعد إلى ملائكته أو إلى علمه أو نحو ذلك. وهذا تأويل باطل ما أنزل الله عليه دلالةً، ولا أوضحه، ولا أمر به.

فهذا هو التَّأويل المذموم، الَّذي يذمُّه السَّلف، ويقولون: لا تتأوَّلوا، أو: لا تستمعوا إلى هذا التَّأويل الذي يراد به صرف اللَّفظ عن ظاهره.

وكلمة التَّأويل تأتي بمعنى التفسير، فقد كان ابن جرير - رحمه الله - يقول في تفسيره: «القول في تأويل قوله تعالى»، ومراده: في تفسير الآية، ويقول: «اختلف أهل التَّأويل في تأويل ذلك»، ويقول: «وبمثل الَّذي قلنا في ذلك قال أهل التَّأويل»، فالمراد أهل التفسير.

أمَّا في لغة القرآن، فقد وردت كلمة التَّأويل، وكذلك في لغة الصحابة والمراد بها حقيقة الشَّيء وماهية وما يؤول إليه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [الأعراف:٥٣]، فالمراد حقيقته، أي: هل ينتظرون إلَّا أن يأتي الأمر الَّذي يقع ما أُخبروا به، تأويله: أي وقوع ما فيه، فمثلًا تأويل قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ ﴾ [الأعراف:٤٤]، تأويله: وقوع المناداة، وكون هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النَّار، وهؤلاء ينادون هؤلاء، إذا وقع ذلك فهذا هو التَّأويل، فيقال مثلًا: هذا هو تأويل الآية التي أخبرنا بها، يعني: حقيقة ما وقع.

وكذلك مرجع الشَّيء يُسمَّى تأويلًا، ومنه قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٥]، يعني: أحسن حقيقةً وأحسن مظهرًا ومرجعًا.

ومنه أيضًا: تأويل الرُّؤيا، حكى الله عن يوسف ـ عليه السلام ـ قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:٤]، ثمَّ بعد أن جاء إخوته وأبواه ودخلوا عليه، ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف:٩٩، ١٠٠]، يعني: هذه حقيقتها وقع ما تؤوّل به، وفي الآية الأخرى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف:٣٦]، أي: بحقيقته وما يؤول إليه وما وقع. وفي أول السُّورة يقول الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦]، يعني: حقائقها، وكيف تؤول إليه يعني: ما ترجع إليه.

فالتَّأويل الَّذي في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]، المراد: ابتغاء معرفة وقوعه وكيفيته وتصوره، وذلك غيبٌ، ولا يعلمه إلَّا الله، فإذا وقع علموه ولا يقع إلَّا في يوم القيامة، فمثلًا: آيات الوزن في قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨]، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٦ـ٩]، قد يقولون: نريد تأويل هذا الميزان، وما مقداره، وسعة الكفَّة،

وكيف تميل، وكيف تخفُّ بهذا وتثقل بهذا؟ فنقول: تأويله لا يعلمه إلَّا الله، أي: لا نعلم حقيقة ذلك الوزن، ولا نعلم كيف تكون الأعمال أعراضًا حتى توزن، إنَّما يظهر إذا بدت، فإذا ظهرت الموازين ووزنت فيها الأعمال، فعند ذلك نقول: هذا تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾، وهذا تأويل قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وهذا تأويله يعني: هذا هو حقيقته.

إذا تطايرت الصُّحف إلى الأيمان والشَّمائل، فنقول: هذا تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾[الحاقة:١٩]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة:٢٥]، هذا تأويلها، يعني: وقع، وقبل ذلك لا ندري: ما هو الكتاب، ولا كيف يكون الكتاب الَّذي يحصي الأعمال كلَّها، كما في قوله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩]، وكما في قوله: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤]، كيف يكون ذلك الكتاب يقبض باليد؟ هذا ما لا يعلمه إلَّا الله، فإذا وقع وأُخذت الكتب بالأيمان والشَّمائل عند ذلك نقول: هذا تأويل تلك الآيات الَّتي أخبر الله فيها بأن ذلك سيقع، وأنَّ صورته وكيفيته كذا.

قال الشارح:

وَقَوْلُ الْأَصْحَابِ ـ رَحِمَهُمُ اللَّهُ ـ فِي الْأُصُولِ: إِنَّ الْمُتَشَابِهَ الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ، وَيُرْوَى هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ قَدْ تَكَلَّمَ فِي مَعْنَاهَا أَكْثَرُ النَّاسِ، فَإِنْ كَانَ مَعْنَاهَا مَعْرُوفًا، فَقَدْ عُرِفَ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا، وَهِيَ الْمُتَشَابِهُ، كَانَ مَا سِوَاهَا مَعْلُومَ الْمَعْنَى، وَهَذَا الْمَطْلُوبُ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]، وَهَذِهِ الْحُرُوفُ لَيْسَتْ آيَاتٍ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعَادِّينَ.

وَالتَّأْوِيلُ فِي كَلَامِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ: هُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنِ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إِلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ لِدَلَالَةٍ تُوجِبُ ذَلِكَ. وَهَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي يَتَنَازَعُ النَّاسُ فِيهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ الْخَبَرِيَّةِ وَالطَّلَبِيَّةِ. فَالتَّأْوِيلُ الصَّحِيحُ مِنْهُ: الَّذِي يُوَافِقُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَا خَالَفَ ذَلِكَ فَهُوَ التَّأْوِيلُ الْفَاسِدُ، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ. وَذُكِرَ فِي «التَّبْصِرَةِ» أَنَّ نُصَيْرَ بْنَ يَحْيَى الْبَلْخِيَّ رَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ حَمَّادِ بْنِ أَبِي يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ ـ رَحِمَهُمُ اللَّهُ ـ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْآيَاتِ وَالْأَخْبَارِ الَّتِي فِيهَا مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُؤَدِّي ظَاهِرُهُ إِلَى التَّشْبِيهِ؟ فَقَالَ: نُمِرُّهَا كَمَا جَاءَتْ، وَنُؤْمِنُ بِهَا، وَلَا نَقُولُ: كَيْفَ وَكَيْفَ.

وَيَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الْمَعْنَى الْفَاسِدَ الْكُفْرِيَّ لَيْسَ هُوَ ظَاهِرَ النَّصِّ وَلَا مُقْتَضَاهُ، وَأَنَّ مَنْ فَهِمَ ذَلِكَ مِنْهُ فَهُوَ لِقُصُورِ فَهْمِهِ وَنَقْصِ عِلْمِهِ، وَإِذَا كَانَ

قَدْ قِيلَ فِي قَوْلِ بَعْضِ النَّاسِ(١):

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا ... وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

وَقِيلَ(٢):

عَلَيَّ نَحْتُ الْقَوَافِي مِنْ أَمَاكِنِهَا ... وَمَا عَلَيَّ إِذَا لَمْ تَفْهَمِ الْبَقَرُ

فَكَيْفَ يُقَالُ فِي قَوْلِ اللَّهِ ـ الَّذِي هُوَ أَصْدَقُ الْكَلَامِ، وَأَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١] ـ: إِنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ إِنَّ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ هُوَ الْكُفْرُ وَالضَّلَالُ، وَإِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ بَيَانٌ لِمَا يَصْلُحُ مِنَ الِاعْتِقَادِ، وَلَا فِيهِ بَيَانُ التَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ؟! هَذَا حَقِيقَةُ قَوْلِ الْمُتَأَوِّلِينَ.

وَالْحَقُّ أَنَّ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا كَانَ بَاطِلًا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ. وَالْمُنَازِعُونَ يَدَّعُونَ دَلَالَتَهُ عَلَى الْبَاطِلِ الَّذِي يَتَعَيَّنُ صَرْفُهُ!

فَيُقَالُ لَهُمْ: هَذَا الْبَابُ الَّذِي فَتَحْتُمُوهُ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ تَنْتَصِرُونَ بِهِ عَلَى إِخْوَانِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَوَاضِعَ قَلِيلَةٍ حَقِيقَةً، فَقَدْ فَتَحْتُمْ عَلَيْكُمْ بَابًا لِأَنْوَاعِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُبْتَدِعِينَ، لَا تَقْدِرُونَ عَلَى سَدِّهِ، فَإِنَّكُمْ إِذَا سَوَّغْتُمْ صَرْفَ الْقُرْآنِ عَنْ دَلَالَتِهِ الْمَفْهُومَةِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ، فَمَا الضَّابِطُ فِيمَا يَسُوغُ تَأْوِيلُهُ وَمَا لَا يَسُوغُ؟ فَإِنْ قُلْتُمْ: مَا دَلَّ الْقَاطِعُ الْعَقْلِيُّ عَلَى اسْتِحَالَتِهِ تَأَوَّلْنَاهُ، وَإِلَّا أَقْرَرْنَاهُ!

---

(١) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه بشرح عبد الرحمن البرقوقي (٤/ ٢٤٦).

(٢) البيت للبحتري، انظر: معجم الأدباء (٥/ ٥٧٣).

قِيلَ لَكُمْ: وَبِأَيِّ عَقْلٍ نَزِنُ الْقَاطِعَ الْعَقْلِيَّ؟ فَإِنَّ الْقِرْمِطِيَّ الْبَاطِنِيَّ يَزْعُمُ قِيَامَ الْقَوَاطِعِ عَلَى بُطْلَانِ ظَوَاهِرِ الشَّرْعِ! وَيَزْعُمُ الْفَيْلَسُوفُ قِيَامَ الْقَوَاطِعِ عَلَى بُطْلَانِ حَشْرِ الْأَجْسَادِ! وَيَزْعُمُ الْمُعْتَزِلِيُّ قِيَامَ الْقَوَاطِعِ عَلَى امْتِنَاعِ رُؤْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَلَى امْتِنَاعِ قِيَامِ عِلْمٍ أَوْ كَلَامٍ أَوْ رَحْمَةٍ بِهِ تَعَالَى!! وَبَابُ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي يَدَّعِي أَصْحَابُهَا وُجُوبَهَا بِالْمَعْقُولَاتِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تَنْحَصِرَ فِي هَذَا الْمَقَامِ.

وَيَلْزَمُ حِينَئِذٍ مَحْذُورَانِ عَظِيمَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ لَا نُقِرَّ بِشَيْءٍ مِنْ مَعَانِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ حَتَّى نَبْحَثَ قَبْلَ ذَلِكَ بُحُوثًا طَوِيلَةً عَرِيضَةً فِي إِمْكَانِ ذَلِكَ بِالْعَقْلِ! وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُخْتَلِفِينَ فِي الْكِتَابِ يَدَّعُونَ أَنَّ الْعَقْلَ يَدُلُّ عَلَى مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ، فَيَؤُولُ الْأَمْرُ إِلَى الْحَيْرَةِ.

الْمَحْذُورُ الثَّانِي: أَنَّ الْقُلُوبَ تَتَخَلَّى عَنِ الْجَزْمِ بِشَيْءٍ تَعْتَقِدُهُ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ؛ إِذْ لَا يُوثَقُ بِأَنَّ الظَّاهِرَ هُوَ الْمُرَادُ، وَالتَّأْوِيلَاتُ مُضْطَرِبَةٌ، فَيَلْزَمُ عَزْلُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَنِ الدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ إِلَى مَا أَنْبَأَ اللَّهُ بِهِ الْعِبَادَ، وَخَاصَّةُ النَّبِيِّ هِيَ الْإِنْبَاءُ، وَالْقُرْآنُ هُوَ النَّبَأُ الْعَظِيمُ؛ وَلِهَذَا نَجِدُ أَهْلَ التَّأْوِيلِ إِنَّمَا يَذْكُرُونَ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِلِاعْتِضَادِ لَا لِلِاعْتِمَادِ، إِنْ وَافَقَتْ مَا ادَّعَوْا أَنَّ الْعَقْلَ دَلَّ عَلَيْهِ قَبِلُوهُ، وَإِنْ خَالَفَتْهُ أَوَّلُوهُ! وَهَذَا فَتْحُ بَابِ الزَّنْدَقَةِ، نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ.

قال الشيخ:

تقدم أنَّ الله ذكر في القرآن آيات محكمات هنَّ أم الكتاب، وأخر متشابهات، والمعلوم أنَّ المفسِّرين قد تكلَّموا على آيات القرآن كلها، ولم يسكتوا

عن آية أو آيات، ويقولوا: هذه من المتشابه، إلَّا أنَّ بعضهم لا يتكلَّمون على الحروف المقطَّعة الَّتي في أوائل السُّور، وكثير منهم تكلَّموا عليها، وقالوا: يُراد بها كذا وكذا، وإن اختلفت الآراء فيها.

وما دام أن القرآن قد فُسِّر كلُّه، فهذه الآيات المتشابهات يظهر أنَّها الكيفيَّة للأمور الغيبيَّة، يعني الأشياء الَّتي يخبر فيها عن أمور غيبيَّة، ولكنَّنا لا نعلم كيفيَّتها، فإذا أخبر الله أنَّ في الجنَّة أنهار تجري، فإنَّا لا ندري ما كيفيَّة هذه الأنهار، نعلم أن فيها أنهارًا من ماء غير آسٍ، وأنهارًا من لبن لم يتغيَّر طعمه .. إلى آخره، هذا من علم الغيب الَّذي نقول: الله أعلم بكيفيَّته، وهكذا أيضًا الأشجار الَّتي في الجنَّة، وكذلك الأشجار الَّتي في النار، ذكر الله أنَّ في النَّار شجرة الزَّقُّوم؛ فلا ندري ما كيفيَّة تلك الشَّجرة، وكيف لا تحترق في النَّار؟ فنقول في ذلك كله: الله أعلم بماهيته وكيفيته، فهو من المتشابه، وهو من الكيفيَّات الغيبيَّة الَّتي يتوقَّف عنها ويقال: الله أعلم بكيفيَّتها.

ويُقال ذلك - أيضًا - في كيفيَّات صفات الله: أنَّا نفوِّضها، ولا ندري ما كيفيَّتها، إلَّا أنا نتحقَّق معانيها، ونتحقَّق أنَّ الله متكلِّمٌ بكلام يُسمعُ، ونتحقَّق أنَّ الله يعلم الخفيَّ والجليَّ، ويسمع القريب والبعيد، وهكذا، ولكن **كيفيَّة تلك الصِّفات نفوِّضها ونقول: الله أعلم بالكيفيَّة. وهذا أقرب الأقوال، في الآيات المتشابهات أنَّها كيفيَّات الأمور الغيبيَّة.**

أمَّا التَّأويل الَّذي ذكروه، وهو صرف اللَّفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح بدليل يقترن به أو لقرينة تؤيِّد المرجوح وترجِّحه، فهذا

ذكرنا أنَّه اصطلاح للمتأخِّرين، وهو اصطلاحٌ جديد لم يكن عند السَّلف، ولا يعرفون هذا، وهو في الحقيقة تحريف وتكلُّف، وصرف للَّفظ عن ظاهره، وفي الحقيقة أنَّا إذا جمعنا الأدلَّة عرفنا أنَّه يصعب صرفها لاسيَّما وقد اجتمعت الدَّلالة من كلِّ من مفرداتها.

بعد ذلك قد يقولون: إنَّ ظاهر هذه النُّصوص يوهم التَّشبيه، ويوهم أنَّ الله مثل خلقه، وأنَّا إذا أثبتنا الرُّؤية وأثبتنا الكلام وما أشبه ذلك، أثبتنا أنَّه مثل الخلق، والله ليس كمثله شيء، ولم يكن له كفوًا أحد.

فيقولون: إنَّ هذه الأدلَّة يُفهم منها التَّشبيه. هكذا قالوا، ونحن نقول: لا يُفهم ذلك، حاشا وكلَّا أن تكون نصوص صفات الله دالَّة على شيء باطل، أو تكون نصوص الحديث دالَّة على ما هو كفر، بل كلام الله أفصح الكلام، وكلام نبيِّه ﷺ أوضحه، وهو ﷺ أنصح الخلق لأمَّته، وإذا اجتمعت هذه الأمور: فصاحته ونصحه والبيان الَّذي أُعطيه، واجتمع إلى ذلك أنَّ كلام الله واضح الدَّلالة، فلا يجوز أن يقال: إنَّ ظاهره غير مراد، أو إنَّ ظاهره يقتضي كفرًا، أو نحو ذلك.

كثيرًا ما يقول المتكلِّمون: ظاهر النُّصوص غيرُ مرادٍ. نقول: ما مرادكم بظاهرها؟ هل تريدون مثلًا أنَّ ظاهرها ما يليق بالمخلوق، أنَّا إذا قلنا ـ مثلًا ـ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، أنَّ الله له عينان كعينيِّ المخلوق، أو له يدان كأيدي المخلوق، فهذا ليس بمراد، ولكن أخطأتم في قولكم: إنه ظاهره،

فلا يمكن أن يفهم من نصوص الصِّفات ما هو ضلال، بل معروف أنَّ صفات الله تعالى تليق به، وإذا كنتم تقولون: إنَّ لله ذاتًا لا تشبه غيره، فكذلك له صفات لا تشبه غيره، فإنَّ القول في الصِّفات كالقول في الذَّات يحتذي حذوه ومثاله.

وإذا كان الكلام واضحًا وفصيحًا، فلا عبرة بمن خفي عليه وبمن لم يظهر له، وهذا الشاعر البحتري يقول:

عَلَيَّ نَحْتُ الْقَوَافِي مِنْ أَمَاكِنِهَا وَمَا عَلَيَّ إِذَا لَمْ تَفْهَمِ الْبَقَرُ

يقول هذا الشاعر: أنا عليَّ أن آتي بالكلام الفصيح، وأختار الكلام البليغ، ولكن إذا لم يفهموا، فلست بملوم.

فيُقال: كذلك كلام الله واضح، وإذا لم تفهموا كان النَّقص في أذهانكم أنتم، ليس النَّقص في كلام الله، فكلام الله واضح وكلام رسوله ﷺ واضح وفصيح، ولكن ما أتيتم إلَّا من سوء أفهامكم ومن سوء تفكيركم، وإلَّا فلو أعطيتم الكلام حقَّه لقلتم بأنَّه لا يدلُّ على محذور.

وعلى كلِّ حال، معلوم أنَّهم ما خاضوا في ذلك إلَّا لـمَّا ارتسم في أذهانهم وأفكارهم أنَّ صفات الله كصفات المخلوق، وأنَّ النُّصوص دالَّة على ما هو تشبيه، فعند ذلك أكثروا من البحث والتنقيب حتى وقعوا فيما وقعوا فيه مما هو تحريف.

قال الشارح:

قَوْلُهُ: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ)، النَّفْيُ وَالتَّشْبِيهُ مَرَضَانِ مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ، فَإِنَّ أَمْرَاضَ الْقُلُوبِ نَوْعَانِ: مَرَضُ شُبْهَةٍ، وَمَرَضُ شَهْوَةٍ، وَكِلَاهُمَا مَذْكُورٌ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]، فَهَذَا مَرَضُ الشَّهْوَةِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٥]. فَهَذَا مَرَضُ الشُّبْهَةِ، وَهُوَ أَرْدَأُ مِنْ مَرَضِ الشَّهْوَةِ؛ إِذْ مَرَضُ الشَّهْوَةِ يُرْجَى لَهُ الشِّفَاءُ بِقَضَاءِ الشَّهْوَةِ، وَمَرَضُ الشُّبْهَةِ لَا شِفَاءَ لَهُ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ.

وَالشُّبْهَةُ الَّتِي فِي مَسْأَلَةِ الصِّفَاتِ نَفْيُهَا وَتَشْبِيهُهَا، وَشُبْهَةُ النَّفْيِ أَرْدَأُ مِنْ شُبْهَةِ التَّشْبِيهِ، فَإِنَّ شُبْهَةَ النَّفْيِ رَدٌّ وَتَكْذِيبٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَشُبْهَةَ التَّشْبِيهِ غُلُوٌّ وَمُجَاوَزَةٌ لِلْحَدِّ فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَتَشْبِيهُ اللهِ بِخَلْقِهِ كُفْرٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وَنَفْيُ الصِّفَاتِ كُفْرٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وَهَذَا أَحَدُ نَوْعَيِ التَّشْبِيهِ، فَإِنَّ التَّشْبِيهَ نَوْعَانِ: تَشْبِيهُ الْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ، وَهَذَا الَّذِي يَتْعَبُ أَهْلُ الْكَلَامِ فِي رَدِّهِ وَإِبْطَالِهِ، وَأَهْلُهُ فِي النَّاسِ أَقَلُّ مِنَ النَّوْعِ الثَّانِي، الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ تَشْبِيهِ الْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ، كَعُبَّادِ الْمَشَايِخِ، وَعُزَيْرٍ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالْأَصْنَامِ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَالنَّارِ، وَالْمَاءِ، وَالْعِجْلِ، وَالْقُبُورِ، وَالْجِنِّ، وَغَيْرِ

ذَلِكَ. وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ أُرْسِلَتْ لَهُمُ الرُّسُلُ يَدْعُونَهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

قال الشيخ:

قول الماتن: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ)، يريد بالنَّفي: إنكار الصفات، أو المبالغة في نفيها، ويريد بالتشبيه إثبات أنَّ صفات الله كصفاتنا، فيكون بذلك مشبهًا، ومذهب الأئمَّة وأهل السُّنَّة وسط بين المذهبين؛ فإنهم يقولون: إنَّ من شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومن نفى ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس في إثبات صفات الله تشبيه. ويقول بعضهم: المشبِّه يعبد صنمًا، والمعطِّل يعبد عدمًا، والموحِّد - يعني المثبت - يعبد إلهًا واحدًا فردًا صمدًا. وأخذ ذلك ابن القيِّم في «نونيَّته» بقوله[1]:

لَسْنَا نُشَبِّهُ رَبَّنَا بِصِفَاتِنَا ... إِنَّ الْمُشَبِّهَ عَابِدُ الْأَوْثَانِ
كَلَّا وَلَا نُخْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ ... إِنَّ الْمُعَطِّلَ عَابِدُ الْبُهْتَانِ

فالَّذين شبَّهوا يقال فيهم: قد غلوا في الإثبات، فقالوا: لله يد كأيدينا، ولله وجه كوجوهنا، وما أشبه ذلك؛ فوقعوا في تشبيه الخالق بخلقه - تعالى الله - وهذا فيه أنَّهم عبدوا الأوثان والأصنام.

أمَّا الَّذين نفوا الصفات، فهم في الحقيقة لم يُثبتوا خالقًا، ومن قال: الله

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٢١٢).

تعالى لا يعلم ولا يتكلم، ولا يسمع، ولا يرى، وليس له يد، وليس له وجه، آل الأمر إلى أن صاروا يعبدون عدمًا، ولا يثبتون خالقًا.

ثمَّ قد عرفنا أنَّهم لَمَّا جاءتهم هذه النُّصوص، صارت مخالفة لِما في أفكارهم، فسلَّطوا عليها التَّأويلات، وفتحوا باب التَّأويل للفلاسفة الذين أنكروا حقيقة المعاد، وفتحوا باب التَّأويل للَّذين أنكروا الأحكام والأوامر والنَّواهي؛ كغلاة الصُّوفيَّة والباطنيَّة ونحوهم، فأصبحوا في الحقيقة هم الَّذين جلبوا الشَّرَّ، وفتحوا بابه على الإسلام والمسلمين.

فالَّذي يريد السلامة هو الَّذي يتوقَّي هذه الأمراض: مرض التَّشبيه، ومرض التَّعطيل، ومرض النَّفي، ومرض الإثبات الزَّائد، الَّذي هو غلوٌّ في الإثبات، جعلهم الشارح كالمرضى. والمعروف أنَّ المرض هو الَّذي يُنهك الجسم، حتَّى يلزم صاحبه الفراش، ولكن هذا مرض الأبدان؛ لأنَّ المرض نوعان: مرض قلب، ومرض بدن، فمرض البدن له أدوية عند الأطبَّاء، وفي الحديث: «ما أَنْزَلَ الله دَاءً إلا أَنْزَلَ له شِفَاءً»[1]، ولكن المرض الشَّديد هو مرض القلب.

ومرض القلب أيضًا نوعان: مرض الشُّبهة ومرض الشَّهوة، مرض الشَّهوة هو الشَّهوة إلى الزِّنى أو إلى المعاصي ونحوها؛ فإنَّ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]، نهى الله المرأة

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

أن ترقّق كلامها، فإنَّه إذا سمعها الفاسقُ طمع في الاتصال بها، فهذا مرض شهوة الزنى ونحوه.

أمَّا مرض الشُّبه فهو أشد؛ لأن مرض الشَّهوة قد يزول بالعفَّة أو بالِّنكاح الحلال، أما مرض الشُّبهة فإنَّه الَّذي يتمكَّن في القلب. فهذان المرضان من أشدِّ الأمراض.

ومن أمراض الشُّبهة مرض التَّشبيه ومرض التَّعطيل، وذكر أنَّ مرض التَّعطيل أشدُّ؛ وذلك لأنَّ المشبِّه غالٍ في الإثبات، غلا به الإثبات إلى أن وقع في أنَّ الله كخلقه ـ تعالى الله عن ذلك ـ ولكنَّ الَّذي يقول ذلك فئة قليلة بالنِّسبة إلى المعطلة.

وبكلِّ حال نحن نبرأ إلى الله، ونحذر من كلا المرضين، فمرض التعطيل أشدُّ؛ لأنَّ أهله أكثر، ولأنَّ الدِّعايات إليه أكثر، وقد تكرر كثيرًا في كلام العلماء النَّهي عن التعطِّيل وعن التَّشبيه، فيقولون في آيات الصِّفات وأحاديثها: أمروها كما جاءت بلا كيف، ويقولون: نقبلها من غير تحريف ولا تأويل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل، ومن غير تكييف ولا تعطيل، فينفون عنها هذه الأشياء، وكذلك ينفون عنها الإلحاد الَّذي هو الميل بها عمَّا قُصِد بها، فإنَّ الله تعالى ذمَّهم، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، يعني: بالأسماء الحسنى، ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، أي: اتركوهم وابتعدوا عنهم، والإلحاد في أسمائه إنكار حقائقها، أو إنكار دلالاتها، وقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾ [فصلت: ٤٠]، فعلينا أن نتجنب هذه الأشياء، ومن أهمّها: الإلحاد في أسماء الله، والإلحاد في آياته، فإذا قرأنا القرآن وسمعنا الأحاديث؛ وقلنا: نمرُّها كما جاءت، وننزِّه ربَّنا عمّا لا يليق به، سلمنا من هذه الأمراض كلها إن شاء الله.

قال الطحاوي:

فَإِنَّ رَبَّنَا - جَلَّ وَعَلَا - مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ، مَنْعُوتٌ بِنُعُوتِ الْفَرْدَانِيَّةِ، لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ.

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - إِلَى تَنْزِيهِ الرَّبِّ تَعَالَى بِالَّذِي هُوَ وَصْفُهُ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا. وَكَلَامُ الشَّيْخِ مَأْخُوذٌ مِنْ مَعْنَى سُورَةِ الْإِخْلَاصِ، فَقَوْلُهُ: (مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ)، مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، وَقَوْلُهُ: (مَنْعُوتٌ بِنُعُوتِ الْفَرْدَانِيَّةِ)، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾، وَقَوْلُهُ: (لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ)، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾، وَهُوَ أَيْضًا مُؤَكِّدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ وَنَفْيِ التَّشْبِيهِ، وَالْوَصْفُ وَالنَّعْتُ مُتَرَادِفَانِ، وَقِيلَ: مُتَقَارِبَانِ. فَالْوَصْفُ لِلذَّاتِ، وَالنَّعْتُ لِلْفِعْلِ، وَكَذَلِكَ الْوَحْدَانِيَّةُ وَالْفَرْدَانِيَّةُ. وَقِيلَ فِي الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا: إِنَّ الْوَحْدَانِيَّةَ لِلذَّاتِ، وَالْفَرْدَانِيَّةَ لِلصِّفَاتِ، فَهُوَ تَعَالَى مُتَوَحِّدٌ فِي ذَاتِهِ، مُتَفَرِّدٌ بِصِفَاتِهِ. وَهَذَا الْمَعْنَى حَقٌّ وَلَمْ يُنَازِعْ فِيهِ أَحَدٌ، وَلَكِنْ فِي اللَّفْظِ نَوْعُ تَكْرِيرٍ.

وَلِلشَّيْخِ - رحمه الله - نَظِيرُ هَذَا التَّكْرِيرِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْعَقِيدَةِ، وَهُوَ بِالْخُطَبِ وَالْأَدْعِيَةِ أَشْبَهُ مِنْهُ بِالْعَقَائِدِ، وَالتَّسْجِيعُ بِالْخُطَبِ أَلْيَقُ.

وَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، أَكْمَلُ فِي التَّنْزِيهِ مِنْ قَوْلِهِ: (لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ).

قال الشيخ:

قصد الطَّحاوي ـ رحمه الله ـ بذلك الزِّيادة في التَّوضيح والإثبات، فإنَّ قوله: (فَإِنَّ رَبَّنَا ـ جَلَّ وَعَلَا ـ مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ، مَنْعُوتٌ بِنُعُوتِ الْفَرْدَانِيَّةِ، لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ)، يؤكِّد بذلك ما تقدم من إثبات الصِّفات ونفي التَّشبيه.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الواحد الأحد، موصوف بأنَّه هو الواحد، قد ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة:١٦٣]، وفي قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة:٧٣]، فالوحدانية لا شكَّ أنَّها خاصَّة به، فهو الواحد في صفاته، والواحد في ذاته، ومعناه أنَّه لا يصلح أن يكون معه خالق غيره، ولا معبود سواه، كذلك هذا دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فإنَّ الأحد يراد به المتوحِّد في جميع الخصائص، وكذلك قوله: (مَنْعُوتٌ بِنُعُوتِ الْفَرْدَانِيَّةِ)، دلَّ عليه كونه لم يلد ولم يولد، فإنَّ الله تعالى نزَّه نفسه عن الولد في عدَّة آيات، ردًّا على من جعل له ولدًا؛ كالنصارى الَّذين قالوا: المسيح ابن الله، واليهود في قولهم: عزير ابن الله، وكفَّار العرب في جعلهم الملائكة بنات الله، ردَّ الله عليهم ذلك وأنكر عليهم في قوله تعالى:

﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾ [الصافات:١٥٣]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

فالواجب على المسلم أن ينزِّه ربَّه عن صفات المحدثات، وعن صفات الخلق الَّتي تختصُّ بهم، وأن يثبت لله سبحانه صفات الكمال التي يُعرف منها أنَّه هو الواحد الأحد، المنزَّه عن النَّقص وعن العيب، وأنَّ صفاته تختصُّ بذاته، وأنَّه منزَّه عمَّا لا يليق به، فإذا عرف ذلك عرف أنَّه يتمِّم بذلك توحيده إن شاء الله، وإن صلحت عقيدته فيكون صلاحها بهذين الأمرين: إثبات الصِّفات على ما يليق بالله، وتنزيهه - جل وعلا - عن مشابهة المخلوقين، سواء في الذَّات، أو في الصفات، أو في الأفعال، ففي ذلك يردُّ على الطوائف المنحرفة الَّذين غلوا في الإثبات والَّذين زادوا في النَّفي.

فمن لم يتوقَّ النَّفي والتَّشبيه زلَّ ولم يصل للتَّنزيه، وهو سبحانه موصوف بصفات الكمال منزُّه عن صفات النَّقص، وليس بمعنى واحد من البريَّة، أي: لا يشبه أحدًا من مخلوقاته، وهذه خلاصة العقيدة، من أقرَّ بها عصمه الله تعالى من الأخطاء.

قال الطحاوي:

وَتعَالَى عَنِ الحُدُودِ وَالْغَايَاتِ، وَالْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ، لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ.

قال الشارح:

أَذْكُرُ بَيْنَ يَدَيِ الْكَلَامِ عَلَى عِبَارَةِ الشَّيْخِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مُقَدِّمَةً، وَهِيَ: أَنَّ النَّاسَ فِي إِطْلَاقِ مِثْلِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

فَطَائِفَةٌ تَنْفِيهَا، وَطَائِفَةٌ تُثْبِتُهَا، وَطَائِفَةٌ تُفَصِّلُ، وَهُمُ الْمُتَّبِعُونَ لِلسَّلَفِ، فَلَا يُطْلِقُونَ نَفْيَهَا وَلَا إِثْبَاتَهَا إِلَّا إِذَا بُيِّنَ مَا أُثْبِتَ بِهَا فَهُوَ ثَابِتٌ، وَمَا نُفِيَ بِهَا فَهُوَ مَنْفِيٌّ؛ لِأَنَّ الْمُتَأَخِّرِينَ قَدْ صَارَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ فِي اصْطِلَاحِهِمْ فِيهَا إِجْمَالٌ وَإِبْهَامٌ، كَغَيْرِهَا مِنَ الْأَلْفَاظِ الِاصْطِلَاحِيَّةِ، فَلَيْسَ كُلُّهُمْ يَسْتَعْمِلُهَا فِي نَفْسِ مَعْنَاهَا اللُّغَوِيِّ. وَلِهَذَا كَانَ النُّفَاةُ يَنْفُونَ بِهَا حَقًّا وَبَاطِلًا، وَيَذْكُرُونَ عَنْ مُثْبِتِيهَا مَا لَا يَقُولُونَ بِهِ، وَبَعْضُ الْمُثْبِتِينَ لَهَا يُدْخِلُ فِيهَا مَعْنًى بَاطِلًا، مُخَالِفًا لِقَوْلِ السَّلَفِ، وَلِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالْمِيزَانُ، وَلَمْ يَرِدْ نَصٌّ مِنَ الْكِتَابِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ بِنَفْيِهَا وَلَا إِثْبَاتِهَا، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَصِفَ اللَّهَ تَعَالَى بِمَا لَمْ يَصِفْ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ نَفْيًا وَلَا إِثْبَاتًا، وَإِنَّمَا نَحْنُ مُتَّبِعُونَ لَا مُبْتَدِعُونَ.

فَالْوَاجِبُ أَنْ يُنْظَرَ فِي هَذَا الْبَابِ - أَعْنِي بَابَ الصِّفَاتِ - فَمَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَثْبَتْنَاهُ، وَمَا نَفَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ نَفَيْنَاهُ، وَالْأَلْفَاظُ الَّتِي وَرَدَ بِهَا النَّصُّ يُعْتَصَمُ بِهَا فِي الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ، فَنُثْبِتُ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي.

وَأَمَّا الْأَلْفَاظُ الَّتِي لَمْ يَرِدْ نَفْيُهَا وَلَا إِثْبَاتُهَا فَلَا تُطْلَقُ حَتَّى يُنْظَرَ فِي مَقْصُودِ قَائِلِهَا، فَإِنْ كَانَ مَعْنًى صَحِيحًا قُبِلَ، لَكِنْ يَنْبَغِي التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِأَلْفَاظِ النُّصُوصِ، دُونَ الْأَلْفَاظِ الْمُجْمَلَةِ، إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ، مَعَ قَرَائِنَ تُبَيِّنُ الْمُرَادَ وَالْحَاجَةَ، مِثْلُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ مَعَ مَنْ لَا يَتِمُّ الْمَقْصُودُ مَعَهُ إِنْ لَمْ يُخَاطَبْ بِهَا، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَالشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَرَادَ الرَّدَّ بِهَذَا الْكَلَامِ عَلَى الْمُشَبِّهَةِ، كَدَاوُدَ الْجَوَارِبِيِّ وَأَمْثَالِهِ، الْقَائِلِينَ: إِنَّ اللَّهَ جِسْمٌ، وَإِنَّهُ جُثَّةٌ وَأَعْضَاءٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

فَالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مِنَ النَّفْيِ الَّذِي ذَكَرَهُ هُنَا حَقٌّ، لَكِنْ حَدَثَ بَعْدَهُ مَنْ أَدْخَلَ فِي عُمُومِ نَفْيِهِ حَقًّا وَبَاطِلًا، فَيَحْتَاجُ إِلَى بَيَانِ ذَلِكَ، وَهُوَ: أَنَّ السَّلَفَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْبَشَرَ لَا يَعْلَمُونَ لِلَّهِ حَدًّا، وَأَنَّهُمْ لَا يَحُدُّونَ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِهِ.

قال الشيخ:

الطَّريقة في هذا ما سبق في باب الأسماء والصِّفات المرجع إلى النَّقل لا إلى العقل، والنَّقل هو الكتاب وصحيح السُّنَّة النبوية؛ لأنهما نقلا لنا بطريق ثابتة، ليس فيها تشكيك، وليس في ثبوتها توقُّف، فنقتصر على النَّقل؛ وذلك لأنَّ العقول لا تستطيع أن تتدخَّل في هذا الأمر، ولا أن تعرف حقائقه، ولا أن تفكر تفكيرًا تتدخَّل فيه.

فإذا قال المتكلِّمون: إنَّ هذا الوصف لا يقرُّه العقل أو لا يثبته. فالجواب:

أن نقول: ما للعقول ولأمر الغيب؟! هذا من أمر الغيب، والعقول محجوزة عن هذا الأمر.

نقول بعد ذلك: إنَّ الطحاوي - الَّذي هو صاحب المتن - عاش في أواخر عهد السَّلف، وفي عهده وجد كثيرٌ من المبتدعة تمكنوا، فكان هناك المشبِّهة الذين بالغوا في الإثبات حتَّى شبَّهوا الخالق بالمخلوقين، ومنهم داود الجواربي، وطائفة أخرى من المبتدعة، هم المعطِّلة، ومنهم أكابر المعتزلة؛ كأبي الهذيل العلاَّف، وأبي علَّي الجبَّائيِّ، وكذلك الجاحظ، وسائر المعتزلة، بالغوا في النَّفي، فعطَّلوا الله تعالى عن صفات الكمال، واشتهرت أقوال هؤلاء وأقوال هؤلاء، إلَّا أنَّ المعطِّلة أكثر من المشبِّهة؛ لأنَّ النُّفوس تنفر من إثبات التَّشبيه.

فلمَّا كان كذلك، ألف الطَّحاوي هذه الرِّسالة، وقصد بذلك الرَّدَّ على هؤلاء وهؤلاء، فأثبت فيها الصِّفات كما تليق بالله تعالى، وردَّ فيها على المشبِّهة الَّذين بالغوا في الإثبات، وتكلَّم بهذه الكلمات، وإن كان الأفضل تركها، يعني: الحدود، والغايات، والأركان، والأعضاء، والأدوات، والجهات السِّت الأولى تركها؛ لأنَّ المتكلِّمين الَّذين هم النُّفاة، صاروا ينفون بها حقًّا وباطلًا، فلمَّا أدخلوا في نفيها حقًّا كان الأولى أن ينقل الباطل بعبارة سليمة ليس فيها شيء من الشُّبهة.

كذلك ذكر أنَّ للنَّاس في استعمالها ثلاثة أقوال:

١ - قول لا يجيز إثباتها.

٢ - وقول لا يجيز نفيها.

٣ ـ وقول بالتَّفصيل في المسألة.

ويمكن أن يكون هناك قول رابع، وهو التَّوقف فيها من غير نفي ولا إثبات.

فيُقال: هذه من الأمور المبتدعة، فنحن لا نثبتها إطلاقًا ولا ننفيها، ولكنَّ التَّفصيل أولى، وهو أن يُقال: ماذا تريدون بالحدود؟ وماذا تريدون بالأعضاء والأدوات؟ وماذا تريدونَ بالجهات؟ في كلامكم هذا حقٌّ وباطل، الحقُّ الَّذي أنتم تنفونه عبِّروا عنه بعبارة سليمة، والباطل الَّذي أنتم تنفونه أيضًا عبروا عنه بعبارة سليمة، حتَّى نوافقكم على نفي الباطل، ونخالفكم في نفي الحقِّ، ونتحقَّق أنَّ الصَّواب مع من أثبت، لا مع من نفى أو نحو ذلك.

نقول: إن الذين أطلقوا كلمة الحدّ على الله ـ عز وجل ـ لهم عذرٌ في ذلك، لكن الأولى عدم إطلاقها؛ لأنَّ الحدَّ له تفسيرات كما سيأتي، وكذلك الغايات والأركان والأعضاء والأدوات، فالأولى التَّوقُّف عن ذلك، ونقتصر على ما أثبته الله، فنقول: إنَّ الله تعالى بذاته فوق سمٰواته على عرشه عليٌّ على خلقه، وأنَّه سبحانه قريب من عباده يطَّلع عليهم، ولا تخفى عليه منهم خافية، وأنَّه موصوفٌ بصفات الكمال منزَّه عن النَّقائص والعيوب.

فإذا أثبتنا ذلك، لا يحتجّ علينا أهل البدع بحجَّة، ولن يجدوا علينا قولًا يصفوننا فيه بأننا ممثِّلة أو نحو ذلك.

قال الشارح:

قَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ: «كَانَ سُفْيَانُ، وَشُعْبَةُ، وَحَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، وَحَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، وَشَرِيكٌ، وَأَبُو عَوَانَةَ، لَا يَحُدُّونَ وَلَا يُشَبِّهُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ، يَرْوُونَ الحَدِيثَ وَلَا يَقُولُونَ: كَيْفَ؟ وَإِذَا سُئِلُوا قَالُوا بِالأَثَرِ»[١]. وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّيْخِ: (وَقَدْ أَعْجَزَ خَلْقَهُ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِهِ). فَعُلِمَ أَنَّ مُرَادَهُ أَنَّ اللَّهَ يَتَعَالَى عَنْ أَنْ يُحِيطَ أَحَدٌ بِحَدِّهِ؛ لِأَنَّ المَعْنَى أَنَّهُ مُتَمَيِّزٌ عَنْ خَلْقِهِ مُنْفَصِلٌ عَنْهُمْ مُبَايِنٌ لَهُمْ.

سُئِلَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ المُبَارَكِ: بِمَ نَعْرِفُ رَبَّنَا؟ قَالَ: «بِأَنَّهُ عَلَى الْعَرْشِ، بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، قِيلَ: بِحَدٍّ؟ قَالَ: بِحَدٍّ»[٢]. انْتَهَى.

وَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّ الحَدَّ يُقَالُ عَلَى مَا يَنْفَصِلُ بِهِ الشَّيْءُ وَيَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى غَيْرُ حَالٍّ فِي خَلْقِهِ، وَلَا قَائِمٍ بِهِمْ، بَلْ هُوَ الْقَيُّومُ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ، الْمُقِيمُ لِمَا سِوَاهُ. فَالحَدُّ بِهَذَا المَعْنَى لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مُنَازَعَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ أَصْلًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ نَفْيِهِ إِلَّا نَفْيُ وُجُودِ الرَّبِّ وَنَفْيُ حَقِيقَتِهِ.

وَأَمَّا الحَدُّ بِمَعْنَى الْعِلْمِ وَالْقَوْلِ، وَهُوَ أَنْ يَحُدَّهُ الْعِبَادُ، فَهَذَا مُنْتَفٍ بِلَا مُنَازَعَةٍ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ. قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ فِي رِسَالَتِهِ: سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ، سَمِعْتُ أَبَا مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، سَمِعْتُ أَبَا الحَسَنِ الْعَنْبَرِيَّ، سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيَّ يَقُولُ، وَقَدْ سُئِلَ عَنْ ذَاتِ اللَّهِ

---

(١) أخرجه البيهقي (٣/ ٢)، وذكره ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤٠٧).

(٢) أخرجه الدارمي في نقض الإمام أبي سعيد (١/ ٢٢٤).

فَقَالَ: ذَاتُ اللهَّ مَوْصُوفَةٌ بِالْعِلْمِ، غَيْرُ مُدْرَكَةٍ بِالْإِحَاطَةِ، وَلَا مَرْئِيَّةٍ بِالْأَبْصَارِ فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، مِنْ غَيْرِ حَدٍّ وَلَا إِحَاطَةٍ وَلَا حُلُولٍ، وَتَرَاهُ الْعُيُونُ فِي الْعُقْبَى، ظَاهِرًا فِي مُلْكِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَقَدْ حَجَبَ الْخَلْقَ عَنْ مَعْرِفَةِ كُنْهِ ذَاتِهِ، وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ بِآيَاتِهِ، فَالْقُلُوبُ تَعْرِفُهُ، وَالْعُيُونُ لَا تُدْرِكُهُ، يَنْظُرُ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُ بِالْأَبْصَارِ، مِنْ غَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا إِدْرَاكِ نِهَايَةٍ.

قال الشيخ:

عرفنا أنَّ الأولى ترك الخوض في ذكر الحدِّ، ولكنَّ السَّلف ـ رحمهم الله ـ قصدوا بالإثبات بيان أنَّ الرَّبَّ تعالى متميِّز عن خلقه، فإنَّه فوق سمٰواته على عرشه عليٌّ على خلقه.

وهذا معنى قولهم: بائن من خلقه، وقولهم: إنَّه ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، يردُّون بذلك على الحلوليَّة الَّذين تقدَّم قولهم في أوَّل الكتاب، فيقصدون بذلك البيان الواضح بأنَّ الرَّبَّ سبحانه وتعالى بذاته فوق سمٰواته على عرشه وأنَّه بائن من خلقه.

ومعنى قولهم: بحدٍّ، أي: بينه وبين الخلق حدٌّ، وهو معنى البينونة، ويتوقَّفون عند هذا.

قال الشارح:

وَأَمَّا لَفْظُ الْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدْوَاتِ، فَيَتَسَلَّطُ بِهَا النُّفَاةُ عَلَى نَفْيِ بَعْضِ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةِ بِالْأَدِلَّةِ الْقَطْعِيَّةِ، كَالْيَدِ وَالْوَجْهِ.

قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي «الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ»: «لَهُ يَدٌ وَوَجْهٌ وَنَفْسٌ، كَمَا ذَكَرَ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِ الْيَدِ وَالْوَجْهِ وَالنَّفْسِ، فَهُوَ لَهُ صِفَةٌ بِلَا كَيْفٍ، وَلَا يُقَالُ: إِنَّ يَدَهُ قُدْرَتُهُ وَنِعْمَتُهُ؛ لِأَنَّ فِيهِ إِبْطَالَ الصِّفَةِ»(١). انْتَهَى.

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْإِمَامُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ثَابِتٌ بِالْأَدِلَّةِ الْقَاطِعَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص:٧٥]، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[الزمر:٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾[المائدة:١١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:٤١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:٢٨].

وَقَالَ ﷺ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ «لَمَّا يَأْتِي النَّاسُ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ: خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ»(٢)، الحَدِيثَ.

---

(١) انظر: الفقه الأكبر بشرح د. محمد خميس (ص٤٧).

(٢) قطعة من حديث أنس بن مالك ﷺ، أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

وَلَا يَصِحُّ تَأْوِيلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْيَدِ الْقُدْرَةُ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ بِقُدْرَتِي مَعَ تَثْنِيَةِ الْيَدِ، وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ لَقَالَ إِبْلِيسُ: وَأَنَا أَيْضًا خَلَقْتَنِي بِقُدْرَتِكَ، فَلَا فَضْلَ لَهُ عَلَيَّ بِذَلِكَ. فَإِبْلِيسُ - مَعَ كُفْرِهِ - كَانَ أَعْرَفَ بِرَبِّهِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ. وَلَا دَلِيلَ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس:٧١]؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى جَمَعَ الْأَيْدِي لَمَّا أَضَافَهَا إِلَى ضَمِيرِ الْجَمْعِ، لِيَتَنَاسَبَ الْجَمْعَانِ، فَاللَّفْظَانِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْمُلْكِ وَالْعَظَمَةِ، وَلَمْ يَقُلْ: (أَيْدِيَّ) مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الْمُفْرَدِ، وَلَا (يَدَيْنَا) بِتَثْنِيَةِ الْيَدِ مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الْجَمْعِ، فَلَمْ يَكُنْ قَوْلُهُ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ نَظِيرَ قَوْلِهِ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: «حِجَابُهُ النُّورُ، وَلَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1].

وَلَكِنْ لَا يُقَالُ لِهَذِهِ الصِّفَاتِ: إِنَّهَا أَعْضَاءٌ، أَوْ جَوَارِحُ، أَوْ أَدَوَاتٌ، أَوْ أَرْكَانٌ؛ لِأَنَّ الرُّكْنَ جُزْءُ الْمَاهِيَّةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَا يَتَجَزَّأُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالْأَعْضَاءُ فِيهَا مَعْنَى التَّفْرِيقِ وَالتَّعْضِيَةِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر:٩١]. وَالْجَوَارِحُ فِيهَا مَعْنَى الِاكْتِسَابِ وَالِانْتِفَاعِ، وَكَذَلِكَ الْأَدَوَاتُ هِيَ الْآلَاتُ الَّتِي يُنْتَفَعُ بِهَا فِي جَلْبِ الْمَنْفَعَةِ وَدَفْعِ الْمَضَرَّةِ. وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي مُنْتَفِيَةٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى،

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٣١٣).

وَلِهَذَا لَمْ يَرِدْ ذِكْرُهَا فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى. فَالْأَلْفَاظُ الشَّرْعِيَّةُ صَحِيحَةُ الْمَعَانِي، سَالِمَةٌ مِنَ الِاحْتِمَالَاتِ الْفَاسِدَةِ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ لَا يُعْدَلَ عَنِ الْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ نَفْيًا وَلَا إِثْبَاتًا؛ لِئَلَّا يَثْبُتَ مَعْنًى فَاسِدٌ، أَوْ يُنْفَى مَعْنًى صَحِيحٌ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْمُجْمَلَةِ عُرْضَةٌ لِلْمُحِقِّ وَالْمُبْطِلِ.

قال الشيخ:

يعني من قوله تعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، أن هذا النَّفي تسلَّط به النُّفاة على الصِّفات، فقالوا: نحن ننفي عن الله تعالى الأعضاء والأركان والأدوات، هذا قول السَّلف ومنهم الإمام الطحاوي صاحب المتن.

فتسلطوا بذلك على نفي الصفات الثَّابته بالأدلة؛ فنفوا صفة الوجه لله، ونفوا صفة النَّفس، ونفوا صفة اليد، وصفة العين أو الأعين الَّتي أثبتها لنفسه، وغير ذلك من الصِّفات الواردة في القرآن والسُّنَّة؛ وقالوا: إنَّها أعضاء، وإنها إركان، وإنَّها أدوات.

والشارح ـ رحمه الله ـ بيَّن أنَّ السلف أثبتوا الصفات لله؛ لأن الله أثبتها في كتابه، فأثبت الله لنفسه صفة اليد في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١]، ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦]، وكذلك قوله مخاطبًا لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ

لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥]، فأضاف الله تعالى لنفسه صفة اليدين، فدلَّ على أنَّها صفة ثابتة، لكنها لا تشبه صفة المخلوقين، ويقال: الله أعلم بكيفيَّتها.

كما استدلوا على إثبات صفة اليد بأنَّ الله تعالى، ذكرها مفرده بقوله: ﴿ بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾، وذكرها مثنَّاة مضافة إلى ضمير المفرد، كما في قوله: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾، وفي قوله: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾، وذكرها بصيغة الجمع، ولكن مضافة إلى ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ [يس:٧١]، فهنا ذكرها بضمير الجمع ﴿ أَيْدِينَآ ﴾؛ لأن ضمير الجمع يؤتى به للتَّعظيم، فذكر الله تعالى نفسه بضمير الجمع للدِّلالة على التَّعظيم، كما يقول الملك: نحن أمرنا بكذا، ونحن فعلنا كذا، وهو واحد، يريد بذلك التَّعظيم، فالله تعالى يعظِّم نفسه بضمير الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر:١]، ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح:١]، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الزخرف:٣٢]، فيذكر نفسه بضمير الجمع للدِّلالة على التَّعظيم، فكذلك قوله: ﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾، الضمير للجمع للدِّلالة على العظمة، وأنَّه المستحقُّ لأن يُعظَّم.

كذلك أثبت الله تعالى لنفسه وأثبت النَّبيّ ﷺ لربِّه صفة اليد أو اليدين في قوله ﷺ: «يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وقال: أَرَأَيْتُمْ ما

أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فإنه لم يَغِضْ ما في يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ»[١].

وفي قوله ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ على مَنَابِرَ من نُورٍ عن يَمِينِ الرحمن عز وجل، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»[٢].

وفي قوله ﷺ: «يَطْوِي اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ السَّمَوَاتِ يوم الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بيده الْيُمْنَى، ثُمَّ يقول: أنا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ، أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يقول: أنا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ، أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ»[٣].

فهذه أدلَّة على إثبات هذه الصِّفة، فيثبتها أهل السُّنَّة كما يليق بالله سبحانه وتعالى، وقد أورد ابن كثير ـ رحمه الله ـ أدلَّة كثيرة في إثبات صفة اليد عند تفسير قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧].

أمَّا صفة الوجه، فذكرت في الآيات كثيرًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [الليل:٢٠]، وقوله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥١٩) بنحوه، ومسلم (٢٧٨٨) واللفظ له، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

[القصص:٨٨]، ونحوها من الآيات، وكذلك في الحديث النَّبويِّ قال ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1]، وفي قوله: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»، أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[2]، ونحو ذلك من الأدلَّة.

فهذه أدلَّة واضحة من الكتاب والسُّنَّة على إثبات هذه الصِّفة.

وكذلك صفة النَّفس، ذكرها الله في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقوله عن عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦]، وفي آيات كثيرة غير ذلك؛ فصفة النَّفس ذكرها الله تعالى وأثبتها وهو أعلم بنفسه، وكذلك رسوله ﷺ أعلم بمرسله، فيُقتصر على ما جاء في الكتاب والسُّنَّة.

ثمَّ اعتذر الشارح عن الطحاوي في استعماله لهذه الكلمات، وذكر أنَّه ما قصدها حقًّا، وأنَّ هذه الصِّفات لا تسمَّى أركانًا، ولا تسمَّى أدوات، ولا تسمَّى أعضاءً، واستدلَّ بأنَّ الأعضاء واحدها عضو، وهو الذي لا يمكن أن يتجزَّأ، والله منزَّه عن ذلك.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٣١٣).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ١٥٠).

وذكر قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر:٩١]، يعني: أقسامًا وأجزاءً.

وبكلِّ حال فكان الأولى أن لا تذكر هذه الأشياء؛ لأنَّ فيها حقٌ وباطلٌ، فإنَّ النُّفاة ـ الَّذين هم الجهميَّة ونحوهم ـ نفوا بها جميع الصِّفات، وتسلَّطوا على ما ورد في النصوص فنفوه، وقالوا: إنَّه أعضاء، وإنَّه أركان، وإنَّه أدوات، فلمَّا تسلَّطوا بها احتاج أهل السُّنَّة إلى أن يبيِّنوا أنَّ الصِّفات لا تدخل في هذا النَّفي، وأنَّه لا يُقال: الصِّفات الَّتي أثبتناها لا يصدق عليها أنَّها أركان، ولا أنَّها أدوات، ولا أنَّها أعضاء، ونحو ذلك.

قال الشارح:

وَأَمَّا لَفْظُ الْجِهَةِ، فَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مَعْدُومٌ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا مَوْجُودَ إِلَّا الْخَالِقُ وَالْمَخْلُوقُ، فَإِذَا أُرِيدَ بِالْجِهَةِ أَمْرٌ مَوْجُودٌ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ مَخْلُوقًا، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَحْصُرُهُ شَيْءٌ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ. وَإِنْ أُرِيدَ بِالْجِهَةِ أَمْرٌ عَدَمِيٌّ، وَهُوَ مَا فَوْقَ الْعَالَمِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ. فَإِذَا قِيلَ: إِنَّهُ فِي جِهَةٍ، بِهَذَا الِاعْتِبَارِ، فَهُوَ صَحِيحٌ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ فَوْقَ الْعَالَمِ حَيْثُ انْتَهَتِ الْمَخْلُوقَاتُ فَهُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ، عَالٍ عَلَيْهِ.

وَنُفَاةُ لَفْظِ الْجِهَةِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ نَفْيَ الْعُلُوِّ، يَذْكُرُونَ مِنْ أَدِلَّتِهِمْ: أَنَّ الْجِهَاتِ كُلَّهَا مَخْلُوقَةٌ، وَأَنَّهُ كَانَ قَبْلَ الْجِهَاتِ، وَأَنَّ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ فِي جِهَةٍ يَلْزَمُهُ الْقَوْلُ بِقِدَمِ شَيْءٍ مِنَ الْعَالَمِ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ مُسْتَغْنِيًا عَنِ الْجِهَةِ ثُمَّ صَارَ فِيهَا. وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ وَنَحْوُهَا إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، سَوَاءٌ سُمِّيَ جِهَةً أَوْ لَمْ يُسَمَّ، وَهَذَا حَقٌّ. وَلَكِنَّ الْجِهَةَ لَيْسَتْ أَمْرًا وُجُودِيًّا، بَلْ أَمْرٌ اعْتِبَارِيٌّ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجِهَاتِ لَا نِهَايَةَ لَهَا، وَمَا لَا يُوجَدُ فِيمَا لَا نِهَايَةَ لَهُ فَلَيْسَ بِمَوْجُودٍ.

قال الشيخ:

قصد الطحاوي صحيح، وهو أنَّ الرَّبَّ سبحانه وتعالى لا يحيط به شيء من خلقه؛ لأن الجهات مخلوقة، فلا تحيط به جهة بمعنى تحويه أو تحصره، وقد

قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فإذا كانوا لا يحيطون به علمًا، فكذلك المخلوقات لا تحيط به، يعني: لا تحصره أو تحويه ـ تعالى الله ـ هذا هو قصده.

والجهات السِّتُّ معروفة، هي: الفوق، والتَّحت، واليمين، واليسار، والأمام، والخلف، معنى أنَّها لا تحيط به، أي: لا تحصره جهة فيها، بل هو أعظم من كل شيء.

ثمَّ لا ينافي ذلك أن يوصف الله تعالى بأنَّه بائن فوق عباده، في جهة العلوِّ أنَّه فوق عباده، ولكن لا يلزم من ذلك حصر ولا إحاطة ولا غير ذلك، وقد دلَّت الأدلَّة الشَّرعيَّة على وصف الرَّبِّ سبحانه وتعالى بصفة العلوِّ، وسيتكلم الشارح على ذلك بتوسُّع في هذا الكتاب، ويذكر الأدلَّة الدالَّة على أنَّ الله فوق مخلوقاته كما يشاء، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل:٥٠]، وكذلك غيرها من الأدلَّة.

قال الشارح:

وَقَوْلُ الشَّيْخِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ)، هُوَ حَقٌّ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ لَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ. وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي أَرَادَهُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لِمَا يَأْتِي فِي كَلَامِهِ أَنَّهُ تَعَالَى (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ). فَإِذَا جُمِعَ بَيْنَ كَلَامِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: (لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ)، وَقَوْلُهُ: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ)، عُلِمَ أَنَّ مُرَادَهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَحْوِيهِ شَيْءٌ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ، كَمَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الْعَالِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ.

لَكِنْ بَقِيَ مِنْ كَلَامِهِ شَيْئَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ إِطْلَاقَ مِثْلِ هَذَا اللَّفْظِ - مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْإِجْمَالِ وَالِاحْتِمَالِ - كَانَ تَرْكُهُ أَوْلَى، وَإِلَّا تَسَلَّطَ عَلَيْهِ، وَأُلْزِمَ بِالتَّنَاقُضِ فِي إِثْبَاتِ الْإِحَاطَةِ وَالْفَوْقِيَّةِ وَنَفْيِ جِهَةِ الْعُلُوِّ، وَإِنْ أُجِيبَ عَنْهُ بِمَا تَقَدَّمَ، مِنْ أَنَّهُ نَفَى أَنْ يَحْوِيَهُ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، فَالِاعْتِصَامُ بِالْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ أَوْلَى.

الثَّانِي: أَنَّ قَوْلَهُ: (كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ)، يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ مَا مِنْ مُبْتَدَعٍ إِلَّا وَهُوَ مَحْوِيٌّ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ. فَإِنَّهُ إِنْ أَرَادَ أَنَّهُ مَحْوِيٌّ بِأَمْرٍ وُجُودِيٍّ، فَمَمْنُوعٌ، فَإِنَّ الْعَالَمَ لَيْسَ فِي عَالَمٍ آخَرَ، وَإِلَّا لَزِمَ التَّسَلْسُلُ، وَإِنْ أَرَادَ أَمْرًا عَدَمِيًّا، فَلَيْسَ كُلُّ مُبْتَدَعٍ فِي الْعَدَمِ، بَلْ مِنْهَا مَا هُوَ دَاخِلٌ فِي غَيْرِهِ، كَالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي الْكُرْسِيِّ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مُنْتَهَى الْمَخْلُوقَاتِ، كَالْعَرْشِ. فَسَطْحُ الْعَالَمِ لَيْسَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، قَطْعًا لِلتَّسَلْسُلِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

قال الشيخ:

في هذا لحظ الشارح على الماتن هاتين الملحوظتين:

الأولى: يقول: إنَّ الأَوْلَى عدم استعمال هذه الألفاظ؛ لِمَا فيها من الإبهام، ولِمَا فيها من العموم الَّذي تسلَّط به الأعداء أو المبتدعة على نفي ما هو حق، فإنَّهم تسلَّطوا بقولهم: لا تحويه الجهات السِّتُّ على نفي جهة العلوِّ، وبنفي الأعضاء والأركان والأدوات على نفي صفة الكمال، وجعلوا هذا دليلًا لهم، مع أنَّ هذا غير مراد الطحاوي رحمه الله، بل مراده حقٌّ؛ كما بيَّنه الشارح واعتذر عنه.

كذلك لحظ أنَّ قوله: كسائر المبتدعات يفهم منه أنَّ المبتدعات من المخلوقات تحويها جهة من الجهات، وهذا ليس بصحيح، يعني: ليس كل الموجودات محويَّة حوتها جهة من الجهات. ومثَّل بالعالم وما أشبهه.

وبكلِّ حال، فالاقتصار على السُّنَّة، والاقتصار على ما ورد في الأدلَّة الشَّرعيَّة الصريحة والسنة الصحيحة هو الدليل الواضح، وهو الَّذي ليس فيه توقُّف ولا شكٌّ، وفيه الكفاية والمقنع، وكذلك الاستدلال بعبارات السَّلف، فالسَّلف ـ رحمهم الله ـ يُعبِّرون بعبارات واضحة، ففيها الكفاية عن التَّعبير بعبارات موهمة استعملها المتأخِّرون، وأدخلوا فيها حقًّا وباطلًا.

قال الشارح:

وَيُمْكِنُ أَنْ يُجَابَ عَنْ هَذَا الْإِشْكَالِ: بِأَنَّ (سَائِرَ) بِمَعْنَى الْبَقِيَّةِ، لَا بِمَعْنَى الْجَمِيعِ، وَهَذَا أَصْلُ مَعْنَاهَا، وَمِنْهُ (السُّؤْرُ)، وَهُوَ مَا يُبْقِيهِ الشَّارِبُ فِي الْإِنَاءِ. فَيَكُونُ مُرَادُهُ غَالِبَ الْمَخْلُوقَاتِ، لَا جَمِيعَهَا، إِذِ السَّائِرُ عَلَى الْغَالِبِ أَدَلُّ مِنْهُ عَلَى الْجَمِيعِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَيْرُ مَحْوِيٍّ، كَمَا يَكُونُ أَكْثَرُ الْمَخْلُوقَاتِ مَحْوِيًّا، بَلْ هُوَ غَيْرُ مَحْوِيٍّ بِشَيْءٍ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ. وَلَا يُظَنُّ بِالشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أَنَّهُ مِمَّنْ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ بِنَفْيِ النَّقِيضَيْنِ، كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُ الشَّارِحِينَ، بَلْ مُرَادُهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَنْ يَكُونَ مُفْتَقِرًا إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا، الْعَرْشِ أَوْ غَيْرِهِ.

وَفِي ثُبُوتِ هَذَا الْكَلَامِ عَنِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ نَظَرٌ، فَإِنَّ أَضْدَادَهُ قَدْ شَنَّعُوا عَلَيْهِ بِأَشْيَاءَ أَهْوَنَ مِنْهُ، فَلَوْ سَمِعُوا مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ لَشَاعَ عَنْهُمْ تَشْنِيعُهُمْ عَلَيْهِ بِهِ، وَقَدْ نَقَلَ أَبُو مُطِيعٍ الْبَلْخِيُّ عَنْهُ إِثْبَاتَ الْعُلُوِّ، كَمَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَظَاهِرُ هَذَا الْكَلَامِ يَقْتَضِي نَفْيَهُ، وَلَمْ يَرِدْ بِمِثْلِهِ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ، فَلِذَلِكَ قُلْتُ: إِنَّ فِي ثُبُوتِهِ عَنِ الْإِمَامِ نَظَرًا، وَإِنَّ الْأَوْلَى التَّوَقُّفُ فِي إِطْلَاقِهِ، فَإِنَّ الْكَلَامَ بِمِثْلِهِ خَطَرٌ، بِخِلَافِ الْكَلَامِ بِمَا وَرَدَ عَنِ الشَّارِعِ، كَالِاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَمَنْ ظَنَّ مِنَ الْجُهَّالِ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا ـ كَمَا أَخْبَرَ الصَّادِقُ ﷺ[1] ـ يَكُونُ الْعَرْشُ فَوْقَهُ، وَيَكُونُ مَحْصُورًا بَيْنَ طَبَقَتَيْنِ

---

(١) حديث النزول أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مِنَ الْعَالَمِ. فَقَوْلُهُ مُخَالِفٌ لِإِجْمَاعِ السَّلَفِ، مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو عُثْمَانَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الصَّابُونِيُّ: سَمِعْتُ الْأُسْتَاذَ أَبَا مَنْصُورِ بْنَ حماد - بَعْدَ رِوَايَتِهِ حَدِيثَ النُّزُولِ - يَقُولُ: سُئِلَ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَنْزِلُ بِلَا كَيْفٍ. انْتَهَى.

وَإِنَّمَا تَوَقَّفَ مَنْ تَوَقَّفَ فِي نَفْيِ ذَلِكَ، لِضَعْفِ عِلْمِهِ بِمَعَانِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَقْوَالِ السَّلَفِ، وَلِذَلِكَ يُنْكِرُ بَعْضُهُمْ أَنْ يَكُونَ فَوْقَ الْعَرْشِ، بَلْ يَقُولُ: لَا مُبَايِنَ، وَلَا مُحَايِثَ، لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، فَيَصِفُونَهُ بِصِفَةِ الْعَدَمِ وَالْمُمْتَنِعِ، وَلَا يَصِفُونَهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْعُلُوِّ وَالِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ بِحُلُولِهِ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ، وَيَقُولُ: هُوَ وُجُودُ كُلِّ مَوْجُودٍ وَنَحْوُ ذَلِكَ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَسَيَأْتِي لِإِثْبَاتِ صِفَةِ الْعُلُوِّ لِلَّهِ تَعَالَى زِيَادَةُ بَيَانٍ، عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِ الشَّيْخِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ)، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

لَمَّا كان بعض المنتمين إلى مذهب أبي حنيفة - رحمه الله - قد دخلهم شيءٌ من التَّغيُّر في العقيدة، نسبوا إليه أنَّه مِمَّن يقول: إنَّ الله تعالى لا داخل العالَم ولا خارجه، وهذا لا شكَّ أنَّه لم يقله أبو حنيفة رحمه الله، بل أبو حنيفة - رحمه الله - قد أثبت الاستواء، وأثبت أنَّ الله تعالى فوق عرشه، وأنَّه يُدعى من أعلى، وأنَّ العباد إذا دعوه رفعوا إليه أيديهم متضرِّعين إليه، استدلَّ بذلك كلِّه

على أنَّ الله تعالى فوق عباده، ولم يقل هذه المقالة الشَّنيعة الَّتي يستعملها النُّفاة.

فعلى هذا لا يظنُّ أن أحدًا من أئمَّة الإسلام، لا أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ ولا غيره من الأئمَّة المتَّبعين، المقتدى بهم، أنَّهم يدخلون في هذه الأمور المبتدعة، والَّتي فيها تعطيل الله تعالى، ونفي صفات كماله؛ وذلك لأنَّ صفات الكمال ثابتة لله ـ سبحانه وتعالى ـ عقلًا ونقلًا، والصِّفات الَّتي أثبتها كلُّها صفات كمال، والَّتي نفاها؛ لأنَّها تشتمل على نقص، ونفي النَّقص كمال، هذه هي طريقة أهل السُّنَّة: أنَّهم ينفون عن الله الصِّفات الَّتي نفاها عن نفسه؛ لأنَّ في نفيها إثباتًا لأضدادها، وذلك كلُّه من صفات الكمال.

ولا شكَّ أنَّ المسلم إذا اعتقد في ربِّه أنَّه قريب مجيب، واعتقد أنَّه عليم حكيم، واعتقد أنَّه سميع بصير، استحضر ذلك في كلِّ حالاته، وعظَّم قدر ربِّه في قلبه، وأكثر من دعائه، وتعلَّق قلبه برجائه، وخافه حقَّ الخوف، واستعدَّ للقائه، وعظَّمه غاية التَّعظيم، وهذا هو السِّرُّ في تقرير أهل السُّنَّة لهذه الصِّفات، حتَّى يعرف المسلمون صفات ربِّهم فيعبدونه حقَّ عبادته.

ومن صفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنَّه القاهر فوق عباده، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠]، فيؤمن العباد بهذا القهر الَّذي مقتضاه الغلبة والإحاطة، والقهر هو قوَّة الغلبة، يعني: أنَّه غالب متصرِّف في العباد، ليس لهم قدرة على التصرُّف بأنفسهم من دون اختيار الله وقضائه وتدبيره.

ومن صفاته سبحانه أنَّه العليُّ بجميع أنواع العلوِّ: علوُّ القدر، وعلوُّ القهر، وعلوُّ الذَّات، وكذلك فوقيَّة القدر، وفوقيَّة القهر، وفوقيَّة الذَّات، ولا شكَّ أنَّ هذه الصِّفات قد دلَّت عليها أدلَّة سمعيَّة: الآيات القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة، فإن مرجع المسلمين في استدلالهم على صفات ربِّهم إلى هذه النُّصوص الثَّابتة المنقولة عن نبيِّهم نقلًا ثابتًا متواترًا، وهذا الإثبات للفوقيَّة بجميع أنواعها يستلزم أن يكون الرَّبُّ ـ سبحانه وتعالى ـ بكلِّ شيء عليمًا، فإنَّه إذا كان قاهرًا لعباده، وقادرًا عليهم، وعالمًا بهم، ومطَّلعًا عليهم، ويرى صغيرهم وكبيرهم، وخفيَّهم وجليَّهم؛ كان ذلك أدلَّ على عظمته وعلى إحاطته، فالمخلوقون حقيرون بالنِّسبة لعظمة ربِّهم، والإنسان جزء صغير من مخلوقات الله، والأرض التي نحن عليها والسَّموات الَّتي هي فوقنا ومحيطة بنا جزء صغير أيضًا من مخلوقات الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[الزمر: ٦٧]، فما مقدار الإنسان؟ وما قدره في هذا الكون العظيم الَّذي هذا مقداره؟ قال ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: «مَا السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرْضُون السَّبْعِ فِي يَدِ اللَّـهِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»[(١)]، حبَّة الخردل هي أصغر ما يتصوَّر من الحبوب، حب الخردل شجر معروف، وحبُّه صغير جدًا، فيقول: إذا قبض أحدكم حبَّة خردل في كفِّه، فهل يحسُّ أنَّها تشغل مكانًا؟ كذلك المخلوقات: السَّموات

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٤).

السَّبع والأرضون السَّبع يقبضها الله وكأنَّها حبَّة خردل في يد أحدكم.

فهذا دليل على العظمة وأنَّ علوَّه سبحانه فوق عباده لا ينافي عِلمَه، ولا ينافي اطلاعه، ولا ينافي إحاطته بعباده، ولا ينافي رؤيته لهم، وقربه منهم، وهيمنته عليهم، ونظره إليهم، وعلمه بأحوالهم وبأقوالهم، وسماعهُ لأصواتهم، وما أشبه ذلك، أفلا يكون العبد مستحضرًا لذلك في كلِّ حالاته حتَّى يعبد ربَّه غاية العبادة، وحتَّى يخافه غاية الخوف؟!

إذًا فمن أصل عقيدة المسلمين الاعتقاد بالفوقيَّة لله، وأنَّ ذلك لا ينافي علمه وقربه واطلاعه على عباده، كذلك على المسلم أن يعرف العقائد الضَّالَّة فيجتنبها، وعليه أن يُقْبِل على عقيدة السَّلف والأئمَّة وأهل السُّنَّة، ويعرض عن ما سواها من عقائد المبتدعة؛ كأهل وحدة الوجود والحلوليين، ونحوهم من البدع الضَّالَّة، الَّذين أنكروا علوَّ الله، وقالوا: إنَّه لا فوق ولا تحت، ولا مباين ولا محايث، أو أنَّ وجوده هو وجود الكون، أو أنَّه حالٌّ في المخلوقات بذاته ـ تعالى الله عمَّا يقولون ـ فكلُّ أولئك لم يثبت الإيمان في قلوبهم، ولم ترسخ معرفة الله وعقيدة الإسلام في أفئدتهم، فوسوس لهم الشَّيطان أنَّ ذات الله حالَّة فيكم أو في كلِّ مكان، أو أنَّ وجوده هو وجود الكون، أو ما أشبه ذلك، يريدون بذلك أن يسوِّغوا مذاهبهم، فعلى المسلم أن يعرف العقيدة السَّليمة، وأن يعتقدها، وأن يتعبَّد لله تعالى بموجبها.

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قال الطحاوي:

وَالْمِعْرَاجُ حَقٌّ، وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَعُرِجَ بِشَخْصِهِ فِي الْيَقَظَةِ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ إِلَى حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْعُلَا، وَأَكْرَمَهُ اللَّهُ بِمَا شَاءَ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ مَا أَوْحَى، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى. فَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى.

قال الشارح:

(الْمِعْرَاجُ): مِفْعَالٌ، مِنَ الْعُرُوجِ، أَي: الْآلَةِ الَّتِي يُعْرَجُ فِيهَا، أَيْ: يُصْعَدُ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ السُّلَّمِ، لَكِنْ لَا يُعْلَمُ كَيْفَ هُوَ، وَحُكْمُهُ كَحُكْمِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُغَيَّبَاتِ، نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نَشْتَغِلُ بِكَيْفِيَّتِهِ.

وَقَوْلُهُ: (وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَعُرِجَ بِشَخْصِهِ فِي الْيَقَظَةِ)، اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْإِسْرَاءِ، فَقِيلَ: كَانَ الْإِسْرَاءُ بِرُوحِهِ وَلَمْ يُفْقَدْ جَسَدُهُ، نَقَلَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَائِشَةَ وَمُعَاوِيَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَنَقَلَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ نَحْوَهُ[1].

لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَنْ يُقَالَ: كَانَ الْإِسْرَاءُ مَنَامًا، وَبَيْنَ أَنْ يُقَالَ: كَانَ بِرُوحِهِ دُونَ جَسَدِهِ، وَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ عَظِيمٌ، فَعَائِشَةُ وَمُعَاوِيَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - لَمْ يَقُولَا: كَانَ مَنَامًا، وَإِنَّمَا قَالَا: أُسْرِيَ بِرُوحِهِ وَلَمْ يُفْقَدْ جَسَدُهُ، وَفَرْقٌ مَا بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ؛ إِذْ مَا يَرَاهُ النَّائِمُ قَدْ يَكُونُ أَمْثَالًا مَضْرُوبَةً لِلْمَعْلُومِ فِي الصُّورَةِ

(١) انظر: سيرة ابن إسحاق (٥/ ٢٧٥)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٤٥، ٢٤٦)، وتفسير الطبري (١٥/ ١٦).

الْمَحْسُوسَةِ، فَيَرَى كَأَنَّهُ قَدْ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَذُهِبَ بِهِ إِلَى مَكَّةَ، وَرُوحُهُ لَمْ تَصْعَدْ وَلَمْ تَذْهَبْ، وَإِنَّمَا مَلَكُ الرُّؤْيَا ضَرَبَ لَهُ الْمِثَالَ. فَمَا أَرَادَا أَنَّ الْإِسْرَاءَ مَنَامًا، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ الرُّوحَ ذَاتَهَا أُسْرِيَ بِهَا، فَفَارَقَتِ الْجَسَدَ ثُمَّ عَادَتْ إِلَيْهِ، وَيَجْعَلَانِ هَذَا مِنْ خَصَائِصِهِ، فَإِنَّ غَيْرَهُ لَا تَنَالُ ذَاتُ رُوحِهِ الصُّعُودَ الْكَامِلَ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ.

وَقِيلَ: كَانَ الْإِسْرَاءُ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً يَقَظَةً، وَمَرَّةً مَنَامًا. وَأَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ كَأَنَّهُمْ أَرَادُوا الْجَمْعَ بَيْنَ حَدِيثِ شَرِيكٍ وَقَوْلِهِ: «ثُمَّ اسْتَيْقَظْتُ»، وَبَيْنَ سَائِرِ الرِّوَايَاتِ.

وَكَذَلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: بَلْ كَانَ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً قَبْلَ الْوَحْيِ، وَمَرَّةً بَعْدَهُ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: بَلْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، مَرَّةً قَبْلَ الْوَحْيِ، وَمَرَّتَيْنِ بَعْدَهُ. وَكُلَّمَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ لَفْظٌ زَادُوا مَرَّةً، لِلتَّوْفِيقِ! وَهَذَا يَفْعَلُهُ ضُعَفَاءُ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وَإِلَّا فَالَّذِي عَلَيْهِ أَئِمَّةُ النَّقْلِ: أَنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ مَرَّةً وَاحِدَةً بِمَكَّةَ، بَعْدَ الْبِعْثَةِ، قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِسَنَةٍ، وَقِيلَ: بِسَنَةٍ وَشَهْرَيْنِ، ذَكَرَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ.

قال الشيخ:

من عقائد أهل السُّنَّة الإيمان بأنَّ النبيَّ ﷺ عُرج به إلى السَّماء، وفرضت عليه الصَّلوات الخمس في ليلة المعراج، وأنَّ ذلك كان بمكَّة قبل الهجرة بثلاث سنين أو نحوها.

وكذلك من عقائدهم ثبوت الإسراء، وقد ذكر الله تعالى الإسراء، قال

تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، وأخبر ﷺ في الحديث بأنه أُسْرِي به[١]، يعني: ذُهب به من مكَّة إلى أن وصل إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، وهذا المسجد كان قبلة النَّبيِّ ﷺ قبل الهجرة، وبعد الهجرة أيضًا كان يستقبله ستَّة عشر أو سبعة عشر شهرًا؛ لذلك يقال: أولى القبلتين، ويقال: إنَّه مسرى النَّبيِّ ﷺ، وهو أحد المساجد الثَّلاثة الَّتي يشدُّ إليها الرِّحال، قال ﷺ: «**لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى، وَمَسْجِدِي**»[٢]، يعني: أنَّه يجوز أن يسافر إليه لأجل فضل الصلاة فيه، فالصَّلاة فيه تعدل خمس مئة صلاة في غيره[٣]، والصلاة في المسجد النَّبويِّ «**أَفْضَلُ**

---

(١) حديث الإسراء أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أنس بن مالك عن أبي ذر رضي الله عنهما. قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ٤٦٠): «وقد روى هذا الحديث عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة، لكن طرقه في الصحيحين تدور على أنس مع اختلاف أصحابه عنه، فرواه الزهري عنه عن أبي ذر كما في هذا الباب، ورواه قتادة عنه عن مالك بن صعصعة، ورواه شريك بن أبي نمر وثابت البناني عنه عن النبي ﷺ بلا واسطة، وفي سياق كل منهم عنه ما ليس عند الآخر».

(٢) أخرجه البخاري (١١٩٧)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وأخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) كما في حديث أبي الدرداء ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «فَضْلُ الصَّلَاةِ فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ عَلَى غَيْرِهِ مِائَةُ أَلْفِ صَلَاة، وَفِي مَسْجِدِي أَلْفُ صَلَاة، وَفِي مَسْجِدِ بَيْتِ المَقْدِسِ بِخَمْسِمِائَةِ صَلَاةٍ»

=

من أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا المَسْجِدَ الحَرَامَ»[1]، و«صَلَاةٌ فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ أَفْضَلُ من مِائَةِ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ»[2]، كما ورد ذلك في الأحاديث، هذه المساجد الثَّلاثة هي الَّتي يشدُّ إليها الرّحل؛ فمسجد إيليا ويسمى مسجد بيت المقدس أو البيت المقدَّس الَّذي بناه سليمان عليه السلام، وقيل: إنَّه جدَّده، وقيل: إنَّه أوَّل من بناه، والصَّحيح أنَّه بُني قديمًا، ثبت في حديث أبي ذرٍّ ﷺ قال: قلت يا رَسُولَ اللَّـهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأرض أَوَّلَ؟ قال: «المَسْجِدُ الحَرَامُ»، قال: قلت ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: «المَسْجِدُ الأَقْصَى»، قلت: كَمْ كان بَيْنَهُمَا؟ قال: «أَرْبَعُونَ سَنَةً»[3]، فدلَّ على أنَّه بني قديمًا؛ لأنَّ المسجد الحرام بناه إبراهيم عليه السلام، وقيل: إنَّ إبراهيم جدَّده؛ فعلى هذا يكون المسجد الأقصى قديمًا.

=

أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١/ ٢١٢) برقم (٤٢٢)، وابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٣٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٨٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٧): «رواه الطبراني في الكبير، ورجاله ثقات، وفي بعضهم كلام، وهو حديث حسن». قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٩٥٤): «أصح ما جاء في فضل الصلاة في المسجد الأقصى حديث أبي ذر ﷺ قال: تذاكرنا ونحن عند رسول الله ﷺ أيهما أفضل مسجد رسول الله أو بيت المقدس؟ فقال رسول الله ﷺ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَرْبَعِ صَلَوَاتٍ فِيهِ».

(١) أخرجه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٠٦)، وأحمد (٣/ ٣٤٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وقال ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ١٧٩): «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).

فالحاصل: أنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ أُسري به من المسجد الحرام بمكةَّ إلى المسجد الأقصى، وأنَّه جُمع له الأنبياء هناك، وأنَّه صلَّى بهم إمامًا، وقد أنكرت كفار قريش هذا لَـمَّا أخبرهم بأنَّه أُسري به وكذبوه، وقال أبو جهل: «ألا تعجبون مما قال محمد، يزعم أنه أتى البارحة بيت المقدس ثم أصبح فينا، وأحدنا يضرب مطيته مصعدة شهرًا، ومقفلة شهرًا، فهذه مسيرة شهرين في ليلة واحدة»[1]!!

فارتد ناس ممن كان آمنوا به وصدقوه، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر ﷺ، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ فقال: نعم، إني لأصدقه ما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة[2].

وفي بعض الأحاديث أنَّه أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ «بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ، يُقَالُ: له الْبُرَاقُ، فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَقَعُ خَطْوُهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ»[3]، يعني:

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٩٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣/ ٥١٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٧٦)، والحاكم في دلائل النبوة (٢/ ٣٦٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ٥٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) قطعة من حديث الإسراء الطويل، أخرجه البخاري (٣٢٠٧، ٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

خطوته الواحدة مدَّ البصر، وسيره أسرع من طرفة العين، فقطع هذه المسافة في هذه اللَّحظات، ووصل إلى هناك ثمَّ رجع، هذا هو الإسراء.

والصَّحيح أنَّه أُسري ببدنه وبروحه ولم يكن منامًا، والكفار لم يكونوا ينكرون المنامات، فلو قال ﷺ: إنَّ ذلك منام أو أحلام أو رؤيا لصدَّقوه؛ لأنَّ الإنسان يرى في منامه أنَّه يقطع مسافات، وأنَّه وصل إلى كذا وكذا، وهو نائم على فراشه لم يفارقه، فيعترفون بذلك، ولكن لَـمَّا أخبرهم بهذا كذَّبوه، فدلَّ على أنَّ الإسراء كان بجسده، وأنَّه ركب البراق حقيقة، وذهب ورجع، وأخبرهم بآيات وبدلالات واستوصفوا منه بيت المقدس، فعند ذلك وصفه لهم وصفًا دقيقًا، وذلك أنَّ الله تعالى جلَّاه له لَـمَّا التبس عليه بعض الأشياء، وكشفه له وصوَّره أمامه، فصار يصفه وهم يسألونه، كما ثبت في الصحيح[1] أن رسول الله ﷺ قال: «لَـمَّا كذبني قُرَيْشٌ قُمْتُ في الحِجْرِ، فَجَلَّى اللَّـهُ لي بَيْتَ المَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عن آيَاتِهِ وأنا أَنْظُرُ إليه».

فهذا هو الإسراء يقظة لا منامًا بجسده وبروحه.

وهناك من يقول: إنَّ الإسراء بالرُّوح فقط، وأنَّ روحه خرجت وفارقت جسده، وأن الجسد بقي ليس فيه روح، وأنَّ الرُّوح لخفتها وصلت إلى ذلك المكان، ويستدلون على هذا القول بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٦)، ومسلم (١٧٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠]، ولكنَّ الرُّؤيا ليست مطلق الحلم، بل كلّ شيء يراه الإنسان يسمَّى في اللُّغة رؤيا، هذا هو الإسراء.

أمَّا المعراج: فهو الصُّعود إلى السماء، وقد دلَّ عليه من القرآن آيات كريمة في أوَّل سورة النَّجم في قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم: ٥ - ١١]، إلى آخر الآيات؛ فإن هذا دليل على أنَّه رُفع جسده حتَّى كان قاب، قوسين أو أدنى، والقوس معروف أنَّه الآلة الَّتي يرمى بها، يعني أنَّه دنا من ربِّه فتدلى، يعني هبط.

هذه الآيات ونحوها دلالة على أنَّه رفع وأنَّه أسري به، وأنَّه رأى الملك في قوله: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٣ - ١٥]، وقوله: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٧، ١٨]، كلُّ ذلك كان في المعراج، فالآيات فيها إجمال ذلك، والأحاديث فيها التَّفصيل لذلك كلُّه، كما هو معروف في كتب الحديث كـ«الصَّحيحين» وفي غيرهما، وقد أورد ابن كثير في أول تفسير سورة الإسراء جملة كثيرة من أحاديث الإسراء والمعراج، وأفردها كثير من العلماء بالتَّأليف وتوسَّعوا فيها.

فنقول: من العلماء من يقول: إنَّ الإسراء كان بالرُّوح؛ كما روي ذلك عن

عائشة ـ رضي الله عنها ـ وغيرها [١]، أنَّ الجسد لم يُفقد، ومنهم ـ وهو الصَّحيح ـ من يقول: إنَّه كان يقظةً لا منامًا، وإنَّه بالجسد والرُّوح معًا، وإنَّ جسده عُرج به بحيث اخترق سبع سمٰوات سماءً ثم سماءً، ووجد الأنبياء في السَّماء، وسلَّم على من وجد منهم، وفرضت عليه الصَّلوات، وكلَّمه الله منه إليه وخاطبه وخفف عنه عشرًا عشرًا، إلى أن استقرَّت خمس صلوات، فقال الله تعالى: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩]، وفي الحديث: «أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عن عِبَادِي، وَأَجْزِي الحَسَنَةَ عَشْرًا» [٢]، يعني: عندما خُفِّفت الصَّلاة إلى خمسٍ من الفرائض، كلُّ ذلك كان ليلة الإسراء.

والَّذين قالوا: إنَّ الإسراء تكرَّر، هؤلاء كأنَّهم يريدون الجمع بين الرِّوايات، ولكنَّ الصَّحيح أنَّ الإسراء والمعراج لم يتكرَّر، وإنَّما هو مرةً واحدة، وفي ليلة واحدة، عُرج به من بيت المقدس إلى السَّماء ثمَّ نزل في ليلته، وما ذلك على الله بعزيز.

---

(١) راجع (٢/ ٣٣٢).

(٢) قطعة من حديث الإسراء الطويل، أخرجه البخاري (٣٨٨٧) من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

قال الشارح:

قَالَ شَمْسُ الدِّينِ ابْنُ الْقَيِّمِ: يَا عَجَبًا لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ مِرَارًا! كَيْفَ سَاغَ لَهُمْ أَنْ يَظُنُّوا أَنَّهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ تُفْرَضُ عَلَيْهِمُ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ، ثُمَّ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ رَبِّهِ وَبَيْنَ مُوسَى حَتَّى تَصِيرَ خَمْسًا، فَيَقُولُ: «أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»، ثُمَّ يُعِيدُهَا فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ إِلَى خَمْسِينَ، ثُمَّ يَحُطُّهَا إِلَى خَمْسٍ؟!

وَقَدْ غَلَّطَ الْحُفَّاظُ شَرِيكًا فِي أَلْفَاظٍ مِنْ حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ، وَمُسْلِمٌ أَوْرَدَ الْمُسْنَدَ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: «فَقَدَّمَ وَأَخَّرَ وَزَادَ وَنَقَصَ». وَلَمْ يَسْرُدِ الْحَدِيثَ. وَأَجَادَ رَحِمَهُ اللَّهُ. انْتَهَى كَلَامُ الشَّيْخِ شَمْسِ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَكَانَ مِنْ حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ: أَنَّهُ ﷺ أُسْرِيَ بِجَسَدِهِ فِي الْيَقَظَةِ، عَلَى الصَّحِيحِ، مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، رَاكِبًا عَلَى الْبُرَاقِ، صُحْبَةَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَنَزَلَ هُنَاكَ، صَلَّى بِالْأَنْبِيَاءِ إِمَامًا، وَرَبَطَ الْبُرَاقَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْمَسْجِدِ. **وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ نَزَلَ بَيْتَ لَحْمٍ وَصَلَّى فِيهِ، وَلَا يَصِحُّ عَنْهُ ذَلِكَ أَلْبَتَّةَ.**

ثُمَّ عُرِجَ بِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ لَهُ جِبْرِيلُ، فَفُتِحَ لَهُمَا، فَرَأَى هُنَاكَ آدَمَ أَبَا الْبَشَرِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَحَّبَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ لَهُ، فَرَأَى فِيهَا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَلَقِيَهُمَا، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا، فَرَدَّا عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَرَحَّبَا بِهِ، وَأَقَرَّا بِنُبُوَّتِهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَرَأَى فِيهَا يُوسُفَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ،

فَرَأَى فِيهَا إِدْرِيسَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الخَامِسَةِ، فَرَأَى فِيهَا هَارُونَ بْنَ عِمْرَانَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَلَقِيَ فِيهَا مُوسَى، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ بَكَى مُوسَى، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَلَقِيَ فِيهَا إِبْرَاهِيمَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ.

ثُمَّ رُفِعَ إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، ثُمَّ رُفِعَ لَهُ الْبَيْتُ المَعْمُورُ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى الجَبَّارِ - جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ - فَدَنَا مِنْهُ حَتَّى كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى، وَفَرَضَ عَلَيْهِ خَمْسِينَ صَلَاةً، فَرَجَعَ حَتَّى مَرَّ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ ؟ قَالَ: بِخَمْسِينَ صَلَاةً، فَقَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَالْتَفَتَ إِلَى جِبْرَائِيلَ كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ، فَأَشَارَ أَنْ نَعَمْ إِنْ شِئْتَ، فَعَلَا بِهِ جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى بِهِ إِلَى الجَبَّارِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَهُوَ فِي مَكَانِهِ - هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ فِي (صَحِيحِهِ)، وَفِي بَعْضِ الطُّرُقِ: - فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرًا، ثُمَّ نَزَلَ حَتَّى مَرَّ بِمُوسَى، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ مُوسَى وَبَيْنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حَتَّى جَعَلَهَا خَمْسًا، فَأَمَرَهُ مُوسَى بِالرُّجُوعِ وَسُؤَالِ التَّخْفِيفِ، فَقَالَ: قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي، وَلَكِنْ أَرْضَى وَأُسَلِّمُ، فَلَمَّا نَفَذَ، نَادَى مُنَادٍ: قَدْ أَمْضَيْتُ

فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي[(١)].

قال الشيخ:

هكذا سرد الشارح مجمل حديث الإسراء والمعراج، وهذا على وجه الاختصار، ومن أراد التَّوسُّع فيجده في «صحيح مسلم»، باب الإسراء برسول الله ﷺ، وفي «صحيح البخاري» في آخره في كتاب التوحيد، وفي كتب أهل السُّنَّة، وذكرت أنَّ ابن كثير في أوَّل تفسير سورة الإسراء أورد أكثر الرِّوايات وساقها بنصِّها كما هي، وملخَّصها ما سبق من أنَّه ﷺ أتاه الملك وهو في مكة في بيت أمِّ هانئ وأتي به إلى المسجد، وفي بعض الرِّوايات: أنَّه غسل قلبه بماء زمزم، وملأه حكمة وإيمانًا، ثمَّ ركب معه على البراق، الَّذي هو دابَّة الله أعلم بكيفيَّتها، يضع حافره عند منتهى طرفه؛ فوصل إلى بيت المقدس في لحظات، ثمَّ صلَّى بالأنبياء هناك، وبعد ذلك عُرِج به إلى السَّماء، والعروج: هو الرُّقيُّ والصُّعود، ولا نعلم كيفيَّة ذلك.

لا شكَّ أنَّه عرج بجسده وروحه، إمَّا على نفس الدابَّة الَّتي هي البراق، وإمَّا أنَّ جبريل حمله فخرق هذا الجو في لحظات حتَّى أتى إلى باب السَّماء الدُّنيا، فاستفتح لبابها، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، فَفُتح له بعد أن قيل: مرحبًا به وبمن

---

(١) حديث الإسراء تقدم تخريجه (٢/ ٣٣٤).

جاء معه، فوجد في السَّمٰوات هؤلاء الأنبياء، سماء بعد سماء.

لقي آدم في السَّماء الدُّنيا، فسلَّم عليه، وفي بعض الرِّوايات أنَّه رآه وعنده أسودة عن يمينه وأسودة عن يساره، فإذا نظر عن يساره بكى، وإذا نظر عن يمينه ضحك، فالَّذين عن يمينه هم نسم أهل الجنَّة، والَّذين عن يساره هم نسم أهل النَّار، والأسودة: أرواح تُعرض عليه من أهل الجنَّة ومن أهل النَّار، نسم بَنِيه، فقيل: إن هذا روحه، يعني: روح آدم تمثَّلت هناك، وكذلك أرواح الأنبياء الآخرين مثِّلت هنالك، ويمكن أن يكون جُعلت في أجسادٍ تناسبها وتلائمها، الله أعلم بكيفيَّة تلك الأجساد.

والحاصل: أنَّه - عليه الصَّلاة والسَّلام - كما أخبر الله، عُرج به حتَّى كان قاب قوسين أو أدنى، وأوحى الله تعالى إليه، ورفعه إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، ومرَّ على البيت المعمور الَّذي في السَّماء السَّابعة، وأخبر أنَّه «يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إليه»، كلُّ يوم يدخل غيرهم، فذلك البيت الَّذي ذكره الله في قوله: ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾ [الطور: ٤]، ثم فُرضت عليه هذه الصَّلوات أوَّلًا خمسين صلاةً، وخفَّفها الله حتَّى صارت خمسًا، فقال الله تعالى: «قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»، ورجع في ليلته إلى الأرض، وأصبح في مكة، وذلك سهلٌ يسيرٌ في قدرة الله سبحانه وتعالى.

فيؤمن أهل السُّنَّة بذلك، ولو استنكر ذلك من استنكره من المبتدعة

ونحوهم؛ وذلك لأنَّ من لا علم عنده، أو من لا يؤمن إلَّا بالمحسوسات ونحوها، قد يستبعد ويقول: إنَّ الإنسان على هذه الأرض لا يمكنه أن يعيش إذا فارقها؛ لأنه يعيش بهذا الأكسجين. نقول: كيف لا يجوز أن يكون أهل السَّماء يعيشون كما يعيش أهل الأرض، وأن يكون عندهم مثل ما يكون عند أهل الأرض؟! والله على كل شيءٍ قدير.

فبكلِّ حالٍ الَّذين يستبعدون ذلك ويقولون: إنَّه مستحيلٌ أن يفارق الإنسان هذه الأرض، أو يرتفع إلى غيرها، أو ما أشبه ذلك، كلُّ ذلك تخبُّطات وتخرُّصات، والَّذين استنكروه للبعد، وقالوا: كيف يقطع هذه المسافات ونحوها، استنكارهم هذا راجع لقصر عقولهم وأفهامهم.

ذكرنا أنَّ أبا بكر ﷺ يصدِّقه، ويقول: كيف لا أصدِّقه وهو يأتيه خبر السَّماء؟! ينزل عليه الملك في لحظاتٍ ويصعد في لحظاتٍ كطرف العين؛ فلم لا نصدقه؟! ما دمنا عرفنا أنَّه قد صدق في دعواه أنَّه مرسلٌ من ربِّه، فكذلك دعواه أنَّه بُعث، وأنَّه جاء بهذه الشريعة، وهكذا أيضًا ما جاء به من الإسراء والمعراج، وهذا يعد شرفًا وميزةً وفضيلة له عليه الصلاة السلام، أنَّه عُرج به في الحياة، وأنَّه صعد إلى السَّماء السَّابعة، وأنَّه كلَّمه ربُّه منه إليه، وأنَّه دنا إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام حتى سمعها، وأنَّ الله خاطبه منه إليه كما يشاء، هذا من فضائله ﷺ أنَّه جاوز سبع طباق، رفعه الله تعالى فوقها، فهذا أدخلوه في العقيدة؛ لأنَّه من حقوق النَّبيِّ ﷺ وخصائصه وميزته.

ولا يُكذِّب ذلك إلا من قَصر علمُه عن معرفة المغيَّبات، واقتصر على ما

يظنُّ أَنَّه ظاهر، أو اقتصر على ما تدركه حواسُّه، دون أن يؤمن بقدرة الله على كلِّ شيء، أما من آمن أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ فإنه لا يستبعد مثل هذا الحادث العظيم.

قال الشارح:

وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ اخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ فِي رُؤْيَتِهِ ﷺ رَبَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِعَيْنِ رَأْسِهِ، وَأَنَّ الصَّحِيحَ أَنَّهُ رَآهُ بِقَلْبِهِ، وَلَمْ يَرَهُ بِعَيْنِ رَأْسِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:١١]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم:١٣]، صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ هَذَا المَرْئِيَّ جِبْرِيلُ، رَآهُ مَرَّتَيْنِ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا[1].

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّجْمِ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم:٨]، فَهُوَ غَيْرُ الدُّنُوِّ وَالتَّدَلِّي المَذْكُورَيْنِ فِي قِصَّةِ الإِسْرَاءِ، فَإِنَّ الَّذِي فِي سُورَةِ النَّجْمِ هُوَ دُنُوُّ جِبْرِيلَ وَتَدَلِّيهِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ وَابْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم:٥ - ٨]، فَالضَّمَائِرُ كُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى هَذَا المُعَلِّمِ الشَّدِيدِ الْقُوَى، وَأَمَّا الدُّنُوُّ وَالتَّدَلِّي الَّذِي فِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ، فَذَلِكَ صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ دُنُوُّ الرَّبِّ تَعَالَى وَتَدَلِّيهِ. وَأَمَّا الَّذِي فِي سُورَةِ النَّجْمِ: أَنَّهُ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى، فَهَذَا هُوَ جِبْرِيلُ، رَآهُ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً فِي الأَرْضِ، وَمَرَّةً عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الإِسْرَاءَ بِجَسَدِهِ فِي الْيَقَظَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]، وَالْعَبْدُ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ الجَسَدِ وَالرُّوحِ، كَمَا أَنَّ الإِنْسَانَ اسْمٌ لِمَجْمُوعِ الجَسَدِ

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٧٥).

وَالرُّوحِ، هَذَا هُوَ المَعْرُوفُ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ، فَيَكُونُ الْإِسْرَاءُ بِهَذَا المَجْمُوعِ، وَلَا يَمْتَنِعُ ذَلِكَ عَقْلًا، وَلَوْ جَازَ اسْتِبْعَادُ صُعُودِ الْبَشَرِ لَجَازَ اسْتِبْعَادُ نُزُولِ المَلَائِكَةِ، وَذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى إِنْكَارِ النُّبُوَّةِ وَهُوَ كُفْرٌ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْحِكْمَةُ فِي الْإِسْرَاءِ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ أَوَّلًا؟ فَالجَوَابُ ـ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ـ: أَنَّهُ كَانَ ذَلِكَ إِظْهَارًا لِصِدْقِ دَعْوَى الرَّسُولِ ﷺ المِعْرَاجَ، حِينَ سَأَلَتْهُ قُرَيْشٌ عَنْ نَعْتِ بَيْتِ المَقْدِسِ، فَنَعَتَهُ لَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ عِيرِهِمُ الَّتِي مَرَّ عَلَيْهَا فِي طَرِيقِهِ، وَلَوْ كَانَ عُرُوجُهُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ مَكَّةَ لَمَا حَصَلَ ذَلِكَ؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ اطِّلَاعُهُمْ عَلَى مَا فِي السَّمَاءِ لَوْ أَخْبَرَهُمْ عَنْهُ، وَقَدِ اطَّلَعُوا عَلَى بَيْتِ المَقْدِسِ، فَأَخْبَرَهُمْ بِنَعْتِهِ.

وَفِي حَدِيثِ المِعْرَاجِ دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِ صِفَةِ الْعُلُوِّ لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ وُجُوهٍ، لِمَنْ تَدَبَّرَهُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

قال الشيخ:

تفسير هذه الآيات من سورة النجم قول الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، المعلَّم: هو النَّبيُّ ﷺ، والمعلِّم هو شديد القوى، وهو الملك، أي: جبريل عليه السلام، وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، أي: ذو قوَّة، ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾، الاستواء هنا: الارتفاع، ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، أي: ارتفع بالأفق الأعلى، والأفق واحد، والآفاق وهي الجهات المتقابلة، فعلَّمه واستوى وارتفع، وهو

بالآفق الأعلى، ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾، أي: قرب منه، وذلك بعدما عرج به إلى السَّماء، ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾، التدلِّي والدنوُّ هنا للملك الَّذي هو جبريل، أي: قرب منه، و﴿ دَنَا ﴾، يعني: انحدر إليه ونزل إليه، ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾، القوس: هو الجهاز الَّذي يُرمى به، ويتَّخذونه آلةً للرَّمي به، وكانوا يرمون به قبل وجود الأسلحة الجديدة، فيقول: إنَّه دنا منه وقرب وهو يراه حتَّى كان منه قدر قوسين أو أقرب من القوسين، هذا معنى ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾.

وأمَّا قوله: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم:١٠]، فلا شكَّ أنَّ الوحي من الله تعالى؛ لأنَّه الذي أوحى إلى عبده، وسواءً كان العبد هو الملك أو البشر؛ فالوحي من الله إلى الملك الذي هو جبريل، ومن الملك إلى البشر الذي هو محمد عليهما الصَّلاة والسَّلام، أوحى إليه الشيء الَّذي أوحى.

أمَّا قوله: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم:١١]، الرُّؤية هنا قلبية، أي: ما كذب الفؤاد الرُّؤيا الَّتي رآها، وهذا دليل على أنَّه ﷺ كُشف له، وأُعطي مكاشفات وأنوارًا وفتوحات فتحت على قلبه، فاستنار قلبه، فأصبح كأنَّه يرى ربَّه رأي عين، وإنَّما ذلك رؤية بالقلب، وهذا معنى قول السَّلف: إنَّه ﷺ رأى ربَّه بقلبه، يعني: بتلك الكشوفات والفتوحات والواردات الَّتي ترد على قلبه، مِمَّا يطمئن به ويقوى بذلك يقينه، فهذا دليلٌ على أنَّه لم يرَ ربَّه رؤيةً بصريَّة؛

لقوله ﷺ في الحديث السَّابق لَـمَّا قيل له: هَل رَأَيتَ رَبَّكَ ؟ فَقَال: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»، أي دونه أنوارٌ فكيف أراه، وَفِي رِوَايَةٍ: «رَأَيْتُ نُورًا»(١).

فإذًا الرُّؤية هنا رؤية قلبية، ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾، وفي قراءة: {مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ}(٢)، أي: لم يكذب بما رآه من الكشوفات والإلهامات والواردات الَّتي وردت عليه.

وأمَّا قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم:١٣]، فالرُّؤية هنا أيضًا للملك، أي: ولقد رأى جبريل - عليه السلام - نزلةً أخرى، أي: مرَّة أخرى، هذه مرَّة رأى فيها جبريل - عليه السلام - وهو في السَّماء على الهيئة والصُّورة الَّتي خلق عليها وقد سدَّ الأفق وله ستُّ مئة جناح، والمرة الأولى ذُكرت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير:٢٣]، رآه بالأفق الأعلى ورآه بالأفق المبين، كما في حديث ابن مسعود ﷺ قال: «رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ منها قد سَدَّ الأُفُقَ، يَسْقُطُ من جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ»(٣).

إذًا ثبت أنَّ عائشة - رضي الله عنها - لَـمَّا سُئلت عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٨٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٤٩).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥)، والطبري (٢٧/ ٤٩)، وأصله عند البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) مختصرًا.

رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾، فقالت: أنا أَوَّلُ هذه الْأُمَّةِ سَأَلَ عن ذلك رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فقال: «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيها غير هَاتَيْنِ المَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا من السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ ما بين السَّمَاءِ إلى الأرض»(١)، رآه هذه المرة بالأفق الأعلى عند سدرة المنتهى، وهي سدرة عظيمة في الجنة، قد أخبر ﷺ بأنَّ نَبْقَهَا - يعني: حملها - مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ - والقلال: جمع قلَّة، وهي: الأزيار الَّتي تعمل للمياه ونحوها - وأنَّ وَرَقَهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيَلَةِ، هذه هي سدرة المنتهى، عندها جنَّة المأوى.

فهذه الآيات من هذه السُّورة فيها الدَّليل على أنَّه ﷺ عُرج به، ورأى جبريل وهو بالأفق الأعلى، ودنا فتدلَّى ودنا منه، وأنَّ الله تعالى أوحى إليه ما أوحى من فرض الصلوات الخمس.

فهذا مثالٌ للإيمان بالغيب أو للأشياء التي لا تدركها الحواسُّ، أو يستغربها الإنسان إذا سمع بها، ويقول: بشرٌ خُلق من الأرض، فكيف مع ذلك رفع إلى السماء، وخرق السموات سماءً فوق سماء، ثم نزل وهو على هيئته، وبحياته التي هو عليها؟ والإنسان خلق من الأرض ولا يستطيع أن يفارقها؟

نقول: إن ذلك خلق الله وتقديره، وهو الذي يدبِّر الأشياء كما يشاء، فهو الذي خلق الإنسان، وأعطاه الحياة على هذه الأرض، وأنزل عليها آدم وذريته،

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٧٥).

وقال: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه:٥٥]، وقال: ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف:٢٥]، فالمعلوم أن الإنسان خلق من هذه الأرض، ولكن لا مانع من أن يرفع إلى السماء إذا شاء الله تعالى، ثم يهبط منها، ويكون مأواه ومماته على الأرض، ومنها يبعث، كما حصل له ـ عليه الصلاة والسلام ـ وللرسل من قبله.

قال الطحاوي:

وَالحَوْضُ - الَّذِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ غِيَاثًا لِأُمَّتِهِ - حَقٌّ.

قال الشارح:

الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي ذِكْرِ الحَوْضِ تَبْلُغُ حَدَّ التَّوَاتُرِ، رَوَاهَا مِنَ الصَّحَابَةِ بِضْعٌ وَثَلَاثُونَ صَحَابِيًّا، وَلَقَدِ اسْتَقْصَى طُرُقَهَا شَيْخُنَا الشَّيْخُ عِمَادُ الدِّينِ بْنُ كَثِيرٍ، تَغَمَّدَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ، فِي آخِرِ تَارِيخِهِ الْكَبِيرِ، الْمُسَمَّى بِـ «الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ»(١).

فَمِنْهَا: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢) - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى صَنْعَاءَ مِنَ الْيَمَنِ، وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ». وَعَنْهُ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي، حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمُ اخْتَلَجُوا(٣) دُونِي، فَأَقُولُ: أُصَيْحَابِي، فَيَقُولُ: لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ(٥) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: «أَغْفَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِغْفَاءَةً، فَرَفَعَ رَأْسَهُ مُبْتَسِمًا، إِمَّا قَالَ لَهُمْ، وَإِمَّا قَالُوا لَهُ: لِمَ ضَحِكْتَ؟ فَقَالَ

---

(١) (١٩/ ٤٢٣ - ٤٧٢) بتحقيق د. عبدالله التركي.

(٢) برقم (٦٥٨٠).

(٣) يُخْتَلَج: يُجتذب ويقتطع. انظر: لسان العرب (خلج).

(٤) برقم (٢٣٠٤).

(٥) في المسند (٣/ ١٠٢).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ»، فَقَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:١]، حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟»، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هُوَ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - فِي الْجَنَّةِ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدَ الْكَوَاكِبِ، يُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ».

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ[١]، وَلَفْظُهُ: «هُوَ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وَالْبَاقِي مِثْلُهُ.

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَشْخُبُ[٢] فِيهِ مِيزَابَانِ مِنْ ذَلِكَ الْكَوْثَرِ إِلَى الْحَوْضِ، وَالْحَوْضُ فِي الْعَرَصَاتِ قَبْلَ الصِّرَاطِ؛ لِأَنَّهُ يُخْتَلَجُ عَنْهُ، وَيُمْنَعُ مِنْهُ أَقْوَامٌ قَدِ ارْتَدُّوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ لَا يُجَاوِزُونَ الصِّرَاطَ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ[٣] وَمُسْلِمٌ[٤] عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ». وَالْفَرَطُ: الَّذِي يَسْبِقُ إِلَى الْمَاءِ.

---

(١) برقم (٤٠٠).

(٢) يَشْخُبُ: يسيل، والشخب: السيلان. انظر: لسان العرب (شخب).

(٣) برقم (٦٥٨٩).

(٤) برقم (٢٢٨٩).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ(١) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ الأَنْصَارِيِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ». قَالَ أَبُو حَازِمٍ: فَسَمِعَنِي النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ - وَأَنَا أُحَدِّثُهُمْ هَذَا - فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتَ مِنْ سَهْلٍ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. فَقَالَ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ لَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَزِيدُ فِيهَا: «فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالَ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي». سُحْقًا: أَيْ بُعْدًا.

قال الشيخ:

هذا من الإيمانِ أيضًا بالغيب، وهو الإيمان بيوم القيامة وما يكون فيه.

قد أخبر الله تعالى بالبعث بعد الموت، وبحشر الأجساد، وبإعادة الأرواح إلى أجسامها، وبجمع الناس كلّهم ليوم لا ريب فيه، يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين:٦]، يعني: يقومُ أوّلُهم وآخرهم. ويقول تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة:٤٩، ٥٠]، فالإيمانُ بالبعث بعد الموت، ركن من أركان الإيمان بالله تعالى، ويؤمن العبد بما يكون في ذلك اليوم مما أخبر الله به، وأخبر به رسوله ﷺ، وتفاصيل

---

(١) برقم (٧٠٥٠) باختلاف يسير، وأخرجه مسلم (٢٢٩٠).

ذلك مذكورة في أحاديث النبي ﷺ، ومجملها وارد في كلام الله سبحانه وتعالى.

ومن ذلك ذكر الحوض، فقد ورد فيه أحاديث كثيرة بلغت حدّ التواتر، زادت على رواية أربعين صحابيًا، رووا ذكر الحوض عن النبيّ ﷺ، ورواها أئمَّةُ السّنة وعلماء الأمّة في مؤلّفاتهم بألفاظ متعدّدة، وطرق كثيرة، وروايات مجموعها يقطع به صحته، ولا يُلتفت إلى من أنكره.

وقد ورد أيضًا دليل ذلك في القرآن في سورة الكوثر، وقد فسَّر النبيُّ ﷺ الكوثر في هذا الحديث بأنّه نهر في الجنّة، أعطاه الله نبيّه ﷺ، ماؤه أشدّ بياضًا من اللبن، وهو أحلى من العسل، وكذلك أخبر بأنّه أُعطي هذا الحوض المورود في عرصات القيامة، وأنه يصب فيه ميزابان من نهرالكوثر، فهو جزءٌ أو فرعٌ أو امتدادٌ للكوثر الذي أُعطيه في الجنّة.

والحوض معروف عند العرب، فهو الإناء الذي يُتَّخَذ من الجلود، تُسقى به الإبِلُ أو الغنم ونحوها، عادةً يحملونه على ظهور الإبل، فإذا وردوا أو أقبلوا على المياه أرسلوا واردًا يصلح لهم الوِرد، ويسمّون ذلك الوارد الذي يتقدّمهم الفَرَط، فيقولون: أنت فَرَطنا يا فلان، يعني: أنّك الذي تتقدّم أمامنا إلى ذلك المورد، وتصلح لنا الورد، فإذا وردوا بدوابّهم، وإذا هو قد ملأ الحوض ماءً، وقد ركّب البكرة التي يستقى عليها، وقد انتزع من الماء بقدره، فيبدؤون في سقي دوابّهم إلى أن تنهل وتروى، فتشرب من ذلك الحوض.

أما الحوض الذي أعطاه الله نبيّنا ﷺ في الآخرة، فهو نهرٌ ليس مصنوعًا من جلود ولا من أوانٍ، الله أعلم بما صُنع منه، ولكنه ممتدّ، وقد روي أنّه

مسيرة شهرٍ في شهر[1]، يعني: طوله مسيرةُ شهر، وعرضه مسيرةُ شهر؛ بالسّير المعروف في ذلك الزّمان، وقُدّر في بعض الروايات: «كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءِ»[2]، فصنعاء: عاصمة اليمن، وأيلة: مدينة في الشام، يعني: طوله من ذلك المكان إلى ذلك المكان، وفي بعض الروايات أنّه «لَأَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ»[3]، وعدن ـ أيضًا ـ مدينة معروفة في اليمن، ولعلّ ذلك باختلاف جهاته، وبكلّ حال فإنَّه على هذا حوضٌ واسعٌ طويلٌ ممتلئٌ ماءً.

وورد في هذه الرويات أنَّه يشخُب فيه ميزابان من الجنّة، أو من الكوثر، وأنّ فيه آنية، والآنية: الكؤوس التي يُشرب بها، آنيته «كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ»[4]، يعني: في الكثرة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، يرد عليه المؤمنون، ويذاد عنه المنافقون، أخبر بأنه يرد عليه أناس فيعرفهم، فإذا أقبلوا إليه وعرفهم احتجزوا، وحيل بينه وبينهم! فيقول: أصحابي!! يعني مِمّن أسلموا معي وعرفتهم، فيقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك، يعني: من المرتدّين، أو من المنافقين، أو من المتسمّين بالإسلام وليسوا بمسلمين، أما المؤمن حقًّا الذي ثبت على الإيمان سواءً من الصحابة أو مِمّن بعد الصحابة، فإنّه يرد على ذلك

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٨٠)، ومسلم (٢٣٠٣) من حديث أنس ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٨) من حديث حذيفة ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٨٠)، ومسلم (٢٣٠٣) من حديث أنس ﷺ.

الحوض، ويشرب منه شربةً هنيئةً مريئةً لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنّة، وذلك لما جعل الله في ذلك الماء من الشفاء، ولما جعل فيه من اللذّة، إذا كان ماؤه أشدّ بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل الذي هو غايةٌ في الحلاوة وفي اللذّة، وأنّ الشربة منه لا يعادلها شيءٌ، فيؤمن العبد المؤمن بذلك.

ورد في بعض الروايات أنّ لكلّ نبيٍّ حوضًا، ولكن نبيّنا ﷺ أكثرهم واردًا[١]، يعني: أوسعهم حوضًا وأكثرهم واردًا، وأمّته المتّبعون له أكثر من غيرهم من الأمم، وذلك لأنّ الذين صدّقوه واتّبعوه وحقّقوا اتّباعه وصاروا من أتباعه عددهم لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى.

والصحيح أنّ الحوض في عَرَصات القيامة قبل أن يعبروا الصراط، لكن ورد في بعض الروايات أنّهم إذا نزلوا وهم ظِماءٌ، فيردُون عليه كورود الناهلة على حوضها[٢]، ولعلّه يمتدّ أيضًا إلى طرف الصراط، فلا مانع أن يكون معظمه في عرصات القيامة، وقبل أن يركبوا الصراط، ثم بعدما ينزلون من الصراط يجدون له طرفًا، ثم بعد ذلك يشربون منه، ويدخلون الجنّة كما أخبر الله تعالى.

فيؤمن المسلمون بذلك، وإن لم تدركه عقولهم، ويؤمنون بما أخبر به

---

(١) سيأتي ذلك في كلام الشارح.

(٢) كما في حديث لقيط بن عامر ﷺ، الذي أخرجه أحمد (٤/ ١٣)، وفيه: «فَتَطَّلِعُونَ على حَوْضِ الرَّسُولِ على أظمأ والله نَاهِلَةٍ عليها قَطُّ ما رَأَيْتُهَا».

نبيّهم ﷺ، وأنّ هذا من كرامة هذا النبيّ عليه الصلاة والسلام، ومعلوم أنّه يقف على الحوض، وينظر من يرد عليه، وكذلك يكون معه ملائكة يأذنون في ورود البعض الذين ليسوا من الأمّة حقًّا، فالذي لا يرد الحوض يبقى على ظمئه، وعلى جهده، وعلى ما يلاقيه من الشقاوة والتعب، والذين يردون يطمئنّون للشرب، ويلتذّون بذلك، ويعرفون بذلك أنّهم من أهل السعادة وأهل الخير، وهؤلاء الذين يردون عليه هم أهل السنّة والجماعة، أهل الاتّباع لا أهل الابتداع، ولأجل ذلك يرد المبتدعة المرتدّون الذين أحدثوا، فيُقال: «**إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**».

فالذي يرجو أن يكون من أتباع صاحب الحوض المورود، ويرجو أن يرد ذلك الحوض، وينهل منه؛ عليه باتّباع السنّة، وعليه بالتصديق بما جاء عن نبيّ الأمّة، وعليه بالعمل الصالح، وتحقيق التصديق الذي التزمه، فبذلك يكون من أهل السعادة إن شاء الله.

قال الشارح:

وَالَّذِي يَتَلَخَّصُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي صِفَةِ الحَوْضِ: أَنَّهُ حَوْضٌ عَظِيمٌ، وَمَوْرِدٌ كَرِيمٌ، يُمَدُّ مِنْ شَرَابِ الجَنَّةِ، مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ، الَّذِي هُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ، وَهُوَ فِي غَايَةِ الِاتِّسَاعِ، عَرْضُهُ وَطُولُهُ سَوَاءٌ، كُلُّ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ مَسِيرَةُ شَهْرٍ. وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ: «أَنَّهُ كُلَّمَا شُرِبَ مِنْهُ وَهُوَ فِي زِيَادَةٍ وَاتِّسَاعٍ، وَأَنَّهُ يَنْبُتُ فِي حَالٍ مِنَ الْمِسْكِ وَالرَّضْرَاضِ مِنَ اللُّؤْلُؤِ قُضْبَانَ الذَّهَبِ، وَيُثْمِرُ أَلْوَانَ الجَوَاهِرِ»[1]، فَسُبْحَانَ الخَالِقِ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي أَحَادِيثَ: إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا، وَإِنَّ حَوْضَ نَبِيِّنَا ﷺ أَعْظَمُهَا وَأَحْلَاهَا وَأَكْثَرُهَا وَارِدًا[2]. جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْقُرْطُبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي «التَّذْكِرَةِ»[3]: وَاخْتُلِفَ فِي الْمِيزَانِ وَالحَوْضِ: أَيُّهُمَا يَكُونُ قَبْلَ الْآخَرِ؟ فَقِيلَ: الْمِيزَانُ، وَقِيلَ: الحَوْضُ. قَالَ أَبُو الحَسَنِ الْقَابِسِيُّ: وَالصَّحِيحُ أَنَّ الحَوْضَ قَبْلُ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَالمَعْنَى يَقْتَضِيهِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَخْرُجُونَ عِطَاشًا مِنْ قُبُورِهِمْ - كَمَا تَقَدَّمَ - فَيُقَدَّمُ قَبْلَ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٩٨) من حديث ابن مسعود ﷺ. والحال: الطين، والرضراض: الحصى.

(٢) كما في حديث سمرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا، وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً»، أخرجه الترمذي (٢٤٤٣)، والطبراني في الكبير (٦٨٨١)، والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ٤٤).

(٣) (١/ ٣٠٢، ٣٠٤).

الْمِيزَانِ وَالصِّرَاطِ. قَالَ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي كِتَابِ «كَشْفِ عِلْمِ الْآخِرَةِ»: حَكَى بَعْضُ السَّلَفِ مِنْ أَهْلِ التَّصْنِيفِ، أَنَّ الْحَوْضَ يُورَدُ بَعْدَ الصِّرَاطِ، وَهُوَ غَلَطٌ مِنْ قَائِلِهِ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: هُوَ كَمَا قَالَ، ثُمَّ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِكَ أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، بَلْ فِي الْأَرْضِ الْمُبَدَّلَةِ، أَرْضٍ بَيْضَاءَ كَالْفِضَّةِ، لَمْ يُسْفَكْ فِيهَا دَمٌ، وَلَمْ يُظْلَمْ عَلَى ظَهْرِهَا أَحَدٌ قَطُّ، تَظْهَرُ لِنُزُولِ الْجَبَّارِ - جَلَّ جَلَالُهُ - لِفَصْلِ الْقَضَاءِ. انْتَهَى.

فَقَاتَلَ اللَّهُ الْمُنْكِرِينَ لِوُجُودِ الْحَوْضِ، وَأَخْلِقْ بِهِمْ أَنْ يُحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ وُرُودِهِ يَوْمَ الْعَطَشِ الْأَكْبَرِ.

قال الشيخ:

في هذه الفقرة ملخّص صفة الحوض المورود من حيث طوله وعرضه، وأنّه مربّع وله أربع زوايا، كل زاوية منه مسيرةُ شهر، ماؤه أشدُّ بياضًا من اللبن الذي هو في غاية البياض، وأحلى من العسل الذي هو أشدُّ الأشياء حلاوةً، وأطيبُ ريحًا من المسك، له رائحةٌ عبقةٌ طيّبةٌ، وذكر أيضًا أنّه ينبت في جوانبه وفي رضراضه من النّبات الذي يكون مبهجًا للنفوس؛ من اللؤلؤ والمرجان وأنواع الجواهر، منَّ الله به عليهم، إنّ الله على كل شيءٍ قدير. وأنّه يردهُ المؤمنون ويُذادُ عنه الكافرون والمكذّبون والمنافقون، وأنّه يكون قبل الميزان وقبل الصراط؛ وذلك لأن النّاس يبعثون من قبورهم حفاةً عراةً غُرْلًا بُهمًا، ويكونون في تلك الحال عطاشًا، شديدٌ عطشهم، فهم بحاجةٍ إلى ما

يدفعون به ذلك العطش، فيردون لينهلوا من الحوض، حتى إذا رووا بعد ذلك اطمأنّوا، عند ذلك يفصل بينهم، فتنصب الموازين، وينصب الصراط، وتوزن الأعمال، وتتطاير الصحف، ويُعرف بذلك أهل السعادة من أهل الشقاوة، حتى يفصل الله تعالى فيما بينهم.

والذين أنكروا هذه الأمور الواردة خليق بهم وحريّ بهم أن يحال بينهم وبين وروده كما أنّهم كذّبوه، وكما أنّ الذين كذّبوا برؤية الله تعالى خليق بهم أن يكونوا عن ربّهم محجوبين، كالذين أنكروا الأمور التي أخبر الله بها، وأخبر بها رسوله ﷺ، لا شكّ أنّهم مكذّبون لم يصدّقوا التصديق اللازم لهم، ولم يأتوا بما يجب عليهم، إنّما صدّقوا بما يناسب أهواءهم، والواجب على المسلم أن يصدّق بكل ما جاء من الله تعالى، سواءٌ أدركه عقله أو لا، فيكون بذلك حقًا من الذين يؤمنون بالغيب، ومن الذين يصدّقون رسله، ومن الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قال الطحاوي:

وَالشَّفَاعَةُ الَّتِي ادَّخَرَهَا لَهُمْ حَقٌّ، كَمَا رُوِيَ فِي الْأَخْبَارِ.

قال الشارح:

الشَّفَاعَةُ أَنْوَاعٌ: مِنْهَا مَا هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ، وَمِنْهَا مَا خَالَفَ فِيهِ الْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ.

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: الشَّفَاعَةُ الْأُولَى، وَهِيَ الْعُظْمَى، الْخَاصَّةُ بِنَبِيِّنَا ﷺ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ إِخْوَانِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

فِي «الصَّحِيحَيْنِ» وَغَيْرِهِمَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ ـ أَحَادِيثُ الشَّفَاعَةِ.

مِنْهَا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِلَحْمٍ، فَدُفِعَ إِلَيْهِ مِنْهَا الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً، ثُمَّ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ

الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ نُوحٌ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى: فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، قَالَ: هَكَذَا هُوَ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونِي، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ

رَسُولُ اللَّهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ذَنْبَكَ، مَا تَقَدَّمَ مِنْهُ وَمَا تَأَخَّرَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَقُومُ، فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَمَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى». أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[١] بِمَعْنَاهُ، وَاللَّفْظُ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ[٢].

قال الشيخ:

هذا أيضًا من كرامات النبيّ ﷺ، وهو الإيمان بالشفاعة التي هي شفاعته لأهل الموقف في إراحتهم من ذلك الموقف، فيؤمن بذلك أهل السنّة، وقد أنكرت ذلك الخوارج والمعتزلة، وغلا بعض المشركين، وأثبتوا الشفاعة من دون إذن الله سبحانه وتعالى، وقول أهل السنّة هو الوسط، وهو أنه يشفع،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

(٢) في المسند (٢/ ٤٣٥).

وكذلك غيره، ولكن لا يشفع أحدٌ عند الله إلا بإذنه.

فالشفاعة عند الله تعالى في الآخرة بإذنه، ولهذا في هذا الحديث أنّه يقول: «اشْفَعْ تُشَفَّعْ»، فلا يُبدأ بالشفاعةِ أولًا حتى يأذن الله تعالى له بأن يشفع، وكذلك غيره من الأنبياء والملائكة، لا يشفعون إلا بعد إذن الله سبحانه وتعالى.

قال الشارح:

وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ، مِنْ إِيرَادِ الْأَئِمَّةِ لِهَذَا الْحَدِيثِ مِنْ أَكْثَرِ طُرُقِهِ، لَا يَذْكُرُونَ أَمْرَ الشَّفَاعَةِ الْأُولَى، فِي أن يَأْتِي الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، كَمَا وَرَدَ هَذَا فِي حَدِيثِ الصُّورِ، فَإِنَّهُ الْمَقْصُودُ فِي هَذَا الْمَقَامِ، وَمُقْتَضَى سِيَاقِ أَوَّلِ الْحَدِيثِ، فَإِنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يَسْتَشْفِعُونَ إِلَى آدَمَ فَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي أَنْ يَفْصِلَ بَيْنَ النَّاسِ وَيَسْتَرِيحُوا مِنْ مُقَامِهِمْ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ سِيَاقَاتُهُ مِنْ سَائِرِ طُرُقِهِ، فَإِذَا وَصَلُوا إِلَى الْجَزَاءِ إِنَّمَا يَذْكُرُونَ الشَّفَاعَةَ فِي عُصَاةِ الْأُمَّةِ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنَ النَّارِ.

وَكَانَ مَقْصُودُ السَّلَفِ فِي الِاقْتِصَارِ عَلَى هَذَا الْمِقْدَارِ مِنَ الْحَدِيثِ هُوَ الرَّدُّ عَلَى الْخَوَارِجِ وَمَنْ تَابَعَهُمْ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ، الَّذِينَ أَنْكَرُوا خُرُوجَ أَحَدٍ مِنَ النَّارِ بَعْدَ دُخُولِهَا، فَيَذْكُرُونَ هَذَا الْقَدْرَ مِنَ الْحَدِيثِ الَّذِي فِيهِ النَّصُّ الصَّرِيحُ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنَ الْبِدْعَةِ الْمُخَالِفَةِ لِلْأَحَادِيثِ.

وَقَدْ جَاءَ التَّصْرِيحُ بِذَلِكَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ، وَلَوْلَا خَوْفُ الْإِطَالَةِ لَسُقْتُهُ بِطُولِهِ، لَكِنْ مِنْ مَضْمُونِهِ: «أَنَّهُمْ يَأْتُونَ آدَمَ ثُمَّ نُوحًا، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى، ثُمَّ يَأْتُونَ رَسُولَ اللَّهِ مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَذْهَبُ فَيَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ فِي مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ: الْفَحْصُ، فَيَقُولُ اللَّهُ: مَا شَأْنُكَ؟ وَهُوَ أَعْلَمُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةَ، فَشَفِّعْنِي فِي خَلْقِكَ، فَاقْضِ بَيْنَهُمْ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: شَفَّعْتُكَ، أَنَا آتِيكُمْ فَأَقْضِي بَيْنَهُمْ، قَالَ: فَأَرْجِعُ فَأَقِفُ مَعَ النَّاسِ، ثُمَّ ذَكَرَ انْشِقَاقَ السَّمَوَاتِ، وَتَنَزُّلَ الْمَلَائِكَةِ فِي الْغَمَامِ، ثُمَّ يَجِيءُ الرَّبُّ

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَالْكَرُوبِيُّونَ وَالمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ يُسَبِّحُونَ بِأَنْوَاعِ التَّسْبِيحِ، قَالَ: فَيَضَعُ اللَّهُ كُرْسِيَّهُ حَيْثُ شَاءَ مِنْ أَرْضِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي أَنْصِتُ لَكُمْ مُنْذُ خَلَقْتُكُمْ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا أَسْمَعُ أَقْوَالَكُمْ، وَأَرَى أَعْمَالَكُمْ، فَأَنْصِتُوا إِلَيَّ، فَإِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ وَصُحُفُكُمْ تُقْرَأُ عَلَيْكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ، إِلَى أَنْ قَالَ: فَإِذَا أَفْضَى أَهْلُ الجَنَّةِ إِلَى الجَنَّةِ، قَالُوا: مَنْ يَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّنَا فَنَدْخُلُ الجَنَّةَ ؟ فَيَقُولُونَ: مَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْ أَبِيكُمْ، إِنَّهُ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ رُوحَهُ، وَكَلَّمَهُ قَبْلًا، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَطْلُبُونَ ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَذَكَرَ نُوحًا، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى، ثُمَّ مُحَمَّدًا ﷺ.

إِلَى أَنْ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَآتِي الجَنَّةَ، فَآخُذُ بِحَلْقَةِ الْبَابِ، ثُمَّ أَسْتَفْتِحُ، فَيُفْتَحُ لِي، فَأُحَيَّى وَيُرَحَّبُ بِي، فَإِذَا دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَنَظَرْتُ إِلَى رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - خَرَرْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَأْذَنُ لِي مِنْ حَمْدِهِ وَتَمْجِيدِهِ بِشَيْءٍ مَا أَذِنَ بِهِ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ لِي: ارْفَعْ يَا مُحَمَّدُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، فَإِذَا رَفَعْتُ رَأْسِي، قَالَ اللَّهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ -: مَا شَأْنُكَ؟ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةَ، فَشَفِّعْنِي فِي أَهْلِ الجَنَّةِ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: قَدْ شَفَّعْتُكَ، وَأَذِنْتُ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ». الحَدِيثَ. رَوَاهُ الْأَئِمَّةُ: ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ[1]، وَالطَّبَرَانِيُّ[2]،

---

(١) (٢/ ٣٣٠)، (٣٠/ ١٨٦).

(٢) في الأحاديث الطوال (ص٢٦٦).

وَأَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ(١)، وَالْبَيْهَقِيُّ(٢)، وَغَيْرُهُمْ(٣).

قال الشيخ:

ذكر العلماء أن أكثر أنواع الشفاعات التي اختصّ بها النبيّ ﷺ هي الشفاعة في يوم القيامة؛ لأجل إراحة الناس من طول الموقف، ولأجل فصل القضاء بينهم؛ وذلك لأنّ الموقف ـ الذي هو يوم القيامة ـ قد ذُكر من طوله ومن هوله، ومن ما يكون فيه من الغمّ والكرب، ومن العذاب والألم، ما الله تعالى به عليم، أما طوله: فقد ذكر الله أنّه كألف سنة مما تعدّون، وفي آية أخرى أنّ مقداره خمسون ألف سنة، ولعلّ ذلك لاختلاف تقديره عند الناس، أو في ظنّ الكثير من النّاس، لكنّه لا يحسّ بطوله أهل التوحيد، وأهل العقيدة، وأهل الأعمال الصالحة؛ وذلك لأنّهم ينعمون بذلك الموقف.

---

(١) في مسنده (٥/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٢) في شعب الإيمان (١/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٣) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٥٠): «هذا الحديث مشهور، وهو غريب جدًا، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة، وقد اختلف فيه، فمنهم من وثقه، ومنهم من ضعفه ... وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة، وقد أفردتها في جزء على حدة، وأما سياقه فغريب جدًا، ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقًا واحدًا، فأُنكر عليه بسبب ذلك».

كذلك من الهول الذي يناهم بالموقف شدّة الحرّ؛ كما ورد في حديث المقداد بن الأسود الذي رواه مسلم في «صحيحه»[١]، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُدْنَى الشَّمْسُ يوم الْقِيَامَةِ من الْخَلْقِ حتى تَكُونَ منهم كَمِقْدَارِ مِيلٍ ... فَيَكُونُ الناس على قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ في الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ من يَكُونُ إلى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ من يَكُونُ إلى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ من يَكُونُ إلى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ من يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا».

كذلك أيضًا شدّة الهول الذي يشاهدونه من طول الموقف ومما هم فيه من الكرب، يقول بعضهم لبعض: ألا تطلبون من يشفع لكم حتى يريحكم الله من هذا الموقف، وحتى تتخلّصوا منه إمّا إلى جنّةٍ وإمّا إلى نار؟

فعند ذلك يطلبون من يشفع لهم، فذكر في الحديث أنّهم يأتون أولًا إلى أبيهم آدم ـ عليه السلام ـ وهو أبو البشر، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنّته، يعني: خصّك بهذه الخصائص، ألا ترى إلى ما نحنُ فيه، ألا ترى إلى ما قد أصابنا، اشفع لنا إلى ربِّك، يعني ليريحنا من طول الموقف، فيعتذرُ آدم ـ عليه السلام ـ ويقول: وهل أخرجكم من الجنّة إلا ذنب أبيكم، فيعترف بأنّه أخطأ، وأنّه بسبب ذنبه أُخرج من الجنة، وقد كان من أهلها، لما أسكن فيها، وأخطأ تلك الخطيئة التي هي أكله من تلك الشجرة، أخرج منها إلى دار الشقاء، وهي دار الدنيا.

---

(١) برقم (٢٨٦٤).

وفي هذا تحذير من الأعمال السيِّئة التي تحرم من دخول الجنة، قال بعض السلف: آدم أخرج من الجنة بذنب واحد، وأنتم تعملون الذنوب وتكثرون منها، وترجون أن تدخلوا معها الجنة.

ويقول بعضهم[1]:

يَا نَاظِرًا يَرْنُو بِعَيْنَيْ رَاقِدِ ... وَمُشَاهِدًا لِلْأَمْرِ غَيْرَ مُشَاهِدِ
مَنَّيْتَ نَفْسَكَ ضَلَّةً وَأَلَحْتَهَا ... طُرُقَ الرَّجَاءِ وَهُنَّ غَيْرُ قَوَاصِدِ
تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي ... دَرْكَ الجِنَانِ بِهَا وَفَوْزَ الْعَابِدِ
وَنَسِيتَ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمًا ... مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدِ

والحاصل: أنَّ أباهم آدم ـ عليه السلام ـ يعترف بخطيئته، ويعتذر عن الشفاعة، ويقول: كيف أشفع وأنا مذنب، ثمَّ يحيلهم إلى نبيّ الله نوح عليه السلام.

فيأتون إليه ويقولون: يا نوح أنت أول الرسل، بُعثت إلى أهل الأرض، وسمّاك اللهُ عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربِّك، ونوح ـ عليه السلام ـ له ميزةٌ وفضيلة، ولكن لم يقبل أن يشفع لهم تواضعًا، وتعلّل واعتذر بأنّه قد دعا على قومه بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]، فاعتذر بذلك حيث دعا بهذه الدعوة، وأنّه ما كان دعا إلّا على الكفار والّذين

(١) هذه الأبيات من شعر محمود الوراق، رواها بسنده أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٤٠٤)، والخطيب البغدادي في الزهد والرقائق(ص٧٦).

يستحقّون الغرق، فاستجاب الله دعوته بإغراق أهلِ الأرض إلا أهل السفينة.

بعد نوح يأتون إلى إبراهيم ـ عليهما السلام ـ فيعتذر، ثم يأتون إلى موسى ـ عليه السلام ـ فيعتذر أيضًا، ثمّ إلى عيسى ـ عليه السلام ـ فيعتذر، ثم يأتون إلى النبي محمد ﷺ، فعند ذلك يقول: «أنا لها»؛ فإذا التزم يشفع، سجد لربّه، ثم إذا أذن له ربُّه تكلّم بعدما يفتح الله عليه من المحامد ومن الثّناء ما لا يحسنه الآن، يعني: أنَّ الله يلهمه من تمجيد ربه، وتحميده، والثناء عليه، ما الله به عليم، فبعد ذلك يرغب إلى ربِّه أن يفصل بين العباد، وأن يريحهم من ذلك الموقف.

بعد ذلك يستجيب الله دعوته فيفصل بينهم، ويقول: «إِنِّي أُنْصِتُ لَكُمْ مُنْذُ خَلَقْتُكُمْ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا أَسْمَعُ أَقْوَالَكُمْ، وَأَرَى أَعْمَالَكُمْ، فَأَنْصِتُوا إِلَيَّ، فَإِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ وَصُحُفُكُمْ تُقْرَأُ عَلَيْكُمْ»، فعند ذلك تنصب الموازين، وتنشر الدواوين، ويأتي دور الحساب، ويحاسب الله كلّ أحدٍ، ويتفرّق الكتاب، وتتطاير الصحف بالأيمان وبالشمائل، فآخِذٌ كتابه بيمينه، وآخذٌ كتابه بشماله، فيُسعد الله أقوامًا ويشقي آخرين، يُسعد أهل الدين وأهل التقوى وأهل الصلاح، ويُشقي أهل الفساد وأهل الكفر والعناد.

بعد ذلك يكون ما أخبر الله من كونه يميز هؤلاء من هؤلاء، فتفرق عليهم أنوار، فيمشون بأنوارهم، فينطفئ نور المنافق ونور الكافر، ثمَّ يتأخَّر فيضرب بينهم بسورٍ له باب، وذلك تميّز وفصل بين أهل التقوى وأهل الشقاوة والعياذ بالله، ثم بعدما يتميّزون، ويركبون الصراط، ويسلكونه جسرًا

على متن جهنّم، يمرّون عليه بقدر أعمالهم، كما ذكر في بعض الأحاديث أنّه: «أَدَقُّ من الشَّعْرَةِ، وَأَحَدُّ من السَّيْفِ»[1]، وأنّهم يسيرون عليه بأعمالهم، فمنهم من يمرّ عليه كالبرق، ومنهم من يمرّ كالريح، ومنهم من يمر كأجاود الخيل والرِّكاب، ومنهم من يعدو عدوًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يزحف زحفًا، وعلى جنبي الصراط كلاليب مثل شوك السَّعدان[2]، لا يعلم قدرها إلَّا الله تعالى، تخطف من أُمِرَت بخطفه، فناجٍ مسلَّم، ومخدوش، ومكدوس في النار تختطفه تلك الكلاليب، فإذا نجوا من الصراط وسلكوه، وكانوا قد وعدوا بأنَّهم يردون النار، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١]، قالوا: أين النار التي وعدنا الله أن نردّها؟ فيقال: إنّكم مررتم عليها وهي خامدة، يعني: مرّوا على الصراط وكان منصوبًا على متن جهنم، فإذا مرّ المؤمن لم يحسّ بلهبها، بل تقول: جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي، عند ذلك يوقفون على قنطرةٍ بين الجنّة والنار، ويقتصُّ من بعضهم لبعض مظالمَ كانت بينهم، فإذا هذّبوا ونُقّوا أُذِنَ لهم بدخول الجنّة، كما جاء في «صحيح البخاري»[3]، ولا يدخلونها إلا بعد أن يشفع لهم نبيّنا ﷺ، وهذه من خصائصه ومميزاته.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٢١): «السعدان: بفتح السين وإسكان العين المهملة، وهو نبت له شوكة عظيمة مثل الحسك من كل الجوانب».

(٣) برقم (٢٤٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

قال الشارح:

النَّوْعُ الثَّانِي وَالثَّالِثُ مِنَ الشَّفَاعَةِ: شَفَاعَتُهُ ﷺ فِي أَقْوَامٍ قَدْ تَسَاوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ، فَيَشْفَعُ فِيهِمْ لِيَدْخُلُوا الجَنَّةَ، وَفِي أَقْوَامٍ آخَرِينَ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ أَنْ لَا يَدْخُلُوهَا.

النَّوْعُ الرَّابِعُ: شَفَاعَتُهُ ﷺ فِي رَفْعِ دَرَجَاتِ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ فِيهَا فَوْقَ مَا كَانَ يَقْتَضِيهِ ثَوَابُ أَعْمَالِهِمْ. وَقَدْ وَافَقَتِ المُعْتَزِلَةُ هَذِهِ الشَّفَاعَةَ خَاصَّةً، وَخَالَفُوا فِيمَا عَدَاهَا مِنَ المَقَامَاتِ، مَعَ تَوَاتُرِ الأَحَادِيثِ فِيهَا.

النَّوْعُ الخَامِسُ: الشَّفَاعَةُ فِي أَقْوَامٍ أَنْ يَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَيَحْسُنُ أَنْ يُسْتَشْهَدَ لِهَذَا النَّوْعِ بِحَدِيثِ عُكَاشَةَ بْنِ مِحْصَنٍ، حِينَ دَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَجْعَلَهُ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَالحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1].

النَّوْعُ السَّادِسُ: الشَّفَاعَةُ فِي تَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَمَّنْ يَسْتَحِقُّهُ، كَشَفَاعَتِهِ فِي عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُ عَذَابُهُ.

ثُمَّ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي «التَّذْكِرَةِ»[2] بَعْدَ ذِكْرِ هَذَا النَّوْعِ: فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]. قِيلَ لَهُ: لَا تَنْفَعُهُ فِي الخُرُوجِ مِنَ النَّارِ، كَمَا تَنْفَعُ عُصَاةَ المُوَحِّدِينَ، الَّذِينَ يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨١١)، ومسلم (٢١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) (١/ ٢٤٩).

النَّوْعُ السَّابِعُ: شَفَاعَتُهُ أَنْ يُؤْذَنَ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ، كَمَا تَقَدَّمَ. وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[1] عَنْ أَنَسٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الجَنَّةِ».

النَّوْعُ الثَّامِنُ: شَفَاعَتُهُ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ، مِمَّنْ دَخَلَ النَّارَ، فَيَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَقَدْ تَوَاتَرَتْ بِهَذَا النَّوْعِ الْأَحَادِيثُ. وَقَدْ خَفِيَ عِلْمُ ذَلِكَ عَلَى الخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، فَخَالَفُوا فِي ذَلِكَ، جَهْلًا مِنْهُمْ بِصِحَّةِ الْأَحَادِيثِ، وَعِنَادًا مِمَّنْ عَلِمَ ذَلِكَ وَاسْتَمَرَّ عَلَى بِدْعَتِهِ.

وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ تُشَارِكُهُ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ وَالْمُؤْمِنُونَ أَيْضًا.

وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ تَتَكَرَّرُ مِنْهُ ﷺ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ.

وَمِنْ أَحَادِيثِ هَذَا النَّوْعِ: حَدِيثُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي». رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ[2] رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ[3]: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا مَعْبَدُ بْنُ هِلَالٍ الْعَنَزِيُّ، قَالَ: اجْتَمَعْنَا وَنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَذَهَبْنَا إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَذَهَبْنَا مَعَنَا بِثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ إِلَيْهِ، يَسْأَلُهُ لَنَا عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَإِذَا هُوَ فِي قَصْرِهِ، فَوَافَيْنَاهُ يُصَلِّي الضُّحَى،

---

(١) برقم (١٩٦).

(٢) في المسند (٣/ ٢١٣).

(٣) برقم (٧٥١٠).

فَاسْتَأْذَنَّا، فَأَذِنَ لَنا وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَى فِرَاشِهِ، فَقُلْنَا لِثَابِتٍ: لَا تَسْأَلْهُ عَنْ شَيْءٍ أَوَّلَ مِنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: يَا أَبَا حَمْزَةَ، هَؤُلَاءِ إِخْوَانُكَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، جَاؤُوكَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنا إِلَى رَبِّكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى، فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ، فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، لَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى، فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونِي، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا، لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ».

قَالَ: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ، قُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا لَوْ مَرَرْنَا بِالْحَسَنِ، وَهُوَ مُتَوَارٍ فِي مَنْزِلِ أَبِي خَلِيفَةَ [وَهُوَ جَمِيعٍ][1] فَحَدَّثْنَاهُ بِمَا حَدَّثَنَا بِهِ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، فَأَتَيْنَاهُ، فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لَنَا، فَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَلَمْ نَرَ مِثْلَ مَا حَدَّثَنَا فِي الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: هِيهْ؟ فَحَدَّثْنَاهُ بِالْحَدِيثِ، فَانْتَهَى إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ، فَقَالَ: هِيهْ؟ فَقُلْنَا لَمْ يَزِدْ لَنَا عَلَى هَذَا، فَقَالَ: لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهُوَ جَمِيعٌ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً، فَلَا أَدْرِي، أَنَسِيَ أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَّكِلُوا؟ فَقُلْنَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ، فَحَدِّثْنَا، فَضَحِكَ وَقَالَ: خُلِقَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا! مَا ذَكَرْتُهُ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ حَدِيثِي كَمَا حَدَّثَكُمْ، قَالَ: «ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي، لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ»[2].

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى عَنْ عُثْمَانَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ»[3].

---

(١) لم ترد في الأصول، وهي عند البخاري، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤٧٦): «أي: مجتمع العقل، وهو إشارة إلى أنه كان حينئذ لم يدخل في الكبر الذي هو مظنة تفرق الذهن وحدوث اختلاط الحفظ».

(٢) برقم (١٩٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٣١٣)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٦٠): «هذا إسناد =

وَفِي الصَّحِيحِ[(١)] مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ مَرْفُوعًا، قَالَ: «فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: شَفَعَتِ المَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ»، الحَدِيثَ.

ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ فِي الشَّفَاعَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

فَالْمُشْرِكُونَ وَالنَّصَارَى وَالْمُبْتَدِعُونَ مِنَ الْغُلَاةِ فِي المَشَايِخِ وَغَيْرِهِمْ: يَجْعَلُونَ شَفَاعَةَ مَنْ يُعَظِّمُونَهُ عِنْدَ اللَّهِ كَالشَّفَاعَةِ المَعْرُوفَةِ فِي الدُّنْيَا.

وَالْمُعْتَزِلَةُ وَالخَوَارِجُ أَنْكَرُوا شَفَاعَةَ نَبِيِّنَا ﷺ وَغَيْرَهُ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ.

وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، فَيُقِرُّونَ بِشَفَاعَةِ نَبِيِّنَا ﷺ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ، وَشَفَاعَةِ غَيْرِهِ، لَكِنْ لَا يَشْفَعُ أَحَدٌ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُ وَيَحُدَّ لَهُ حَدًّا، كَمَا فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ[(٢)]، حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «إِنَّهُمْ يَأْتُونَ آدَمَ، ثُمَّ نُوحًا، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى، فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ: اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَإِنَّهُ عَبْدٌ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَذْهَبُ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي

=

ضعيف لضعف طلاق بن أبي مسلم، رواه البزار في مسنده من طريق عنبسة بإسناده، ولفظه: «أول من يشفع الأنبياء، ثم الشهداء، ثم المؤذن»، ورواه أبو يعلى الموصلي في مسنده الكبير: ثنا إسحاق ثنا أحمد بن يونس، فذكره بإسناده ابن ماجه ومتنه سواء».

(١) أخرجه مسلم (١٨٣).

(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

خَرَرْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ يَفْتَحُهَا عَلَيَّ، لَا أُحْسِنُهَا الْآنَ، فَيَقُولُ: أَيْ مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: رَبِّ أُمَّتِي، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَنْطَلِقُ فَأَسْجُدُ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا». ذَكَرَ هَذَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

قال الشيخ:

هذه من أنواع الشفاعات التي خصَّ بها النبي ﷺ، وهي سبع:

النوع الأوّل ـ وهو أشهرها ـ: شفاعته لأهل الموقف أن يريحهم الله من طول الموقف، وأن ينزل الله ليفصل القضاء بينهم، حتى يدخل هؤلاء دارهم، وهؤلاء دارهم.

النوع الثاني: شفاعته في قومٍ تساوت حسناتهم وسيِّئاتهم في أن يدخلهم الله الجنة، وهم قومٌ لهم طاعاتٌ ومعاصٍ متساوية، كأنَّه لم يرجح ميزان هذا ولا هذا، ولكن كتب الله على نفسه: «**أنَّ رَحْمَتِي سبقت غَضَبِي**»(١)، فيتلقّاهم الله برحمته، ويقبل فيهم شفاعة نبيّه، فيدخلهم الجنّة، مع أنّ لهم سيئات تساوي حسناتهم.

بل إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا حاسب العبد، فإنه يقتصُّ من سيئاته لحسناته، فإذا بقي له حسنةٌ واحدةٌ ضاعفها وأدخله بها الجنّة، كما في قوله

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا ﴾ [النساء: ٤٠]، يعني: يجعلها أضعافًا مضاعفةً حتى يستحقّ بها الثواب.

النوع الثالث: شفاعتهُ ﷺ في قومٍ استحقّوا النار، وكأنّهم من أهل التوحيد، ولكن معهم سيّئات وذنوب من الكبائر التي توعّد عليها بالعذاب، فيدخلون الجنّة بعدما أُمر بهم؛ لأن فضل الله تعالى ورحمته تعمّ عباده الذين يشملهم اسمُ الإيمان، واسم التوحيد، واسم الاستجابة، فيشفع لهم لكونهم من أمّته، فيدخلون الجنّة.

النوع الرابع: الشفاعة لأهل الجنّة في أن يدخلوها، عندما يقفون عند أبواب الجنّة لا يدخلونها حتى يستفتح لهم النبي ﷺ، فأَوَّلُ من يستفتح باب الجنّة محمد ﷺ، وأوّل من يدخل الجنّة من الأمم أمّتهُ، فيقول خازن الجنّة: «بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»(١)، فهو يستأذن ويشفع إلى ربِّه في أن يفتح أبواب الجنّةِ، فيدخلها أهلها، ومع سعة أبواب الجنّة فقد ذكر أن للجنّة ثمانية أبواب، ولكن ما سعة الباب؟

ورد في الحديث: «أَنَّ ما بين مِصْرَاعَيْنِ من مَصَارِيعِ الجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عليها يَوْمٌ وهو كَظِيظٌ من الزِّحَامِ»(٢)، من كثرةِ من يدخل من تلك الأبواب الثمانية، الباب الواحد سعته مسيرة أربعين سنةً، ليس أربعين يومًا،

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٧) من حديث عتبة بن غزوان ﷺ.

ولا أربعين شهرًا، ما مقدار ذلك؟ الله أعلم بمنتهاه. ومع ذلك يأتي عليه يومٌ - الله أعلم بمقدار ذلك اليوم - وهو كظيظ من الزّحام من كثرة من يدخلُ من هذه الأمّة ومن غيرها.

النوع الخامس: شفاعته ﷺ لقومٍ أن يدخلوا الجنّة بغير حساب، ومنهم عُكَّاشة بن محصن ﷺ، لَـمّا قال النبيّ ﷺ: «يَدْخُلُ الجَنَّةَ من أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ»، قالوا: وَمَنْ هُمْ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتَوُونَ ولا يَسْتَرْقُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فَقَامَ عُكَّاشَةُ فقال: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي منهم، قال: «أَنْتَ مِنْهُم»[1]، يعني: كأنه شفع له أن يكون من الذين يدخلون الجنّة بغير حساب، ومنهم أيضًا غيره.

النوع السادس: الشفاعة لقوم من أهل الجنّة، ولكن مراتبهم نازلة، فيشفع لهم أن ترفع مراتبهم، وأن يُعطوا أجرًا، وأن يزاد لهم في الثواب، وفي مضاعفةِ الجزاء، وهذا النوع من الشفاعة اعترفت به المعتزلة، الذين أنكروا بقية الشفاعة؛ وذلك لأنّهم إنّما أنكروا الشفاعة لمن يُخْرَج من النّار أو من يستحقُّ النّار، أمّا أهل الجنّة، فأقرّوا بأنّه يكون فيها شفاعة في رفع المنازل ونحوها.

النوع السابع - وهو آخر الشفاعة الخاصّة به ﷺ -: الشفاعة في قومٍ استحقّوا النّار ودخلوها في أن يخفف عنهم من عذابها، ومن ذلك شفاعته لعمّه أبي طالب أن يخفّف الله عنه من العذاب، ذكر في الحديث أنّه يستحقّ أن يكون في الدّرك

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٧٣).

الأسفل من النار؛ لأنه عرف التوحيد ولكنّه لم يقبله، وعرف صِدق النبيّ ﷺ ولكنّه لم يتّبعه، ولكن بسبب نصرته للنبيّ ﷺ وحمايته له، وبسبب أنّه مكّنه من أن يدعو إلى الله، وقال له: صرِّح بما تريد فأنا أنصرك، فنصره وآواه حتّى بلّغ الرسالة، ولم يتجرّأ المشركون على النيل من النبيّ ﷺ في حياة أبي طالب، فخفف عنه العذاب بسبب نصرته للنبي ﷺ، فأصبح في ضحضاح من نار، ولكن ليس ذلك بهيّن، بل قد ذكر أن ذلك الضحضاح يغلي منه دماغه، ويرى أنّه لا أحد أشدّ منه عذابًا، وهو أخفّهم، وقد ورد في الحديث: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أبو طَالِبٍ، وهو مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»(١)، وفي رواية: «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يوم الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ من النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي منه أُمُّ دِمَاغِهِ»(٢). ومن شدّةِ حرارة هذا النعل يحمى جسده كلّه، حتى إنّ دماغه يكون له غليانٌ من شدّة حرّه، ما يرى أنّ أحدًا أشدّ عذابًا منه، وإنّه لأخفّهم.

نأخُذُ من هذه الأنواع ميزةً وفضيلةً لنبيّنا ﷺ، حيث خُصَّ بأنّه الذي يشفع هذه الأنواع من الشفاعات، يعني: الشفاعةُ العظمى التي هي لإراحة النّاس من الموقف، والشفاعةُ الثانيةُ التي هي في قومٍ تساوت حسناتهم وسيّئاتهم أن يدخلوا الجنّة، والشفاعة الثالثة التي في قومٍ استحقّوا النّار أو أُمِر بهم إلى النار؛ أن لا يدخلوها، والشفاعة الرابعة التي هي في أهل الجنّةِ؛ أن يفتح لهم، ولمن

(١) أخرجه مسلم (٢١٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

يدخلوها، والشفاعة الخامسة التي هي في بعض أهل الجنّة؛ أن تُرفع مراتبهم، وأن يزاد في ثوابهم، والشفاعة السادسة: التي في قومٍ أن يدخلوا الجنّة بغير حسابٍ، والشفاعة السابعة في بعض أهل النار أن يخفّف عنهم.

هذه أنواع من الشفاعة خاصّة بالنبيّ ﷺ، وبقيت نوعٌ من الشفاعة ليس خاصًّا به ﷺ، بل يشفع غيره من الملائكةِ والأنبياء والشهداء.

قال الشارح:

وَأَمَّا الِاسْتِشْفَاعُ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّعَاءِ، فَفِيهِ تَفْصِيلٌ: فَإِنَّ الدَّاعِيَ تَارَةً يَقُولُ: بِحَقِّ نَبِيِّكَ أَوْ بِحَقِّ فُلَانٍ، يُقْسِمُ عَلَى اللَّهِ بِأَحَدٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، فَهَذَا مَحْذُورٌ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ أَقْسَمَ بِغَيْرِ اللَّهِ.

وَالثَّانِي: اعْتِقَادُهُ أَنَّ لِأَحَدٍ عَلَى اللَّهِ حَقًّا.

وَلَا يَجُوزُ الْحَلِفُ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى اللَّهِ حَقٌّ إِلَّا مَا أَحَقَّهُ عَلَى نَفْسِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، وَكَذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[(١)] مِنْ قَوْلِهِ ﷺ لِمُعَاذٍ ﷺ، وَهُوَ رَدِيفُهُ: «يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟»، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟»، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّهُمْ عَلَيْهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ». فَهَذَا حَقٌّ وَجَبَ بِكَلِمَاتِهِ التَّامَّةِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ، لَا أَنَّ الْعَبْدَ نَفْسَهُ مُسْتَحِقٌّ عَلَى اللَّهِ شَيْئًا كَمَا يَكُونُ لِلْمَخْلُوقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُنْعِمُ عَلَى الْعِبَادِ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَحَقُّهُمُ الْوَاجِبُ بِوَعْدِهِ هُوَ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ، وَتَرْكُ تَعْذِيبِهِمْ مَعْنًى لَا يَصْلُحُ أَنْ يُقْسَمَ بِهِ، وَلَا أَنْ يُسْأَلَ بِسَبَبِهِ وَيُتَوَسَّلَ بِهِ؛ لِأَنَّ السَّبَبَ هُوَ مَا نَصَبَهُ اللَّهُ سَبَبًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

وَكَذَلِكَ الحَدِيثُ الَّذِي فِي «الْمُسْنَدِ»[١] مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِي قَوْلِ المَاشِي إِلَى الصَّلَاةِ: «أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا، وَبِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ»، فَهَذَا حَقُّ السَّائِلِينَ، هُوَ أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَهُوَ الَّذِي أَحَقَّ لِلسَّائِلِينَ أَنْ يُجِيبَهُمْ، وَلِلْعَابِدِينَ أَنْ يُثِيبَهُمْ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ[٢]:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ

إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ، أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الوَاسِعُ

فَإِنْ قِيلَ: فَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ قَوْلِ الدَّاعِي: (بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ)، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: (بِحَقِّ نَبِيِّكَ)، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ؟ فَالجَوَابُ: أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: (بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ) أَنَّكَ وَعَدْتَ السَّائِلِينَ بِالْإِجَابَةِ، وَأَنَا مِنْ جُمْلَةِ السَّائِلِينَ، فَأَجِبْ دُعَائِي، بِخِلَافِ قَوْلِهِ: بِحَقِّ فُلَانٍ فَإِنَّ فُلَانًا وَإِنْ كَانَ لَهُ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ بِوَعْدِهِ الصَّادِقِ، فَلَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ إِجَابَةِ دُعَاءِ هَذَا السَّائِلِ. فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: لِكَوْنِ فُلَانٍ مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ أَجِبْ دُعَائِي! وَأَيُّ مُنَاسَبَةٍ فِي هَذَا وَأَيُّ مُلَازَمَةٍ؟ وَإِنَّمَا هَذَا مِنَ الاعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥]، وَهَذَا وَنَحْوُهُ مِنَ الْأَدْعِيَةِ الْمُبْتَدَعَةِ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا عَنِ الصَّحَابَةِ، وَلَا عَنِ التَّابِعِينَ، وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَإِنَّمَا يُوجَدُ مِثْلُ هَذَا فِي الحُرُوزِ وَالهَيَاكِلِ الَّتِي يَكْتُبُ بِهَا الجُهَّالُ وَالطُّرُقِيَّةُ.

---

(١) (٣/ ٢١).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٣٣٩)، وبدائع الفوائد (٢/ ٣٩٠).

وَالدُّعَاءُ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ، وَالْعِبَادَاتُ مَبْنَاهَا عَلَى السُّنَّةِ وَالِاتِّبَاعِ، لَا عَلَى الْهَوَى وَالِابْتِدَاعِ.

قال الشيخ:

ها هنا ردٌّ على الذين يسألون الله تعالى بحقّ المخلوقين، ويقولون: إنّ المخلوق إذا كان مقرّبًا عند الله، فله منزلة ورفعةٌ، وله حقّ على الله، كالأنبياء والأولياء والصالحين. وهذا - كما قال الشارح - اعتداءٌ في الدعاء، والله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥]، والمعتدون في الدعاء: هم الذين يدعون بإثمٍ، أو يدعون بذنبٍ أو بشيءٍ لم يُشرع لهم، وهذا لم ينقل عن النبيّ ﷺ، ولا عن صحابته أنّهم سألوا بحقّ مخلوق، أو توسّلوا بحقّ مخلوق، لا بحقّ فلان، ولا بجاه فلان، ولا غير ذلك؛ فالمحذور فيه حَلِفٌ بحقّ مخلوق، والحلف بغير الله شرك.

وقد ثبت أنّ النبيّ ﷺ قال: «من حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أو أَشْرَكَ»(١)، فإذا قال: بحقّ فلانٍ، أو بالنبيّ، أو بالوليّ، أو بجاه فلان، أو بشرفي، أو بحياتي، أو بحياتك يا فلان، أو ما أشبه ذلك على وجه التأكيد؛ كان قد حلف بمخلوقٍ، فيكون هذا تعظيمًا لذلك المحلوف به، والنبيّ ﷺ قال: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ

---

(١) أخرجه أبوداود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وأحمد (٢/ ٣٤، ٦٩)، وابن حبان (١٠/ ١٩٩)، والحاكم (١/ ١٨)، والبيهقي (١٠/ ٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

بِاللَّـهِ أو لِيَصْمُتْ»[١]، وقال: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ، وَلَا بِالْأَنْدَادِ، وَلَا تَحْلِفُوا إلا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْلِفُوا بِاللَّـهِ إلا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ»[٢].

فأمرنا أن نتجنَّب الحلف بالآباء؛ كما كان المشركون يحلفون بآبائهم أو بأمّهاتهم، أو بأصنامهم، في قولهم: واللات والعزّى... ونحو ذلك، وفي الحديث قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ مِنْكُمْ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ بِاللَّاتِ، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إلا الله»[٣]؛ كأنّه أشرك فأُمر بأن يجدّد التّوحيد لِيُبطل الاعتقاد بأن اللات والعزّى معظّمةٌ، أو أنّها تستحقّ التعظيم، فكذلك إذا حلف بالوليّ فلان، أو بعليّ، أو بحسن، أو بحسين، أو بعيدروس، أو بابن علوان، أو بكذا وكذا... فإنّ هؤلاء مخلوقون لا يجوز الحلف بهم.

كذلك سؤال الله تعالى بحقّ المخلوقين، أو بجاه المخلوقين، هذا أيضًا شرك؛ وذلك لأنه ليس لأحد حقٌّ على الله تعالى إلا ما أحقّه على نفسه.

يتكرر في كتب القبوريين وعلى ألسن دعاتهم حديثٌ مكذوب يقولون: إنَّ النبيّ ﷺ قال: (إذا سألتم اللهَ فاسألوه بجاهي، فإنّ جاهي عند الله عظيم)، هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم (١٦٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبوداود (٣٢٤٨)، والنسائي (٣٧٦٩)، وابن حبان (١٠/ ١٩٩)، والبيهقي (١٠/ ٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (١٦٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ، وعلقه البخاري جازمًا به (باب من حَلَفَ بِمِلَّةٍ سِوَى مِلَّةِ الإِسْلَامِ) قبل حديث رقم (٦٦٥٢).

حديث مكذوب لا أصل له[1]، ما قاله النبيّ ﷺ، وحاشاه أن يأمر بأن يسألوا الله بجاهِهِ، وهو الذي يحب التواضع، والذي يعرف ربّه، وأنّ ربّه هو الذي يستحقّ التعظيم، فكيف يقول: اسألوا الله بجاهي فإنّ جاهي عند الله عظيم؟

فإذًا الذين يقولون: أسألك بجاه نبيّك، أو بحقّ نبيّك، أو بحقّ الوليّ فلان، أو بجاه الوليّ فلان، هؤلاء قد أشركوا؛ لأنَّهم عظَّموا هذا المخلوق وحلفوا به، وجعلوا له حقًا على الله، ومعلوم أنَّ الله تعالى هو الذي يتفضّل على العباد، وليس أحدٌ يملك من الله شيئًا، وليس على الله حقّ لأي مخلوق، بل هو الذي له الحق عليهم.

أمّا حديث معاذ ﷺ الذي ذكره الشارح، فالحقّ فيه حقّ تفضّلٍ، حقّ تكرّم. وقوله ﷺ: «حَقُّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، هذا حقّ وجوب، فعلى العباد كلّهم حقٌّ لله تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وأما حقّ العباد على الله أن لا يعذِّب من لا يشرك به شيئًا، فهذا ليس حقّ وجوب، بل هو حقّ تفضُّل وتكرُّم؛ وذلك لأنّه هو الذي وفَّقهم وأنعم عليهم، ثم هو وعدهم، وهو لا يخلف الميعاد، فقد وعد ـ سبحانه وتعالى ـ مَنْ وحَّده أنه يثيبه وينعّمه، وأنّه لا يعذّبه إذا فعل التوحيد الصحيح الصادق.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في التوسل والوسيلة (ص١٢٩): «هذا الحديث كذب، ليس في شيء من كتب المسلمين التي يعتمد عليها أهل الحديث، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث، مع أن جاهه عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين».

وإذا كان كذلك، فليس خاصًّا بنبيٍّ ولا بوليٍّ ولا بغيره. يقالُ: إذا كانَ للنبيِّ ﷺ حقٌّ على الله، فأنت كذلك لك أن توحِّد الله ولا تشرك به شيئًا، ولا تلتفت بقلبك إلى أي مخلوق، ولا تتعلّق على سيِّد، ولا على وليٍّ، ولا على شفيع، ولا على غيرهم، تعلّق بربِّك حتّى يرحمك، ويُنعّمك، ولا يعذّبك؛ فبذلك تكون من الذين استحقّوا هذا على الله حقّ تكرّم.

والبيت الذي ذكر يؤيّد أنّ هذا حقّ تكرّم وهو قولهم:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ، أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

فيقول هذا الشاعر: إنَّ العباد ليس لهم على الله حقٌّ، يعني: حقًّا واجبًا، وأنّ سعيهم وأعمالهم الصالحة لا تضيع، بل هي محفوظة يحصيها الله ثم يوفّيهم أجورهم، فمن وجد خيرًا فليحمدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلاَّ نفسه، فهذا حقُّ تكرّم، وإن عُذِّبوا فبعدله، ولا يعذّبهم ظلمًا، إنّما يعذّبهم عدلًا؛ لكونهم يستحقّون العذاب، وإذا نُعِّموا فبفضله، يعني: هو الذي تفضّل عليهم وهداهم، فهدايته لهم نعمة، لو أن الله تعالى عذّب أهل سمٰواته وأهل أرضه لعذّبهم وهم يستحقّون العذاب، ولا يكون ظالمًا لهم، ولو أنّه أنعم عليهم لكانت نعمته عليهم أفضلَ من أعمالهم.

أما الحديث الذي يكثر ما يستدلّ به القبوريون، وهو الحديث الذي روي عن أبي سعيد الخدري ﵁، أنّ النبيّ ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَخْرُجُ إِلَى الصَّلَاةِ:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ، وَبِحَقِّ ممشاي، فإني لم أَخْرُجْ أَشَرًا وَلاَ بَطَراً وَلاَ رِيَاءً وَلاَ سُمْعَةً، خَرَجْتُ اتِّقَاءَ سَخَطِكَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ، أَسْأَلُكَ أن تنقذني مِنَ النَّارِ وأن تَغْفِرَ لي ذنوبي، إنه لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ الا أنت»[1].

والجواب: أوّلًا أنّ هذا الحديث فيه ضعفٌ؛ لأن في إسناده عطيّة بن سعد العوفي، وهو ضعيف. ثم على تقدير صحته لا دلالة فيه، فليس معنى حقّ السائلين، يعني جاههم، وجاهُ النّاس كلهم سواءٌ، ولو كان كذلك لقال: أسألك بحقّ النبيّين، أو بحقّ الأولياء، أو بحقّ فلانٍ من الأولياء؛ كعبد القادر، أو البدوي أو نحوه...، ولكن قال: بحقّ السائلين، وما هو حقُّ السائلين؟ هو ما وعد الله من سأله بالثّواب، حقّ السائلين على الله أن يجيبهم، وحق العاملين أن يثيبهم، فهذا هو حقّهم الذي يسألون الله به، فكأنّك تقول: ياربّ أسألك بما جعلته حقًّا على نفسك لمن سألك أن تجيبه، فأنا من جملةِ السائلين، فأجب سؤالي وأثبني على أعمالي، ذلك لَـمّا كان هذا حقَّ السائلين كلهم، كنت أنت من السائلين، يقول: يا ربّ ! أنا من جملة السائلين، وقد جعلت للسائلين عليك حقًّا بقولك: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وبقولك: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وأنا من السائلين، فأسألك بما جعلته حقًا على نفسك، وبما وعدت السائلين أن تجيبهم.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٨٤).

أين من ذلك التوسُّل بالجاه؟ أين هو هنا التوسُّل بحقِّ المخلوق؟ ليس فيه توسّل بحقّ مخلوق. إذًا فكيف يتعلّق بهذا القبوريون الذين يدْعون فلانًا وفلانة، ويقولون: إنّ هؤلاء من جملةِ الذين أُمِرنا بأن نتوسّل بحقِّهم، وأن نسأل الله بحقّهم، فلا يُغْتَرُّ من يستدلّ بهذا الحديث على أنّه دليلٌ في جواز السؤال بحقِّ الأموات، أو بحقّ الأولياء، أو غير ذلك. فليس فيه أيضًا أيّ دليل.

وقد أورد العلماء هذا الحديث في الردِّ على من استدلَّ به من القبوريين، الذين جعلوه طعنًا على الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ الذي يمنع من السؤال بحقِّ المخلوق وجاهه أيًا كان؛ فكلّ من دعا مع الله أحدًا أشرك بالله ولو محمَّدًا. فيقولون: هذا دليلٌ على أنّه يجوز السؤال بحقِّ المخلوق، أين فيه السؤال بحقّ مخلوق؟ إنّما فيه سؤال بما جعل الله، يعني: كأنه يقول: أنت وعدت السائلين أن تجيبهم، وأنا من جملةِ السائلين فأجب سؤالي، فلا دلالة فيه على شيء مما يتعلَّقون به.

قال الشارح:

وَإِنْ كَانَ مُرَادُهُ الْإِقْسَامَ عَلَى اللَّهِ بِحَقِّ فُلَانٍ، فَذَلِكَ مَحْذُورٌ أَيْضًا؛ لِأَنَّ الْإِقْسَامَ بِالْمَخْلُوقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ لَا يَجُوزُ، فَكَيْفَ عَلَى الْخَالِقِ؟! وَقَدْ قَالَ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»(١). وَلِهَذَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَصَاحِبَاهُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -: يُكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الدَّاعِي: أَسْأَلُكَ بِحَقِّ فُلَانٍ، أَوْ بِحَقِّ أَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ، وَبِحَقِّ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. حَتَّى كَرِهَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِمَعْقِدِ الْعِزِّ مِنْ عَرْشِكَ، وَلَمْ يَكْرَهْهُ أَبُو يُوسُفَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَمَّا بَلَغَهُ الْأَثَرُ فِيهِ.

وَتَارَةً يَقُولُ: بِجَاهِ فُلَانٍ عِنْدَكَ، يَقُولُ: نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِأَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ وَأَوْلِيَائِكَ، وَمُرَادُهُ أَنَّ فُلَانًا عِنْدَكَ ذُو وَجَاهَةٍ وَشَرَفٍ وَمَنْزِلَةٍ، فَأَجِبْ دُعَاءَنَا. وَهَذَا أَيْضًا مَحْذُورٌ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ هَذَا هُوَ التَّوَسُّلُ الَّذِي كَانَ الصَّحَابَةُ يَفْعَلُونَهُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ لَفَعَلُوهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَوَسَّلُونَ فِي حَيَاتِهِ بِدُعَائِهِ، يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهُمْ، وَهُمْ يُؤَمِّنُونَ عَلَى دُعَائِهِ، كَمَا فِي الِاسْتِسْقَاءِ وَغَيْرِهِ. فَلَمَّا مَاتَ ﷺ قَالَ عُمَرُ ﷺ - لَمَّا خَرَجُوا يَسْتَسْقُونَ -: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا إِذَا أَجْدَبْنَا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا»(٢). مَعْنَاهُ: بِدُعَائِهِ هُوَ رَبَّهُ وَشَفَاعَتِهِ وَسُؤَالِهِ، لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّا نُقْسِمُ عَلَيْكَ بِهِ، أَوْ نَسْأَلُكَ بِجَاهِهِ عِنْدَكَ؛ إِذْ لَوْ كَانَ ذَلِكَ مُرَادًا لَكَانَ

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٠١٠) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

جَاهُ النَّبِيِّ ﷺ أَعْظَمَ وَأَعْظَمَ مِنْ جَاهِ الْعَبَّاسِ.

وَتَارَةً يَقُولُ: بِاتِّبَاعِي لِرَسُولِكَ، وَمَحَبَّتِي لَهُ، وَإِيمَانِي بِهِ، وَبِسَائِرِ أَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ، وَتَصْدِيقِي لَهُمْ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ مَا يَكُونُ فِي الدُّعَاءِ وَالتَّوَسُّلِ وَالِاسْتِشْفَاعِ.

فَلَفْظُ التَّوَسُّلِ بِالشَّخْصِ وَالتَّوَجُّهِ بِهِ فِيهِ إِجْمَالٌ، غَلِطَ بِسَبَبِهِ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ مَعْنَاهُ: فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ التَّسَبُّبُ بِهِ لِكَوْنِهِ دَاعِيًا وَشَافِعًا، وَهَذَا فِي حَيَاتِهِ يَكُونُ، أَوْ لِكَوْنِ الدَّاعِي مُحِبًّا لَهُ، مُطِيعًا لِأَمْرِهِ، مُقْتَدِيًا بِهِ، وَذَلِكَ أَهْلٌ لِلْمَحَبَّةِ وَالطَّاعَةِ وَالِاقْتِدَاءِ، فَيَكُونُ التَّوَسُّلُ إِمَّا بِدُعَاءِ الْوَسِيلَةِ وَشَفَاعَتِهِ، وَإِمَّا بِمَحَبَّةِ السَّائِلِ وَاتِّبَاعِهِ، أَوْ يُرَادُ بِهِ الْإِقْسَامُ بِهِ وَالتَّوَسُّلُ بِذَاتِهِ، فَهَذَا الثَّانِي هُوَ الَّذِي كَرِهُوهُ وَنَهَوْا عَنْهُ.

قال الشيخ:

ذُكِر الدليل على أنّه لا يجوز الإقسام بمخلوق على الله تعالى، في «كتاب التوحيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، باب ما جاء في الإقسام على الله، والإقسام على الله معناه: إلزام الله تعالى بشيء؛ كأن يقول: أقسمتُ عليك يا ربّ أن تفعل كذا، ولا شكَّ أنّ هذه جرأة كبيرة على الله، كيف تُلزم ربَّك بشيء؟ وكيف تقسم عليه بأن يفعل شيئًا وهو الذي يتصرّف في العباد، وما ورد في ذلك إنّما هو على وجه المثل، الحديث الذي يقول فيه ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ

بِالْأَبْوَابِ لو أَقْسَمَ على اللهِ لَأَبَرَّهُ »[١]، هذا بيانٌ أنّ هناك من هو متواضعٌ لله تعالى، لو قُدِّر أنَّه طلب من ربِّه وألحَّ في طلبه لأجاب دعوته، ولكن ليس فيه أنَّكم تقسمون على الله؛ فتقول: أقسمت عليك أن تنزل المطر، أقسمت عليك أن تشفي المريض، أقسمت عليك أن تنبت النبات، فهذا لا يجوز؛ لما فيه من إلزام الربِّ سبحانه بما لا يملكه العبد، فالعبد لا يملك إلا الدعاء، فيسأل ربّه ما يحبّه، يقول: يا ربّ نحن الفقراء وأنت الغني فأنزل علينا غيثك، يا ربّ نحن المذنبون وأنت العفوُّ، فاعفُ عنَّا، وما أشبه ذلك، وهذا المراد بالنهي عن الإقسام على الله.

ومن أراد التوسُّع في الأدلّة، فليقرأ في شرح الباب الذي ذكرنا في آخر كتاب التوحيد، وكذلك في «شرح فتح المجيد»، و«تيسير العزيز الحميد»، باب ما جاء في الإقسام على الله تعالى.

أما سؤال الله تعالى بحقّ مخلوق، فإنّ هذا أيضًا لا يجوز، وأنّ المخلوق ليس له أيُّ حقٍّ على الله، ولكن قد يكون السائل أراد بذلك محبَّة ذلك العبد، فيكون سأل الله تعالى وتوسّل إليه بعمل صالح، والتوسُّل إلى الله بالأعمال الصالحة من الأسباب الجالبة لإجابة الدعاء ولقبوله. وقد ذُكر لذلك أمثلة، فمثلًا إذا قلت: يا ربِّ، أسألك بأنّي عبدك الذليل، أسألك بأني مصدِّق بوعدك ووعيدك، أسألك بما عملته لك من الصالحات، فهذه توسّلات مباحة يرجى بذلك قبول الدعاء بها، وكذلك إذا توسّلت بمحبّة أولياء الله، فإن ذلك فيه أيضًا وسيلة لإجابة الدعاء،

(١) اخرجه مسلم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

كأن تقول: أسألك بأنّي أحبُّك، وأحبُّ نبيَّك، وأحبُّ عبادك الصالحين، أسألك بمحبَّتي لك، ومحبَّتي لهم أن تجيب دعوتي، أو أن تقيل عثرتي، أو ما أشبه ذلك، أو أن تقول: أسألك بإيماني بك، وتصديقي لنبيّك، واتّباعي لشريعته، وإيماني بما جاء به، وتصديقي بكتابك وعملي به، ونحو ذلك، تتوسّل إلى الله تعالى بأعمال خيريّة، والله تعالى يحبُّ من هو أهلٌ للإجابة، إذا كان صادقًا فيما قاله بقلبه، أو فيما قاله بلسانه.

فمثلًا إذا دعوت وقلت: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ من شَرِّ ما صَنَعْتُ...»[1]، يعني: توسّلت بأنّك ملتزم بعهد الله ووعده ما استطعت، فذلك من الأسباب.

كذلك إذا قلت: أسألك أن ترزقني عملًا صالحًا أكون به محبوبًا لك، وما أشبه ذلك، هذه أدعية نبويّة وأدعية فيها توسُّل بأعمال صالحة ودعاء بالأعمال الصالحة أو بالتوفيق لها.

ولم يرد عن السلف ـ رحمهم الله ـ أنهم قالوا في دعائهم: أسألك بحقِّ فلان، أو بحقِّ عبد القادر، أو بحقِّ السيِّد البدوي، أو بحقِّ ابن عباس، أو ما أشبه ذلك.

أما ما ورد من توسُّل عمر بالعباس ـ رضي الله عنهما ـ والذي كثيرًا ما يستدلّ به القبوريون، فيقولون: كيف تعيبون علينا أن نتوسّل بالصالحين، وهذا عمر توسَّل بالعبّاس؟ نقول: تأمّلوا قصة عمر ﷺ حتى تعرفوا ما فعله وما فعلتموه،

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس ﷺ.

والفرق الكبير بين فعلكم وفعله.

فعمر ﷺ لما أصابه الجدب، كان العباس بن عبد المطلب ﷺ: أولًا: كبير السنّ، وثانيًا: تقيًّا زاهدًا، وثالثًا: قريب الصلة بالنبيّ ﷺ، فلأجل هذه الأسباب قدَّمه ليدعو، فقال عمر: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا إِذَا أَجْدَبْنَا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا»، يعني: نتوسّل بدعائه، هو حيّ بين أيديهم، وقدّموه ليؤمِّنوا على دعائه، وليسأل الله تعالى، فكأنهم يقولون: اللّهمَّ تقبَّل دعاءه، فإنّه من عبادك الصالحين.

وهذا يجوز في كل حالٍ وفي كل وقت، فإذا خرجنا مثلًا نستسقي، ونطلب الغيث، جاز لنا أن نختار أتقانا ونقدِّمه، ونأمره بأن يدعو، ونؤمِّن على دعائه، فإنّه أولى وأقرب إلى إجابةِ دعائنا، ونقول: يا ربّنا، هذا عبدك الصالح قدَّمناه، ونحن نؤمِّن على دعائه، نسألك أن تجيب دعوته لنا، نسألك أن ترحمنا بدعائه وبدعائنا، هذا ليس فيه محذور.

هؤلاء القبوريّون يتوسّلون بالأموات، فلو كان جائزًا لما عدل عمر ﷺ إليه عن النبيّ ﷺ، ولا عن أبي بكر ﷺ، كيف يعدلُ عنهما وهما أفضلُ من العباس ﷺ، ولـمّا عدل عنهما إلى العباس ﷺ دلَّ أنّه استقرّ في علمه أنّه لا يجوز التوسُّل بالأموات، ولا بالغائبين، حتى ولو كانوا أنبياء أو أولياء، أو شهداء أو صالحين. ومعلوم أن حمزة بن عبد المطلب أفضل من العباس، وأقدمُ منه إسلامًا، وقُتل شهيدًا في سبيل الله، وهو مقبورٌ عندهم بالمدينة، فلماذا لم يذهبوا إلى قبره؟ ولماذا لم يتوسّلوا به ويقولون: نتوسّل إليك بحمزة بن عبد المطلب؟ ولماذا لم يأتوا إلى قبر

النبيّ ﷺ ويقولوا: يا محمَّد، استسقِ لنا؟!

فإذًا لا دِلالة في أنه يجوز الاستسقاء بالوليّ الميت، أو الولي الغائب، بخلاف الحيِّ السويِّ الحاضر، الذي يدعو ويؤمِّنون على دعائه، ويسألون ربَّهم أن يجيب دعاءهم معه، فهذا لا محذور فيه، وهو الذي فعله عمر مع العباس رضي الله عنهما.

وقد رأينا وقرأنا لكثير من القبوريين الذين يؤيِّدون دعاء المخلوق أو التوسُّل بالمخلوق الميت، كالنّبهاني مثلًا في كتابه الذي يُسمّى «شواهد الحقِّ»، وكذلك ابن علوي المالكي، وغيرهم الذين يوالون في دعاء الأموات، أو يزيّنونه؛ يقولون: إنّ عمر ﷺ عدل عن النبيِّ ﷺ مخافة أنَّهم إذا لم يُجابُوا بدعائه وبتوسّله يسوء ظنّهم فيه، ويكذّبونه، ويدّعون أنّه لا يُستجاب دعاؤه، ويدّعون أنّه لا ينفعُ التوسّل به، وما أشبه ذلك من التلفيقات، هكذا يتعلّل النبهاني ومن شاكلَه، ونقول لهم: إذا كان كذلك في عهد عمر، فلماذا لا يكون هذا في عهدكم؟ لماذا لا تعدلون عنه؟ لماذا تعدلون عن الأحياء إلى الأموات؟ ألا تخافون أنّكم إذا طلبتم النبيّ ولم يُسْتَجَبْ دُعاؤكم، أنَّ النّاس وكذلك العامّة يسيئون الظنَّ بالنبيِّ ﷺ، ويقولون: إنّه لا يستجابُ دُعاؤه؟ فإذا كان محذورًا في عصر عمر ﷺ فهو محذور في عهدكم.

وعلى كل حال، فلا يُغترَّ بما يلفِّقونه مما يستدلُّون به على أنّه يجوزُ دعاء الأموات، أو التوسُّل بهم، أو الاستشفاع بهم، ويستدلّون بهذه ولا دلالة فيها.

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ السُّؤَالُ بِالشَّيْءِ، قَدْ يُرَادُ بِهِ التَّسَبُّبُ بِهِ، لِكَوْنِهِ سَبَبًا فِي حُصُولِ المَطْلُوبِ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ الإِقْسَامُ بِهِ.

وَمِنَ الْأَوَّلِ: حَدِيثُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ أَوَوْا إِلَى الْغَارِ، وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] وَغَيْرِهِمَا، فَإِنَّ الصَّخْرَةَ انْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَتَوَسَّلُوا إِلَى اللَّهِ بِذِكْرِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ الخَالِصَةِ، وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ. فَهَؤُلَاءِ: دَعَوُا اللَّهَ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ؛ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ هِيَ أَعْظَمُ مَا يَتَوَسَّلُ بِهِ الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ، وَيَتَوَجَّهُ بِهِ إِلَيْهِ، وَيَسْأَلُهُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ وَعَدَ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ الشَّفَاعَةَ عِنْدَ اللَّهِ لَيْسَتْ كَالشَّفَاعَةِ عِنْدَ الْبَشَرِ، فَإِنَّ الشَّفِيعَ عِنْدَ الْبَشَرِ كَمَا أَنَّهُ شَافِعٌ لِلطَّالِبِ شَفَعَهُ فِي الطَّلَبِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ صَارَ شَفْعًا فِيهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ وِتْرًا، فَهُوَ أَيْضًا قَدْ شَفَعَ المَشْفُوعَ إِلَيْهِ، وَبِشَفَاعَتِهِ صَارَ فَاعِلًا لِلْمَطْلُوبِ، فَقَدْ شَفَّعَ الطَّالِبَ وَالمَطْلُوبَ مِنْهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى وِتْرٌ، لَا يَشْفَعُهُ أَحَدٌ، فَلَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَالْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيْهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ بِوَجْهٍ.

فَسَيِّدُ الشُّفَعَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا سَجَدَ وَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى، فَقَالَ لَهُ اللَّهُ: «ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاسْأَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَيَحُدُّ لَهُ حَدًّا فَيُدْخِلُهُمُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الجَنَّـةَ»[١]، فَـالأَمْرُ كُلُّـهُ لِلَّـهِ، كَـمَا قَـالَ تَعَـالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، فَإِذَا كَانَ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ لِمَنْ يَشَاءُ، وَلَكِنْ يُكْرِمُ الشَّفِيعَ بِقَبُولِ شَفَاعَتِهِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا يَشَاءُ»[٢].

وَفِي «الصَّحِيحِ»[٣] أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ يَا عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا أَمْلِكُ لَكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ، لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا».

وَفِي «الصَّحِيحِ»[٤] ـ أَيْضًا ـ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ شَاةٌ لَهَا يُعَارٌ، أَوْ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: أَغِثْنِي أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ».

فَإِذَا كَانَ سَيِّدُ الخَلْقِ وَأَفْضَلُ الشُّفَعَاءِ يَقُولُ لِأَخَصِّ النَّاسِ بِهِ: لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، فَمَا الظَّنُّ بِغَيْرِهِ؟ وَإِذَا دَعَاهُ الدَّاعِي، وَشَفَعَ عِنْدَهُ الشَّفِيعُ، فَسَمِعَ الدُّعَاءَ، وَقَبِلَ الشَّفَاعَةَ، لَمْ يَكُنْ هَذَا هُوَ الْمُؤَثِّرُ فِيهِ كَمَا يُؤَثِّرُ الْمَخْلُوقُ فِي الْمَخْلُوقِ،

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فَإِنَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - هُوَ الَّذِي جَعَلَ هَذَا يَدْعُو وَيَشْفَعُ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ، فَهُوَ الَّذِي وَفَّقَ الْعَبْدَ لِلتَّوْبَةِ ثُمَّ قَبِلَهَا، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلْعَمَلِ ثُمَّ أَثَابَهُ، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلدُّعَاءِ ثُمَّ أَجَابَهُ، وَهَذَا مُسْتَقِيمٌ عَلَى أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقَدَرِ، وَأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

قال الشيخ:

الكلام الأول يتعلق بقولِ الإنسان أسألك بكذا، فإذا كان الذي سألت به عملًا صالحًا فهو وسيلة، والله تعالى قد أمر بها، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة:٣٥]، أي: اجعلوا بينكم وبينه وسيلة، والوسيلةُ: ما يوصل إليه، وقد فُسِّرت بأنَّها الأعمال الصالحة، يتوصَّل بها العبد إلى ثواب ربِّه وعظيم أجره.

فإذًا أنت تقولُ ـ مثلًا ـ: أسألك ياربِّ بحقِّ أعمالي، أو بحقِّ إيماني، أو بحقِّ تصديقي، فتجعلُ ذلك وسيلة تُقربك إلى رضى الله، فهذا جائز، وإذا قلت ـ مثلًا ـ: أسألك بإيماني بنبيِّك، أو بمحبَّتي لك، أو بمحبَّتي لعبادك الصالحين، فأنت تتوسَّل بأعمالك الصالحة، فهذا أيضًا توسُّل بأعمالٍ صالحةٍ عملتَها تكون سببًا في فوزك وسعادتك. أما إذا توسّلت بمخلوقٍ بأن قلت: أسألك بحقِّ عبدك، أو بحقِّ رسولك، أو بشرفي، أو بحقِّ آبائي أو أجدادي أو أسلافي، فهذا توسُّل بمخلوق وهو غير جائز.

ومن التوسل بالأعمال الصالحة ما ورد من قصة الثلاثة الذين أدَّاهم المبيتُ إلى غار، فانحدرت صخرةٌ، فسدَّت باب الغار عليهم، فعرفوا أنَّهم لا ينجِّيهم إلا التوسُّل بأعمالهم الصالحة، ودعاء الله، فتوسَّلوا، توسُّل أحدهم ببرِّ والديه، لكونه بارًّا بوالديه، وقال بعد ذلك: «**اللهم إن كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذلك ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ**»، يعني: مخلصًا لك، «**فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً نَرَى منها السَّمَاءَ**»، فانفرجت الصخرة، غير أنَّهم لا يستطيعون الخروج.

وتوسَّل الثاني بعفافه؛ لكونه تمكَّن من فعل الحرام، ولكنَّه تركه خوفًا من الله، وذهب ما دفعه من المال، وقال بعد ذلك: «**فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذلك ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً**»، فانفرجت الصخرة قليلًا.

وتوسّل الثالث بأمانته وبكونه مؤتمنًا على مال غيره، فلم يأخذ من أجرة ذلك الأجير شيئًا، بل نماها له ودفعها إليه، وذلك دليل الأمانة، وقال: «**اللهم إن كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذلك ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا**»، فانفرجت الصخرةُ وخرجوا يمشون، فهؤلاء الثلاثة أجاب الله تعالى دعاءَهم لما توسَّلوا بأعمالهم الصالحة، ولم يقولوا نسألك بحقِّ أوليائك، أو: نسألك بحقِّ عبدك فلان. مع أن بينهم عبادٌ صالحون، ورسل وأنبياء، كموسى وعيسى وأيوب وهارون عليهم السلام، فما سألوا الله إلَّا بحقِّ أعمالهم، فيجوز أن تسأل الله بإيمانك وبتصديقك، وما أشبه ذلك، هذا هو التوسُّل المطلوب أو التوسُّل المشروع، وأمَّا التوسُّل بحقِّ مخلوق أو بجاه مخلوق - ولو كان نبيًّا أو وليًّا - فهو ممنوع، وهو من وسائل الشرك.

والحاصل: أنّ الشفاعة ملكٌ لله كما عرفنا، وإذا كانت ملكًا لله، فلا تُطلب

من مخلوق، لا تُطلب من النبيِّ ﷺ ولا غيره، فنبيّنا ﷺ هو سيِّد الشفعاء، ومع ذلك لا يشفع أولًا حتى يستأذن على ربه فيسجد، ويطيل سجوده، فيقال له: «ارْفَع رَأْسَكَ، وَقُلْ تُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَه، وَاشْفَعْ تُشَفَّع»؛ فيبدأ بحمد الله كما تقدّم في حديث أنس رضي الله عنه[1]؛ يحمده بمحامدَ يفتحها الله عليه، فذلك لا شكّ أنّه لأجل أن يُمجِّد ربَّه، فيبدأ بتمجيد الله تعالى حتّى يأذن له.

وقد أورد الشارح الأدلّة التي تدلُّ على أن الملكَ ملكُ الله، وأنّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع ما خصّه به ليس له مُلكٌ، وليس له تصرّف.

ومن ذلك: الاستدلال بقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨]، نزلت لمّا أنّه ﷺ شُجَّ وجهه يوم أُحد، وكُسرت رباعيَّته وهشِّمت البيضة على رأسه، يعني: الترس، فقال: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ»، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[2]، يعني: أَنَّ الأمر ليس لك، وإذا لم يكن له من الأمر شيءٌ في الدنيا، فكذلك الأمر في الآخرة.

وكذلك قوله تعالى ـ في الآية الثانية ـ ردًّا على المنافقين الذين قالوا للنبي ﷺ: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. الأمر كلّه لله؛ ليس لمحمّد ﷺ، ولا لحسن، ولا لعيدروس، ولا لغيرهم من المخلوقين، وإذا كان لله، فليطلب مِمَّن هو له.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

كذلك الاستدلال بهذه الأحاديث في أنّ النبيّ ﷺ لا يُغني عن أقاربه شيئًا، يقول في هذا الحديث للعباس، وفاطمة، وصفيّة، رضي الله عنهم، ولبني هاشم وبني عبد مناف: «**يا بَني عبد مَنَافٍ لَا أُغْني عَنْكُمْ من اللَّـهِ شيئًا، يا عَبَّاسُ بن عبدالمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ من اللَّهِ شيئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رسول اللَّهِ لَا أُغْني عَنْكِ من اللَّهِ شيئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِيني ما شِئْتِ من مَالِي لَا أُغْني عَنْكِ من اللَّهِ شيئًا**»[1]، إذا كان لا يغني عنهم من الله شيئًا، وإذا كان لا يملك شيئًا لعمّه، ولا لعمَّته، ولا أعمام أبيه، ولا لأبناء أعمامه، ولا لابنته، وأنَّ الملك كلَّه لله، فكيف يُطلب، وكيف يُدعى؟! وإذا بطل هذا في حقِّ النبيِّ ﷺ، فكيف بالعباس؟ وكيف بعليٍّ؟ وكيف بابن عبّاس رضي الله عنهم؟ وكيف بفلان وفلان ممَّن هم دونه ودونهم في المراتب؟

إنَّ الملك للَّهِ، وطلب الشفاعة، وطلب الوسيلة، وطلب العبادة، وطلب الملك كلِّه من الله، فإذا طلب العبد من ربِّه، عند ذلك أجاب الله تعالى دعوته.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٩٨).

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قال الطحاوي:

وَالْمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ حَقٌّ.

قال الشارح:

قَالَ تَعالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢]، أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ فِي أَخْذِ الذُّرِّيَّةِ مِنْ صُلْبِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَمْيِيزِهِمْ إِلَى أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَإِلَى أَصْحَابِ الشِّمَالِ، وَفِي بَعْضِهَا الْإِشْهَادُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ:

فَمِنْهَا: مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ[(١)] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَعْمَانَ - يَعْنِي: عَرَفَةَ - فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا، فَنَثَرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قُبُلًا، قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾». وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ[(٢)] أَيْضًا، وَابْنُ جَرِيرٍ[(٣)]،

---

(١) في المسند (١/ ٢٧٢).

(٢) في الكبرى (١١١٢٧).

(٣) في تفسيره (٩/ ١١١).

وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ[١]، وَالحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ[٢]، وَقَالَ: «صَحِيحُ الإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ».

وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ[٣] أَيْضًا عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْهَا، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيَدْخُلَ بِهِ الجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلَ بِهِ النَّارَ». وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٤]، وَالتِّرْمِذِيُّ[٥]، وَالنَّسَائِيُّ[٦]، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ[٧]، وَابْنُ جَرِيرٍ[٨]، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ[٩].

---

(١) في تفسيره (٥/ ١٦١٣).

(٢) (٢/ ٣٥٢).

(٣) في المسند (١/ ٤٤، ٤٥).

(٤) برقم (٤٠٧٣).

(٥) برقم (٣٠٧٥).

(٦) في الكبرى (١١١٢٦).

(٧) في تفسيره (٥/ ١٦١٢).

(٨) في تفسيره (٩/ ١١٣).

(٩) (١٤/ ٣٧).

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ، فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ، قَالَ: رَبِّ، كَمْ عُمُرُهُ؟ قَالَ: سِتُّونَ سَنَةً، قَالَ: أَيْ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا انْقَضَى عُمُرُ آدَمَ، جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ، قَالَ: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ؟ قَالَ: فَجَحَدَ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ آدَمُ، فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ، فَخَطِئَتْ»، ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ». وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ(٢) وَقَالَ: «صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ».

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ(٣) أَيْضًا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ، قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي شَيْئًا».

---

(١) برقم (٣٠٧٨).

(٢) في المستدرك (١/ ٦٤).

(٣) في المسند (٣/ ١٢٧).

وَأَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) أَيْضًا.

وَفِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ أُخَرُ أَيْضًا كُلُّهَا دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ، وَمَيَّزَ بَيْنَ أَهْلِ النَّارِ وَأَهْلِ الجَنَّةِ.

قال الشيخ:

يؤمن أهل السنَّة بالميثاق الذي ذكره الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٢، ١٧٣]، فهاتان الآيتان فيهما أنَّ الله أخذ من ظهور بني آدم ذريَّتهم .

وقد اختلف في المراد بالذرِّيَّة المأخوذين، هل هم مأخوذون من ظهر كل إنسان، أو كلُّهم من آدم؟ ظاهر الآية أنَّهم من ظهور بني آدم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، أي: أخرج من كُلِّ إنسان ذريَّته، ثم كلَّمهم وخاطبهم وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، ويكون هذا هو الفطرة التي فطر الله عليها الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٠]، وكما في قول النبيِّ ﷺ: «ما من مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ على الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أو يُنَصِّرَانِهِ أو

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٤)، ومسلم (٢٨٠٥).

يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعَاءَ»[1]. فأخبر أَنَّ الآدمي يولد على الفطرة، وإنّما تتغيَّر فطرته بسبب ما يتلقَّاه من أبويه، أو من أقاربه، أو من بيئته ومن ينشأ بينهم، وإلَّا فلو تُرِكَ كُلُّ أحدٍ على فطرته؛ لعرف ما خُلق له، ولعرف أنَّ له ربًا، ولعرف أَنَّه مُكلَّف، ولبحث بعد ذلك عن التكاليف التي أُمر بها.

ويؤيِّد هذا أنَّ الفطرة هي الخِلقة والابتداع، كما في قوله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١]. فاطرها: يعني: منشئها ومبدعها وموجدها، فالله تعالى هو الذي فطر الخلق، وابتدأ خلقهم، وأوجدهم على غير مثال سبق، فلمّا فطرهم على هذا كانوا بذلك مستعدِّين لمعرفته ولمعرفة ما خُلقوا له، ولكن صرفتهم الصوارف وصدَّتهم الصدود، واجتذبتهم الأهواء والأديان الباطلة التي تلقَّوها، هذا قول في هذه الآية.

صحيح أنَّ الله تعالى جعل للإنسان عقلًا وفكرًا، وبدون هذا العقل والفكر يسقط عنه التكليف، فما دام أنَّ معه فطرتَه ومعه عقليّته، فإنّه مكلّف، حتى ولم تأته الشريعة، حتى ولو لم يسمع بها، ولكنه إذا نشأ عاقلًا عرف أنَّه ليس بمهمل، وأنَّ هذا الكون كلّه لا بدَّ له من موجد، وأنَّ الذي أوجده لا بدَّ له من حقوق على عباده، فيبحثُ بعد ذلك، ولما كانت الفطرة والعقليات لا يمكن أن تفصِّل الحقوق، فالله سبحانه بعث الرسل، وأنزل الكتب، ليبيِّن تلك الحقوق، فكأنَّه

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١٩٩).

يقول: أنتم بفطرَكم وبعقولكم تعرفون أنّكم مخلوقون، وأنَّ لكم خالقًا، وأنَّ لخالقكم عليكم حقوقًا، ولكن هذه الحقوق نحن نبيِّنها لكم ونفصِّلها، فنقول: من حقوق الله كذا، ومن ما أمركم به كذا، ومن ما نهاكم عنه ذلك، فامتثلوا، وإذا امتثلتم فإنَّ لكم الثواب على كذا، وإذا لم تمتثلوا بل خالفتم، فإن عليكم العقاب. هذه وظيفة الرّسل؛ جاؤوا مبيِّنين لما في فطرة الإنسان، ولما في عقليته من العلوم، ومفصِّلين لها.

وهذا قول من الأقوال في هذه الآية.

وقد دلّت الأدلّة على أنَّ الله سبحانه جعل للإنسان معرفة ليدرك ما أمامه وما خلفه، ولكن تلك الأدلة تتغيَّر بتغيُّر ما يفسدها وما يمازجها؛ إما من العلوم، وإما من الأعمال، وإما من الأشخاص.

فكثير من العلوم تصرف الفطرة حتى يُرى الحسن قبيحًا، والقبيح حسنًا، وكثيرٌ من المجتمعات والمخالطات تصرف الفطرة، يفسد عليه زملاؤه وأخلاؤه وإخوته ومعاشروه، يفسد عليه عقله وفطرته، فتنقص معرفته، ويبقى لا يعرفُ إلا ما يألفه، لا يعرف أنَّ الخير خير، ولا أنَّ الشرَّ شرٌّ، فيستحسن القبيح، ويستقبح الحسن، وكثيرٌ من الشبهات التي يروِّجها أهلها تُفسد الفطرة أيضًا، فينقلبُ فيها الحقّ باطلًا، والباطل حقًّا، ولو سلم النّاس من هذه الأشياء لبقوا على فطرتهم، وعلى هذه فيقال: إنَّ دين الإسلام هو دين الفطرة، وهو الدين الذي تشهد العقول السليمة بحسنه وملائمته، ولأجل ذلك قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وجاءت شريعته أكمل شريعة، لم يبق معروف تعرف العقول أنه

معروف إلا أمر به، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه، لم يأمر بشيء فقيل ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقيل ليته لم ينه عنه»(١).

وذهب بعض المبتدعة إلى أن العقل له دخلٌ في التحسين والتقبيح، وجعلوه مقدَّمًا على الشرع، وهذا قولٌ خطأٌ، ولو قيل بالتحسين والتقبيح العقليّين، ولكن لا دخل للعقل فيما يخالف الشرع، فإذا جاء الشرع وجاءت النصوص قُدِّمت النصوص على ما تستحسنه العقول، مهما كانت تلك العقول، فليس للعقل مدخل ما دام أنَّ الشرع وجد ناصًّا على حكم من الأحكام، فيقدَّم حكم الشرع على جميع العقول، ومع ذلك فإنَّ العقول الصريحة لا يمكن أن تخالف النصوص والأدلَّة الواضحة الصحيحة، وابن تيمية ـ رحمه الله ـ له في ذلك كتاب مشهور سمَّاه: «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول»، صحيح المنقول: يعني الأحاديث والأدلة الصحيحة، وصريح المعقول: يعني العقول السليمة، أي: أنَّ العقول السليمة لا تخالف النُّقول الصحيحة.

أمَّا القول الثاني: وهو ما ذكر في هذه الأحاديث، فهو قول من الأقوال في معنى الآية، وإن كانت الآية بينها وبينه نوع مخالفة، فهو ينصُّ في هذه الأحاديث على أنَّ الله تعالى لَـمّا خلق آدم مسح ظهره، واستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فالله تعالى قادر على كلِّ شيء ولا يعجزه شيء، ولما استخرجهم عرضهم على آدم، فعرفهم وأخبرهم بأنَّهم ذريَّته، وأنَّهم مَنْ سوف يُخلق مِنْ

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٦/ ٧١، ٧٢).

صلبه، وأصلاب أبنائه إلى يوم القيامة، وفي بعض الروايات أنَّ الله استخرج أهل الخير، وقال: «خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَعْمَلُونَ»، واستخرج أهل الشر، وقَالَ: «خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ»، فميَّز ـ وهم في صُلب آدم ـ بيَّن من هم سعداءُ ومن هم أشقياءُ، وعلم أهل الجنّة من أهل النّار، وعلم من يعمل لهذه ومن يعمل لضدِّها.

وأشكل ذلك على بعض الصحابة، فقال: مادام أنَّ الله قد كتب علينا ونحن في صلب أبينا من هو من أهل الجنّة، ومن هو من أهل النار، فلماذا نعمل؟ لا بدّ أن نكون إلى ما كتب لنا ! فأخبره النبي ﷺ بأنّكم مكلَّفون ومأمورون بالعمل، والله تعالى هو الذي يوفِّق كل إنسان لما خلقه له، ولما كتبه عليه قبل أن يخلقه.

وفي رواية[1]: قرأ قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥ـ١٠]. أهل الخير ييسَّرون لعملٍ يكونون به سعداء، وأهل الشرِّ يخذلهم ويصرفهم فيعملون بعمل أهل الشرِّ وأهل الشقاوة والعياذ بالله، ولكن مع ذلك كلّه فإنّهم مأمورون ومنهيُّون، مكلَّفون بأن يمتثلوا هذا الفعل وبأن يتركوا هذا الفعل، ويكونون إذا فعلوا ذلك مطيعين، وإذا لم يفعلوه عصاة.

على كل حال لا يستبعد أنَّ الله سبحانه عندما خلق آدم أخرج ذريَّته كالذرِّ لا يحصي عددهم إلَّا الله، كلُّ من على وجه الأرض اليوم، وكلُّ من على وجه

---

(١) أخرجها البخاري (٤٩٤٧)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي ﷺ.

الأرض فيما سبق، وكلُّ من على وجه الأرض فيما بعد، قد علم الله تعالى عددهم وأعمارهم، وكتب آجالهم، وعرف أوقاتهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحج:٧٠]، وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، وكما في قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢].

وكما أخبر النبيُّ ﷺ: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تعالى الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هو كَائِنٌ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[1].

ما هو كائن: يعني: من كلِّ موجود، ومن كلِّ من سوف يوجد، خلقهم وخلق أعمالهم، وعرف آجالهم، وعرف أزمنتهم، فهو على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء، ولا يعزُب عن علمه مثقال ذرَّة، فيؤمن الإنسان بالأمرين: يؤمن بأنَّ الله خلق الخلق، واستخرج ذريَّة آدم من قبل أن يوجدهم، ويؤمن بأنَّ كل إنسان رُزق فطرة وعقلًا، يعرف به الخير ويعرف به الشرّ، وأنّ تلك الفطرة هي التي غيَّرت الأهواء والشهوات والانتماءات، إمَّا بقيت على حالتها وفطرتها، وإمَّا انحرفت وتغيَّرت، ولا يحمله ذلك على أن يعتمد على القضاء والقدر ويستسلم ويدع العمل، بل عليه أن يعمل، وكُلٌّ ميسَّر لما خلق له.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٨١).

قال الشارح:

وَمِنْ هُنَا قَالَ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْأَرْوَاحَ مَخْلُوقَةٌ قَبْلَ الْأَجْسَادِ. وَهَذِهِ الْآثَارُ لَا تَدُلُّ عَلَى سَبْقِ الْأَرْوَاحِ الْأَجْسَادَ سَبْقًا مُسْتَقِرًّا ثَابِتًا، وَغَايَتُهَا أَنْ تَدُلَّ عَلَى أَنَّ بَارِئَهَا وَفَاطِرَهَا سُبْحَانَهُ صَوَّرَ النَّسَمَةَ وَقَدَّرَ خَلْقَهَا وَأَجَلَهَا وَعَمَلَهَا، وَاسْتَخْرَجَ تِلْكَ الصُّوَرَ مِنْ مَادَّتِهَا، ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَيْهَا، وَقَدَّرَ خُرُوجَ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهَا فِي وَقْتِهِ الْمُقَدَّرِ لَهُ، وَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا خُلِقَتْ خَلْقًا مُسْتَقِرًّا وَاسْتَمَرَّتْ مَوْجُودَةً نَاطِقَةً كُلُّهَا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يُرْسِلُ مِنْهَا إِلَى الْأَبْدَانِ جُمْلَةً بَعْدَ جُمْلَةٍ، كَمَا قَالَهُ ابْنُ حَزْمٍ. فَهَذَا لَا تَدُلُّ الْآثَارُ عَلَيْهِ، نَعَم، الرَّبُّ سُبْحَانَهُ يَخْلُقُ مِنْهَا جُمْلَةً بَعْدَ جُمْلَةٍ، كَمَا قَالَهُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي سَبَقَ بِهِ التَّقْدِيرُ أَوَّلًا، فَيَجِيءُ الْخَلْقُ الْخَارِجِيُّ مُطَابِقًا لِلتَّقْدِيرِ السَّابِقِ، كَشَأْنِهِ سُبْحَانَهُ فِي جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، فَإِنَّهُ قَدَّرَ لَهَا أَقْدَارًا وَآجَالًا، وَصِفَاتٍ وَهَيْئَاتٍ، ثُمَّ أَبْرَزَهَا إِلَى الْوُجُودِ مُطَابِقَةً لِذَلِكَ التَّقْدِيرِ السَّابِقِ.

فَالْآثَارُ الْمَرْوِيَّةُ فِي ذَلِكَ إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى الْقَدَرِ السَّابِقِ، وَبَعْضُهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ اسْتَخْرَجَ أَمْثَالَهُمْ وَصُوَرَهُمْ، وَمَيَّزَ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ.

وَأَمَّا الْإِشْهَادُ عَلَيْهِمْ هُنَاكَ، فَإِنَّمَا هُوَ فِي حَدِيثَيْنِ مَوْقُوفَيْنِ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَابنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَمِنْ ثَمَّ قَالَ قَائِلُونَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ: إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْإِشْهَادِ إِنَّمَا هُوَ فِطْرَتُهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿شَهِدْنَآ﴾، أَيْ: قَالُوا: بَلَى شَهِدْنَا أَنَّكَ رَبُّنَا. وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا: أَشْهَدَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ. وَقِيلَ: شَهِدْنَا

مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ، وَالْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ بَلَى. وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ أَيْضًا: هُوَ خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ وَمَلَائِكَتِهِ أَنَّهُمْ شَهِدُوا عَلَى إِقْرَارِ بَنِي آدَمَ[1]. وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ، وَمَا عَدَاهُ احْتِمَالٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَشْهَدُ ظَاهِرُ الْآيَةِ لِلْأَوَّلِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ لَمْ يَذْكُرْ سِوَى الْقَوْلِ بِأَنَّ اللَّهَ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ثُمَّ أَعَادَهُمْ، كَالثَّعْلَبِيِّ وَالْبَغَوِيِّ وَغَيْرِهِمَا. وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكُرْهُ، بَلْ ذَكَرَ أَنَّهُ نَصَبَ لَهُمُ الْأَدِلَّةَ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَشَهِدَتْ بِهَا عُقُولُهُمْ وَبَصَائِرُهُمُ الَّتِي رَكَّبَهَا اللَّهُ فِيهِمْ، كَالزَّمَخْشَرِيِّ وَغَيْرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ الْقَوْلَيْنِ، كَالْوَاحِدِيِّ وَالرَّازِيِّ وَالْقُرْطُبِيِّ وَغَيْرِهِمْ، لَكِنْ نَسَبَ الرَّازِيُّ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ، وَالثَّانِيَ إِلَى الْمُعْتَزِلَةِ.

قال الشيخ:

في هذه الأحاديث أو بعضها ما يُفهم منه أنّ الله خلق الأرواح قبل الأجساد، وأنّ الذي خاطبها: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، هي الأرواح.

من عقيدة أهل السنّة أنّ الأرواح مخلوقة، وليست قديمةً كما تقول الفلاسفة ونحوهم، خلقها الله بعد أن لم تكن، وذلك لأنّ الإنسان مركّب من جسد وروح. الروح هي التي تحيا بها أجسادهم، وإذا خرجت الروح مات الجسد، فهل الروح

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/ ١١٥، ١١٨)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣١٨).

مخلوقة قبل الجسد، أو مخلوقة مع الجسد؟ الصحيح أنّها مخلوقة عندما خلق الله الجسد، فكلما خُلِقَ جسد خُلِقَ له روح، وكلّما مات ذلك الجسد بقيت روحه، إمّا معذّبة وإمّا منعَّمة، إلى أن ترجع إليه في الآخرة، وربّما يأتينا شيءٌ يتعلّق بخلق الأرواح.

وعلى كل حال، فالآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[الأعراف:١٧٢]، هناك من يقول: إنّ الله أخرجهم من آدم، وأخذ عليهم العهد، وأشهدهم على أنفسهم، وأنّهم قالوا: ﴿بَلَىٰ﴾. ولعلّنا نقول: إنّنا لا نتذكّر هذا المقال، ولا ندري ولا نعرف متى أخرجنا؟ ولا هل قيل لنا هذا القول أو لا؟ فلذلك يقال: إنَّ هذه هي الفطرة، وإنَّ هذا الإشهاد هو ما فُطِرَ عليه من المعرفة، وإنَّ قولهم: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾، يعني: شهدنا أنّ ربّنا هو الذي خلقنا، فيكون ذلك خطابًا للأرواح قبل الأجساد. ومن العلماء من قال: إنَّ هذا وإن لم يتذكّره كل إنسان، ولكنّه حقٌّ وواقع، وإن لم يكن هناك ذاكرةٌ عند كل إنسان، ولعلّ القول الأول أنّ ذلك هو الفطرة التي فطر عليها هو الأقرب.

ومن المفسّرين من اقتصر على مدلول الأحاديث، فجعل الآية مفسَّرةً بالأحاديث: أنَّ معناها أخرجهم من آدم، وأشهدهم على أنفسهم، وردّهم في صلب آدم، وأخرج منه أولاده، وأخرج من أولاده أحفاده، يعني: أولادهم، وهكذا تسلسلت الولادة إلى ما شاء الله تعالى، إلى أن يحصل وجود من قدَّر الله

خلقه إلى يوم القيامة.

ومن العلماء المفسرين من اقتصر على ذكر الفطرة، وأنّ المراد بالإشهاد هنا هو ما قذف في قلوبهم من المعرفة، ومن الفطرة التي فطر الناس عليها. ومنهم من ذكر القولين. والكلُّ مجتهدٌ، وكلٌّ اختار ما يناسبه، فالذين تخصَّصوا في النقول وفي الحكايات ونحوها، واقتصروا على الميثاق الذي ورد في الأحاديث، والذين فسّروا بالرأي أو فسّروا بالاستنتاج، ذكروا أيضًا الفطرة والرّواية التي فيها أنّ الله تعالى أشهدهم، وأنّهم قالوا: شهدنا وتكلَّموا هذا.

ويقول الشارح: إنّها موقوفة، ليست مرفوعةً، وربما كانت ممَّا نقل من كتب بني إسرائيل التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب، إنّها تقبل إذا وافقت النقل الصحيح عن النبيّ ﷺ، أو عن ما جاء في كتاب الله تعالى، فعلى هذا نحنُ نعتقدُ معنى الآية إجمالًا، وإذا ثبتت لنا الأحاديث اعتقدناها، ووكّلنا كيفيّتها إلى الله تعالى.

قال الشارح:

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْآيَةَ لَا تَدُلُّ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ، أَعْنِي: أَنَّ الْأَخْذَ كَانَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ، وَإِنَّمَا فِيهَا أَنَّ الْأَخْذَ مِنْ ظُهُورِ بَنِي آدَمَ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْأَخْذَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ وَالْإِشْهَادَ عَلَيْهِمْ هُنَاكَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ، وَفِي بَعْضِهَا الْأَخْذُ وَالْقَضَاءُ بِأَنَّ بَعْضَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَبَعْضَهُمْ إِلَى النَّارِ، كَمَا فِي حَدِيثِ عُمَرَ ﷺ، وَفِي بَعْضِهَا الْأَخْذُ وَإِرَاءَةُ آدَمَ إِيَّاهُمْ مِنْ غَيْرِ قَضَاءٍ وَلَا إِشْهَادٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَالَّذِي فِيهِ الْإِشْهَادُ. عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي قَالَهَا أَهْلُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ. مَوْقُوفٌ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَعُمَرَ، وَتَكَلَّمَ فِيهِ أَهْلُ الْحَدِيثِ، وَلَمْ يُخَرِّجْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصَّحِيحِ غَيْرَ الْحَاكِمِ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ»، وَالْحَاكِمُ مَعْرُوفٌ تَسَاهُلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَالَّذِي فِيهِ الْقَضَاءُ بِأَنَّ بَعْضَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَبَعْضَهُمْ إِلَى النَّارِ دَلِيلٌ عَلَى مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ، وَذَلِكَ شَوَاهِدُهُ كَثِيرَةٌ، وَلَا نِزَاعَ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَإِنَّمَا يُخَالِفُ فِيهِ الْقَدَرِيَّةُ الْمُبْطِلُونَ الْمُبْتَدِعُونَ.

وَأَمَّا الْأَوَّلُ: فَالنِّزَاعُ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَلَوْلَا مَا الْتَزَمْتُهُ مِنَ الِاخْتِصَارِ لَبَسَطْتُ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ، وَمَا قِيلَ مِنَ الْكَلَامِ عَلَيْهَا، وَمَا ذُكِرَ فِيهَا مِنَ الْمَعَانِي الْمَعْقُولَةِ، وَدَلَالَةَ أَلْفَاظِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «وَهَذِهِ الْآيَةُ مُشْكِلَةٌ، وَقَدْ تَكَلَّمَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِهَا، فَنَذْكُرُ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ ذَلِكَ، حَسَبَ مَا وَقَفْنَا عَلَيْهِ. فَقَالَ قَوْمٌ: مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ مِنْ ظَهْرِ بَنِي آدَمَ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ، قَالُوا: وَمَعْنَى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، دَلَّهُمْ عَلَى تَوْحِيدِهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ بَالِغٍ يَعْلَمُ ضَرُورَةً أَنَّ لَهُ رَبًّا وَاحِدًا، ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، أَيْ: قَالَ، فَقَامَ ذَلِكَ مَقَامَ الْإِشْهَادِ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، ذَهَبَ إِلَى هَذَا الْقَفَّالُ وَأَطْنَبَ. وَقِيلَ: إِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْرَجَ الْأَرْوَاحَ قَبْلَ خَلْقِ الْأَجْسَادِ، وَإِنَّهُ جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْمَعْرِفَةِ مَا عَلِمَتْ بِهِ مَا خَاطَبَهَا»[1]. ثُمَّ ذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ.

قال الشيخ:

هذه أيضًا أقوالٌ في معنى الآية، أحدها: أنّ معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: كلّما وُلد مولود أخذ الله عليه العهد، واستشهده بما فُطر عليه ليعرف أنّ له ربًا، وأنّه مربوب، وأنّ عليه تكاليف، كلّما ولد مولودٌ أخذ عليه العهد، وذلك لأنّ الله قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾، وبنو آدم: جمع، يعني: من كلّ آدمي من البشر أخذ الله من ظهره، يعني: استخرج من ظهره من ولده، ثم استنطقهم واستشهدهم، ويكون ذلك ما علموه، أو ما أقام أمامهم من البيِّنات والبراهين على أنّه ربُّهم، وعلى أنّهم مربوبون له، والمربوب له ربّ، وعلى أنّهم مخلوقون، والمخلوق له خالق.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٣١٤).

وأما القول بأنهم استُنطقوا لما أخرجوا من آدم، وشهدوا على أنفسهم، وقالوا: ﴿بَلَىٰ﴾، لما قال الله لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، فهذا قولٌ اعتمد فيه على حديثين، ولكن الحديثين فيهما مقال، فيقول: حديث ابن عباس الذي تقدم، وحديث عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهم- لم يُخرجهما أهل الصحيح، والراجح أنهما موقوفان وليسا مرفوعين.

قال الشارح:

وَأَقْوَى مَا يَشْهَدُ لِصِحَّةِ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ: حَدِيثُ أَنَسٍ الْمُخَرَّجُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] الَّذِي فِيهِ: «قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي». وَلَكِنْ قَدْ رُوِيَ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى: «قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَأَيْسَرَ فَلَمْ تَفْعَلْ، فَيُرَدُّ إِلَى النَّارِ». وَلَيْسَ فِيهِ «فِي ظَهْرِ آدَمَ». وَلَيْسَ فِي الرِّوَايَةِ الْأُولَى إِخْرَاجُهُمْ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَصْحَابُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ.

بَلِ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ مُتَضَمِّنٌ لِأَمْرَيْنِ عَجِيبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: كَوْنُ النَّاسِ تَكَلَّمُوا حِينَئِذٍ، وَأَقَرُّوا بِالْإِيمَانِ، وَأَنَّهُ بِهَذَا تَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ، وَالْآيَةُ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ لِوُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ قَالَ: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: مِنْ آدَمَ.

الثَّانِي: أَنَّهُ قَالَ: ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: مِنْ ظَهْرِهِ، وَهَذَا بَدَلُ بَعْضٍ، أَوْ بَدَلُ اشْتِمَالٍ، وَهُوَ أَحْسَنُ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ قَالَ: ﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: ذُرِّيَّتَهُ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدُ ذَاكِرًا لِمَا

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ: أحمد (٣/ ٢٠٨، ٢٣٩).

شَهِدَ بِهِ، وَهُوَ إِنَّمَا يَذْكُرُ شَهَادَتَهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ - كَمَا تَأْتِي الْإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ - لَا يَذْكُرُ شَهَادَةً قَبْلَهُ.

الْخَامِسُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ حِكْمَةَ هَذَا الْإِشْهَادِ إِقَامَةٌ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ؛ لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾، وَالْحُجَّةُ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ وَالْفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

السَّادِسُ: تَذْكِيرُهُمْ بِذَلِكَ؛ لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنِ الْإِخْرَاجِ لَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ كُلِّهِمْ وَإِشْهَادِهِمْ جَمِيعًا ذَلِكَ الْوَقْتَ، فَهَذَا لَا يَذْكُرُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ.

السَّابِعُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾، فَذَكَرَ حِكْمَتَيْنِ فِي هَذَا الْإِشْهَادِ؛ لِئَلَّا يَدَّعُوا الْغَفْلَةَ، أَوْ يَدَّعُوا التَّقْلِيدَ، فَالْغَافِلُ لَا شُعُورَ لَهُ، وَالْمُقَلِّدُ مُتَّبِعٌ فِي تَقْلِيدِهِ لِغَيْرِهِ. وَلَا تَتَرَتَّبُ هَاتَانِ الْحِكْمَتَانِ إِلَّا عَلَى مَا قَامَتْ بِهِ الْحُجَّةُ مِنَ الرُّسُلِ وَالْفِطْرَةِ.

الثَّامِنُ: قَوْلُهُ: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، أَيْ: لَوْ عَذَّبَهُمْ بِجُحُودِهِمْ وَشِرْكِهِمْ لَقَالُوا ذَلِكَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ بِمُخَالَفَةِ رُسُلِهِ وَتَكْذِيبِهِمْ، وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ بَعْدَ الْإِعْذَارِ وَالْإِنْذَارِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ.

التَّاسِعُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَشْهَدَ كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِهَذَا الْإِشْهَادِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]. فَهَذِهِ هِيَ الْحُجَّةُ الَّتِي أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَضْمُونِهَا، وَذَكَّرَتْهُمْ بِهَا رُسُلُهُ، بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١٠].

الْعَاشِرُ: أَنَّهُ جَعَلَ هَذَا آيَةً، وَهِيَ الدَّلَالَةُ الْوَاضِحَةُ الْبَيِّنَةُ الْمُسْتَلْزِمَةُ لِمَدْلُولِهَا، بِحَيْثُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا الْمَدْلُولُ، وَهَذَا شَأْنُ آيَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى، فَإِنَّهَا أَدِلَّةٌ مُعَيَّنَةٌ عَلَى مَطْلُوبٍ مُعَيَّنٍ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْعِلْمِ بِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنعام:١٧٤]، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِالْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، فَمَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، لَا يُولَدُ مَوْلُودٌ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الْفِطْرَةِ، هَذَا أَمْرٌ مَفْرُوغٌ مِنْهُ، لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَغَيَّرُ. وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ تَفَطَّنَ لِهَذَا ابْنُ عَطِيَّةَ وَغَيْرُهُ، وَلَكِنْ هَابُوا مُخَالَفَةَ ظَاهِرِ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي فِيهَا التَّصْرِيحُ بِأَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ثُمَّ أَعَادَهُمْ. وَكَذَلِكَ حَكَى الْقَوْلَيْنِ الشَّيْخُ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ فِي شَرْحِ التَّأْوِيلَاتِ، وَرَجَّحَ الْقَوْلَ الثَّانِيَ، وَتَكَلَّمَ عَلَيْهِ وَمَالَ إِلَيْهِ.

قال الشيخ:

ويمكن أن يجمع بين القولين في أن الآية في ميثاق والأحاديث في ميثاق،

فالآيةُ يظهر أنّ المراد بها الميثاق الذي يأخذه على كل مولود يولد بالفطرة، وذلك الميثاق هو المعرفة التي فُطر عليها، والآية والأحاديث في خلق الأرواح؛ أنّ الأرواح خلقت، ثم أُعيدت في صلب آدم، وأنّها تكلّمت وشهدت وإن لم تكن الأجساد موجودةً، وتتذكّر .

وبكلّ حال، فإن هذه الآية تؤيّد أنّ الميثاق الذي فيها غير الميثاق الذي في الأحاديث من هذه الوجوه العشرة، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، لم يقل: من آدم، ونفى بها أنّهم أُخرِجوا من ظهر آدم، فدلّ على الفرق بين الآية وبين ما في الأحاديث.

والآية فيها قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾، والأحاديث فيها أنّهم كلّهم ذرّية آدم، والآية فيها أنّه أشهدهم على أنفسهم، وهذا الإشهاد قد لا يتذكّرونه؛ لأنّه هو الفطرة، فلو كان هو الإشهاد عند خلق الأرواح لم يكن حجةً عليهم، فدلّ على أنّ المراد أنّهم فُطروا على الإسلام، وأنّه لا مانع من أنّ الله سبحانه أخرج أرواحهم وأنفاسهم من صلب آدم، وعرضهم عليه، ورأى بين عيني كل إنسان وبيصًا، وأنّ منهم نبيّ الله داود ،وأنّه وهبه من عمره أربعين إلى آخر ما تقدّم .

لا مانع من أن نؤمن بأنّ الله استخرج الأرواح قبل أن يخلق الأجساد، وأنّه أخذ الميثاق على الإنسان، وأنّ الميثاق الذي أخذه على الأجساد الذي في الآية هو المعرفة والفطرة التي فطروا عليها، فبذلك لا يحصل اختلاف بين الآية والحديث.

يعتقد المسلم أنّ الله فطر الناس على المعرفة وعلى الديانة، وأنّ تلك الفطرة

تتغيّر بتغيّر البيئات، فأبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، ويعتقدون ذلك بناءً على الأحاديث، أنّ الله استخرج ذريّة آدم، وعلم أهل الجنّة، وعلم أهل النّار، وقال: هؤلاء للجنّة ولا أبالي، وهؤلاء للنّار ولا أبالي، وذلك يبين سابق قدر الله تعالى أو سابق علمه قبل وجودها، والله تعالى بكل شيء عليم.

قال الشارح:

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِقْرَارَ بِالرُّبُوبِيَّةِ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ، وَالشِّرْكَ حَادِثٌ طَارِئٌ، وَالْأَبْنَاءُ تَقَلَّدُوهُ عَنِ الْآبَاءِ، فَإِذَا احْتَجُّوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنَّ الْآبَاءَ أَشْرَكُوا وَنَحْنُ جَرَيْنَا عَلَى عَادَتِهِمْ، كَمَا يَجْرِي النَّاسُ عَلَى عَادَةِ آبَائِهِمْ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ، يُقَالُ لَهُمْ: أَنْتُمْ كُنْتُمْ مُعْتَرِفِينَ بِالصَّانِعِ، مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَقَدْ شَهِدْتُمْ بِذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّ شَهَادَةَ الْمَرْءِ عَلَى نَفْسِهِ هِيَ إِقْرَارُهُ بِالشَّيْءِ لَيْسَ إِلَّا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء:١٣٥]. وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ يَقُولَ: أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِكَذَا، بَلْ مَنْ أَقَرَّ بِشَيْءٍ فَقَدْ شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِهِ، فَلِمَ عَدَلْتُمْ عَنْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِقْرَارِ الَّذِي شَهِدْتُمْ بِهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَى الشِّرْكِ؟ بَلْ عَدَلْتُمْ عَنِ الْمَعْلُومِ الْمُتَيَقَّنِ إِلَى مَا لَا يُعْلَمُ لَهُ حَقِيقَةٌ، تَقْلِيدًا لِمَنْ لَا حُجَّةَ مَعَهُ، بِخِلَافِ اتِّبَاعِهِمْ فِي الْعَادَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَإِنَّ تِلْكَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكُمْ مَا يُعْلَمُ بِهِ فَسَادُهَا، وَفِيهِ مَصْلَحَةٌ لَكُمْ، بِخِلَافِ الشِّرْكِ، فَإِنَّهُ كَانَ عِنْدَكُمْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالشَّهَادَةِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَا يُبَيِّنُ فَسَادَهُ وَعُدُولَكُمْ فِيهِ عَنِ الصَّوَابِ.

فَإِنَّ الدِّينَ الَّذِي يَأْخُذُهُ الصَّبِيُّ عَنْ أَبَوَيْهِ هُوَ: دِينُ التَّرْبِيَةِ وَالْعَادَةِ، وَهُوَ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الطِّفْلَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ كَافِلٍ، وَأَحَقُّ النَّاسِ بِهِ أَبَوَاهُ، وَلِهَذَا جَاءَتِ الشَّرِيعَةُ بِأَنَّ الطِّفْلَ مَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى دِينِهِمَا فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا الظَّاهِرَةِ، وَهَذَا الدِّينُ لَا يُعَاقِبُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - عَلَى الصَّحِيحِ - حَتَّى يَبْلُغَ وَيَعْقِلَ وَتَقُومَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ، وَحِينَئِذٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعَ دِينَ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ، وَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ بِعَقْلِهِ هُوَ أَنَّهُ دِينٌ صَحِيحٌ، فَإِنْ

كَانَ آبَاؤُهُ مُهْتَدِينَ، كَيُوسُفَ الصِّدِّيقِ مَعَ آبَائِهِ، قَالَ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف:٣٨]، وَقَالَ لِيَعْقُوبَ بَنُوهُ: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة:١٣٣]، وَإِنْ كَانَ الْآبَاءُ مُخَالِفِينَ الرُّسُلَ، كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعَ الرُّسُلَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ الْآيَةَ [العنكبوت:٨].

فَمَنِ اتَّبَعَ دِينَ آبَائِهِ بِغَيْرِ بَصِيرَةٍ وَعِلْمٍ، بَلْ يَعْدِلُ عَنِ الحَقِّ المَعْلُومِ إِلَيْهِ، فَهَذَا اتَّبَعَ هَوَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

قال الشيخ:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٢، ١٧٣]، هذه هي مقالةُ المشركين، فيقولون: إنما أنزل الكتاب على إحدى الطائفتين، وهما اليهود والنّصارى الذين أنزلت عليهم التوارةُ والإنجيلُ، ويقولون أيضًا: إنما أشرك آباؤنا واتّبعناهم، فكأنّهم يقولون: إن العذاب واقعٌ عليهم لا علينا، والجواب على ذلك من وجهين:

أوَّلًا: أنَّ الله فطركم على التوحيد وعلى معرفته، وركّب فيكم العقول بحيث تعرفون أنَّ لكم خالقًا، وخالقكم له عليكم حقوق.

ثانيًا: إذا عرفتم أنَّ هذا الدين الذي عليه آباؤكم - وهو الشِّرك - باطل، فلا بدَّ أن تبحثوا عن الدِّين الصحيح، وهو الذي خُلقتم له، ولكنَّكم لم تفعلوا، بل اتَّبعتم آباءكم، وأطعتم كبراءكم، فكنتم بذلك مستحقِّين للعذاب، قال الله تعالى عن أهل النار: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨]، ﴿أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾، أي: الأبناء للآباء، قال ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾، أي: لا ينفعكم كونهم الذين أضلّوكم، بل كان الواجب عليكم ألاّ تقبلوا هذا الضلال. ويقول تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات:٢٧، ٢٨]، يعني: تضلّوننا أو تسعَون في إضلالنا، إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصافات:٣٣]، مع أنّ الآباء هم السبب في ضلال الأبناء، ولأجل ذلك كان الواجب على الآباء أن يفكّروا، وألَّا يضلّوا بعد أن أعطاهم الله فكرًا وعقلًا، وعلى الأبناء أيضًا أن يستعملوا فطرتهم وعقلهم، وألَّا يقبلوا كل ضالّة أو كلّ بدعة، وقد حكى الله تعالى أنّه في يوم القيامة يتبرّأ بعضهم من بعض؛ المتبوع يتبرأ من التابع، والتابع يتبرأ من المتبوع: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟

مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾ [البقرة:١٦٦، ١٦٧]، الأتباع: هم الذين تبرأ منهم المتَّبعون، ولكن لا ينفعهم ذلك بعد أن أضلّوهم.

وعلى كل حال فحجَّة الله قائمة، ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ [الأنعام:١٤٩]؛ وذلك لأنَّه أرسل الرسل وأنزل الكتب، ولأنَّه فطر الناس على العبادة، ولكن أضلَّتهم الأهواء وأضلَّتهم الشياطين، وأضلَّتهم المجتمعات ونحوها .

ومعلوم أنَّ العادة كما قلنا: إنَّ الابن ينشأ على دين أبويه، بل إنَّه يحكم له باتّباع أبيه في الدنيا، لكن في الدين يكون تبعًا لخير أبويه، إذا كان الأبوان أحدهما مسلم والآخر كافر؛ حكمنا أنّه يتَّبع خير أبويه في الدين، ولكن يُحكم عليهم بما حُكم على آبائهم.

وقد سُئِلَ النبي ﷺ عن الذَّرَارِيِّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُبَيَّتُونَ، فَيُصِيبُونَ من نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ، أي: إذا قتلنا أطفالًا لم نتعمَّد قتلهم، فما الحكم؟ فقال: «هُمْ مِنْهُم»[1]، يعني: أنَّنا نحكم بأنّهم تبعٌ لآبائهم؛ وذلك لأنَّهم غالبًا ينشؤون على نشأتهم كما حكى الله عن نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح:٢٧]، أي: كلَّما ولد لهم أولاد نشؤوا على ما نشأ عليه آباؤهم من الفجور ومن الكفر. ومع ذلك، فإنَّ الله تعالى قد يخرج من أصلاب الكفار من يعبد الله ويعرفه إذا أراد به

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٣)، ومسلم (١٧٤٥) من حديث الصعب بن جثَّامة ﷺ.

خيرًا، وأدخله الدين أو أدخل الدين عليه.

وعلى كلِّ حال، نحن قلنا: إنَّ الإنسان عليه أن يحرص على أولاده فيربِّيهم ويعلِّمهم، وعلى الولد أن ينظر فيما فيه والده وفيما عليه أهله، فإذا كان حقًا وصوابًا قبله وعمل به، وإلا سأل عن الحق وعمل به، ولم يعمل بالباطل، وإن كان عليه أهله أو مجتمعه أو قبيلته وأسرته، أو نحو ذلك.

قال الشارح:

وَهَذِهِ حَالُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ مِنَ الَّذِينَ وُلِدُوا عَلَى الْإِسْلَامِ، يَتْبَعُ أَحَدُهُمْ أَبَاهُ فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنِ اعْتِقَادٍ وَمَذْهَبٍ، وَإِنْ كَانَ خَطأً لَيْسَ هُوَ فِيهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، بَلْ هُوَ مِنْ مُسْلِمَةِ الدَّارِ، لَا مُسْلِمَةِ الِاخْتِيَارِ، وَهَذَا إِذَا قِيلَ لَهُ فِي قَبْرِهِ: مَنْ رَبُّكَ؟ قَالَ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ.

فَلْيَتَأَمَّلِ اللَّبِيبُ هَذَا المَحِلَّ، وَلْيَنْصَحْ نَفْسَهُ، وَلْيَقُمْ مَعَهُ، وَلْيَنْظُرْ مِنْ أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ هُوَ؟ وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ، فَإِنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، فَإِنَّهُ مَرْكُوزٌ فِي الْفِطَرِ. وَأَقْرَبُ مَا يَنْظُرُ فِيهِ المَرْءُ أَمْرُ نَفْسِهِ لَمَّا كَانَ نُطْفَةً، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، وَالتَّرَائِبُ: عِظَامُ الصَّدْرِ، ثُمَّ صَارَتْ تِلْكَ النُّطْفَةُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ، وَانْقَطَعَ عَنْهَا تَدْبِيرُ الْأَبَوَيْنِ وَسَائِرِ الخَلَائِقِ، وَلَوْ كَانَتْ مَوْضُوعَةً عَلَى لَوْحٍ أَوْ طَبَقٍ، وَاجْتَمَعَ حُكَمَاءُ الْعَالَمِ عَلَى أَنْ يُصَوِّرُوا مِنْهَا شَيْئًا لَمْ يَقْدِرُوا. وَمُحَالٌ تَوَهُّمُ عَمَلِ الطَّبَائِعِ فِيهَا؛ لِأَنَّهَا مَوَاتٌ عَاجِزَةٌ، وَلَا تُوصَفُ بِحَيَاةٍ، وَلَنْ يَتَأَتَّى مِنَ المَوَاتِ فِعْلٌ وَتَدْبِيرٌ، فَإِذَا تَفَكَّرَ فِي ذَلِكَ، وَانْتِقَالِ هَذِهِ النُّطْفَةِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، عَلِمَ بِذَلِكَ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، فَانْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ، فَإِنَّهُ إِذَا عَلِمَ بِالْعَقْلِ أَنَّ لَهُ رَبًّا أَوْجَدَهُ، كَيْفَ يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَعْبُدَ غَيْرَهُ؟! وَكُلَّمَا تَفَكَّرَ وَتَدَبَّرَ ازْدَادَ يَقِينًا وَتَوْحِيدًا، وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ، لَا رَبَّ غَيْرُهُ، وَلَا إِلَهَ سِوَاهُ.

قال الشيخ:

ذكر الشارح أن الإنسان عادةً يتَّبع آباءه ومجتمعه، ولكن لا يكون ذلك حجةً

له، ولا يحتج بذلك، ولا يكون معذورًا بذلك، فهؤلاء المشركون الذين قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[الأعراف: ١٧٣]، يقال: لا نهلككم بفعلهم، بل كلٌّ يُعذّب بذنبه، فآباؤكم عليهم ذنوب، وأنتم عليكم ذنوب، وأبناؤكم عليهم ذنوبهم التي اقترفوها وعملوها، ولو كان المضلّ هو الأوّل؛ وذلك لأن الله تعالى فطر العباد على معرفته، والواجب عليهم أن يتأمّلوا ما فُطروا عليه، وأن يتعقّلوا خلقه، وهذا الكون الذي بين أيديهم، وأن يتفكّروا في مخلوقات الله تعالى، فيصلون بذلك إلى نتيجة، وهي توحيد الربوبيّة، وهو أنَّ هذا الكون له ربٌّ خالقٌ مدبّرٌ، وأنّه لم يخلق عبثًا، كما في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، يعني: مهملًا، ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٣٧-٤٠]، أن يتدبّر الإنسان مبدأ أمره ومبدأ تكوينه، وهو أنّه كان في صلب أبيه، ثمَّ خرج واستقرَّ في رحم أمّه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٢]، جعله الله تعالى في مستقرّ لا تصل إليه الأيدي، ولا تعمل فيه الطبائع، ولا تقدر عليه الحيل، انقطعت عنه التدابير، فأخرجه الله بعد أن كوّنه بشرًا سويًّا، كما في قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[الكهف: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، يعني: أطفالًا، ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ [غافر:٦٧].

فهذا التدبير وهذا التنقّل ليس للطبيعة فيه مجال، بل الترتيب والتربية هي خلق الله وتدبيره وتكوينه، فإذا عرف الإنسان هذا الكون، وأنّه لا بدّ له من خالق ومن مدبّر ومتصرّف، استقرّ بذلك توحيد الربوبيّة في عقله، وعرف أنّ له ربًا، ثم بعد ذلك ينتقل من تفكير إلى تفكير، يقول: ما دام أنّ لهذا الكون ربًا وخالقًا ومدبّرًا، فإنّ لهذا الرّب الخالق المدبّر حقوقًا علينا، وهي التعبُّد له، وأن نعبده وحده، وأن نقرَّ به إلهًا، وأن نصرف له حقوقه التي فرضها علينا، بعد ذلك يسأل عن هذه الحقوق، فإذا عرفها التزم بالتقرُّب، والتزم أن يعبد الله، وأن يحرص على الاستكثار من العبادات والقربات، فبذلك يكون من أهل السعادة، فكونه يقنع بما كان عليه آباؤه من الكفر والضلال والبدع والشرك والانحرافات، التي تمُلُّها الأسماع، وتنكرها الطباع، ويقول: هكذا وجدتُ آبائي عليه، فيُقال له: هذا خطأ، لماذا لم تسأل عن الحقِّ؟ أترضى أن تكون مقلّدًا لا تدري ما الناس فيه؟

هؤلاء الذين يتَّبعون الناس فيما هم عليه من خطأٍ، هم الذين إذا سُئلوا في القبر: من ربُّك؟ ما دينك؟ من نبيُّك؟ يقول أحدهم: هاه هاه، لا أدري، سمعتُ النّاس يقولون شيئًا فقلتُه، فيعذَّبون في قبورهم على هذه المقالة، ولا ينفعهم أنَّهم سمعوا النّاس وأنّهم قلّدوهم، بل الواجب على العاقل من حيث هو أن يستعمل عقله في معرفة خالقه ومدّبره، وألّا يرضى بما النَّاس عليه دون أن يمحِّص تلك الأعمال التي يعملها النَّاس، ودون أن يعرف الحقَّ أو يبحث عنه، فإنَّه إذا بحث عن الحقِّ عرفه، وإذا عرفه لزمه العمل به، وإذا لزمه العمل به وأدّاه كما ينبغي سعد وأصبح من أهل الخير.

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قال الطحاوي:

وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى - فِيمَا لَمْ يَزَلْ - عَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ، وعَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ، جُمْلَةً وَاحِدَةً، فَلا يُزَادُ فِي ذَلِكَ العَدَدُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ، وكَذَلِكَ أَفْعَالُهُمْ فِيمَا عَلِمَ مِنْهُم أَنْ يَفْعَلوهُ.

قال الشارح:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ [الأنفال: ٧٥]، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فَاللَّهُ تَعَالَى مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ أَزَلًا وَأَبَدًا، لَمْ يَتَقَدَّمْ عِلْمَهُ بِالْأَشْيَاءِ جَهَالَةٌ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤].

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الغَرْقَدِ، فَأَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ، فَنَكَّسَ رَأْسَهُ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفوسَةٍ إِلَّا قَدْ كَتَبَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الجَنَّةِ والنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً»، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا نَمْكُثُ عَلَى كِتَابِنَا، ونَدَعُ العَمَلَ؟ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، ومَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ، فَيُيَسَّرونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»،

ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥- ١٠]. خَرَّجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١).

قال الشيخ:

ذكر هنا صفةً من صفات الله تعالى، وهي العلم العام، وفي ذلك ردٌّ على طائفة من غُلاة المعتزلة، الذين يقولون: إنَّ الله لا يعلم بالأشياء حتى تقع، ولا يعلم بها قبل أن يوجدها، وهم يردُّون بذلك النصوص، ويتنقَّصون الربَّ سبحانه وتعالى، وهؤلاء هم غُلاة القدريَّة قديمًا؛ كمعبد الجهمي وغيره، يقولون: إنَّ الأمر أُنُفٌ، يعني: أنَّه يستقبل ويستقدم، ولا يعلم الشيء الذي لم يقع.

ومن عقيدةِ أهلِ السنّةِ أنَّ الله تعالى علم ما الخلقُ عاملون، بعلمه القديم الذي لا يعزب عن علمه شيء، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١]، ويعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم الخفيّ والجليّ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يعلم السرّ وأخفى من السرّ؛ والسرّ: هو ما يضمره الإنسان في نفسه، ولا يبديه لأحد، وأخفى منه ما لم يخطر بباله، فيعلم الله أنّه سيخطر للإنسان كذا وكذا

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

مِمّا لم يكن يظنّ أنّه يخطر.

والأدلّة على إثبات صفة العلم وقِدَمه كثيرةٌ مشهورة، وقد جمعها العلماء الذين كتبوا في الصفات، واستوفَوْا ما ورد فيها من الآيات والأحاديث، وإذا عرف المؤمن أنّ اللهَ تعالى موصوف بالعلم، اعتقد دخول أعمال العباد في علم الله تعالى، وأنّه سبحانه علم من هو سعيد، ومن هو شقيٌّ، ومن هو فاجرٌ، ومن هو تقيٌّ، ومن هو فقير، ومن هو غنيٌّ، ومن هو من أهل الخير، ومن هو من أهل الشرّ، كلّهم قد أحاطَ الله بهم علمًا؛ لهذه الآيات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

يدخل في علم الله كلُّ شيء؛ ما لم يكن وما سيكون، كذلك بعد أنَّ علمه الله تعالى، فإنَّه قد أثبته في الذكر في اللوح المحفوظ، «**أَوَّل مَا خَلَقَ اللَّـهُ تعالى الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هو كَائِنٌ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(١)، مِمَّا سيوجد ومِمَّن سيولد، ومن أعمال العباد ونحو ذلك. يقول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحج: ٧٠]، علم ذلك وتفاصيله، وهو يسيرٌ على الله جل وعلا، ويقول تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد: ٢٢]، من قبل أن نبرأ تلك المصيبة، بل من قبل أن نبرأ الخليقة

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٨١).

كلهم، كتب ذلك في اللوح المحفوظ، كما يشاء الله، وذلك يسيرٌ على الله، ليس فيه صعوبة؛ لأنّه هو الذي يُدبِّر الخلائق، وهو الذي يعلم أقوالهم، ولا يخفى عليه شيء منهم.

فإذًا مادام أنَّه خلقهم وأنَّه هو الذي يتصرَّف فيهم، فهم لا يخرجون عمّا علمه فيهم، علم من سيصير منهم إلى الخير، ومن سيصير إلى الشر، ولكن كلّفهم وأمرهم بذلك الغيب، وكذلك أعانَ هؤلاء، وخذل هؤلاء، هدى من شاء، وأضلَّ من شاء، وله الحجَّة البالغة على عباده.

ولا يقول قائل: إنَّ هذا يُتخذ حجَّة للكافر بأن يقول: إذا كان الله قد كتب عليَّ الشقاء، فليس لي حيلةٌ في أن أردَّ ما كتب الله، وإذا كان الله كتبني في أمِّ كتابه شقيًّا طريدًا، فإن ذلك لا يردُّ كتابةَ الله.

ونقول له: من أدراك بذلك، إنما أنت مأمورٌ بأن تفعل الأسباب، وقد يكون فعلُك سببًا من الأسباب التي قدَّر الله بها أنّك من أهل السعادة أو من أهل الشقاوة.

وقد ذكر العلماء أن القدر على أربعةِ أنواع:

الأول: التقدير العام: وهو العلم بالكائنات قبل وجودها وكتابتها في اللوح المحفوظ.

الثاني: التقدير السنوي: وهو أنّ الله يكتب في ليلةِ القدر ما يكون في تلك السنة من الحوادثِ، هذه كتابةٌ جزئية يقدِّر في ليلة القدر، ويكتب فيها ما يكون على وجه الأرض من تلك الليلة إلى مثلها من السنة القابلة، فهذا كتابة أو تقدير أو

علم خاص، وهو السنوي.

الثالث: التقدير العمريّ: وهو أنّ المولود إذا علق في رحم أمّه أرسل الله تعالى إليه المَلَك، فقال: ياربّ، مخلّقةٌ أو غير مخلّقة؟ يعني: هل يتمّ خلقُه ويولد سويًّا، أو تسقطه الرحم وتقذفه ميتًا، فإذا قال الله: مخلّقةٌ، قال: يا ربّ، ذكر أم أنثى؟ فيكتب ذلك، سعيد أم شقي؟ فيكتب ذلك، ويسأل عن رزقه؛ فيخبره الله بأنّ رزقه يكون كذا وكذا، ويكتب أجله بأنه طويل الأجل أو قصير الأجل، يقدّر الله ذلك كله له[1]، وفي حديث ابن مسعود ﷺ المشهور: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلك، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلك، ثُمَّ يَبْعَثُ الله مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ له: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أو سَعِيدٌ**»[2]، فيكتب ذلك كلّه وهو في رحم أمه، فالمؤمن الذي يؤمن بذلك يؤمن بسعة علم الله تعالى، ولكن لا يتّخذ ذلك حجّة في ترك العمل، بل يعمل، فكلٌّ ميسَّر لما خلق له، كما أخبر بذلك النبيّ ﷺ، فإن كان سعيدًا فإن الله يسهّل له الأسباب التي بها يكون سعيدًا، وعليه أن يبذل الأسباب، وإن كان شقيًّا، فإنَّه محروم ولو بذلت الأسباب، فهذا واسع علم الله، يعني: أن الله تعالى عليم بكلِّ شيء، وعلمه قد وسع الخلائق كلّها .

وفائدة الإيمان بالعلم المراقبة وهو أنّك إذا علمت أنَّ الله عليم بما يجول في

(١) انظر نص الحديث عند البخاري (٣١٨ و٣٣٣٣ و٦٥٩٥)، ومسلم (٢٦٤٦).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٥٣٩)، وسيأتي في كلام الشارح (٢/ ٤٣٩).

نفسك، وبما تحدّث به قلبك، وبما تهمّ به من طاعة أو معصية، يطّلع على ضميرك، ويعلم ما في قلبك، حملك ذلك على أن لا تعمل إلا خيرًا، وعلى ألا تحدّث نفسك إلا بخير؛ فبذلك تكون من أهل الخير، أما الإنسان الذي يظنّ أنّ الله لا يعلمه، ولا يعلم أحواله، فإن هذا الظن ناتج عن الجهل، وهو الذي يوقعه في العصيان، ويجرِّئه على المخالفات؛ كأنّه يعتقد أنّه لا يراه ربّه.

روى ابن مسعود ﷺ قال: «اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ، أو ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ، كَثِيرَةٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ، قَلِيلَةٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ، فقال أَحَدُهُمْ: أَتُرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ ما نَقُولُ؟ قال الْآخَرُ: يَسْمَعُ إن جَهَرْنَا ولا يَسْمَعُ إن أَخْفَيْنَا، وقال الْآخَرُ: إن كان يَسْمَعُ إذا جَهَرْنَا فإنه يَسْمَعُ إذا أَخْفَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٢].

فهؤلاء الذين ظنّوا أنّ الله لا يعلم أعمالهم، ماذا حصل لهم بسبب ظنهم هذا؟ حصل لهم أنّهم أكثروا من السيّئات، وتجرؤوا على المحرّمات، ووقعوا في الذنوب، فكان ذلك سبب شقائهم، وإن كان ذلك مكتوبًا عليهم في الأزل، لكن منهم سببٌ وافق ما قدّره الله عليهم.

فعلى العبد إذا علم أنّ الله تعالى عليم بأحواله، وبوساوسه، وبخطرات قلبه، وبأعماله، فإن هذا الاعتقاد يحمله على أن يراقب ربه، وعلى ألّا يخالفه طرفة عين.

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قال الطحاوي:

وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، وَالْأَعْمَالُ بالخَوَاتِيمِ، والسَّعيدُ مَنْ سَعِدَ بِقَضاءِ اللَّـهِ، والشَّقيُّ مَنْ شَقِيَ بِقضاءِ اللَّهِ.

قال الشارح:

تَقَدَّمَ حَدِيثُ عَلِيّ ﷺ، وَقولُهُ ﷺ فِيهِ: «اعْمَلُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[1].

وَعَنْ زُهَيْرٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّـهِ ـ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ: جَاءَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُم، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّـهِ، بَيِّنْ لنا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا الآنَ، فِيمَ العَمَلُ اليَوْمَ؟ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ، أَمْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ؟ قَالَ: «لَا، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ»، قَالَ: فَفِيمَ العَمَلُ؟ قَالَ زُهَيْرٌ: ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو الزُّبَيْرِ بِشَيْءٍ لَمْ أَفْهَمْهُ، فَسَأَلْتُ: مَا قَالَ؟ فَقَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ». رواه مسلم[2].

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»، خَرَّجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[3]،

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٣٣).

(٢) برقم (٢٦٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢).

وَزَادَ الْبُخَارِيُّ(١): «وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(٢) أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُم يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسِلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: يَكْتُبُ رِزْقَهُ، وأَجَلَهُ، وعَمَلَهُ، وشَقِيٌّ أم سَعيد، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ أَحَدَكُم لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبَيْنَها إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَل بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُها، وإِنَّ أَحَدَكُم ليَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عليهِ الكِتَابُ، فيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُها».

قَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «التَّمْهِيدِ»(٣): قَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ مِنْ تَخْرِيجِ الْآثَارِ فِي هَذَا الْبَابِ، وَأَكْثَرَ الْمُتَكَلِّمُونَ مِنَ الْكَلَامِ فِيهِ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ مُجْتَمِعُونَ عَلَى الْإِيمَانِ بِهَذِهِ الْآثَارِ وَاعْتِقَادِهَا، وتَرْكِ الْمُجَادَلَةِ فِيهَا، وَبِاللَّهِ الْعِصْمَةُ وَالتَّوْفِيقُ.

قال الشيخ:

إن الله تعالى علم السعيد والشقيّ، ولكن قد يعمل الإنسان بعمل أهل الخير،

---

(١) برقم (٦٦٠٧).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٥٣٩).

(٣) (٦/ ١٢).

ثمّ يرتدّ في آخر عمره ويكون من أهل الشرّ؛ لأن الله كتب عليه الشقاوة. وبالعكس قد يحيى الإنسان مع أهل الكفر، ويقضي عمره كله على الكفر والضلال، ثمّ يهديه الله قبل أن يموت، فيموت وقد اهتدى.

وقد ذُكِر أن الأصيرم من الأنصار كان على دين قومه المشركين، ولم يسلم إلَّا قبيل معركة أُحُد فأسلم، ودخل المعركة، واستشهد مع من استشهد، فجعله النبيّ ﷺ من الشهداء، وقال: «إِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»[1]، رغم أنه لم يصلّ لله ركعة، ولكنّه أسلم إسلامًا يقينيًا، وجاهد في سبيل الله.

وضدّه رجل كان يُظهر أنّه مسلم، ويجتهد في الأعمال، ولـمّا حضر المعركة أيضًا قاتل قتالًا شَديدًا، حتى قتل ستةً أو سبعة، فلما ذُكر للنبيّ ﷺ قال: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، خُتم له بخاتمةٍ سيئةٍ، وهو أنّه لـمّا أحسّ بالألم قتل نفسه، فقال النبيّ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلَ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»[2].

فالأعمال بالخواتيم، والإنسان عليه أن يسأل الله حسن الختام؛ لأنه إذا خُتم له بخاتمةٍ حسنة انتهت بها حياته، كان من أهل السعادة، وإذا استمرّ على العمل السيِّئ حرم الخير وخُتم له بعمل الشقاوة، والعياذ بالله.

فنعرف بذلك معنى هذا الحديث، أن الرجل يعمل بعمل أهل الجنّة فيما يبدو للنّاس وهو من أهل النّار، أو يعمل بعمل أهل الجنّة حتّى يقرب من الموت،

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨)، وابن هشام في السيرة (٤/ ٣٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) هو جزء من حديث سهل بن سعد المتقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

فيعمل بعمل أهل النار، ويرتدّ ما بين عشيّةٍ وضحاها، كما ذكر ذلك النبي ﷺ في حديث الفتن، حيث قال: «**يُصْبِحُ فِيهَا الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا**»(١)، يعني: بين عشيّة وضحاها يكفر. فهذا يحثّ الإنسان على أن يتمسّك بدينه، وأن يحرص على حسن الخاتمة، ويعرف أنّ الله تعالى يختم للإنسان بالعمل الذي قدّره له، والذي كتبه من أهله، ولكن له في ذلك سبب، وهو أنه إذا أكثر من سؤال الله تعالى أجاب الله دعوته، وإن كان ذلك مكتوبًا عليه قبل أن يخلقه.

نحن الآن نقرأ في العقيدة، والعقيدة: ما يعقد عليه القلب، وإذا انعقد القلب على أمرٍ، فإنّه لا يتخلى عنه، ولا شك أنَّ من آثار الاعتقاد قوّة العمل، فإذا اعتقد العبد أمرًا فإنه يلازمه ويتمسك به ويتشبّث به بكل قواه، ويتفانى في العمل به، ويصبر على ما يناله، وإذا كانت العقيدة عن يقين صبر على ما يناله من أذى، أو من تعذيب، وبذل في تحقيق ما يعتقده كلّ غالٍ ورخيص حتى نفسه، كما حصل للمؤمنين في كل زمان، الذين بذلوا نفوسهم رخيصةً في سبيل الله، وفي سبيل إعلاء كلمته، كل ذلك لأجل قوةِ العقيدةِ في قلوبهم.

ومن العقيدةِ التي نقرأ فيها: الشهادتان: شهادة أن لا إله إلا الله، ويدخل فيها الإيمان بأسماء الله تعالى وبصفاته، ويظهر على من اعتقدها أثرها، ويدخل فيها أيضًا الإيمان بوحدانية الله تعالى وتفرده، ويدخل في ذلك أيضًا الإيمان بقوة الله،

---

(١) أخرجه مسلم (١١٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وبقهره، وبجبروته، وبخلقه، وبتقديره، وبقدرته على كل شيء، وآثار ذلك عبادة الله وحده، وترك عبادة من سواه.

ويدخل في الشهادة الثانية: الإيمان بصدق النبي ﷺ، وبأمانته، والإيمان بتبليغه للرسالة وبيانها، والإيمان بصحّةِ ما جاءَ به، وما بلَّغه، وكونُه كلُّه من عند ربه، ويدخل في ذلك وجوب طاعته، ووجوب محبّته واتباعه، والتأسِّي به، والسير على نهجه، وتحكيمه والرضا بحكمه، وعدم الميل عن سنّته، ومتى تحقق ذلك؛ ظهر أنه من قوةِ العقيدةِ في قلب المؤمن.

يدخل في ذلك أيضًا الإيمان بفضائله ﷺ ومزاياه، وأنّه سيِّد الخلق يوم القيامة، وأنَّه الشفيع المشفَّع، وأنّه صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، والشفاعة في الآخرة، وكل ذلك يستدعي مِمَّن قال ذلك واعتقد أن يتبعه بالعمل.

ويدخل في ذلك الإيمان بكل ما جاء به من عند الله تعالى، وما جاءت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - من عند الله تعالى.

والرسل جميعًا - عليهم الصلاة والسلام - وخاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ مكلّفون من الله تعالى بتبليغ الرسالة، فأدّوا الأمانة، وبلّغوا الرسالة، ونصحوا أممهم، فكلّ ما بلغوه وكلّ ما جاؤوا به، وكلّ ما جاء في كتبهم، فالعبد يلتزم به ويصدقه، سواءً أكان مجملًا أم مفصّلًا، ثم جاءنا التفصيل في كتابنا الذي أنزله الله على قلب محمد ﷺ، فصّلت فيه أحوال الدنيا والآخرة، وما يكون بعد الموت، وما يكون في الدار الآخرة، فيؤمن العبد بذلك ويصدّق بتفاصيله، والإجمال في الكتب السابقة نؤمن بها إيمانًا مجملًا، نصدّق بأنّها كلام الله، وبأنّها من الله، وبأنّه

حقٌّ، وبأن الله كلّف بها الأمم الذين نزلت عليهم، كلّفهم بالعمل بتفاصيلها، ولكن نحن ما كلّفنا بالعلم بتفاصيلها، وإنّما نؤمن بها مجملةً، ويدخل ذلك في الإيمان بكتب الله، وأدلّة ذلك واضحةٌ، والحمد لله .

فإذا آمن العبد بكلّ ذلك وبغيره من تفاصيل العقيدة، صدق عليه أنّه من أهل العقيدة الراسخة، الذين يعملون عن عقيدة ويقين وإيمان، ولا يردّهم عن العمل شُبَهٌ ولا شكّ، ولا يعتريهم توقّف ولا ريب.

فإذا اعتقد العبد العقيدة التي هي متلقّاةٌ عن الله تعالى التي بعث بها رسله صلوات الله عليهم، ظهرت آثارها على أعماله، وإذا رأيت المبتدعة الذين يخالفون الأدلّة، دلّك ذلك على ضعف عقيدتهم، وعلى تزعزعها، وكونها على شفا جُرُفٍ هارٍ، لم تكن راسخة في قلوبهم.

وهكذا إذا رأيت الذين يتهاونون بالسيئات، ويرتكبون المحرمات، ويتركون الطاعات الواجبة، فإنّ ذلك دليلٌ على ضعف معتقدهم؛ لأنها لم ترسخ العقيدةُ في قلوبهم، ولم يطمئنّوا بالإيمان، ولو اطمأنّوا به لما أقدموا على هذه المخالفات، ولو استحضروا عظمة ربّهم، وأنّه يراهم ويعلم سرائرهم وضمائرهم، لما أقدموا على المعاصي، وهم يعرفون أنّها معاصٍ.

فإذًا يتفقدُ الإنسانُ نفسه، ويتفقّد بني جنسه، ويعرف بذلك سليم العقيدة وضعيفها، ويعرف بذلك من هو قويّ الإيمان متمكّن منه، قد رسخ الإيمان في سويداء قلبه، فيقول: هذا من أهل العقيدة عرفته بقوة إيمانه، وعرفته بآثار إيمانه، وبقوةِ تصديقه، وعرفته بالعمل، وبالبعد عن الحرام، وبالبعد عن المشتبهات.

وهذا ضعيف العقيدة عرفته بتساهله في الإيمان، وبتساهله في المعاصي، وبتساهله في ترك الطاعات، وما أشبه ذلك.

فهذه هي النتيجة والفائدة الصحيحة لعلم هذه العقيدة وتفاصيلها، التي فُصِّلت في «الطحاوية»، وكذلك في غيرها من عقائد أهل السنّة؛ تفاصيلها تزيد العبد قوةً وإيمانًا، سواءً منها ما يتعلَّق بالعهود وما يتعلّق بالمواثيق، أو ما يتعلّق بدخول الأعمال في مسمَّى الإيمان، أو ما يتعلّق بالقضاء والقدر، أو ما يتعلَّق بالعلوم الغيبيَّة السابقة واللاحقة، أو ما يتعلَّق بالإيمان بالبعث، أو بما بعد البعث، أو ما يتعلَّق بالقبر وفتنته ونعيمه، أو ما يتعلَّق بالإيمان بالجنَّة والنَّار، والثَّواب والعقاب، والوعد والوعيد، أو ما يتعلَّق بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما أشبه ذلك، كل ذلك يُعدّ تفاصيلَ لأصل هذه العقيدة، ولكن الأصل ـ كما ذكرنا ـ: الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وبما جاء عن الله على مراد الله.

مر بنا فيما سبق كلام حول المواثيق والعهود التي أخذها الله تعالى على عباده في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وعَرَفنا أنَّ هذا ـ كما ورد في الأحاديث ـ العهد الذي أخذه الله على بني آدم وهم في صلب آدم، وأنَّه العهد الذي فطر الله عليه العباد وجبلهم عليه، وهذا هو الأقرب والأنسب، وبيَّنه قول الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]، وقوله في الحديث القدسي: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عن دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عليهم

ما أَحْلَلْتُ لهم، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي ما لم أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»(١)، فكونهم حنفاء على الفطرة، والحنيفيّة التي هي معرفة الله ومعرفة ما خُلقوا لهُ، فهذا هو الأقرب، ولكن نؤمن أيضًا أنَّ الله تعالى استخرج ذريّة آدم من ظهره، وعرف منهم من هو من أهل الجنَّة، ومن هو من أهل النَّار، وقال: هؤلاء إلى الجنَّة ولا أُبالي، وهؤلاء إلى النَّار ولا أُبالي.

فنؤمن بذلك وإن كنَّا لا نتذكّر ذلك العهد، ولكن خبر الله أُنُفٌ، والأصل أنّه معرفة الله تعالى وجِبلَّة العبد التي لو ترك عليها لعرف أنّه مخلوق وأنّ له خالقًا، وأنّ خالقه له عليه حقوق، فيؤمن العباد بذلك من جملة الإيمان بالغيب، ومن جملة العقيدة التي يعتقدونها.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٢٢٠).

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قال الطحاوي:

وَأَصْلُ الْقَدَرِ سِرُّ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ، لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الْخِذْلَانِ، وَسُلَّمُ الْحِرْمَانِ، وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ، فَالْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظَرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسَةً، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَوَى عِلْمَ الْقَدَرِ عَنْ أَنَامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ، وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ، كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ».

قال الشارح:

أَصْلُ الْقَدَرِ سِرُّ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وَهُوَ كَوْنُهُ أَوْجَدَ وَأَفْنَى، وَأَفْقَرَ وَأَغْنَى، وَأَمَاتَ وَأَحْيَا، وَأَضَلَّ وَهَدَى. قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: «الْقَدَرُ سِرُّ اللَّهِ، فَلَا تَكْشِفْهُ»[1].

وَالنِّزَاعُ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ مَشْهُورٌ، وَالَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرِيدُ الْكُفْرَ مِنَ الْكَافِرِ وَيَشَاؤُهُ، وَلَا يَرْضَاهُ وَلَا يُحِبُّهُ، فَيَشَاؤُهُ كَوْنًا، وَلَا يَرْضَاهُ دِينًا.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢/ ٥١٢، ٥١٣) وفيه: «لا تفشه».

وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ الْقَدَرِيَّةَ وَالْمُعْتَزِلَةُ، وَزَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَاءَ الْإِيمَانَ مِنَ الْكَافِرِ، وَلَكِنَّ الْكَافِرَ شَاءَ الْكُفْرَ، فَرُّوا إِلَى هَذَا، لِئَلَّا يَقُولُوا: شَاءَ الْكُفْرَ مِنَ الْكَافِرِ، وَعَذَّبَهُ عَلَيهِ! وَلَكِن صَارُوا كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ! فَإِنَّهم هَرَبُوا مِنْ شَيْءٍ، فَوَقَعُوا فِيمَا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ، فَإِنَّهُ يَلْزَمُهُمْ أَنَّ مَشِيئَةَ الْكَافِرِ غَلَبَتْ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ شَاءَ الْإِيمَانَ مِنْهُ - عَلَى قَوْلِهِمْ - وَالْكَافِرِ شَاءَ الْكُفْرَ، فَوَقَعَتْ مَشِيئَةُ الْكَافِرِ دُونَ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَعَالَى! وَهَذَا مِنْ أَقْبَحِ الِاعْتِقَادِ، وَهُوَ قَوْلٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ مُخَالِفٌ لِلدَّلِيلِ.

رَوَى اللَّالَكَائِي[1]، مِنْ حَدِيثِ بَقِيَّةِ، عَنْ الْأَوْزَاعِيِّ، حَدَّثَنَا الْعَلَاءُ بْن الحَجَّاجِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُبَيدِ المَكِّيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلًا قَدِمَ عَلَيْنَا يُكَذِّبُ بِالْقَدَرِ، فَقَالَ: دُلُّونِي عَلَيهِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أَعْمَى، فَقَالُوا لَهُ: مَا تَصْنَعُ بِهِ؟ فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِن اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ، لَأَعُضَّنَّ أَنْفَهُ حَتَّى أَقْطَعَهُ، وَلَئِنْ وَقَعَتْ رَقَبَتُهُ بِيَدِي لَأَدُقَّنَّها، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كَأَنِّي بِنِسَاءِ بَنِي فَهْمٍ يَطُفْنَ بِالخَزْرَجِ، تَصْطَكُّ أَلْيَاتُهُنَّ مُشْرِكَاتٍ، وَهَذَا أَوَّلُ شِرْكٍ فِي الْإِسْلَامِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَنْتَهِي بِهِم سُوءُ رَأْيِهِمْ حَتَّى يُخْرِجُوا اللَّهَ مِنْ أَنْ يُقَدِّرَ الخَيْرَ، كَمَا أَخْرَجُوهُ مِنْ أَنْ يُقَدِّرَ الشَّرَّ»[2].

قَوْلُهُ: وَهَذَا أَوَّلُ شِرْكٍ فِي الْإِسْلَامِ، إِلَى آخِرِهِ، مِنْ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَهَذَا يُوَافِقُ قَوْلَهُ: الْقَدَرُ نِظَامُ التَّوْحِيدِ، فَمَنْ وَحَّدَ اللَّهَ، وَكَذَّبَ بِالْقَدَرِ، نَقَضَ تَكْذِيبُهُ تَوْحِيدَهُ.

---

(١) في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦٢٥).

(٢) وأخرجه أيضًا أحمد (١/ ٣٢٩)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٩).

قال الشيخ:

يذكر الشارح أنَّ القدر سرُّ الله تعالى في كونه وفي أمره، ووجهُ كونه سرًّا لا يعلمه البشر: أن الربَّ ـ سبحانه وتعالى ـ له الحكمة في كونه هدى هذا وأضلَّ هذا، ولا يُسأل عمَّا يفعل وهم يسألون، ولا يجوز للعباد أن يسألوا الربّ عن الأسباب في أفعاله سبحانه، فلا يُقال: لماذا حبس الله الخير؟ ولماذا أنزل الله العذاب؟ ولماذا خلق الله الأمراض؟ ولماذا خلق الله الحشرات والأضرار؟ ولماذا خلق الله السباع؟ ولماذا سلّط الله على المؤمنين الأمراض والعاهات والفقر؟ ولماذا سلّط عليهم الكفار؟ لماذا أفقر هذا وأغنى هذا؟.

لكن ـ مع ذلك ـ نعرف أنّه سبحانه حكيم، يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، فلا يفعل شيء عبثًا ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ [المؤمنون:١١٥]، وليس شيءٌ من خلقه موجود إلَّا لحكمة، ولم يسلّط عقوبة ويخلق مرضًا إلا لمصلحةٍ وحكمة، سواءً أعلمنا تلك الحكمة أم حُجبت عنّا؛ لأنّ هذا مقتضى أنّه الحكيم ذو الحكمة، التي هي غاية المصلحة، ولكن ليس لنا الاعتراض على تصرُّفه، فهو سبحانه يتصرَّف في خلقه كيف يشاء، فيهدي هذا فضلًا منه، ويضلّ هذا عدلًا منه، ويغني ويفقر، ويميت ويحيي، ويسعد ويشقي، ويمنع ويعطي، لا رادّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، وليس لنا أن نعترض على الله تعالى، بل نؤمن بذلك كلِّه، ونقول: لا نعلم الحكمة في ذلك، ولا نعلم السرَّ في ذلك،

فالقدر سرُّ الله في خلقه.

هذا من ناحية خلقه للأشياء الضارَّة والنافعة معًا، ولا شكَّ أنَّ خلق الخير والشرِّ، وخلق النفع والضرِّ المتضادِّ؛ أنَّهما دليل على كمال القدرة، فإنَّنا إذا رأينا أنَّه فرَّق بين الأخوين هذا غني وهذا فقير، هذا سليم وهذا مريض، هذا سعيد وهذا شقي، هذا مهتدٍ وهذا ضالّ، مع كونهما على حدٍّ سواء، فهذا يدلُّ على كمال التصرُّف، وأنَّه تصرف في خلقه كما يشاء، وأنَّه خلق الضدَّين، وذلك دليل كمال القدرة، فالظُّلمة ضدُّها النور، والليل ضدُّه النهار، وكذلك المزدوجات؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩]، يعني: ذكرًا وأنثى، فهكذا أيضًا المتضادات: الصحّة والمرض ضدّان، والخير والشرّ ضدّان، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة، الله تعالى هو الذي خلقها وقدّرها، ولكن نعرف أن كل ما صدر عن الله تعالى فإنَّه خير؛ ولذلك ورد في حديث الاستفتاح: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ ليس إِلَيْكَ**»[1].

معلوم أنَّ الله هو الذي يقدِّر الأمراض، وهو الذي يقدِّر الفقر والمصائب، وهو الذي يقدِّر العاهات على العباد والحوادث ونحوها، ولكن هل يُقال: إنَّها شرٌّ بالنسبة إلى الله؟ والجواب: أنها ليست شرًّا، بل هي لحكمةٍ، ومحض مصلحة. فهذا معنى قوله ﷺ: «**وَالشَّرُّ ليس إِلَيْكَ**».

وإذا تتبَّعت القرآن والأدلّة تجد أنَّ كل ما فيه ضرر وشرٌّ ينسب إلى الإنسان،

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

وإن كان الله هو الذي أوجده وكوّنه وقدّره، وقد حكى الله عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنَّه قال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء:٨٠]، لم يقل: وإذا أمرضني، بل قال: وإذا مرضت، مع أنَّ الله هو الذي ينزل المرض ويقدِّره، ولكن لا يضاف إليه الشرُّ المحض.

وحكى الله عن مؤمني الجنِّ أنَّهم قالوا: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن:١٠]، فالشرّ قالوا فيه: ﴿ أُرِيدَ ﴾، وفي الخير قالوا: ﴿ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾؛ وذلك تنزيه لله تعالى عن أن يصدر منه شرٌّ محضٌ، وإن كان هو الذي قدّر الشرَّ وخلقه وكوَّنه، فإنَّه لا يكون في الوجود إلا ما يريد، فيعتقد العبد أنَّ صدوره من الله تعالى خير ولمحض مصلحة، وليس فيه أي ضرر بالنسبة إلى الله، ولو كان في ذلك كراهية للعباد وضرر عليهم، لكن ما خلقه وقدَّره إلا لحكمةٍ ومصلحةٍ، فهو خير، فلا يضاف الشرُّ إلى الله تعالى . هذا هو قول أهل السنة .

أما المعتزلة فقد أنكروا أن يكون الله تعالى يخلق أفعال العباد، وجعلوا العبد هو الذي يخلق فعله، وجعلوا العباد هم الذين يهدون أنفسهم ويضلّونها، وكذَّبوا بالنصوص الواردة في مثل إضافة الأفعال إلى الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل:٣٧]، وكقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ [الزمر:٣٦، ٣٧]، وكذلك قول النبيّ ﷺ في خطبة الحاجة: «مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ

يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ»[1].

من هذا كله نعلم أنَّ الله هو الذي هدى هذا وأقبل بقلبه إلى الخير، وأضلَّ هذا وصرفه إلى الشرِّ، وله المِنَّة والنعمة على المهتدين، وهو العادل في صرف هؤلاء المعتدين الظالمين، وما عذَّبهم وهو ظالم لهم، ولو عذَّب أهل سمٰواته وأهل أرضه لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته أفضل من أعمالهم.

فعلى هذا نقول: إنَّ الله تعالى هو الذي خلق أفعال العباد، فلو شاء لما ضلَّ هذا ولما اهتدى هذا، فهو الذي منَّ على هذا وهداه، وهو الذي أضلَّ هذا وصرفه، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥]. وقد حكى الله عن المشركين أنَّهم يتعلَّقون بعموم المشيئة، ولا متعلَّق لهم في ذلك، فإذا قال المشركون مثلًا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]، ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس:٤٧]، نقول: حقًّا، لو شاء الله ما أشركتم، ولكنَّه سبحانه خذلكم عدلًا منه، ولم يُقدّر لكم الهداية، لكن أعطاكم قوةً وأعطاكم اختيارًا، وأعطاكم ميلًا وتفضيلًا، فصرتم به مائلين إلى أفعال الشرِّ، وإلى الكفر، وإلى المعاصي، فميلكم هذا واختياركم، وإن كان مسبوقًا بقضاء الله وقدره، هو الذي تستحقُّون عليه العقوبة؛ فلذلك يقول أهل السنَّة: إنَّ الله تعالى تغلب قدرته

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٦٦).

قدرة العباد، ولكن أعطانا قوَّة وقدرة واستطاعة نتمكَّن بها من مزاولة الأعمال، وقدرة الله وإرادته ومشيئته غالبةٌ على قدرة العباد ومشيئتهم وإرادتهم، ولأجل ذلك يقول تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠].

والمعتزلة لم تتَّسع قلوبهم لهذا، فقالوا: إنَّ قدرة العبد غلبت قدرة الله، ويقولون: إنَّه يكون في الوجود ما لا يريد، وإنَّه أراد من الناس كلِّهم أن يؤمنوا، ولكن غلبت قدرةُ هؤلاء الكفار قدرة الله، فاختاروا الكفر؛ فغلبت قدرتهم، فكان في الكون من يخلق مع الله؛ لأنَّهم خلقوا أفعالهم مستقلِّين بها، دون أن يكون لله تصرُّف فيهم ولا قدرة عليهم، فكانوا بذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار، كأنَّهم يقولون: لو أنَّه خلق فيهم ذلك وعذبهم، لكان ظالمًا لهم، كيف يعذِّبهم وهو الذي خلق فيهم الكفر، وخلق فيهم المعاصي، وأقدرهم عليها.

نقول: أنتم فررتم من شيء ووقعتم في شرٍّ منه حيث جعلتم الله مغلوبًا على أمره حين قلتم: إنَّه يعصى قسرًا، وإنَّ قدرتهم تغلب قدرته، تعالى الله عن ذلك !! ولأجل هذا الاعتقاد الذي هو قولهم: إنَّ مع الله من يخلق، سمُّوا «مجوس هذه الأمة»؛ لأن المجوس يجعلون الأمر صادرًا عن خالقين: النور والظلمة، فالنور هو الذي يخلق الخير، والظلمة هي التي تخلق الشرّ. والقدرية ينكرون قدرة الله، ويجعلون العباد يخلقون أفعالهم مستقلِّين بها، ولا يجعلون لله قدرةً على الهداية، ولا على الإضلال.

وبكلِّ حالٍ فإن عقيدة أهل السنَّة: أنَّ لله تعالى قدرةً تغلب قدرة العباد،

ولكن يثيب العباد ويعاقبهم على ما أوجد فيهم من القدرة والاستطاعة، التي يتمكّنون بها من مزاولة الأعمال، فثواب العباد وعقابهم على طاعاتهم كما في قوله: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، بما قدّمت أيديكم، وبما كسبت أيديكم، فما دام أنّهم أسندت إليهم الأعمال، فمنهم من عمل بها، ومنهم من لم يعمل، فلابدَّ أنَّ لهم استطاعةً وقدرةً يتمكَّنون بها من إيجاد الإيمان والكفر، وإيجاد الطاعات والمعاصي، ولكن كل ذلك مسبوق بقدرة الخالق تعالى وباختياره وبقهره، ولو شاء الله لما حصل ذلك منهم ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩]، فللَّه الحجة على خلقه، فهو الذي يقدر على أن يعطي هذا الهداية منًّا منه وكرمًا، ويخذل هذا.

والبحث في هذا بحثٌ واسع يتعلَّق بالقضاء والقدر، وقد أطال فيه العلماء حتى يبطلوا شبهة طائفتين؛ طائفة غلت في الإثبات، وطائفة غلت في النَّفي، فالذين غلوا في الإثبات يسمَّون المجبرة أو الجبريَّة، وقد غلوا في الإثبات حتَّى سلبوا العبد قدرته واختياره، وجعلوه كالشجرة تحرِّكها الرياح، ليس له أي اختيار، وجعلوا تعذيبه على المعاصي ظلمًا من الله له - تعالى الله عن قولهم - وتوسّط أهل السنّة والجماعة وجعلوا للعبد قدرة وإرادة، والله خالقه وخالق قدرته وإرادته، وجعلوا العباد فاعلين حقيقة تضاف إليهم أعمالهم، فالعبد هو المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، والمصلِّي والصائم، تُسند إليه هذه الأعمال وإن كانت بقضاء الله وبقدره وبخلقه وبإرادته؛ حيث لا يخرج شيءٌ عن إرادة الله تعالى.

قال الشارح:

وَرَوَى عُمَرُ بْنُ الهَيْثَمِ قَالَ: خَرَجْنَا فِي سَفِينَةٍ، وَصَحِبَنا فِيهَا قَدَرِيٌّ وَمَجوسيّ، فَقَالَ الْقَدَرِيُّ لِلْمَجُوسِيّ: أَسْلِمْ، قَالَ المَجُوسِيُّ: حَتَّى يُرِيدَ اللَّهُ، فَقَالَ الْقَدَرِيُّ: إِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يُرِيدُ، قَالَ المَجُوسِيُّ: أَرَادَ اللَّهُ وَأَرَادَ الشَّيْطَانُ، فَكَانَ مَا أَرَادَ الشَّيْطَانُ! هَذَا شَيطَانٌ قَوِيٌّ!! وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ: فَأَنَا مَعَ أَقْوَاهُمَا!![1]

وَوَقَفَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى حَلْقَةٍ فِيهَا عَمْرُو بْنُ عُبَيدٍ، فَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ إِنَّ نَاقَتِي سُرِقَتْ، فَادْعُوا اللَّهَ أَنْ يَرُدَّهَا عَلَيَّ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ عُبَيدٍ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ لَمْ تُرِدْ أَنْ تُسْرَقَ نَاقَتُهُ فَسُرِقَتْ فَارْدُدْهَا عَلَيهِ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَا حَاجَةَ لِي فِي دُعائِكَ، قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَ: أَخَافُ - كَمَا أَرَادَ أَنْ لَا تُسْرَقَ فَسُرِقَتْ - أَنْ يُرِيدَ رَدَّهَا فَلَا تُرَدُّ!![2]

وَقَالَ رَجُلٌ لِأَبِي عِصَامِ الْقَسْطَلَّانِي: أَرَأَيتَ إِنْ مَنَعَنِي الْهُدَى وَأَوْرَدَنِي الضَّلَالَ، ثُمَّ عَذَّبَنِي، أَيَكُونُ مُنْصِفًا؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو عِصَام: إِنْ يَكُنِ الْهُدَى شَيْئًا هُوَ لَهُ، فَلَهُ أَنْ يُعْطِيَه مَنْ يَشاءُ، ويَمْنَعُهُ مَنْ يَشاءُ.

وَأَمَّا الْأَدِلَّةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

---

(١) أخرجه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص٨٢)، وابن المستفاض في القدر (ص٢٤٤)، والآجري في الشريعة (٢/ ٩٦١)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٢٧٩).

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة (٢/ ٢٨٠)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٧٤٠).

[السجدة:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

قال الشيخ:

في هذه القصص التي حكاها الشارح ما يُبطل قول المعتزلة؛ ففي القصَّة الأولى مجوسي وقدري، ومعلوم أن المجوس يجعلون الكون صادرًا عن خالقين، خالق الخير وخالق الشرِّ، فهذا المجوسي باقٍ على مجوسيَّته، فدعاه هذا القدريُّ للإسلام! فقال المجوسيّ: لا أسلم حتى يريد الله أن أسلم، فقال ذلك القدري: الله يريد الإسلام منك، ولكن الشَّيطان هو الذي يريد منك الكفر! فتعجَّب ذلك المجوسي، وقال: هذا شيطان قويّ؛ قوَّة الشيطان غلبت قوَّة الله! الله أراد أن أؤمن، والشيطان أراد أن أكفر، فغلبت إرادةُ الشيطان إرادة الله. فخصم بذلك وهزم المعتزلي، ولو أنَّه قال: إن الله تعالى أراد كلَّ شيءٍ، أراد منك الإيمان وأحبَّه منك، ولكن جعل لك قدرةً وميلًا واستطاعةً تزاول بها العمل، لكان ذلك أقرب إلى أن يتقبّل. فهذه لا شكَّ أنّها دالّةٌ على أن المعتزلة

متذبذبون في شبهاتهم، وفي حججهم.

وأمّا القصة الثانية: قصة الأعرابي الذي سُرقت ناقته، فدعا له هذا المعتزلي وقال: اللهمَّ إنَّك لم ترد أن تسرق ناقته فارددها !! ولكن الأعرابيّ فطِن وقال للمعتزلي: الله ما أراد أن تُسرق وسُرقت، فإذًا لو أراد أن يردَّها لن يقدر، فلا حاجة لي في دعائك.

فالله تعالى هو الذي يريد كل شيء، ولا يكون في الوجود إلَّا ما يريد، ولكنَّه يقدِّر هذه الأشياء كما يشاء.

والأدلَّة التي أوردها الشارح واضحة الدلالة في أنَّ مشيئة الله تعالى وقدرته عامَّة، وأنَّه لا يكون في الوجود إلَّا ما يريد، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الإنسان:٣٠]، أي مشيئتكم التي تزاولون بها الأعمال مرتبطة بمشيئة الله، ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩]، فإضلاله لهؤلاء عدلٌ منه، ولكن معلوم أنّه مكَّنهم من الأعمال فزاولوا الأعمال السيِّئة من الكفر والذنوب، فعذِّبوا على تلك المزاولة التي صاروا بها كفارًا مقدِّمين للكفر ومقدِّمين للمعاصي، وهدى المؤمنين وأقبل بقلوبهم ومكَّنهم وأعطاهم قدرة يزاولون بها الطاعات والإيمان، فصاروا بذلك مؤمنين مطيعين، فعذَّب هؤلاء على معاصيهم وكفرهم، وإن كان بقضاء وقدر، وأثاب هؤلاء على إيمانهم وطاعتهم، وإن كان بقضاءٍ وقدر.

وبعد، فإنَّ من أركان الإيمان بالله: الإيمان بقضائه وقدره، فهو ركن من

أركان الإيمان الستَّة، بيَّنه النبي ﷺ بقوله: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ باللَّـهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[(١)].

وذكره الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩]، وذكره الله تعالى بقوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان:٢].

والإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمَّن شيئين:

الدرجة الأولى: تتضمَّن أنَّ الله تعالى علم الأشياء ثم كتبها، أولًا العلم، وثانيًا الكتابة، وقد دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام:٥٩]، هذا دليل على الكتابة. كذلك قول النبي ﷺ: «أَوَّل مَا خَلَقَ اللَّـهُ تعالى الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُو كَائِنٌ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[(٢)]، أي: إنَّه تعالى علم ما سوف يحدث من أوَّل الدنيا إلى آخرها، وأثبت ذلك، وليس في ذلك صعوبة على الله، قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد:٢٢]، والله هو الذي أوجد الكائنات فلا يكون

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٨١)، وسيأتي الكلام على هذا الحديث في تعليق سماحة الشيخ على قول الطحاوي: «ونُؤْمِنُ باللَّوحِ والقَلَمِ، وبجَميعِ مَا فيهِ قَدْ رُقِم».

في الوجود إلا ما يريد، وحيث إنَّها تكون بإرادته سبحانه وتعالى، فإنَّها كذلك كائنة بعد خلقه وبعد إيجاده لها، فهو علمها قبل أن توجد، وأثبتها في اللوح المحفوظ كما أخبر بذلك .

وقد كان غُلاة القدر قديمًا ينكرون هذا النوع، ويقولون: إنَّ الله لا يعلم بالأشياء حتى تقع، وبعضهم يقول: إنَّه يعلم الكليَّات ولا يعلم الجزئيَّات، بمعنى: أنَّه لا يعلم مفردات الأشياء، وإن كان يعلم عموماتها، وقد أوردنا فيما سبق أثر ابن مسعود ﷺ حيث قال: «اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ، أو ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ، كَثِيرَةٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ، قَلِيلَةٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ، فقال أَحَدُهُمْ: أَتُرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ ما نَقُولُ؟ قال الْآخَرُ: يَسْمَعُ إن جَهَرْنَا ولا يَسْمَعُ إن أَخْفَيْنَا، وقال الْآخَرُ: إن كان يَسْمَعُ إذا جَهَرْنَا فإنه يَسْمَعُ إذا أَخْفَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٢، ٢٣][1]، فهكذا ظنّ هؤلاء الذين يظنون أنَّ الله لا يعلم أعمالهم، أو أنَّه يخفى عليه شيء من أحوالهم، أو أنَّهم يكونون في مكانٍ أو موضعٍ لا يراهم ربُّهم، أو نحو ذلك.

فإذا آمن العبد بأنَّ الله عالمٌ بسرِّه، وعالِم بنجواه، وعالِم بأحواله، وعالم بما هو عامل، وأنَّه قد كتب أعماله قبل أن يوجده، وقد كتب ما هو كائن، ويعلم ما

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٣٧).

توسوس به نفسه، وما يجول ويتحدَّث به في قلبه، ترتب على إيمانه بذلك أنَّه يخاف الله حقَّ الخوف، فإنَّ من علم أنَّ أعماله محصاةٌ عليه، وعلم أنَّها مكتوبة لا تضيع دقيقها وجليلها، كبيرها وصغيرها، وأنَّه سوف يحاسب عليها، وأنَّه سوف يوقف عليها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[الأنبياء:٤٧]، فهذه درجة من درجات القدر، وهي الإيمان بأنَّ الله عالم بالأعمال وبالمخلوقات، وعالم بعددها، وكتب ذلك وأثبته قبل أن توجد المخلوقات بأسرها، وأنَّه لا يحدث إلا ما علم الله أنَّه سيحدث، في الوقت الذي قدر أنَّه يحدث فيه، دون تقدُّم أو دون تأخُّر.

أما الدَّرجة الثانية: والتي تتضمَّن شيئين أيضًا، فهي الإيمان بإرادة الله تعالى ويخلقه، هذه الدرجة تتضمَّن أنَّ الله أراد ما في الكون وخلقه، والإرادة عامَّة لا يكون شيء في الوجود خارجًا عنها، وهي الإرادة الكونيَّة القدرية، وهي بمعنى المشيئة، فلهذا يقول المسلمون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ويقولون: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلا يكون في الوجود حركة إلا بإرادة الله ومشيئته، ولا يكون لإنسان حول إلا بإذن الله، ولا يكون له قوّة ولا قدرة ولا استطاعة على أمر من الأمور إلا بالله تعالى، فما شاءه كان وإن لم يشأ العباد، وما شاءه العباد لا يكون إذا لم يشأ الله، وفي هذا المعنى قال الشافعي -رحمه الله- في

أبياتٍ مشهورةٍ(١):

فَـمَا شِـئْتَ كَـانَ وَإِنْ لَمْ أَشَـأْ وَمَـا شِـئْتُ إِنْ لَمْ تَـشَأْ لَمْ يَكُـنْ

فيؤمن العبد بأنَّ ما شاء الله كان وإن لم يشأ الخلق، وما لم يشأ لـن يكـون وإن شاء الخلق، ومصداق ذلك في قول النبي ﷺ لابن عباس - رضي الله عنهما -: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لم يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لم يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ»(٢). ومع ذلك، فإنَّا إذا آمنَّا بكتابة هذه المخلوقات، وبإيجاد الله لها، لا يكون ذلك عذرًا لنا في ترك الأعمال، بل يزيدنا ذلك نشاطًا في العمل وجدًّا واجتهادًا، وما ذاك إلا أنَّا خُلقنا للعمل، وأُعطينا من القوَّة التي بإرادة الله ما نستطيع به مزاولة الأعمال.

فهذا هو الجمع بين كون الله تعالى خالقًا ما في الوجود، وأنَّه يريد ما في الكون، وبين كونه أراد من العباد أفعالهم التي هي الطاعات والإيمان، أراد ذلك دينًا وشرعًا، وأمرهم بما هم قادرون على امتثاله، وأعطاهم من القوَّة ما يزاولون به تلك الأعمال، وما يصحُّ أن تنسب إليهم، ويثابون عليها ويعاقبون على أفعالهم، فبهذا يجتمع إيمان أهل السنَّة بما ذكرنا، ويكون هذا من السرّ الذي لا يعلم كيفيَّته إلا الله، كما تقدّم لنا أنَّ القدر سرُّ الله تعالى في خلقه.

(١) تقدم ذكرها (١/ ٥٤٧).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٥٤٧).

قال الشارح:

وَمَنْشَأُ الضَّلَالِ: مِنَ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ المَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ، وَبَيْنَ المَحَبَّةِ وَالرِّضَا، فَسَوَّى بَيْنَهُمَا الجَبْرِيَّةُ وَالقَدَرِيَّةُ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا، فَقَالَتِ الجَبْرِيَّةُ: الْكَوْنُ كُلُّهُ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، فَيَكُونُ مَحْبُوبًا مَرْضِيًّا، وَقَالَتِ الْقَدَرِيَّةُ النُّفَاةُ: لَيْسَتِ المَعَاصِي مَحْبُوبَةً لِلَّهِ، وَلَا مَرْضِيَّةً لَهُ، فَلَيْسَتْ مُقَدَّرَةً، وَلَا مَقْضِيَّةً، فَهِيَ خَارِجَةٌ عَنْ مَشِيئَتِهِ وَخَلْقِهِ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ المَشِيئَةِ وَالمَحَبَّةِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْفِطْرَةُ الصَّحِيحَةُ، أَمَّا نُصُوصُ المَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ مِنَ الْكِتَابِ، فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ بَعْضِهَا، وَأَمَّا نُصُوصُ المَحَبَّةِ وَالرِّضَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧]، وَقَالَ تَعَالَى عَقِيبَ مَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشِّرْكِ وَالظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَالْكِبْرِ: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء:٣٨].

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُم ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ المَالِ»(١).

وَفِي «المُسْنَدِ»(٢): «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُؤْخَذَ بِرُخَصِهِ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ». وكان من دعائه ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وأَعوذُ بِكَ مِنْكَ»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

(٢) (٢/ ١٠٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٤٤٠).

فَتَأَمَّلْ ذِكْرَ اسْتِعَاذَتِهِ بِصَفَةِ الرِّضَا مِن صِفَةِ السَّخْطِ، وَبِفِعْلِ الْمُعَافَاةِ مِنْ فِعْلِ الْعُقُوبَةِ، فَالْأَوَّلُ لِلصِّفَةِ، وَالثَّانِي لِأَثَرِهَا الْمُتَرَتِّبِ عَلَيْهَا، ثُمَّ رَبَطَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ وَحْدَهُ لَا إِلَى غَيْرِهِ، فَمَا أَعُوذُ مِنْهُ وَاقِعٌ بِمَشِيئَتِكَ وَإِرَادَتِكَ، وَمَا أَعُوذُ بِهِ مِنْ رِضَاكَ وَمُعَافَاتِكَ هُوَ بِمَشِيئَتِكَ وَإِرَادَتِكَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ تَرْضَى عَنْ عَبْدِكَ وَتُعَافِيَهُ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَغْضَبَ عَلَيهِ وَتُعَاقِبَهُ، فَإِعَاذَتِي مِمَّا أَكْرَهُ، وَمَنْعُهُ أَنْ يَحِلَّ بِي، هِيَ بِمَشِيئَتِكَ أَيْضًا، فَالْمَحْبُوبُ وَالْمَكْرُوهُ كُلُّهُ بِقَضَائِكَ وَمَشِيئَتِكَ، فَعِيَاذِي بِكَ مِنْكَ، فَعِيَاذِي بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَرَحْمَتِكَ مِمَّا يَكُونُ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَعَدْلِكَ وَحِكْمَتِكَ، فَلَا أَسْتَعِيذُ بِغَيْرِكَ مِنْ غَيْرِكَ، وَلَا أَسْتَعِيذُ بِكَ مِنْ شَيْءٍ صَادِرٍ عَنْ غَيْرِ مَشِيئَتِكَ، بَلْ هُوَ مِنْكَ، فَلَا يَعْلَمُ مَا فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْمَعَارِفِ وَالْعُبُودِيَّةِ إِلَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَمَعْرِفَةِ عُبُودِيَّتِهِ.

قال الشيخ:

يقول الشارح: إنَّ الذين ضلُّوا في هذا الباب سوَّوا بين المشيئة والإرادة، والصحيح أنَّه بينهما فرقًا، فإنّ الإرادة تنقسم قسمين: إرادة شرعيّة، وإرادة قدريّة. فالإرادةُ القدريّة هي بمعنى المشيئة، والإرادة الشرعية هي التي بمعنى المحبَّة، فالله تعالى أراد الطاعات شرعًا وأحبَّها، وأراد المعاصي كونًا وكرهها، ولم يحبَّها، ولكنه قدَّرها وأرادها وشاءها، ولو لم يشأها لم تكن، ولكنَّه ما رضيها ولا أحبَّها، بل كرهها وتوعَّد عليها، ولو كانت بمشيئته وبقدرته وبإرادته الكونيَّة، حتَّى لا يكون

في الوجود ما لا يريد، وحتى لا يُعصى ربّنا قسرًا عليه، فنعرف بذلك أنَّ هناك فرقًا بين المشيئة والإرادة الشرعية.

فالإرادة الشرعية: هي كونه تعالى يريد الطاعات يعني شرعها وأرادها وأحبَّها، وقد ذكر الله هذه الإرادة في مواضع، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، فهذه إرادة شرعيَّة، كذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٦-٢٨]، فهذه الإرادات كلها إرادة شرعيّة.

نقول: إنَّ الله تعالى أراد الطاعات شرعًا، وأراد من العباد كلِّهم الإيمان شرعًا، أراد منهم الطاعات، فأراد منهم الصيام والصدقات والزكوات والجهاد والحجَّ والعمرة والذكر والقراءة وأنواع الطاعات، وأحبَّ هذه الطاعات، وأراد منهم ترك المعاصي شرعًا، وكرهها، فهذه إرادةٌ شرعيّة، وهي تستلزم المحبّة للمراد . فإذا شرع الله شيئًا وأراده شرعًا فإنّه يحبُّه ولو لم يكن، فيحب الإيمان من الخلق كلِّهم ولو لم يحصل إلّا من بعضهم، ويحبُّ الصلوات من الناس كلّهم ولو أنّ بعضهم ما حصلت منه الصلاة، ويحب الصّوم، ويحب الصدقات، ويحبُّ الجهاد، ويحبُّ التوبة، ويحبّ الاستغفار، ويحبّ الأذكار، ويحبّ التلاوة، يحبّ ذلك منهم، وقد أراده شرعًا، ولكنه لم يحصل إلّا من البعض، وهم المسلمون

المؤمنون. فهذه إرادة شرعيّة، وهي التي ذكرنا أنَّ الله تعالى يحبّ ما يترتب عليها، ولكنها لا تستلزم حصول المراد، فقد يريد شرعًا أمرًا ولكنّه لا يحصل؛ لكونه ما أراده قدرًا، يعني: أراد من الكفار الإيمان شرعًا ولم يرده قدرًا، فلذلك لن يحصل، وأراد من العصاة أن يطيعوه، ولكنّه لم يرده قدرًا ولم يشأه؛ فلذلك لم يحصل. هذا معنى الإرادة الشرعيّة.

أما الإرادة الكونيّة: فهي التي لا بدّ أن يقع مرادها، وقد ذُكرت في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١]، وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥]، فهذه إرادة كونيّة، يعني: مكتوبة في الكون وفي الأزل، وهي القدريّة، وهي التي يقع المراد بها، ولكن ليس محبوبًا كله، فليس ما يريده الله من هذه الكائنات يكون دائمًا محبوبًا، فلذلك نقول: إنّه أراد المعاصي كونًا ولكنّه لا يحبّها، وأراد الكفر كونًا ولكنه لا يحبّه، ولم يرده شرعًا، ومع ذلك لو لم يشأه ولو لم يرده لما حصل، فإنّه لا يكون في الوجود إلا ما يريد، ولما لم يحبّه ولم يأمر به شرعًا بل كرهه؛ كان مترتبًا عليه العقاب.

فهذا هو المراد بكونه سبحانه لا يكون في الوجود إلا ما يريد، ولكن غلا في هذه الإرادة قوم، ونفاها قوم، وتقابل الطرفان أو الطائفتان، فطائفة جبريّة، جعلوا كل الموجودات مخلوقة لله، ولم يجعلوا للإنسان أي تصرّف، بل جعلوه مجبورًا ليس له أيُّ اختيار، وقالوا: إنَّ عقوبته على المعاصي ظلم؛ لأنه مقسور

ومجبور عليها، فهذه الطائفة هم الجبريَّة.

والطائفة الثانية التي قابلتهم: هم نفاةُ قدرة الله، الذين يقولون: ننزِّه الله عن الظلم، فنقول: إنَّه لو خلق هذه المعاصي وعاقب عليها لكان ظالمًا. فهذه الطائفة غلت في النفي فقالت: إنَّ أعمال العباد ومعاصيهم وطاعاتهم ليست من خلق الله، بل من خلقهم ومن إيجادهم، وأنَّ العباد هم الذين يوجدون أفعالهم. فهذه الطائفة غلت في النفي فجعلت الإنسان يخلق فعله، ونفت أن يكون لله أي قدرة على أفعال العبد، وزعموا بذلك أنَّهم أهل العدل والإنصاف.

وكلا الطائفتين ضالٌّ، فالطائفةُ الأولى جعلت للكفار وللعصاة عذرًا؛ لأنهم يقولون: كيف يخلقنا ويخلق فينا المعاصي ثم يعاقبنا عليها؟ والطائفة الثانية جعلت مع الله من يخلق، وجعلت كل إنسان خالقًا مستقلًا بأفعاله، وكذبت بالأدلّة التي تثبت أنَّ الأمر بيد الله تعالى، يضلُّ من يشاء، ويهدي من يشاء.

وتوسّط أهل الحقِّ وقالوا: إنَّ الكائنات حاصلةٌ بقدرة الله، كلها طاعات ومعاصٍ، ولكن تنسب إلى العبد، فالله أعطى العبد قدرة يزاول بها الأعمال، ويصح نسبتها إليه، ولأجل ذلك يقولون: إن العباد فاعلون حقيقة، والله خالقهم وخالق أفعالهم، فالعبد هو المؤمن والكافر والبرُّ والفاجر والمصلّي والصائم، تنسب أفعاله إليه، وإن كانت بقضاء الله تعالى وقدره، وبإرادته الكونيّة، وبمشيئته التي حصلت بإرادة الله، ولكنّها تُنسب إلى العبد، ولو سلبنا العبد هذه القدرة لبطلت الشريعة، وفي بطلان الشريعة بطلان الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب، ومن الأوامر والنواهي، ومن خلق الثواب والعقاب، والله تعالى منزَّه عن

ذلك، فلو لم يكن للعباد القدرة على مزاولة أعمالهم لما أُمروا، ولأجل ذلك تتوجه إليهم الإرشادات، فيقول الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[التوبة:١٠٥]، فأخبر بأنَّ لهم أعمالًا، لو لم يكونوا قادرين لما أمروا بها، ولكن الله تعالى خالقهم وخالق قدرتهم، وقدرتهم مسبوقة بقدرة الله.

أمّا أدلّة الرِّضا فقد أورد منها الشارح الآيات والأحاديث في إثبات أنَّ الله تعالى يرضى ويسخط، وللرِّضا والسخط أسباب ذكرها في هذه الآيات، أو أشار إلى بعضها، فتراه تارةً يثبت الرضا، وتارةً ينفيه، يقول الله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]، فأخبر بأنّه لا يرضى عن الكفر، ومعناه أنّه يكرهه، وأخبر بأنّه يرضى بالشكر ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، وأضاف هنا الكفر إليهم؛ لأنّه صدر بأفعالهم، وإن كانت مقدَّرة، والشكر إليهم ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾.

وهكذا الحديث: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُم ثَلاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ المَالِ»[1]، فأثبت الرضا، وأثبت السخط، وأثبت الكراهية؛ أثبت أنَّ هذه المعاصي يكرهها الله، ومعلوم أنّه نهى عنها العباد، وما نهاهم إلا ولهم قدرةٌ على الانتهاء، وعلى أن ينزجروا ويتركوا الأعمال السيئة التي منها الكفر.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٦١).

فالحاصل: أنَّ من عقيدة أهل السنة إثبات أنَّ الله يرضى ويسخط، ويحبُّ ويكره، وأنَّ الأعمال التي يحبُّها قد أمر بها عباده، وأنّه ما أمرهم إلَّا وهم قادرون، وأنَّ الأعمال التي نهى عنها يسخطها ويكرهها، وقد نهاهم عنها، ولا ينهاهم إلَّا عن شيءٍ يقدرون على فعله، فإنَّ العاجز لا يُنهى عن شيء يعجز عن فعله، فلا يُقال ـ مثلًا ـ للإنسان: لا تحيي الموتى؛ لأنّه عاجز عن إحيائهم، فلا يُنهى عنه. ولا يُقال له ـ مثلًا ـ: لا تخلق الأرض؛ لأنه عاجز عن أن يخلقها، بخلاف ما إذا قيل له: لا تقتل النفس التي حرَّم الله، فإنّه في إمكانه أن يقتل، أو لا تزن، أو لا تأكل الحرام، فلا يُنهى عن شيءٍ لا يستطيعه، بخلاف ما يستطيعه، فيُقال له مثلًا: احمل هذا الكرسي، أو انقل هذا المصحف من مكان إلى مكان، أو يقال له: قم واركع ركعتين، هذه باستطاعته فعله، فيُؤمر بما يستطيع، ويُنهى عمَّا هو ممكن أن يُفعل، ولا يُؤمر بالمستحيل أن يفعله، ولا يُنهى عن الشيء الذي مستحيلٌ فعله.

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يُرِيدُ اللَّهُ أَمْرًا وَلَا يَرْضَاهُ وَلَا يُحِبُّهُ؟ وَكَيفَ يَشَاؤُهُ وَيُكَوِّنُهُ؟ وَكَيفَ يَجْتَمِعُ إِرَادَتُهُ لَهُ وَبُغْضُهُ وَكَرَاهَتُهُ؟

قِيلَ: هَذَا السُّؤَالُ هُوَ الَّذِي افْتَرَقَ النَّاسُ لِأَجْلِهِ فِرَقًا، وَتَبَايَنَتْ طُرُقُهُمْ وَأَقْوَالُهُمْ.

فَاعْلَمْ أَنَّ الْمُرَادَ نَوْعَانِ: مُرَادٌ لِنَفْسِهِ، وَمُرَادٌ لِغَيْرِهِ. فَالْمُرَادُ لِنَفْسِهِ مَطْلُوبٌ مَحْبُوبٌ لِذَاتِهِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ، فَهُوَ مُرَادٌ إِرَادَةَ الْغَايَاتِ وَالْمَقَاصِدِ.

وَالْمُرَادُ لِغَيْرِهِ قَدْ لَا يَكُونُ مَقْصُودًا لِلْمُرِيدِ، وَلَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ لَهُ بِالنَّظَرِ إِلَى ذَاتِهِ، وَإِنْ كَانَ وَسِيلَةً إِلَى مَقْصُودِهِ وَمُرَادِهِ، فَهُوَ مَكْرُوهٌ لَهُ مِنْ حَيْثُ نَفْسُهُ وَذَاتُهُ، مُرَادٌ لَهُ مِنْ حَيْثُ إِفْضَاؤُهُ وَإِيصَالُهُ إِلَى مُرَادِهِ. فَيَجْتَمِعُ فِيهِ الْأَمْرَانِ: بُغْضُهُ وَإِرَادَتُهُ، وَلَا يَتَنَافَيَانِ، لِاخْتِلَافِ مُتَعَلَّقِهِمَا. وَهَذَا كَالدَّوَاءِ الْكَرِيهِ، إِذَا عَلِمَ الْمُتَنَاوِلُ لَهُ أَنَّ فِيهِ شِفَاءَهُ، وَقَطْعِ الْعُضْوِ الْمُتَآكِلِ، إِذَا عَلِمَ أَنَّ فِي قَطْعِهِ بَقَاءَ جَسَدِهِ، وَكَقَطْعِ الْمَسَافَةِ الشَّاقَّةِ، إِذَا عَلِمَ أَنَّهَا تُوصِلُ إِلَى مُرَادِهِ وَمَحْبُوبِهِ. بَلِ الْعَاقِلُ يَكْتَفِي فِي إِيثَارِ هَذَا الْمَكْرُوهِ وَإِرَادَتِهِ بِالظَّنِّ الْغَالِبِ، وَإِنْ خَفِيَتْ عَنْهُ عَاقِبَتُهُ، فَكَيفَ بِمَنْ لَا يَخْفَى عَلَيهِ خَافِيَةٌ؟

فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَكْرَهُ الشَّيْءَ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ إِرَادَتَهُ لِأَجْلِ غَيْرِهِ، وَكَوْنُهُ سَبَبًا إِلَى أَمْرٍ هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ فَوْتِهِ.

مِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ خَلَقَ إِبْلِيسَ، الَّذِي هُوَ مَادَّةٌ لِفَسَادِ الْأَدْيَانِ وَالْأَعْمَالِ وَالِاعْتِقَادَاتِ وَالْإِرَادَاتِ، وَهُوَ سَبَبٌ لِشَقَاوَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْعِبَادِ، وَعَمَلِهِمْ بِمَا يُغْضِبُ

الرَّبُّ تبارَكَ وَتَعالَى، وَهُوَ السَّاعِي فِي وُقُوعِ خلَافِ مَا يُحِبُّهُ اللَّـهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَعَ هَذَا، فَهُوَ وَسِيلَةٌ إِلَى مَحَابٍّ كَثِيرَةٍ لِلرَّبِّ تَعالَى تَرَتَّبَتْ عَلَى خَلْقِهِ، وَوُجُودُهَا أَحَبُّ إِلَيهِ مِنْ عَدَمِهَا:

مِنْهَا: أَنَّهُ تَظْهَرُ لِلْعِبَادِ قُدْرَةُ الرَّبِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِ الْمُتَضَادَاتِ الْمُتَقَابِلَاتِ، فَخَلَقَ هَذِهِ الذَّاتِ الَّتِي هِيَ أَخْبَثُ الذَّوَاتِ وَشَرُّهَا، وَهِيَ سَبَبُ كُلِّ شَرٍ فِي مُقَابَلَةِ ذَاتِ جِبْرِيل، الَّتِي هِيَ مِنْ أَشْرَفِ الذَّوَاتِ وَأَطْهَرِهَا وَأَزْكَاهَا، وَهِيَ مَادَةُ كُلِّ خَيرٍ، فَتبارَكَ خَالِقُ هَذَا وَهَذَا. كَمَا ظَهَرَتْ قُدْرَتُهُ فِي خَلْقِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ، وَالدَّاءِ وَالدَّوَاءِ، وَالحَيَاةِ وَالمَوْتِ، وَالحَسَنِ وَالقَبِيحِ، وَالخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَذَلِكَ مِنْ أَدَلِّ الدَّلِيلِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعِزَّتِهِ وَمُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، فَإِنَّهُ خَلَقَ هَذِهِ الْمُتَضَادَاتِ، وَقَابَلَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، وَجَعَلَهَا مَحَالَّ تَصَرُّفِهِ وَتَدْبِيرِهِ. فَخُلُوُّ الْوُجُودِ عَنْ بَعْضِهَا بِالْكُلِّيَّةِ تَعْطِيلٌ لِحِكْمَتِهِ، وَكَمَالِ تَصَرُّفِهِ، وَتَدْبِيرِ مَمْلَكَتِهِ.

وَمِنْهَا: ظُهُورُ آثَارِ أَسْمَائِهِ الْقَهْرِيَّةِ، مِثْلُ: الْقَهَّارِ، وَالْمُنْتَقِمِ، وَالْعَدْلِ، وَالضَّارِّ، وَالشَّدِيدِ الْعِقَابِ، وَالسَّرِيعِ الحِسَابِ، وَذِي البَطْشِ الشَّدِيدِ، وَالخَافِضِ، والمُذِلِّ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ كَمَالٌ، لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ مُتعَلَّقِهَا، وَلَوْ كَانَ الجِنُّ وَالْإِنْسُ عَلَى طَبِيعَةِ المَلَائِكَةِ لَمْ يَظْهَرْ أَثَرُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ.

قال الشيخ:

هذا الاعتراض كثيرًا ما يردِّده العصاة، ويقولون ـ إذا نصحناهم عن المعصية ـ: إنَّ الله ما هدانا، إنَّ الله قدَّر علينا هذا، ولو أنّه هدانا لما خرجنا عن

الطاعة، فنتوقّف حتى يهدينا الله، ويستمرُّون في المعاصي، ويحتجُّون بمثل هذه الحجج، ويقول بعضهم: كيف يقدِّر علينا أن نكفر وأن نفسق أو نعصي ثم مع ذلك يعذِّبنا ويعاقبنا؟ لو كان يعذب على ذلك ما قدّره ولا أوجده ولا أراده كونًا وقدرًا، فدائمًا يحتجون بهذه الأمور المقدَّرة، ويقولون: صحيح إنَّ الله أرادها كونًا، وأنَّه قدرها وأنَّه لو شاء لما حصلت، ولكن هو سبحانه أرادها.

ونقول لهم: لا يلزم من إرادة الله لها أنَّه يحبّها، ولا يلزم من كراهته لبعضها أنَّه لا يحبُّ، فهو أراد الكفر كونًا، وهو يكرهه ويكره أهله شرعًا، وأراد الطاعات وهو يحبُّها، وإن لم تحصل من البعض.

مر بنا في كلام الشارح أنّ المرادات إما أن تكون مرادة لنفسها، وإما أن تكون مرادة لغيرها، فالطاعات مرادةٌ لنفسها؛ مثل: الإيمان، والسنن، والصالحات، والحسنات، وسائر الطاعات مرادةٌ لنفسها، أرادها الله من المؤمنين وحصلت؛ لأنَّه يحبها. وأما المعاصي، فإنَّه أرادها ولكن لغيرها، لم يردها لذاتها، وإنَّما أرادها لمصلحةٍ قد تظهر وقد تخفى للبعض.

وذكر الشارح بعض الحكم في إيجاد هذه المخلوقات الشريرة، وكذلك في إيجاد المعاصي، وتقدير الكفر، وتقدير البدع، وفشوُّها وانتشارها وما أشبه ذلك، فمن ذلك أنَّه شاء هذه الأشياء كونًا، يعني: الكفر والمعاصي والبدع، وقدّرها حتى يمتحن عباده المؤمنين ويبتليهم بمجاهدتها وببغضها وببغض أهلها، وبمعرفة ما يجب عليهم نحوهم، فلو كان الناس كلُّهم مؤمنين ما حصل بغضٌ في الله، ولكن نحن نبغض من يبغضُه اللهُ، ولو كان الناس كلهم مؤمنين ما حصل

جهاد في سبيل الله، ولو كان الناس كلهم مؤمنين ما حصل ولاءٌ وبراءٌ.

ثمّ أيضًا من حكمة الله في إيجادها: إظهار قدرة الله، فالله تعالى قد أظهر قدرته العامّة ووجدت آثارها، فمن آثارها: عقوبات العصاة وما أنزل بهم من المثُلات، فلو كان الناس كلهم مؤمنين ما أغرق هؤلاء، ولا أهلك هؤلاء بصيحةٍ، ولا أرسل على هؤلاء الريح العقيم، ولا أهلك هؤلاء بعذاب يوم الظّلة.

فمن حكمة الله في إيجاد ذلك أن تُعرف قدرة الله؛ حيث إنّه ينتقم ممن عصاه ويعاقبه، ويعجّل له العذاب في الدنيا؛ ليكون ذلك دليلًا على العذاب في الآخرة، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لما كان في الآخرة إلا دارٌ واحدة وهي الجنّة، ولكنّه تعالى قدّر في الدنيا معاصٍ حتى يكون للدار الآخرة نصيبٌ، فإنّه خلق الدارين الجنة والنار، وهما ضدّان، كما خلق في الدُّنيا الخير والشرّ، والإيمان والكفر، وكذلك سائر المتضادات، وكل واحد مضادٌّ للآخر أو مقابل له، فمثلًا: الليل يقابله النهار، والنّور تقابله الظلمة، والخير يقابله الشرّ، والذكر يقابله الأنثى، والبياض يقابله السواد مثلًا، كذلك الطاعة مع المعصية، والكفر مع الإيمان، والعقوبة مع الثواب، والوعد مع الوعيد ضدّان متقابلان، فخلق الضدين دليل على كمال القدرة، فيؤمن العبد إذا رأى خلق المتضادات بكمال قدرة القادر، وأنّ هذه قدرة الله، حيث خلق هذه الأشياء، ثم مع ذلك نحن نؤمن بأنّه ما خلق شيئًا إلا وله فيه حكمة، ولا يجوز أن نعترض على الله في خلقه لشيء من مخلوقاته.

ويُروى أنّ أحدهم رأى دابّة الخنفساء، فقال: ليت الله ما خلقها، أو لماذا خلق هذه الدّابّة؟ هذه الخنفساء لا فائدة فيها ولا منفعة!! فاعترض على الله في

خلقها، فابتُلي بقرحة خرجت فيه، ولم يوجد لها علاج إلا خنفساء أُحرقت وذُرّ عليه رمادُها فبرأ، فعرف أن الله ما خلق شيئًا إلا وله حكمة في ذلك.

فلا يجوز أن تقول: ليت الله ما خلق السباع، وليت الله ما خلق هذه الحيّات ولا هذه الهوامّ، التي ليس فيها إلا مضرّةٌ وضرر على العباد. بل تقول: إنّه خلق هذه لتُعلم بذلك قدرته، وليُعلم أنّه قادرٌ على خلق الأضداد، وليكون ذلك آيةٌ من آياته:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ[1]

فهذه المخلوقات كبيرها وصغيرها كلُّها دالّةٌ على كمال قدرته، إذا تأملها الإنسان عرف بذلك كمال قدرة القادر، مع أنّها لا تحصى، دواب البرِّ من طيور ومن دواب تدبُّ على الأرض، لا يحصيها إلا الله تعالى، في خلقها عجائب من عجائب الله، ودوابُّ البحر مع كثرتها أيضًا وتفاوتها، وما أشبه ذلك، كلها فيها عجائب من قدرة الله تعالى، فخلقها ليس عبثًا، لم يخلق الله شيئًا إلا وله في ذلك حكمة، حتى البعوضة والنملة والذرّة ونحو ذلك من الدوابّ الصغيرة، ولو كان على الناس ضرر من هذه السباع التي تأكل دوابهم، أو من هذه الحيَّات والهوامِّ ونحوها، أو من هذا الذباب الذي يقع عليهم أو على طعامهم، أو من هذا البعوض الذي يلدغهم، فإنّ الله تعالى حكيم.

وأيضًا فإنّ له الحكمة حتى فيما يجريه من الأمراض ونحوها، هذه الأمراض

---

(١) راجع (١/ ٢٦٨).

التي أنزلها الله يسلّطها على من يشاء، ولا يجوز أيضًا أن يُعترض على الله ولا يقال: ليت الله ما خلق الحمى، ولا خلق المرض كذا وكذا، بل الله له الحكمة في خلقه، وفي أمره.

وبكل حال، فإنّ إيجاد هذه الأشياء لأجل الحكمةِ، ولأجلِ إظهارِ القدرةِ وكمالها.

ويُقال مثل ذلك أيضًا في الحكمة في خلق إبليس وأعوانه الذي هو مادة الشرِّ ونحوه، والحكمة في خلق الكفار وانتشارهم، وكذلك في تقويتهم وإمدادهم بالقوة والذخائر ونحو ذلك، والحكمة في تمكينهم من الأعمال التي عملوها وما أشبه ذلك، ومن تسليطهم أحيانًا على المؤمنين، لا شكّ أنَّ الله تعالى له الحكمة في ذلك، فلا يعترض على الله، بل يؤمن العبد بأنّه هو القادر على كل شيءٍ، وأنّ ذلك دليل على كمال قدرته وتمام تصرّفه.

قال الشارح:

وَمِنْهَا: ظُهُورُ آثَار أَسْمَائِهِ المُتَضَمِّنَةِ لِحِلْمِهِ وَعَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَسَتْرِهِ وَتَجَاوُزِهِ عَنْ حَقِّهِ، وَعِتْقِهِ لِمَنْ شَاءَ مِنْ عَبِيدِهِ، فَلَوْلَا خَلْقُ مَا يَكْرَهُهُ مِنَ الأَسْبَابِ المُفْضِيَةِ إِلَى ظُهُورِ آثَارِ هَذِهِ الأَسْمَاءِ، لَتَعَطَّلَتْ هَذِهِ الحِكَمُ وَالْفَوَائِدُ، وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هَذَا بِقَوْلِهِ: «لَوْ لَمْ تُذْنِبوا، لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ، فَيَغْفِرَ لَهُم»(١).

وَمِنْهَا: ظُهُورُ آثَارِ أَسْمَاءِ الحِكْمَةِ وَالخِبْرَةِ، فَإِنَّهُ الحَكِيمُ الخَبِيرُ، الَّذِي يَضَعُ الأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَيُنْزِلُهَا مَنَازِلَهَا اللَّائِقَةَ بِهَا، فَلَا يَضَعُ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَلَا يُنْزِلُهُ فِي غَيْرِ مَنْزِلَتِهِ الَّتِي يَقْتَضِيهَا كَمَالُ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَخِبْرَتِهِ، فَهُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ، وَأَعْلَمُ بِمَنْ يَصْلُحُ لِقَبُولِهَا، وَيَشْكُرُهُ عَلَى انْتِهَائِهَا إِلَيْهِ، وَأَعْلَمُ بِمَنْ لَا يَصْلُحُ لِذَلِكَ. فَلَوْ قُدِّرَ عَدَمُ الأَسْبَابِ المَكْرُوهَةِ، لَتَعَطَّلَتْ حِكَمٌ كَثِيرَةٌ، وَلَفَاتَتْ مَصَالِحُ عَدِيدَةٌ، وَلَوْ عُطِّلَتْ تِلْكَ الأَسْبَابُ لِمَا فِيهَا مِنَ الشَّرِّ، لَتَعَطَّلَ الخَيْرُ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ مِن الشَّرِّ الَّذِي فِي تِلْكَ الأَسْبَابِ، وَهَذَا كَالشَّمْسِ وَالمَطَرِ وَالرِّيَاحِ، الَّتِي فِيهَا مِنَ المَصَالِحِ مَا هُوَ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا يَحْصُلُ بِهَا مِنَ الشَّرِّ.

وَمِنْهَا: حُصُولُ العُبُودِيَّةِ المُتَنَوِّعَةِ الَّتِي لَوْلَا خَلْقُ إِبْلِيسَ لَمَا حَصَلَتْ، فَإِنَّ عُبُودِيَّةَ الجِهَادِ مِنْ أَحَبِّ أَنْوَاعِ العُبُودِيَّةِ إِلَيهِ سُبْحَانَهُ، وَلَوْ كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مُؤْمِنِينَ، لتعطَّلَت هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ وَتَوَابِعُهَا مِنَ الْمُوَالَاةِ لِلَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَالْمُعَادَاةِ فِيهِ، وَعُبُودِيَّةُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعُبُودِيَّةُ الصَّبْرِ، وَمُخَالَفَةِ الْهَوَى، وَإِيثَارِ مَحَابِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَعُبُودِيَّةُ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَعُبُودِيَّةِ الِاسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ أَنْ يُجِيرَهُ مِنْ عَدُوِّهِ، وَيَعْصِمَهُ مِنْ كَيْدِهِ وَأَذَاهُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحِكَمِ الَّتِي تَعْجِزُ الْعُقُولُ عَنْ إِدْرَاكِهَا.

قال الشيخ:

أشار الشارح إلى الحكمة في أنّ الله تعالى أوجد المعاصي والطاعات، وأوجد في الدنيا عصاةً ومطيعين، وأوجد أسبابًا يتمكّن بها البعض من مزاولة المعاصي، أو تكون سببًا لانتشار بعضها، وأسبابًا تكون سببًا في الطاعات ونحوها، ويطول البحث فيها؛ فمثلًا: العصاة أسباب معاصيهم كثيرة؛ فمنها: الشّهوات التي تتزيّن لهم، ومنها: الدنيا التي تبسط على كثير منهم، فيتمادون في المعصية، ومنها الهوى الذي يميلُ بكثيرٍ منهم، ومنها: دعاة الضلال الذين يدّعون إلى الباطل ويوالون فيه، ومنها وساوس الشيطان التي هي سبب للضلال والكفران ونحو ذلك.

كذلك أيضًا أسباب الطاعة التي منها: إرسال الرسل ودعاتهم، ومنها: قراءة كتب الله وما يكون بها من الاهتداء ومنها دعوة المؤمنين إلى الله إخوانهم وترغيبهم بالخير وتعليمهم إياه، وذكر الطرق التي يتوصلون بها إلى الطاعات ونحو ذلك.

فوُجِد في الحياة الدنيا طاعات ومعاصٍ، ووجد فيها كفرٌ وإيمان، ولو كان

الناس كلهم مؤمنين لما ظهرت آثار أسماء الله، فمن أسماء الله: العزيز، والجبار، والمنتقم، وشديد العقاب. ولو لم يكن هناك من يعاقب لما عرفنا ماذا يكون معنى شديد العقاب، أو عزيزٌ ذو انتقام، أو المنتقم، ولو كان الناس كلهم مطيعين، لما انتقم الله من هذا العاصي.

ومن حكمة الله في إيجاد المعاصي ظهور آثار أسمائه الحسنى التي تدل على كماله سبحانه، فمن أسماء الله: الرؤوف، والرحيم بالعباد، والمعطي، والمتفضل، ولو كان الناس كلّهم على الإيمان الكامل، ما حصل أنّه رحم هؤلاء، وعفا عن هؤلاء، وغفر لهؤلاء، وتاب على هؤلاء، فإنّه ليس هناك معاصٍ يتوب هذا منها، ولا يستغفر هذا منها، فيغفر له كما في الحديث: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ»(١).

لو كان الناس كلّهم مطيعين ما حصلت آثار ذلك.

كذلك أيضًا من أسمائه: الحكيم، والحكيم هو الذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، فلو كان كل الناس مطيعين ما حصلت آثار الحكمة. ومن حكمته أنّه يعاقب هذا عقوبةً في موضعها، ومن حكمته أنّه يثيب هذا، ومن حكمته أنّه يعطي هذا، ويمنع هذا، ويرفع هذا ويخفض هذا، ويعزّ هذا، ويذلّ هذا، ونحو ذلك، فقدّر الله وجود المعاصي حتى تظهر آثار هذه الأسماء التي هي من أسماء الله تعالى الحسنى.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

هذا الكلام ونحوه استنبطه العلماء من وجود هذه الطاعات والمعاصي، وكون الناس كلهم ليسوا على إيمان ولا على كفر؛ بل فيهم مؤمن وكافر، ومطيع وعاصٍ، فقالوا: إن آثار هذه إنَّما ظهرت بوجود من يتوب الله عليهم بعد أن كانوا عصاةً، فالله هو التواب ويقبل توبة عبده ويفرح بها كذلك، هؤلاء يستغفرون فيغفر لهم، والله تعالى غفور رحيم، وهؤلاء يرحمهم ويتجاوز عنهم، والله غفور رحيم، وغير ذلك من الحكم في أسماء الله تعالى.

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ كَانَ يُمْكِنُ وُجُودُ تِلْكَ الْحِكَمِ بِدُونِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ؟

فَهَذَا سُؤَالٌ فَاسِدٌ! وَهُوَ فَرْضُ وُجُودِ الْمَلْزُومِ بِدُونِ لَازِمِهِ، كَفَرْضِ وُجُودِ الِابْنِ بِدُونِ الْأَبِ، وَالْحَرَكَةِ بِدُونِ الْمُتَحَرِّكِ، وَالتَّوْبَةِ بِدُونِ التَّائِبِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَسْبَابُ مُرَادَةً لِمَا تُفْضِي إِلَيْهِ مِنَ الْحِكَمِ، فَهَلْ تَكُونُ مَرْضِيَّةً مَحْبُوبَةً مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، أَمْ هِيَ مَسْخُوطَةٌ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ؟

قِيلَ: هَذَا السُّؤَالُ يَرِدُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مِنْ جِهَةِ الرَّبِّ تَعَالَى، وَهَلْ يَكُونُ مُحِبًّا لَهَا مِنْ جِهَةِ إِفْضَائِهَا إِلَى مَحْبُوبِهِ، وَإِنْ كَانَ يُبْغِضُهَا لِذَاتِهَا؟

وَالثَّانِي: مِن جِهَةِ الْعَبْدِ، وَهُوَ أَنَّهُ هَلْ يَسُوغُ لَهُ الرِّضَا بِهَا مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ أَيْضًا؟ فَهَذَا سُؤَالٌ لَهُ شَأْنٌ.

فَاعْلَمْ أَنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ يَرْجِعُ إِلَى الْعَدَمِ، أَعْنِي عَدَمَ الْخَيْرِ، وَأَسْبَابِهِ الْمُفْضِيَةِ إِلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ شَرٌّ. وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ وُجُودِهِ الْمَحْضِ، فَلَا شَرَّ فِيهِ، مِثَالُهُ: أَنَّ النُّفُوسَ الشِّرِّيرَةِ وُجُودُهَا خَيْرٌ مِنْ حَيْثُ هِيَ مَوْجُودَةٌ، وَإِنَّمَا حَصَلَ لَهَا الشَّرُّ بِقَطْعِ مَادَّةِ الْخَيْرِ عَنْهَا، فَإِنَّهَا خُلِقَتْ فِي الْأَصْلِ مُتَحَرِّكَةً، فَإِنْ أُعِينَتْ بِالْعِلْمِ وَإِلْهَامِ الْخَيْرِ تَحَرَّكَتْ بِهِ، وَإِنْ تُرِكَتْ، تَحَرَّكَتْ بِطَبْعِهَا إِلَى خِلَافِهِ، وَحَرَكَتُهَا مِنْ حَيْثُ هِيَ حَرَكَةٌ: خَيْرٌ، وَإِنَّمَا تَكُونُ شَرًّا بِالْإِضَافَةِ، لَا مِنْ حَيْثُ هِيَ حَرَكَةٌ، وَالشَّرُّ كُلُّهُ ظُلْمٌ، وَهُوَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَحِلِّهِ، فَلَوْ وُضِعَ فِي مَوْضِعِهِ لَمْ يَكُنْ شَرًّا، فَعُلِمَ أَنَّ جِهَةَ الشَّرِّ فِيهِ نِسْبِيَّةٌ إِضَافِيَّةٌ.

وَلِهَذَا كَانَتْ الْعُقُوبَاتُ الْمَوْضُوعَةُ فِي مَحَالِّهَا خَيْرًا فِي نَفْسِهَا، وَإِنْ كَانَتْ شَرًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَحَلِّ الَّذِي حَلَّتْ بِهِ؛ لِمَا أَحْدَثَتْ فِيهِ مِنَ الْأَلَمِ الَّذِي كَانَتْ الطَّبِيعَةُ قَابِلَةً لِضِدِّهِ مِنَ اللَّذَّةِ، مُسْتَعِدَّةً لَهُ، فَصَارَ ذَلِكَ الْأَلَمُ شَرًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا، وَهُوَ خَيْرٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْفَاعِلِ حَيْثُ وَضَعَهُ فِي مَوْضِعِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْ شَرًّا مَحْضًا مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ وَالِاعْتِبَارَاتِ، فَإِنَّ حِكْمَتَهُ تَأْبَى ذَلِكَ. فَلَا يُمْكِنُ فِي جَنَابِ الْحَقِّ تَعَالَى أَنْ يُرِيدَ شَيْئًا يَكُونُ فَسَادًا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، لَا مَصْلَحَةَ فِي خَلْقِهِ بِوَجْهٍ مَا، هَذَا مِنْ أَبْيَنِ الْمُحَالِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ، الْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْهِ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْهِ، بَلْ كُلُّ مَا إِلَيْهِ فَخَيْرٌ، وَالشَّرُّ إِنَّمَا حَصَلَ لِعَدَمِ هَذِهِ الْإِضَافَةِ وَالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، فَلَو كَانَ إِلَيهِ لَمْ يَكُنْ شَرًّا، فَتَأَمَّلْهُ. فَانْقِطَاعُ نِسْبَتِهُ إِلَيهِ هُوَ الَّذِي صَيَّرَهُ شَرًّا.

فَإِنْ قِيلَ: لَمْ تَنْقَطِعْ نِسْبَتُهُ إِلَيهِ خَلْقًا وَمَشِيئَةً؟ قِيلَ: هُوَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ لَيْسَ بِشَرٍّ، فَإِنَّ وُجُودَهُ هُوَ الْمَنْسُوبُ إِلَيهِ، وَهُوَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ لَيْسَ بِشَرٍّ، وَالشَّرُّ الَّذِي فِيهِ مِنْ عَدَمِ إِمْدَادِهِ بِالْخَيْرِ وَأَسْبَابِهِ، وَالْعَدَمُ لَيْسَ بِشَيْءٍ حَتَّى يُنْسَبَ إِلَى مَنْ بِيَدِهِ الْخَيْرِ.

قال الشيخ:

أورد الشارح الاعتراض الذي يعترض به بعض غلاة القدريّة على خلق الله تعالى للشرور والأشرار وإيجاده لهم مع كونهم أشرارًا، فذكر من اعتراضاتهم قولهم: لماذا خلق الله إبليس مع أنّه كله شرّ؟ ولماذا خلق الله الكفرة والمشركين الذين ليس فيهم خيرٌ محض بل هم شرٌّ محض، وجودهم ضرر على المسلمين؟ ولماذا خلق الله هذه المعاصي والأسباب التي يستعان بها عليها؟ لماذا وجدت

المسكرات وما يتَّصل بها؟ ولماذا وجد المفسدون الذين يعيثون في الأرض فسادًا؟ ولماذا وجدت المعاصي؟

فيعترض هؤلاء يقولون: هذا شرٌّ؛ فكيف أوجده الله؟ وكيف أراده؟ وكيف خلقه؟ مع أنَّه لا يحصل به إلا شرّ وضرر على المؤمنين، فيتضررون بوجود هؤلاء الكفار؛ لأهم يصدُّونهم عن الهدى، ويحاولون ردَّهم إلى الكفر، وإخراجهم من ملَّة الإسلام، ويلقون عليهم الشبهات والشكوك، ويظهرون الفساد، والمعاصي ونحو ذلك.

فلماذا وجدوا؟ ولماذا خلقهم الله؟ ولماذا مكّنهم؟ أليس في هذا إعانة على المعاصي؟ أليس في هذا تمكين للعصاة وتقويةً لشأنهم؟

هذا خلاصة هذا الاعتراض على حِكم الله سبحانه وتعالى، وقد تقدَّم أنَّه سبحانه خلق الجنّة والنّار، فمن حكمته أن جعل دارًا للثواب، ودارًا للعقاب، فلابدَّ أنَّ لهذه من يسكنها ولهذه من يسكنها، حكمةُ الله لا بدَّ أن تتمَّ بذلك، فلمّا كان كذلك لم يكن بدٌّ أن يكون الخلق فريقين، فريق في الجنّة وفريقٌ في السعير، وتقدَّم أنَّ من أسماءِ الله تعالى التي سمَّى بها نفسه، وامتدح بها؛ أسماء تدلُّ على مثل هذه الأفعال، كاسمه المنتقم، والجبار، والعزيز، وذو القوة المتين، وكذلك أسماؤه المزدوجة؛ مثل الخافض والرافع مزدوجان، والمعزُّ والمذلُّ، والمعطي والمانع، فلابدّ أن تظهر مدلولات هذه الأسماء، ولا تظهر إلا إذا وجد من يذلّهم الله ومن يمنعهم، ومن يخفضهم، لا بدّ أن يوجد من يقهرهم باسمه القهار، ومن يقدر على عقوبتهم بموجب اسمه القادر، ومن يرحمهم ويغفر لهم بموجب اسمه الغفور

الرحيم، ولو كان الناس كلُّهم أتقياءَ بررةً لم تظهر أيضًا آثار أسمائه فمن يرحم إذا كانوا كلهم أتقياء، ومن يغفر له إذا كانوا كلهم مطيعين، وهكذا بقيةُ أسماء الله سبحانه وتعالى.

وبعد الجواب عن هذا الاعتراض نقول: كل ما أوجده الله وأراده، فإنه خير بالنسبة إلى الله تعالى، وإن كان شرًّا بالنسبة إلى العبد الذي حصل عليه ذلك الشرّ؛ وذلك لأنَّ الله تعالى ما أوجده إلا لمصلحة، وهي الاختبار للعباد، وكذلك الابتلاء، ولكي يظهر من يصبر ومن يجزع، ويظهر من يطيع ومن يعصي، ويظهر من يمتثل ومن يأبى، ويظهر من يكون صالحًا أو يكون فاسدًا، هذا من اختبار الله لعباده، فهو سلَّط عليهم هؤلاء الأعداء، وسلَّط عليهم إبليس الرجيم؛ حتى يكون منهم مقاومة وشدّة تمسُّك، رغم ما يلقيه من الدعايات إلى الفساد وإلى المعاصي، فيثابون ويزاد في ثوابهم إذا تمسَّكوا، فلذلك سلَّط عليهم هذه الشهوات التي تدفعهم إلى الدنيا وإلى المحرمات، فأظهرها أمامهم، ويثبِّت الله أولياءه، ويخذل أعداءه، ويكون الذي يستمسك بالدِّين ويصبر عليه هو الذي يعظِّم ثوابه . وهذا أيضًا يصدقُ على المصائب التي تحصل للعباد، وقد يكون حصولها للأتقياء أكثر من حصولها للفسقة ونحوهم.

المصائب التي ذكرها الله في قوله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة:١٥٥]، هذه قد يكون الابتلاء بها للمؤمنين أشدّ، أما الكفار فقد يُمتّعون بالقوة، ويمتّعون بالأموال ونحو ذلك، كما

حكى الله عنهم أنَّهم قالوا: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [سبأ:٣٥]، فهذا الابتلاء الذي يبتلي الله تعالى به المؤمنين؛ ليكون أعظم لأجرهم إذا صبروا واحتسبوا، فهكذا خلقه لهذه الشرور؛ ليكون أعظم للأجر، إذا عرف العبد أنَّه قد سُلِّط عليه الأعداء فصبر، وَعُدّ مجاهدًا غاية الجهاد، فهو يجاهد الشيطان الرجيم الذي دائمًا يسوِّل له ويوسوس له، وهو يجاهد النفس الأمَّارة بالسوء التي تخيّل له دائمًا وتدفعه، وهو يجاهد الهوى الذي يعمي ويصمُّ، وهو يجاهد الشهوات التي تتجلّى له، وتندفع نفسه إليها، وتتزيَّن له، ولكنّه يمسك نفسه ويقمعها، وهو يجاهد قرناء السوء وجلساء السوء الذين يدفعونه إلى الشرور، ويدعونه إليه، هذا يدعوه إلى زنى، وهذا يدعوه إلى ربا، وهذا يدعوه إلى شرك، وهذا يدعوه إلى غشّ، وهذا يدعوه إلى تكاسل عن العبادة، وهذا يدعوه إلى شرب مسكر، ولكنَّه يمسك زمام نفسه، ويجاهد هؤلاء الدُّعاة، ويردّ عليهم دعايتَهم، فلو كان الناس كلّهم مفطورين على الإسلام، ما ظهرت آثار هذا الجهاد، زيادةً على الجهاد الحسّي الذي هو جهاد الكفار الذي أمر الله به، وأكّده، وكرر ذكره في عددٍ من الآيات، والإنسان متى قاوم هذه المقاومة، وصبر هذه المصابرة، فإنَّه يعدُّ ناجحًا في الابتلاء والاختبار، ويعدّ مثابًا غاية الثواب، فيجزل الله له الأجر على ذلك، فهذا من حكمة الله.

إذًا فلا يُعترض على الله، ولا يُقال: لماذا سلَّط الأشرار؟ ولماذا قوّاهم؟ ولماذا أعطاهم الدنيا وأعطاهم النِّعم، وأعطاهم العدد والعدّة، والقوّة، ونحو ذلك؟

لا يُعترض على الله تعالى؛ لأنّه أوجد ذلك ليظهر من يصبر مِمّن يجزع، وليظهر من يقوي نفسه ممّن لا يقويها، فيثاب هذا على مقاومته، ويعرف بذلك عدم صبر هؤلاء الذين لم يصبروا على قمع نفوسهم الأمّارة بالسوء، فالله تعالى له الحكمة في ذلك، فهو خير بالنسبة إلى خلق الله تعالى وإيجاده، وشرٌّ بالنسبة إلى فعل العبد، فالعبد إذا زنى قيل: هذا الزنى شرّ؛ لأنّه صدر منه، ولكن الله تعالى هو الذي قدّر ذلك وأحدثه، فهو خيرٌ بالنسبة إلى إيجاد الله تعالى له، حيث إنّه أخبر العباد بذلك، ومكّنه وجعل أسبابه ظاهرةً، كذلك العبد إذا سكر، والمرأة إذا تبرَّجت، وتجمّلت لغير زوجها، وفعلت ما لا يحلّ لها فعله، والرجل إذا تعاطى غشًا في معاملةٍ أو غصبًا أو سرقةً أو اختلاسًا أو ما أشبه ذلك، كذلك إذا سوّلت له نفسه ترك الصَّلوات، أو تخلُّفًا عن جماعات، أو ما أشبه ذلك من ترك الطاعات، قيل: الله تعالى هو الذي قدَّر أسباب ذلك، ولكنَّه جعل ذلك اختبارًا للعباد وابتلاءً لهم؛ ليظهر بذلك أهل طاعته من أهل معصيته، الذين أراد بهم الخير فقويت نفوسهم وأعطاهم قوةً، والذين خذلهم وخلّى بينهم وبين نفوسهم، وقوّى عليهم أعداءهم، فلم يتمكّنوا من مقاومةِ أولئك الأعداء، فأصبحوا من الخاسرين.

قال الشارح:

فَإِنْ أَرَدْتَ مَزِيدَ إِيضَاحٍ لِذَلِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّ أَسْبَابَ الخَيْرِ ثَلَاثَةٌ: الْإِيجَادُ، وَالْإِعْدَادُ، وَالْإِمْدَادُ، فَإِيجَادُ هَذَا خَيْرٌ، وَهُوَ إِلَى اللَّهِ، وَكَذَلِكَ إِعْدَادُهُ وَإِمْدَادُهُ، فَإِذَا لَمْ يَحْدُثْ فِيهِ إِعْدَادٌ وَلَا إِمْدَادٌ، حَصَلَ فِيهِ الشَّرُّ بِسَبَبِ هَذَا الْعَدَمِ الَّذِي لَيْسَ إِلَى الْفَاعِلِ، وَإِنَّمَا إِلَيهِ ضِدُّهُ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلَّا أَمَدَّه إِذْ أَوْجَدَهُ؟ قِيلَ: مَا اقْتَضَتِ الحِكْمَةُ إِيجَادَهُ وَإِمْدَادَهُ، وَإِنَّمَا اقْتَضَتْ إِيجَادَهُ وَتَرْكَ إِمْدَادِهِ، فَإِيجَادُهُ خَيْرٌ، وَالشَّرُّ وَقَعَ مِنْ عَدَمِ إِمْدَادِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلَّا أَمَدَّ المَوْجُودَاتِ كُلَّهَا؟ فَهَذَا سُؤَالٌ فَاسِدٌ، يَظُنُّ مُورِدُهُ أَنَّ التَّسْوِيَةَ بَيْنَ المَوْجُودَاتِ أَبْلَغُ فِي الحِكْمَةِ! وَهَذَا عَيْنُ الجَهْلِ! بَلِ الحِكْمَةَ كُلَّ الحِكْمَةِ فِي هَذَا التَّفَاوُتِ الْعَظِيمِ الَّذِي بَيْنَ الْأَشْيَاءِ، وَلَيسَ فِي خَلْقِ كُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا تَفَاوُتٌ، فَكُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا لِيسَ فِي خَلْقِهِ تَفَاوُتٌ، وَالتَّفَاوُتُ إِنَّمَا وَقَعَ بِأُمُورٍ عَدَمِيَّةٍ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِهَا الخَلْقُ، وَإِلَّا فَلَيسَ فِي الخَلْقِ مِنْ تَفَاوُتٍ، فَإِنِ اعْتَاصَ عَلَيْكَ هَذَا وَلَمْ تَفْهَمْهُ حَقَّ الْفَهْمِ، فَرَاجِعْ قَوْلَ الْقَائِلِ(١):

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعْهُ ... وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَرْضَى لِعَبْدِهِ شَيْئًا وَلَا يُعِينُهُ عَلَيهِ؟ قِيلَ: لِأَنَّ إِعَانَتَهُ عَلَيهِ قَدْ تَسْتَلْزِمُ فَوَاتَ مَحْبُوبٍ لَهُ أَعْظَمَ مِنْ حُصُولِ تِلْكَ الطَّاعَةِ الَّتِي رَضِيَهَا لَهُ، وَقَدْ يَكُونُ

---

(١) البيت لعمرو بن معد يكرب، الشاعر المشهور، له صحبة ورواية. انظر: أسد الغابة (٤/ ٢٩٢)، والبداية والنهاية (٧/ ١٦٠)، والإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ٦٨٦).

وُقُوعُ تِلْكَ الطَّاعَةِ مِنْهُ يَتَضَمَّنُ مَفْسَدَةً هِيَ أَكْرَهُ إِلَيهِ سُبْحَانَهُ مِنْ مَحَبَّتِهِ لِتِلْكَ الطَّاعَةِ. وَقَدْ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة:٤٦]، الْآيَتَيْنِ. فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ كَرِهَ انْبِعَاثَهُمْ إِلَى الْغَزْوِ مَعَ رَسُولِهِ، وَهُوَ طَاعَةٌ، فَلَمَّا كَرِهَهُ مِنْهُمْ، ثَبَّطَهُمْ عَنْهُ، ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ بَعْضَ الْمَفَاسِدِ الَّتِي كَانَتْ تَتَرَتَّبُ عَلَى خُرُوجِهِمْ مَعَ رَسُولِهِ، فَقَالَ: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، أَيْ: فَسَادًا وَشَرًّا، ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾، أَيْ: سَعَوْا بَيْنَكُمْ بِالْفَسَادِ وَالشَّرِّ، ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧]، أَيْ: قَابِلُونَ مِنْهُمْ مُسْتَجِيبُونَ لَهُمْ، فَيَتَوَلَّدُ مِنْ سَعْيِ هَؤُلَاءِ مِنَ الشَّرِّ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ مَصْلَحَةِ خُرُوجِهِمْ، فَاقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ وَالرَّحْمَةُ أَنْ أَقْعَدَهُمْ عَنْهُ.

فَاجْعَلْ هَذَا الْمِثَالَ أَصْلًا، وَقِسْ عَلَيْهِ.

قال الشيخ:

تكثر إيرادات هؤلاء المجبرة، وهم طائفة يسمّون مجبرة وجبريّة، وهم الذين يعذرون العبد على فعل المعاصي، ويزعمون أنّ له عذرًا في ذلك؛ لأنه ليس له أي اختيار، ولا أي قدرة على أي فعل، فيكثرون من إيراد مثل هذه الشبهات، فيقولون ـ مثلًا ـ: كيف يريد الله هذه المعاصي وهو يكرهها؟

فيُقال: الله تعالى أرادها كونًا وكرهها شرعًا.

ويقولون: مادام أنَّ الله قد خلق العباد كلّهم لعبادته، فكيف لا يسوّي بينهم فيهديهم جميعًا ويرشدهم؟

والجواب: أنّه - سبحانه وتعالى - خلقهم ومكّنهم، ولكنّه علم أنّ فيهم نفوسًا شرّيرةً تختار الشرّ فخذلها، ونفوسًا خيّرةً تختار الخير فوفّقها، فله الحكمة في توفيق هذا وفي خذلان هذا، وإن كان الجميع كلّهم عبيده وتحت تصرّفه، وهم الّذين كلّفوا جميعًا بعبادته وبالإنابة إليه.

وضرب المؤلّف مثلًا بما حكى الله تعالى عن المنافقين في سورة التّوبة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٦، ٤٧]، هؤلاء ممّن كانوا أسلموا، ولكن لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولا شكّ أنّ الله تعالى خذلهم وخلّى بينهم وبين أهوائهم وشهواتهم، ولم يوفّقهم لما وفّق إليه صفوته وخيرته من خلقه من المهاجرين والأنصار الذين أصطفاهم، والذين مكّن لهم في دينهم. فهؤلاء المنافقون لـمّا تخلّفوا عن الخروج في غزوة تبوك، وأتوا بأعذارٍ لا فائدة فيها، وليست صادقة، بل حلفوا وهم كاذبون، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦]، فأخبر الله تعالى أنّهم لم يريدوا الخروج أصلًا، ولم يستعدّوا له، ولو كانوا يريدون الخروج، ويرغبون في الغزو، لأعدّوا

العدّة، ولهيّؤوا أنفسَهم، فهم قادرون على أن يخرجوا، وعندهم استطاعة وتمكّن، ولكنّهم لم يفعلوا، فلما لم يفعلوا دلّ على أنّهم ما أرادوه، ولا أعدّوا له عدّته، مع أن الله تعالى هو الذي خذّلهم؛ لأنّه علم أنّ في خروجهم مفسدة كبيرة؛ لأنه لا يكون منهم إلَّا ضرر، فلذلك كره الله خروجهم وانبعاثهم وثبّطهم، أي: سكّنهم وصرف أنفسهم عن الخروج لمصلحةٍ عظيمةٍ، فإنّهم لو خرجوا ما زادوا المسلمين إلَّا خبالًا، أي: ضعفًا وتخذيلًا وتثبيطًا عن القتال وعن العدو، ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾، يعني: أوقعوا فيما بين المسلمين الفتن والتشكيكات ونحو ذلك، فكان هذا من حكمةِ الله أن خذّلهم، ولم يبعث عزائمهم إلى القتال.

وبذلك يعرف أنّه تعالى حكيم يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، فعلى المسلم أن يرضى ويسلم بما جاءه من شرع الله تعالى وأمره ودينه، وأن يعترف أنّه ما خَلق إلَّا ما فيه مصلحةٌ، سواء كانت مخلوقات جوهرية أو عرضيّة، وسواء كانت أشخاصًا أو عروضًا وأعمالًا، كل ذلك له الحكمة فيه، فهو الحكيم العليم.

وعلى الإنسان أن يلحّ في سؤاله لربّه، وأن يكثر من الدعاء، والله تعالى قد قدّر له ما هو مقدّر، وجعل سبب ذلك كثرة الإلحاح في الدعاء، فيكون سببًا من أسباب تيسير اليسرى، وتجنيب العسرى، وليس مغيّرًا لما في قدر الله تعالى.

قال الشارح :

وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّانِي، وَهُوَ الَّذِي مِنْ جِهَةِ الْعَبْدِ، فَهُوَ أَيْضًا مُمْكِنٌ، بل واقِعٌ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ يَسْخَطُ الْفُسُوقَ وَالْمَعَاصِيَ وَيَكْرَهُهَا مِنْ حَيْثُ هِيَ فِعْلُ الْعَبْدِ وَاقِعَةٌ بِكَسْبِهِ وَإِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ، وَيَرْضَى بِعِلْمِ اللَّهِ وَكِتَابَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَأَمْرِهِ الْكَوْنِيِّ، فَيَرْضَى بِمَا مِنَ اللَّهِ، وَيَسْخَطُ مَا هُوَ مِنْهُ، فَهَذَا مَسْلَكُ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرْفَانِ. وَطَائِفَةٌ أُخْرَى كَرِهَتْهَا مُطْلَقًا، وَقَوْلُهُمْ يَرْجِعُ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ؛ لِأَنَّ إِطْلَاقَهُمْ لِلْكَرَاهَةِ لَا يُرِيدُونَ بِهِ شُمُولَهُ لِعِلْمِ الرَّبِّ وَكِتَابَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ الَّذِي إِلَى الرَّبِّ مِنْهَا غَيْرُ مَكْرُوهٍ، وَالَّذِي إِلَى الْعَبْدِ مَكْرُوهٌ.

فَإِنْ قِيلَ: لَيْسَ إِلَى الْعَبْدِ شَيْءٌ مِنْهَا.

قِيلَ: هَذَا هُوَ الْجَبْرُ الْبَاطِلُ، الَّذِي لَا يُمْكِنُ صَاحِبُهُ التَّخَلُّصَ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ الضَّيِّقِ، وَالْقَدَرِيُّ الْمُنْكِرُ أَقْرَبُ إِلَى التَّخَلُّصِ مِنْهُ مِنَ الْجَبْرِيِّ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ، الْمُتَوَسِّطُونَ بَيْنَ الْقَدَرِيَّةِ وَالْجَبْرِيَّةِ أَسْعَدُ بِالتَّخَلُّصِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَتَأَتَّى النَّدَمُ مَعَ شُهُودِ الْحِكْمَةِ فِي التَّقْدِيرِ، وَمَعَ شُهُودِ الْقَيُّومِيَّةِ وَالْمَشِيئَةِ النَّافِذَةِ؟ قِيلَ: هَذَا هُوَ الَّذِي أَوْقَعَ مَنْ عَمِيَتْ بَصِيرَتُهُ فِي شُهُودِ الْأَمْرِ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ، فَرَأَى تِلْكَ الْأَفْعَالَ طَاعَاتٍ؛ لِمُوَافَقَتِهِ فِيهَا الْمَشِيئَةَ وَالْقَدَرَ، وَقَالَ: إِنْ عَصَيْتُ أَمْرَهُ فَقَدْ أَطَعْتُ إِرَادَتَهُ! وَفِي ذَلِكَ قِيلَ:

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلًا لِمَا تَخْتَارُهُ ... مِنِّي فَفِعْلِي كُلُّهُ طَاعَاتُ[1]

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (٣/ ٢٥)، ومدارج السالكين (١/ ٢٢٩).

وَهَؤُلَاءِ أَعْمَى الخَلْقِ بَصائِرَ، وَأَجْهَلُهُمْ بِاللَّهِ وَأَحْكَامِهِ الدِّينِيَّةِ وَالْكَوْنِيَّةِ، فَإِنَّ الطَّاعَةَ هِيَ مُوَافَقَةُ الْأَمْرِ الدِّينِيِّ الشَّرْعِيِّ، لَا مُوافَقَةُ الْقَدَرِ وَالْمَشِيئَةِ، وَلَوْ كَانَ مُوَافَقَةِ الْقَدَرِ طَاعَةً، لَكَانَ إِبْلِيسُ مِنْ أَعْظَمِ الْمُطِيعِينَ لَهُ، وَلَكَانَ قَوْمُ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوط وَشُعَيبٍ وَقَوْمَ فِرْعَون، كُلُّهُم مُطِيعِينَ! وَهَذَا غَايَةُ الجَهْلِ.

لَكِن إِذَا شَهِدَ الْعَبْدُ عَجْزَ نَفْسِهِ، وَنُفُوذَ الْأَقْدَارِ فِيهِ، وَكَمَالَ فَقْرِهِ إِلَى رَبِّهِ، وَعَدَمَ اسْتِغْنَائِهِ عَنْ عِصْمَتِهِ وَحِفْظِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ: كَانَ بِاللَّهِ فِي هَذِهِ الحَالِ لَا بِنَفْسِهِ، فَوُقُوعُ الذَّنْبِ مِنْهُ لَا يَتَأَتَّى فِي هَذِهِ الحَالِ أَلْبَتَّة، فَإِنَّ عَلَيهِ حِصْنًا حَصِينًا مِنْ: «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي»[1]، فَلَا يُتَصَوَّرُ مِنْهُ الذَّنْبُ فِي هَذِهِ الحَالِ، فَإِذَا حُجِبَ عَنْ هَذَا الْمَشْهَدِ، وَبَقِيَ بِنَفْسِهِ، اسْتَوْلَى عَلَيْهِ حُكْمُ النَّفْسِ، فَهُنَالِكَ نُصِبَتْ عَلَيهِ الشِّبَاكُ وَالْأَشْرَاكُ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيهِ الصَّيَّادُونَ، فَإِذَا انْقَشَعَ عَنْهُ ضَبَابُ ذَلِكَ الْوُجُودِ الطَّبْعِيِّ، فَهُنَالِكَ يَحْضُرُهُ النَّدَمُ وَالتَّوبَةُ وَالْإِنَابَةُ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي الْمَعْصِيَةِ مَحْجُوبًا بِنَفْسِهِ عَنْ رَبِّهِ، فَلَمَّا فَارَقَ ذَلِكَ الْوُجُودَ، صَارَ فِي وُجُودٍ آخَرَ، فَبَقِيَ بِرَبِّهِ لَا بِنَفْسِهِ.

---

(١) هذه الرواية للحديث أوردها الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول (١/ ٢٦٥)، والمشهور من الحديث ما أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلي بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها...». وسيورده الشارح بتمامه.

قال الشيخ:

كثيرًا ما يحتجُّون بأنَّ هذه المعاصي والواقعات مرادةٌ لله تعالى، فيقول أحدهم: أنا خالفت أمر الله، ولكن وافقتُ إرادةَ الله؛ لأن الله تعالى أراد منِّي هذا الفعل وهذه المعصية.

فالجواب: أنّ هذه الإرادة إرادة كونيّة، وقد أراد منك إرادةً شرعيّةً أن تطيعه، فلا تحتجَّ بالإرادة الكونيّة وتترك الإرادة الشرعيّة، فقد اراد الله تعالى كل ما في الكون إرادةً كونيّة، ولكنّه أراد الطاعات إرادة شرعيّة، وهذه الطاعات التي أرادها قد تقع، وقد لا تقع؛ لأنّه خلق كل الخلق للعبادة، فمنهم من عبده، ومنهم من لم يعبده، فمحبّة العبادة من الجميع إرادة شرعيّة، فالذي يقول: ليس للعبد أي اختيار، نقول له: هذه مقالة الجبريّة الذين يزعمون أنَّ العبد مسلوبُ الاختيار أصلًا، وأنّه بمنزلة الشجرة التي تحرّكها الرياح، ليس له أي اختيار، ففي ذلك إبطال شرع الله، وإبطال أحكامه وقضائه وقدره.

والواجب على المسلم أن يعترف بشرع الله، وأن يَدين له بالطاعة، وأن يسلّم لقضائه وقدره، ولا يردَّ عليه شيئًا من أمره؛ فبذلك يصبح مستسلمًا لأمره، فأمّا هؤلاء الذين يقولون: إنّ جميع حركاتنا، ولو كانت معاصي ولو كانت غير محبوبة لله، فهي طاعةٌ؛ لأنها وافقت مراد الله القدري، لذلك يقول قائلهم:

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلًا لِمَا تَخْتَارُهُ ... مِنِّي فَفِعْلِـي كُلُّهُ طَاعَاتُ

فهذا عين المحادة لله؛ لأن الطاعات إنّما تكون بالعبادات التي فرضها، فكونه يقول: أفعالي كلّها طاعات، حتّى ولو كانت فجورًا، ولو كانت زورًا، ولو كانت

كذبًا، ولو كانت معاصي وكفرًا وشركًا، كيف تكون طاعاتٍ وقد حرّمها الله تعالى وسمّاها معاصي؟ فهذه معاصٍ بالنسبة إلى صدورها من العبد، وهي مرادةٌ كونًا وقدرًا؛ لأنها وقعت بخلق الله وتكوينه، فما شاءه كان، وما لم يشأه لم يكن، فإذا علم العبد أولًا أنَّ الله تعالى أراد جميع ما في الكون كونًا وقدرًا وما هو حادث، ولكنه أحبَّ الطاعات، وكره المحرَّمات، وأمر بالطَّاعات أمرًا شرعيًا، ونهى عن المحرَّمات نهيًا شرعيًّا، وعلم أيضًا: بأنّ مزاولة العبد لها واختياره تفضيل منه لهذا الذي اختاره؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ، وأنّ الثواب والعقاب حقّ لله، فمتى علم العبد واستسلم لذلك فهو من أهل الخير.

ومن استحضر دائمًا أنّه مكلّف، واستحضر أنّ الله تعالى يوفّق العبد الذي يستحضر عظمة ربّه، وأن الإنسان لم يُخلق هملًا، بل خُلِقَ للعبادة، واستحضر أنّ ربّه لـمَّا كلّفه وأمره ونهاه، كان بمرأىً ومسمعٍ من ربِّه، لا تخفى عليه منه خافية، واستحضر أيضًا أنّه في كلّ حالاته عنده الدافع الذي يدفعه إلى الخير، وهو قوّة الإيمان وقوّة هذا الاستحضار، فمن تمّت معه هذه الاستحضارات، فإنّه لا يقدم على معصية، وكيف يقدم عليها وهو يستحضر عظمة الله تعالى، كأنّه واقفٌ بين يدي ربه، كيف يقدم عليها وهو يعلم أنّه يترتّب عليها عقوبة وإثمٌ شديد؟ كيف يقدم عليها وهو يعلم أنّ ربَّه يكرهها؟

والعبد إذا أكثر من العبادات، سواءً أكانت قلبيَّة أم قوليَّة أم بدنيَّة، ثم وثق بالثواب عليها، فإنَّ ذلك يحجزه عن أن يأتي بضدها، فلا يجتمع أنّه في آنٍ واحد يطيع الله ويطيع الشيطان، ولا يجتمع في آن واحد أنه يكون عبدًا مطيعًا وعاصيًا،

يعبد الله، ويعبد الأصنام، ولا يجتمع أنَّه في آن واحد مستحضرًا لعظمة الله تعالى، وغافلًا عنه مقبلًا على هواه، بل متى تمَّت له هذه الاستحضارات عبد ربَّه، وأكثر من عبادته، وأقبل عليه إقبالًا كليًّا. ومتى كان كذلك فإنّ ربه ـ سبحانه وتعالى ـ يسدّد خطاه، ويوفقه، ويحبّب إليه العبادة، ويحميه عن المعصية، كما في قوله في الحديث القدسي: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلي بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها...»، في بعض الروايات: «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي»، بمعنى: أنّ الله تعالى يحفظه ويحوطه ويحرسه، فتكون حركاته في إرادة الله، وفي طاعة الله، وما ذاك إلا أنَّ قلبه امتلأ بعظمة الله، وامتلأ بالإيمان به، وامتلأ بحب الخير، وامتلأ بالأعمال الخيريَّة الصالحة، والميل إليها، ولما امتلأ القلب بها ظهرت آثار ذلك على السَّمع وعلى البصر وعلى اليد وعلى الرجل، فصار نظره كله لله، وسمعه كله لله، ومشيه وحركاته كلها بالله، ومن الله، وإلى الله، وفي الله.

فهذا هو الذي لا يمكن أنَّ يقدم على معصية مع ما يقوم به من هذه الحال، فالعبد الذي يكون بهذه المثابة ـ إن شاء الله ـ لا يقدم على معصيته، وإنَّما يأتي من نقص في استحضاره بقلبه لهذه الأشياء، فإنَّ العوائق التي تعوقه عن هذه الاستحضارات كثيرة، فالشهوات وزينة الحياة الدنيا ومتاعها، والشغل بها كثيرًا، والانهماك في المحرمات، كل ذلك يجلب إلى قلبه شيئًا من الغفلة، فيوجب له ذلك صدودًا عن الخير، وإقبالًا على الشرور والفساد، نعوذ بالله من الخذلان.

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: إِذَا كَانَ الْكُفْرُ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَنَحْنُ مَأْمُورُونَ أَنْ نَرْضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ، فَكَيفَ نُنْكِرُهُ وَنكْرَهُهُ؟!

فَالجَوَابُ: أَنْ يُقَالَ أَوَّلًا: نَحْنُ غَيْرُ مَأْمُورِينَ بِالرِّضَا بِكُلِّ مَا يَقْضِيهِ اللَّهُ وَيُقَدِّرُهُ، وَلَمْ يَرِدْ بِذَلِكَ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ، بَلْ مِنَ المَقْضِيِّ مَا يُرْضَى بِهِ، وَمِنْهُ مَا يُسْخَطُ وَيُمْقَتُ، كَمَا لَا يَرْضَى بِهِ القَاضِي لِأَقْضِيَتِهِ سُبْحَانَهُ، بَلْ مِنَ الْقَضَاءِ مَا يُسْخَطُ، كَمَا أَنَّ مِنَ الْأَعْيَانِ المَقْضِيَّةِ مَا يُغْضَبُ عَلَيهِ وَيُمْقَتُ وَيُلْعَنُ وَيُذَمُّ.

وَيُقَالُ ثَانِيًا: هُنَا أَمْرَانِ: قَضَاءُ اللَّهِ، وَهُوَ فِعْلٌ قَائِمٌ بِذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَقْضِيٌّ، وَهُوَ المَفْعُولُ المُنْفَصِلُ عَنْهُ، فَالقَضَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ وَعَدْلٌ وَحِكْمَةٌ، فَيُرْضَى بِهِ كُلِّهِ، وَالمَقْضِيُّ قِسْمَانِ: مِنْهُ مَا يُرْضَى بِهِ، وَمِنْهُ مَا لَا يُرْضَى بِهِ.

وَيُقَالُ ثَالِثًا: القَضَاءُ لَهُ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: تَعَلُّقُهُ بِالرَّبِّ تَعَالَى وَنِسْبَتُهُ إِلَيهِ، فَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ يُرْضَى بِهِ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: تَعَلُّقُهُ بِالْعَبْدِ وَنِسْبَتُهُ إِلَيْهِ، فَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ يَنْقَسِمُ إِلَى مَا يُرْضَى بِهِ، وَإِلَى مَا لَا يُرْضَى بِهِ. مِثَالُ ذَلِكَ: قَتْلُ النَّفْسِ، لَهُ اعْتِبَارَانِ: فَمِنْ حَيْثُ قَدَّرَهُ اللَّهُ وَقَضَاهُ وَكَتَبَهُ وَشَاءَهُ، وَجَعَلَهُ أَجَلًا لِلْمَقْتُولِ وَنِهَايَةً لِعُمرِهِ، نَرْضَى بِهِ، وَمِنْ حَيْثُ صَدَرَ مِنَ الْقَاتِلِ وَبَاشَرَهُ وَكَسَبَهُ وَأَقْدَمَ عَلَيْهِ بِاخْتِيَارِهِ، وَعَصَى اللَّهَ بِفِعْلِهِ، نَسْخَطُهُ وَلَا نَرْضَى بِهِ.

وَقَوْلُهُ: (وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الخِذْلَانِ...)، إِلَى آخِرِهِ.

التَّعَمُّقُ: هُوَ المُبَالَغَةُ فِي الْكَلَامِ فِيهِ ذَرِيعَةُ الخِذْلَانِ، وَالمَعْنَى: أَنَّ المُبَالَغَةَ فِي

طَلَبِ الْقَدَرِ وَالْغَوْصِ فِي الْكَلَامِ فِيهِ ذَرِيعَةُ الْخِذْلَانِ. الذَّرِيعَةُ: الْوَسِيلَةُ، وَالذَّرِيعَةُ وَالدَّرَجَةُ وَالسُّلَّمُ، مُتَقَارِبُ الْمَعْنَى، وَكَذَلِكَ الْخِذْلَانُ وَالْحِرْمَانُ وَالطُّغْيَانُ مُتَقَارِبُ الْمَعْنَى أَيْضًا، لَكِنَّ الْخُذْلَانَ فِي مُقَابَلَةِ النَّصْرِ، وَالْحِرْمَانَ فِي مُقَابَلَةِ الظَّفَرِ، وَالطُّغْيَانَ فِي مُقَابَلَةِ الِاسْتِقَامَةِ.

قال الشيخ:

الكلام الأول يتعلّق بالرضا بالقضاء، والرضا بالمقضي، فنقول: يلزمنا أن نرضى بالقضاء، وأمّا المقضيّ الذي يقع بذلك القضاء، فلا يلزمنا الرضى به، بل قد ننكره ونستبشعه، فَمَثَّل بقتل النفس ظلمًا، نقول: هذا الذي قُتل قد بلغ أجله الذي كُتِب له، لم يُقْطع عليه أجله، الله تعالى قضى وقدّر وكتب أنّ هذا عمره لا يزيد ولا ينقص، فالمقتول مات بأجله المحدَّد له؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤]، ويقول تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾[آل عمران:١٥٤]، أي: لو تحصّنتم في بيوتكم، والله قد كتب على بعضكم القتل، لخرجوا إلى المكان الذي قدّر الله عليهم أن يموتوا أو يقتلوا فيه ولا بدّ، وقد ذكر الله تعالى أنّ الموت محكوم على الإنسان مهما تحصّن، كما في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨]، يعني: ولو تحصّنتم في أحصن الأبراج يصل إليكم الموت الذي قدّره الله لكم، سواءً بسببٍ ظاهر، أو بسبب خفيٍّ، فمن

حيثُ حصل هذا الموت لهذه النفس، نؤمن بأنَّ هذا قضاءٌ وقدرٌ، وأنّ هذا المقتول مهما تحصَّن لا بدَّ أن يحصل له ما قدَّر الله تعالى عليه، ولكن مع ذلك ننكر هذا الذنب على القاتل، ونلومه عليه، ونسخطه، والله تعالى أنكره عليه، وتوعّده على هذا القتل بوعيد شديد، وتوعّده النبي ﷺ، وأخبر بأنّه يستحقّ العقوبة.

الله تعالى كتب القصاص في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ﴾ [البقرة:١٧٨]، وفي قوله: ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ ﴾ [المائدة:١٤٥]، فهذا دليل على إنَّه من حيث إنَّه قضاءٌ وقدرٌ، ومن حيث صدوره من ذلك القاتل، نسخطه وننكره ونلوم القاتل، وهكذا بقيّة الحوادث التي تحدث في الدنيا، منها ما نرضاه، ومنها ما نسخطه من حيث الظاهر، أمّا من حيث القضاء والقدر، فجميعه مرضيٌّ لله سبحانه وتعالى، مقضيّ له ومرضيّ للعباد.

فعلى كلّ حال يلزمنا الرضا بكلّ ما قضاه الله وقدّره، ولا يلزمنا الرّضا بكلّ مقضيّ ومخلوق ومقدّر وجوده في العالم، بل نسخط المعاصي ولو كانت قضاءً وقدرًا، وننكر على من فعلها ونلومه على ذلك، وإذا احتجّ بالقدر لم نمنعه من أخذ الحقّ منه، كما ذكرنا أنّ عمر ﷺ لـمَّا رُفع إليه سارق، قال له: «ما حملك؟» أي: على السرقة، قال السارق: «قضاء الله»، أي: إنه مكتوب عليَّ، وهذا قدر الله، فقطع يده، وقال: «هذه للسرقة»، وجلده وقال: «هذه لكذبك على الله»[1]، فهو بذلك

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٥٥٠).

يعرف أنَّ هذا مأمور به.

ولَـمَّا خرج عمر ﷺ إلى الشام، ذُكِرَ له أنّ الطاعون قد وقع في الشام، فشاور الصحابة هل يقدم عليهم أو لا يقدم؟ فاختلفوا، فمنهم من قال: لا تذهب إلى الشام ومعك هؤلاء الذين هم صفوةُ الصحابة فتعرِّضهم للموت، ومنهم من قال: إنَّ هذا شيء مكتوب، فلا تفرَّ بهم، ولا ترجع، ولكنَّه عزم على الرجوع. فقال له أبو عبيدة بن الجرّاح: فِرَارًا من قَدَرِ اللَّهِ؟ فقال عُمَرُ: «لو غَيْرُكَ قَالَهَا يا أَبَا عُبَيْدَةَ، نعم نَفِرُّ من قَدَرِ اللَّهِ إلى قَدَرِ اللَّهِ»[1].

يعني يقول: إنّ الله تعالى قدّر لنا أن نرجع، وما كتب لنا أن نذهب، فنحن إذا رجعنا فبقدر الله، نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله. ثمّ ضرب مثلًا وقال: «أَرَأَيْتَ لو كان لك إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا له عُدْوَتَانِ إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إن رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ؟»، فالله تعالى هو الذي قدّر لك أن تسلك هذا، ثم اختار لك أن تسلك هذا، فهكذا إذا رجعت من مكانٍ مخوفٍ، فليس ذلك هربًا من قضاءٍ، بل الله الذي قدّر عليك هذا القضاء والقدر، قدّر عليك أنّك ترجع أو أنّك لا ترجع، وإذا كان الله تعالى قد كتب على الإنسان أنّه يموت بسبب، فلا بدّ أنْ يصل إليه الموت في أيّ مكان.

وقد رُوي أنَّ بعض البصريين هرب من الطاعون، فركب حمارًا له، ومضى بأهله نحو سفوان،فسمع حاديًا يحدو خلفه يقول:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩).

لَـــنْ يُـــسْبَقِ اللَّـــهُ عَـــلَى حِمَـــارِ وَلَا عَـــــلَى ذِي مِيعَـــــةٍ طَيَّـــــارِ
أَوْ يَـــأْتِي الحَتْـــفُ عَـــلَى مِقْـــدَارِ قَـــدْ يُـصْبِحُ اللَّـــهُ أَمَـامَ الـسَّارِي[1]

فتوقَّف واستمع قليلًا، ثم إنَّه نزل في ذلك المكان، وأصابه الطاعون ومات، ولم يغنه فراره ولا هربه.

الله تعالى قد ذكر أنّ قومًا هربوا من الموت، ثم إنّ الله تعالى أماتهم في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ [البقرة:٢٤٣]، ما أخرجهم إلا حذر الموت، ولكن هل سلموا، بل أماتهم الله ثم أحياهم، يعني: قُدرة الله تعالى تأتي على كلّ شيء، فأماتهم الله ليريهم أنَّ الخروج والهرب لا ينجيهم، ثم أحياهم بقدرته ليعلمهم ويريهم كامل قدرته.

وعلى كل حال فنحن نقول: إنَّ الإنسان مأمور بأن يتحصّن، وبأن يفعل الأسباب، وبأن يأخذ حذره، ولكن لا يردَّ عنه ما قد كتب الله عليه من الآجال والأمراض والعاهات ونحو ذلك، وإنّما هذه أسباب ظاهرةٌ، ولا يجوز مع ذلك تركها، فإن الله سبحانه قد أمر بأخذ الحذر في حالة صلاة الخوف لَـمَّا أمر بها، ومعلوم أنّ المسلمين قد يقولُ قائلهم: سوف نصلّي جماعة، والله تعالى سوف يحرسنا، ويحفظنا، ولكنَّ الله تعالى أخبر بأنَّ المشركين يتحيّنون الفرص، ويحتالون

---

(١) ذكر هذه القصة ابن جرير الطبري في تاريخه (٢/ ٤٨٩)، وابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٢١٤).

في أن يجدوا غفلةً من المؤمنين فيقتلونهم، فقال تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء:١٠٢]، هكذا أخبر الله عن الكافرين، وأمر المسلمين بأن يأخذوا الحذر في قوله تعالى في الآية: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾، يعني: في حالةِ صَلاتِهم للخوفِ يأخذوا أسلحتهم، ويكونوا حذرين.

فكلّ ذلك دليل على أنّ فعل السبب لا ينافي التوكّل، وأنّه لا يردّ ما قدّر الله، فإنّ فعل الأسباب مأمور به، وتركها إلقاءٌ إلى التهلكة، وإنّ التعرّض أو فعل الأسباب التي يحصل بها الموت عمدًا، يصير ذنبًا كبيرًا؛ ولهذا ورد الوعيد الشديد على من قتل نفسه بفعل ظاهرٍ، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه وغيره أن النبي ﷺ قال: «من تردَّى من جبَلٍ فقتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ في نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فيه خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فقتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ في يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ في يَدِهِ يَجَأُ بِها في بَطْنِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا»[(١)]، فمن التهم سُمًّا فإنَّه يدخل جهنم ويُجعل السمّ في يده يتحسّاه دائمًا في نار جهنّم، والعياذ بالله، ومَن تردّى من رأس جبل حتى يموت، فهو يتردّى في نار جهنّم. فهذا دليل على أنّه إذا فعل سببًا يعوقه، أو يصل إلى أنّه يقتل بذلك نفسه، فإنّه معرّضٌ لهذا الوعيد. ولو قال مثلًا: إنّ هذا مكتوبٌ عليّ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧٨)، ومسلم (١٠٩).

وإنّ هذا مقدّر، نقول له: إنّ الله تعالى هو الذي قدّر كلّ شيء، ولكنّه نهاك عن شيءٍ أنت تستطيعه، فنهاك أن تلقي بيدك إلى التهلكة، ونهاك عن هذه المعاصي، ونهاك عن هذه المخالفات، وأمرك بأضدادها، وما أمرك إلا بأمرٍ أنت مستطيعٌ له، ولو كان كل ذلك واقعًا بقضاء وقدر.

قال الطحاوي:

فَالحَذَرَ كُلَّ الحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ، نَظَرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسَةً.

قال الشارح:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلُوه: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوه؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانُ»، إِلَى تَعَاظُمِهِمْ أَنْ يَتَكَلَّمُوا بِهِ.

وَلِمُسْلِمٍ[2] أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الوَسْوَسَةِ، فَقَالَ: «تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ».

وَهُوَ بِمَعْنَى حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ، فَإِنَّ وَسْوَسَةَ النَّفْسِ وَمُدَافَعَةَ وسْوَاسَهَا بِمَنْزِلَةِ الْمُحَادَثَةِ الْكَائِنَةِ بَيْنَ اثْنَينِ، فَمُدَافَعَةُ الْوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ، وَاسْتِعْظَامُهَا صَرِيحُ الْإِيمَانِ، وَمَحْضُ الْإِيمَانِ.

هَذِهِ طَرِيقَةُ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، ثُمَّ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ، سَوَّدُوا الْأَوْرَاقَ بِتِلْكَ الْوَسَاوِسِ، الَّتِي هِيَ شُكُوكٌ وَشُبَهٌ، بَلْ وَسَوَّدُوا الْقُلُوبَ، وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ؛ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ، وَلِذَلِكَ أَطْنَبَ

---

(١) برقم (١٣٢).

(٢) برقم (١٣٣).

الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ فِي ذَمِّ الخَوْضِ فِي الْكَلَامِ فِي الْقَدَرِ وَالْفَحْصِ عَنْهُ.

وَعَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ أَنَّهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ»[1]. وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ[2]: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا دَاودُ بْنُ أَبِي هِنْد، عَنْ عَمْرُو بْنِ شُعَيبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَالنَّاسُ يَتَكَلَّمُونَ فِي الْقَدَرِ، قَالَ: فَكَأَنَّمَا تَفَقَّأَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَانِ مِنَ الغَضَبِ، قَالَ: فَقَالَ: «مَا لَكُمْ تَضْرِبُونَ كِتَابَ اللَّهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟! هَلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُم»، قَالَ: فَمَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِمَجْلِسٍ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أَشْهَدْهُ، بِمَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِذلِكَ المَجْلِسِ أَنِّي لَمْ أَشْهَدْهُ. وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجه أَيْضًا[3].

قال الشيخ:

عندنا شيئان: الأمر الأول: ما يجول في النّفس، وما يحدث من الوساوس والأوهام، ولكن لا يخرجها الإنسان، بل يزيلها أو يحرص على إزالتها، فهذه مما يُعفى عنه. والأمر الثاني: ما ابتُلي به المتكلّمون من إظهار تلك الوساوس والتكلّم بها، وكتابتها وإشاعتها، وهذا مذموم.

فكان الصحابة وكذلك التابعون وتلاميذهم، إذا خطرت في أنفسهم

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٢٢٩).

(٢) في المسند (٢/ ١٧٨).

(٣) برقم (٨٥).

خطرات وشكوك لم يبدوها، بل استمرّوا على ما هم عليه من العقيدة، وآمنوا بالله وبما جاء عن الله سبحانه وتعالى، فلم تضرُّهم تلك الوساوس ولا تلك الهواجس.

وكثيرًا ما يخطر على قلب الإنسان وسوسةٌ في أمورٍ من الغيب - مثلًا - في ماهية وكيفيَّة العرش، وذات الربّ تعالى وصفاته، وكذلك أمور البعث وأمور البرزخ، قد يتوارد على نفسه شيء من التشكيكات في هذه، وكيف تتصوّر، وكيف يتحقق ما ذُكر من وصفها في هذه النصوص، فإنّ في ذلك شيئًا من الاستبعاد، ومن الاستغراب، فإذا تواردت هذه الشكوك على هذه النفوس، ولكن أحرقتها النفس المطمئنَّة، ولم تلتفت إليها، ولم يتكلّم بها الإنسان، فإنّ ذلك ممّا يعفى عنه، وقد سمّاه النبيّ ﷺ: «صَرِيحُ الْإِيمَانِ»، يعني: ما دمتم تنتصرون على هذه الوساوس دون أن تتكلّموا بها، فإن ذلك معفو عنه، كما ثبت في الحديث قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا وَسْوَسَتْ بِهِ صُدُورُهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ»[1]. فحديث النفس معفوٌّ عنه، يعني: الخواطر التي تخطر في القلب، والتي تكون طوارئ وخواطر ووساوس وأوهامًا وتشكيكات، ولكن يغلبها المؤمن بقوة إيمانه، لَمّا قامت عنده الأدلّة الصريحة والصادقة في صدق الرسل، وما جاؤوا به من الأمور الغيبية، وثق بها أتمّ ثقة، ولم تؤثّر فيه تلك الشكوك والأوهام ونحوها، فلمّا وجد بذلك هذه الثقة اضمحلّت تلك الوساوس، ولم تضرّه، فعليك أيها

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٩١).

المؤمن أن تؤمن بالحقّ الذي أنت عليه، وتثق به، دون أن تلتفت إلى شيء من تلك الأوهام، ولا تتمادى معها، هكذا أخبر عليه الصلاة والسلام.

عرفنا أن من عقيدة المسلمين الإيمان، وأركانه ستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشرِّه، وأن الإيمان تدخل فيه الأعمال، فالأعمال من مسمَّى الإيمان، ولأجل ذلك يقوى الإيمان ويضعف، ويزيد وينقص، بسبب زيادة الأعمال يزداد الإيمان، وبسبب نقص الأعمال وارتكاب الذنوب ينقص الإيمان، وذلك مما يحمل المسلم على أن يتعهّد إيمانه بالزيادة، ويحذر من النقصان؛ لأنّه إذا تغافل وصار ينقص إيمانه شيئًا فشيئًا، لم يأمن أن يضعف، وإذا ضعف لم يكن زاجرًا له عن اقتراف السيِّئات، ولم يكن دافعًا له إلى التكاثر من الحسنات، كذلك قد يصير ضعف الإيمان سببًا لأن يقوى ضدّه وهو الكفر أو الذنب أو المعصية، فإنّه كلَّما قوي الإيمان ضعفت دوافع الكفر والفسوق والمعاصي، وكلما ضعف الإيمان قويت أضداده. فيحرص المسلم على أن يتعهد الإيمان مجدًا مجتهدًا في الحرص على تقوية إيمانه، وعلى البعد عن الأسباب التي تضعفه، فقد بيّن العلماء مسمّى هذه الأشياء؛ لأنّها مسميات شرعيّة.

فالإيمان وإن كان أصله لغويًا، ولكنّه أصبح مسمىً شرعيًا، استعمله الشرع في الانقياد لأوامر الله تعالى، واتّباع ما جاء عنه، واستعمله في تكميل هذا الاتّباع، بامتثال الطاعات وترك المحرّمات، فأصبح مسمّى شرعيًا.

كذلك الإسلام مسمّىً شرعيّ، ولو كان أصله في اللغة: الإذعان والاستسلام، ولكنّه أصبح اسمًا شرعيًا يراد به: الدخول في هذا الدين، والانتماء

إليه، والالتزام بتعاليمه، فهو مسمّى شرعيّ بعد أن كان لغويًّا.

كذلك الإحسان مسمّىً شرعيّ، قد بيّنه النبي ﷺ، فوصف أهله وقسّمهم، فأصبحت هذه الأسماء الإسلام والإيمان والإحسان، كذلك أضدادها أصبحت مسمّيات شرعيّة، فالكفر مسمّى شرعيّ، وإن كان أصله في اللغة الستر والتغطية، والشرك مسمّى شرعيّ، ولو كان له أصل في اللغة الذي هو الاشتراك في شيئين، أو التشريك بين اثنين، والنفاق مسمّى شرعي ولو كان له أصلٌ في اللغة، ولكنّه أصبح مستعملًا في هذا الاستعمال الشرعي.

فهذه المسميات جاءت الشريعة باستعمالها في هذه الأشياء، منها ما هو مأمور به؛ كالإسلام والإيمان والإحسان، والدين والاستقامة، وما أشبهها، ومنها ما هو منهي عنه، ومحذَّر منه؛ كالكفر والشرك والنفاق والسيّئات والخطايا والذنوب، وما أشبهها، هذه مسمّيات شرعيّة، ودخولها في العقيدة من حيث إنّ على المسلم أن يعتقد ما جاءت به الشريعة، وأن يقبلها قبولًا كليًا، فيقول: هذا الإسلام تضمّنته هذه الشريعة، فأنا أدين بالإسلام سواءً فيما يتعلّق بالعقائد، أو ما يتعلّق بالأعمال، فيدين لله تعالى به، ويعتقد أنّه سفينةُ النجاة، وأنّه سبيل الوصول إلى السلامة، فيعتقد صحته وسلامة من سار عليه، ويعتقد خطأ من ضلّ وابتعد عنه، أو أخذ منه بعضًا دون بعض، فهذا وجه دخوله في العقيدة.

أما أركان الإسلام فهي مشهورة، ولم يدخلوها في العقيدة، ما عدا الركن الأساسي الذي هو الشهادتان، فإنهما أساس العقيدة، وأساس التوحيد، بخلاف الأركان العملية، فالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر وما أشبهها، هذه من الأعمال التي جعلوها من الفروع، ولكن هي في الحقيقة من العقيدة؛ لأنها أسس للعقيدة، ولأنّ إنكارها إنكار لشيء معلوم من الدين بالضرورة، فيخرج المنكر لها من الملّة، ويدخل في الكفر والعياذ بالله؛ وذلك لأنّها لما كانت أدلّتها واضحة، والمسلمون تلقّوها بالقبول، لم يكن هناك مجال لإنكارها ولو وجد من ينكرها، فإنّ أولئك الذين أنكروها قد خالفوا المعقول والمنقول، وكذلك الذين تأوّلوها كالفلاسفة، وبعض الصوفيّة ونحوهم، الذين قالوا: إنّ الصلاة ليست هي هذه الأفعال، إنّما المراد بها اتصال القلب بالرّب، وفسروا الحجّ بأنّه: حجّ القلوب إلى علاّم الغيوب، وأسقطوا بذلك هذه الأركان الظاهرة، والتي تعلّمها المسلمون من نبيِّهم ﷺ، ولكن نفرةُ المسلمين من هذه الأقوال واستبشاعهم لها أوجب أنّها ما تذكر في العقائد، فاقتصر أهل العقائد على أركان الإيمان التي هي الستّة، وأصلها كما تقدّم وتكرّر أصلان: الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر. فإذا اجتمع هذان تبعتهما بقية الأركان، ولكنّهم فصّلوا في كثيرٍ منها، وأجملوا في بعضٍ منها لقلةِ الخلاف، وبذلك إذا حققها المسلم أصبح من أهل العقيدة السليمة، وأهل الاستقامة، الذين هم على سبيل النجاة.

قال الشارح:

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة:٦٩]، الخَلَاقُ: النَّصِيبُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة:٢٠٠]، أَيْ: اسْتَمْتَعْتُمْ بِنَصِيبِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا، كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِنَصِيبِهِمْ، وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا، أَيْ: كَالخَوْضِ الَّذِي خَاضُوهُ، أَوْ كَالْفَوْجِ، أَوْ الصِّنْفِ، أَوْ الجِيلِ الَّذِينَ خَاضُوا.

وَجَمَعَ - سُبْحَانَهُ - بَيْنَ الِاسْتِمْتَاعِ بِالخَلَاقِ وَبَيْنَ الخَوْضِ؛ لِأَنَّ فَسَادَ الدِّينِ: إِمَّا فِي الْعَمَلِ، وَإِمَّا فِي الِاعْتِقَادِ، فَالْأَوَّلُ مِنْ جِهَةِ الشَّهَوَاتِ، وَالثَّانِي مِنْ جِهَةِ الشُّبُهَاتِ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَتَأْخُذَنَّ أُمَّتِي مَأْخَذَ الْقُرُونِ قَبْلَهَا، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «فَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ؟».

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً».

---

(١) برقم (٧٣١٩) ولفظه: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى تَأْخُذَ أُمَّتِي ...» الحديث.

قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي». رواه الترمذي[١].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ أَوِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالنَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٢]، وَابْنُ مَاجَه[٣]، وَالتِّرْمِذِيُّ[٤]، وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بن أبي سُفْيَانَ رضي الله عنه قَالَ: قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يَعْنِي: الأَهْوَاءَ - كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»[٥].

وَأَكْبَرُ الْمَسَائِلِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا الْخِلَافُ بَينَ الْأَئِمَّةِ مَسْأَلَةُ الْقَدَرِ، وَقَدْ اتَّسَعَ الْكَلَامُ فِيهَا غَايَةَ الِاتِّسَاعِ.

---

(١) برقم (٢٦٤١)، وفي إسناده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي، قال الحافظ في التقريب (ص٣٤٠): «ضعيف في حفظه». وانظر: الجرح والتعديل (٥/ ٢٣٤)، والكامل في ضعفاء الرجال (٤/ ٢٧٩).

(٢) برقم (٤٥٩٦).

(٣) برقم (٣٩٩١).

(٤) برقم (٢٦٤٠)، وأخرجه أحمد (٢/ ٣٣٢)، وصححه ابن حبان (١٤/ ١٤٠)، والحاكم (١/ ١٢٨).

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٢)، وأبو داود (٤٥٩٧)، وأخرجه عن أنس رضي الله عنه وفيه زيادة أحمد (٣/ ١٢٠/ ١٤٥)، وابن ماجه (٣٩٩٢).

قال الشيخ:

كلامه هاهنا على تفرق الأمة، وأن هذه الأمة ستفعل كما فعل الأولون، فالله تعالى ذكر أن الأولين استمتعوا بخلاقهم، وأنكم استمتعوا أيها العرب بخلاقكم مثل استمتاعهم، وأنكم خضتم كخوضهم الذي خاضوه، والاستمتاع: الانتفاع، يعني: أنهم انتفعوا بأخلاقهم وبقوا عليها كاستمتاع الذين من قبلهم بأخلاقهم، وخوضهم في الذي خاضوه، وأخبر بأن الخلاق هو الحظ والنصيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة:٢٠٠]، أي: ليس له من حظ ولا نصيب، فأخبر الله تعالى بأنكم أيها العرب استمتعتم بنصيبكم من الدنيا كاستمتاع الذين من قبلكم بنصيبهم، وأنكم خضتم (كَالخَوْضِ الَّذِي خَاضُوهُ، أَوْ كَالْفَوْجِ، أَوْ الصِّنْفِ، أَوْ الجِيلِ الَّذِينَ خَاضُوا)، وهذا على وجه الإنكار، وعلى وجه التحذير.

والمراد: ابتعدوا عن تقليدهم فيما خاضوا فيه، ولو كانوا يدعون أنهم على حق أو أنهم على صواب، فإن هذا استمتاع وخوض يؤدي إلى الباطل فابتعدوا عنه.

قوله: (وَجَمَعَ ـ سُبْحَانَهُ ـ بَيْنَ الِاسْتِمْتَاعِ بِالخَلَاقِ وَبَيْنَ الخَوْضِ)، أي: يخبر بأن الله جمع بين الاستمتاع والخوض في قوله﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟﴾، ﴿وَخُضْتُمْ﴾.

قوله: (لِأَنَّ فَسَادَ الدِّينِ: إِمَّا فِي الْعَمَلِ، وَإِمَّا فِي الِاعْتِقَادِ)، فالعمل هو الخوض، والخلاق هو الاعتقاد.

يقول: (فَالْأَوَّلُ مِنْ جِهَةِ الشَّهَوَاتِ)، أي: الفساد في العمل بالشهوات التي

توقع في الآثام؛ لأن الإنسان إذا أعطى نفسه ما تشتهي جرته إلى المحرمات، من الشهوات التي هي توقع في النار؛ لأن النبي ﷺ قال: «**حُفَّتْ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ، وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»[1]، فالشهوات التي تشتهيها النفس - كالزنى والغناء والخمور وما أشبهها - توقع في الذنب الكبير.

قوله: (**وَالثَّانِي مِنْ جِهَةِ الشُّبُهَاتِ**)، أي: الفساد في الاعتقاد بالشبهات التي يلفقها أعداء الإسلام، ويريدون للأمة أن تقع في هذا الخوض، فيكون ذلك سببًا في شكهم في دينهم، فيجمعون شبهات يشبهون بها، وهي التي سببت حيرة كثير من هذه الأمة، حيث وقعوا في الحيرة وماتوا وهم في شك، نعوذ بالله.

ثم أورد مجموعة من الأحاديث، هذه الأحاديث دالة على أن الأمة تتبع من قبلها، في حديث البخاري عن أبي هريرة ﷺ قوله ﷺ: «**لتأخذن أُمَّتِي مآخِذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ**»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «**وَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ**»[2]، المآخذ هي: الطرق والعادات والأعمال السيئة، يعني: أنهم يسيرون على نهج الأمم قبلهم الذين هم فارس وهم من المجوس، والروم وهم من النصارى، ونحوهم أيضًا كاليهود، أفعالهم تتبعها هذه الأمة شبرًا بشبر وذراع بذراع، بحيث إنهم يفعلون كل ما فعلوه قبلهم ولو مسيرة شبر أو ذراع،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٢٢) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه البخاري (٦٤٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «حُجِبَتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُجِبَتْ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ».

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٥٠٦).

وهذا فيه تحذير للأمة وإخبار بأن هذا واقع، وقد وقع كما أخبر.

وفي حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قوله ﷺ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ»[1]، بنو إسرائيل هم: اليهود والنصارى؛ لأن كلاً منهم يدَّعون أنهم من ذرية إسرائيل الذي هو يعقوب عليه السلام، أي: أن هذه الأمة تسير مع مسير تلك الأمم، حتى كأنهم يسيرون على آثارهم، يضع أحدهم نعله على موضع نعل اليهودي أو النصراني، إذا رفع قدمًا وضع عليه قدمًا، بمعنى: أنهم يفعلون كأفعالهم، كما يفعل الذي يسير على أثر غيره، يضع قدمه على موضع قدمه.

ثم ضرب مثلاً من الأفعال الشنيعة، قال: «حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلاَنِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ»، أي: إذا كان منهم من زنى بأمه علانية ـ والعياذ بالله ـ أمام الناس جهرًا كان من هذه الأمة من يصنع ذلك، وهذا من الواقع الشنيع، ولاشك أنه قد وقع ذلك، حيث أخبر به النبي ﷺ، فإن كثيرًا ممن ينتسب إلى الإسلام صاروا يحلون الحرام ومن ذلك الزنى، ويجعلونه حِلاً إذا حصل التراضي بين الزانيين، ويجر ذلك إلى أن الرجل قد يزني بأمه أو بابنته أو ببعض محارمه ولا يبالي والعياذ بالله.

قوله ﷺ: «وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً»، أخبر ﷺ أن بني إسرائيل تفرقوا على ثنتين وسبعين ملة، قيل: إن هذا للحصر، وأن فرقهم وصلت

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٠٧).

إلى ثنتين وسبعين، وقيل: إن هذا على وجه المبالغة في الكثرة.

قوله ﷺ: «وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً»، قيل: إن المراد أمة الدعوة فيدخل فيها كل من كان من البشر فإنه من أمة الدعوة. وقيل: المراد أمة الإجابة الذين استجابوا للنبي ﷺ واتبعوه وقالوا: إننا مسلمون. افترقوا فرقًا كثيرة، وذكر الثلاث وسبعين؛ لأجل التكثير لا لأجل الحصر، فلو أحصيت فرقهم فقد تكون أكثر، ويمكن أن يُراد أن هذه الثلاث وسبعين هي رؤوس الفرق بخلاف الفروع، فإن الفروع كثيرة يمكن أنها تصل إلى مئات أو ألوف من الفرق، وبعض الفرق قد يكونون انقرضوا، وبعضهم قد يكونون قلة تابعين لغيرهم.

ثم يقول: «كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً»، هذه الفِرق إذا قلنا: إنه يدخل فيهم فرق الأمة: كالقدرية والمعتزلة والوعيدية والجهمية والصوفية والرافضة والزيدية والإمامية والعلمانية ونحوهم من هذه الفرق القديمة والجديدة، ومثلهم أيضًا النُصيرية والدرزية ونحوهم، فإن من هؤلاء من هم قريبون من الإسلام - كالأشاعرة والماتريدية ونحوهم - فلا يُحكم بأنهم كلهم في النار، بل يكونون كأهل البدع الذين انتحلوا بدعًا، فيكون وعيدهم بأنهم من أهل النار، يعني: سيدخلونها وإن كانوا سوف يخرجون منها. وقيل: إن المراد أمة الدعوة، فيدخل فيهم النصارى والمجوس واليهود والقبوريون والمشركون والشيوعيون والبوذيون والهندوس ونحوهم ممن ينتحلون نحلاً ويصيرون أممًا وفرقًا مستقلة.

وبكل حال فإن هذا وعيد شديد: «كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»، أي: ما كان عليه النبي ﷺ

وأصحابه الذين صحبوه، ولا شك أنه لم يقع فيهم اختلاف ولا انحراف ﷺ، بل كانوا متمسكين، ولما خرجت الخوارج لم يكن فيهم أحد من الصحابة بل كلهم ممن بعد الصحابة، وكذلك لما ظهرت المعطلة والقدرية لم يكن فيهم أحد من الصحابة، فمن اقتدى بالصحابة وما كانوا عليه، كالأئمة وعلماء التابعين والمحدثين ونحوهم فإنهم من أهل النجاة؛ ولذلك سُئل الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عن الفرقة الناجية، فقال: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أعرفهم»(١). يعني: الأقرب أنهم المحدثون الذين اشتغلوا بعلم الحديث؛ لأنه العلم الموروث عن النبي ﷺ.

وفي حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ أَوِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَالنَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»(٢)، هذا أيضًا فيه هذا التفرق يمكن أن فرق الأمة: أمة الإجابة أو أمة الدعوة، وإذا قيل: إنهم أمة الإجابة فيكون من أحاديث الوعيد، ويكون أيضًا الذين يدخلون النار ـ والعياذ بالله ـ هم أهل البدع الكبيرة الذين يدخلونها بسبب بدعهم، وقد يطول مكثهم فيها وقد لا يطول، ومثلهم أيضًا أهل المعاصي ونحوهم.

وفي حديث معاوية ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٤).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٥٠٧).

على ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً»[1]، المراد بأهل الكتابين: أهل التوراة والإنجيل، فأهل التوراة اليهود، وأهل الإنجيل النصارى، ذكر أن فرقهم وصلت إلى هذا العدد، إما على وجه الحصر، أو لأجل التكثير.

ثم قال: « وإن هذه الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ على ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً -يعني: الأَهْوَاءَ-» يراد بذلك الحصر، أو يراد بذلك التكثير، «كُلُّهَا في النَّارِ إلا وَاحِدَةً، وهي الجَمَاعَةُ». والمراد بالجماعة: الذين اجتمعوا على الحق ولو كانوا قليلاً، فإنهم هم أهل السنة وأهل الجماعة، ومن خالفهم فإنه بعيد عن أن يكون من أهل السنة، وبعيد عن أن يكون من الجماعة، يقول بعض السلف: «الجماعة من كان على الحق ولو كانوا قليلاً، ولو خالفهم عدد كثير»؛ ولهذا في النونية لابن القيم لما ذكر قول أهل السنة في إثبات العلو قال[2]:

هَذَا وَسَادِسُ عَشْرِهَا إِجْمَاعُ أَهْـ ـلِ الْعِلْمِ أَعْنِي حُجَّةَ الْأَزْمَانِ
مِنْ كُلِّ صَاحِبِ سُنَّةٍ شَهِدَتْ لَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَعَسْكَرُ الْقُرْآنِ
لَا عِبْرَةً بِمُخَالِفٍ لَهُمُ وَلَوْ كَانُوا عَدِيدَ الشَّاءِ وَالْبُعْرَانِ

يعني: أن الذين يكونون حجة هم أهل الحديث وعسكر القرآن، ولا عبرة بمن خالفهم ولو كثروا.

ثم قال: (وَأَكْبَرُ المَسَائِلِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا الخِلَافُ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ، وَقَدْ

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٠٧).

(٢) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٤٣٩).

اتَّسَعَ الْكَلَامُ فِيهَا غَايَةِ الِاتِّسَاعِ)؛ ذلك لأنه أول ما حدث مسألة القدر الذي هو إنكار العلم، فإن الذين سألوا ابن عمر - رضي الله عنهما - وهم: يحيى بن يعمر وحميد بن عبدالرحمن الحميري قالوا: «يا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ - وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لاَ قَدَرَ وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ»[1]، هؤلاء هم غلاة القدرية، وقد رد عليهم الشافعي - رحمه الله - بقوله: «ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه فقد كفروا»[2]، يعني: سلوهم وناقشوهم هل الله تعالى بكل شيء عليم؟ فإن أقروا به قلنا: ما الفرق بين علم السابق وعلم اللاحق؟، وإذا جحدوه كفروا لعموم الآيات، ثم حدث بعدهم القدرية الذين ينفون قدرة الله وهم المعتزلة والذين يقولون: إن الله لا يخلق أفعال العباد. وقد رد عليهم أيضًا العلماء وبينوا أن هذا تنقص لله تعالى.

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (ص٢٧)، ومجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٩)، وطريق الهجرتين (٢٤٣).

قَالَ الطَّحَاوِيُّ:

فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ، وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ.

قال الشارح:

اعْلَمْ: أَنَّ مَبْنَى الْعُبُودِيَّةِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ عَلَى التَّسْلِيمِ، وَعَدَمِ الْأَسْئِلَةِ عَنْ تَفَاصِيلِ الْحِكْمَةِ فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالشَّرَائِعِ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَحْكِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ أُمَّةِ نَبِيٍّ صَدَّقَتْ بِنَبِيِّهَا وَآمَنَتْ بِمَا جَاءَ بِهِ أَنَّهَا سَأَلَتْهُ عَنْ تَفَاصِيلِ الْحِكْمَةِ فِيمَا أَمَرَهَا بِهِ وَنَهَاهَا عَنْهُ وَبَلَّغَهَا عَنْ رَبِّهَا، وَلَوْ فَعَلَتْ ذَلِكَ لَمَا كَانَتْ مُؤْمِنَةً بِنَبِيِّهَا، بَلِ انْقَادَتْ وَسَلَّمَتْ وَأَذْعَنَتْ، وَمَا عَرَفَتْ مِنَ الْحِكْمَةِ عَرَفَتْهُ، وَمَا خَفِيَ عَنْهَا لَمْ تَتَوَقَّفْ فِي انْقِيَادِهَا وَتَسْلِيمِهَا عَلَى مَعْرِفَتِهِ، وَلَا جَعَلَتْ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهَا، وَكَانَ رَسُولُهَا أَعْظَمَ عِنْدَهَا مِنْ أَنْ تَسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا فِي الْإِنْجِيلِ: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَقُولُوا: لِمَ أَمَرَ رَبُّنَا؟ وَلَكِنْ قُولُوا: بِمَ أَمَرَ رَبُّنَا»؛ وَلِهَذَا كَانَ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ الْأُمَمِ عُقُولًا وَمَعَارِفَ وَعُلُومًا - لَا تَسْأَلُ نَبِيَّهَا: لِمَ أَمَرَ اللَّهُ بِكَذَا؟ وَلِمَ نَهَى عَنْ كَذَا؟ وَلِمَ قَدَّرَ كَذَا؟ وَلِمَ فَعَلَ كَذَا؟ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ مُضَادٌّ لِلْإِيمَانِ وَالِاسْتِسْلَامِ، وَأَنَّ قَدَمَ الْإِسْلَامِ لَا تَثْبُتُ إِلَّا عَلَى دَرَجَةِ التَّسْلِيمِ.

فَأَوَّلُ مَرَاتِبِ تَعْظِيمِ الْأَمْرِ: التَّصْدِيقُ بِهِ، ثُمَّ الْعَزْمُ الْجَازِمُ عَلَى امْتِثَالِهِ، ثُمَّ الْمُسَارَعَةُ إِلَيْهِ وَالْمُبَادَرَةُ بِهِ، وَالْحَذَرُ عَنِ الْقَوَاطِعِ وَالْمَوَانِعِ، ثُمَّ بَذْلُ الْجُهْدِ وَالنُّصْحِ فِي الْإِتْيَانِ بِهِ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، ثُمَّ فِعْلُهُ؛ لِكَوْنِهِ مَأْمُورًا بِهِ، بِحَيْثُ لَا يَتَوَقَّفُ الْإِتْيَانُ

بِهِ عَلَى حِكْمَتِهِ، فَإِنْ ظَهَرَتْ لَهُ فَعَلَهُ، وَإِلَّا عَطَّلَهُ، فَإِنَّ هَذَا يُنَافِي الِانْقِيَادَ، وَيَقْدَحُ فِي الِامْتِثَالِ.

قال الشيخ:

الله ـ سبحانه وتعالى ـ حكيم في أمره ونهيه، ما أمر بشيء إلا وفيه مصلحة، ولا نهى عن شيء إلا وفيه مضرة ومفسدة، ولكن مع ذلك ليس لنا أن نكثر التساؤل عن حكمة أي فعل أو أي قول نؤمر به أو نفعله، بل نرضى ونسلم لأمر الله سبحانه وتعالى، ولا نتعنت ولا نخالف في هذه الأوامر والنواهي، بل نقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥]، ونقول: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة:٣٢]، رضينا بما جاءنا عن الله، وقد رُوي عن الشافعي ـ رحمه الله ـ أنه قال: «آمنتُ باللَّهِ، وبما جاءَ عَن اللَّهِ، على مُرادِ اللَّهِ، وآمنتُ برسولِ اللَّهِ، وبما جاءَ عَن رسولِ اللَّهِ، على مُرادِ رسولِ اللَّهِ»[1].

قوله: (اعْلَمْ: أَنَّ مَبْنَى الْعُبُودِيَّةِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ عَلَى التَّسْلِيمِ، وَعَدَمِ الْأَسْئِلَةِ عَنْ تَفَاصِيلِ الْحِكْمَةِ فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالشَّرَائِعِ)، بل يقولون: سلمنا لأمر ربنا، رضينا بما جاءنا منه، قبلناه وإن لم تظهر لنا الحكمة، هذا هو مبنى العبودية، وكذلك الإيمان على الرضا والتسليم، وعدم التقعر في الأسئلة، لا يُسأل عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٦٢).

يقول: (وَلِهَذَا لَمْ يَحْكِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ أُمَّةِ نَبِيٍّ صَدَّقَتْ بِنَبِيِّهَا وَآمَنَتْ بِمَا جَاءَ بِهِ أَنَّهَا سَأَلَتْهُ عَنْ تَفَاصِيلِ الْحِكْمَةِ فِيمَا أَمَرَهَا بِهِ وَنَهَاهَا عَنْهُ وَبَلَّغَهَا عَنْ رَبِّهَا)، الأمم السابقة، يعني الذين صدقوا نوحًا ـ عليه السلام ـ أو صدقوا إبراهيم ـ عليه السلام ـ أو صدقوا لوطًا أو شعيبًا أو هودًا ـ عليهم السلام ـ ما سألوا، ما قالوا: لماذا أمرتنا بالتوحيد، لماذا نهيتنا عن الشرك؟ لماذا أمرتنا بالنكاح ونهيتنا عن السفاح؟ لماذا حرمت علينا المسكرات وما أشبهها؟ لماذا أبحت لنا الطيبات وحرمت علينا الخبائث؟ لا يسألون عن تفاصيل الحكمة، ولو فعلت ذلك ما كانت مؤمنة بنبيها، بل الأصل أنهم ينقادون ويسلمون ويذعنون لما جاءهم عن الله تعالى على لسان رسوله، فما عرفوه من الحكمة عرفوه، إذا عرفوا المصالح قالوا بها، ولاشك أن في الطهارة بالماء مصالح، وأن في الصلاة مصالح وعبودية وتذلل، وأن في الزكاة مصالح، وأن في الصوم مصالح، وأن في الحج مصالح، وأن في الجهاد مصالح.

وكذلك أيضًا في تحريم المحرمات كتحريم الربا، وتحريم الغش وتحريم الغرر والغصب وما أشبه ذلك، يعرفون أن فيها مصالح، ولكن لم يتوقف قبولهم على معرفة تلك المصالح، بل ينقادون ويسلمون، وما عرفوا من الحكمة عرفوه، وما خفي عنهم لم يتوقفوا في الانقياد والتسليم على معرفته، بل يقولون: إنه حق، وإنه من الله تعالى، ولو لم تظهر لنا الحكمة.

قوله: (وَلَا جَعَلَتْ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهَا)، يعني: معرفة الحكمة ونحوها، فلو سأل أحد: لماذا شُرع التيمم بالتراب مع أنه تلوث وغبار ونحو ذلك؟ نقول: لا نسأل

عن شيء من ذلك، بل نعرف أن الله تعالى حكيم في أمره ونهيه، ومع ذلك فإن العلماء قد حرصوا على أن يذكروا ما يقدرون عليه من الحكم، وقد تكلم ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه (إعلام الموقعين) على مثل هذا، لماذا ـ مثلاً ـ أُمر بالاغتسال من المني ولم يؤمر بالاغتسال من البول؟ وذكر الحكمة، لماذا قُطعت يد السارق في ربع دينار وجُعلت ديتها خمسمائة دينار؟ وذكر الحكمة، وأشباه ذلك وأطال في ذلك، ومع ذلك الذي لم تظهر الحكمة فيه يجب التسليم له.

يقول: (وَكَانَ رَسُولُـهَا أَعْظَمَ عِنْدَهَا مِنْ أَنْ تَسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ)، بل نسلم لذلك.

قوله: (كَمَا فِي الْإِنْجِيلِ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَقُولُوا: لِمَ أَمَرَ رَبُّنَا؟ وَلَكِنْ قُولُوا: بِمَ أَمَرَ رَبُّنَا)، أي: لماذا أمرنا بكذا؟ ما الحكمة وما المصلحة؟ لا تقولوا ذلك، بل قولوا: بأي شيء أمرنا ربنا؟ وهكذا نقول: لا نسأل عن لِمَ؛ عن حكمة في أمر من الأوامر، بل نقول: الأمور كلها بيد الله تعالى، وما أمرنا به امتثلنا، وما نهانا عنه انتهينا.

قوله: (كَانَ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَةِ، الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ الْأُمَمِ عُقُولًا وَمَعَارِفَ وَعُلُومًا)، السلف ـ رحمهم الله ـ الصحابة لا يسألون النبي ﷺ لماذا أمر الله بكذا؟ ولماذا نهى عن كذا؟ ولماذا قدَّر كذا؟ ولماذا فعل كذا؟ لا يسألون عن هذا؛ لأن هذا تكلف، لما قرأ عمر ﷺ قول الله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس:٣١]، على المنبر، فقال: «هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو

التكلف يا عمر»[(١)]، وسُئل أبا بكر الصديق ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾، فقال: «أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم»[(٢)]، منقطع.

قوله: (لِعِلْمِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ مُضَادٌّ لِلْإِيمَانِ وَالِاسْتِسْلَامِ)؛ لأن المؤمنين يقولون: آمنا بالله واستسلمنا لأمره.

قوله: (وَأَنَّ قَدَمَ الْإِسْلَامِ لَا تَثْبُتُ إِلَّا عَلَى دَرَجَةِ التَّسْلِيمِ)، القدم هنا استعارة عن ثبوت الإسلام، لا يثبت الإسلام حقًّا إلا على درجة التسليم، أن يقولوا: سلمنا لأمر الله تعالى.

ثم قال: (فَأَوَّلُ مَرَاتِبِ تَعْظِيمِ الْأَمْرِ: التَّصْدِيقُ بِهِ)، إذا جاءنا الأمر فأول مرتبة أن نصدق بذلك الأمر.

ثانيًا: (الْعَزْمُ الْجَازِمُ عَلَى امْتِثَالِهِ)، أي: نعزم ونجزم من أنفسنا على امتثال ذلك الأمر.

---

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص٣٧٥)، وعبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٣٤٩)، وسعيد بن منصور في سننه (١/ ١٨١)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٣٦)، والطبري في تفسيره (٣٠/ ٥٩)، والحاكم (٢/ ٥١٤) وصححه. وأخرج البخاري (٧٢٩٣) نحو ذلك عن أَنسٍ ﷺ قال: «كنا عِنْدَ عُمَرَ ﷺ، فقال: نُهِينَا عن التَّكَلُّفِ». قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٧٠): «وذكر الحميدي أنه جاء في رواية أخرى عن ثابت عن أنس أن عمر قرأ ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾، فقال: ما الأب، ثم قال: ما كلفنا، أو قال: ما أمرنا بهذا».

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ١٥٦).

ثالثًا: (ثُمَّ الْمُسَارَعَةُ إِلَيهِ وَالْمُبَادَرَةِ بِهِ)، وعدم التواني وعدم التأخر، ثم (وَالْحَذَرَ عَنِ الْقَوَاطِعِ وَالْمَوَانِعِ)، أي: إذا بادرنا وامتثلنا نحذر عن الشواغل والقواطع التي تعوقنا عن امتثال ذلك الأمر.

رابعًا: (ثُمَّ بَذْلُ الْجُهْدِ وَالنُّصْحِ فِي الْإِتْيَانِ بِهِ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ)، ذلك الذي أُمرنا به نحرص على أن نبذل ما نستطيعه حتى نأتي به كاملاً كما أمرنا الله تعالى به، وأن ننصح لديننا حتى نأتي به كما أمرنا الله تعالى به.

خامسًا: (ثُمَّ فِعْلُهُ؛ لِكَوْنِهِ مَأْمُورًا بِهِ، بِحُيثُ لَا يَتَوَقَّفُ الْإِتْيَانُ بِهِ عَلَى حِكْمَتِهِ)، يقول: أفعله لأن الله أمرنا به، ولا أتوقف على معرفة الحكمة أو المصلحة بل أمتثله؛ لأن الله تعالى أمر به، وأما السؤال فإنه السؤال عن الأوامر لا عن الحكم؛ ولهذا يقولون: (شفاء العي السؤال)، أي: السؤال عن الأحكام وعن الأوامر والنواهي.

قال الشارح:

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ نَاقِلاً عَنْ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ: «فَمَنْ سَأَلَ مُسْتَفْهِمًا رَاغِبًا فِي الْعِلْمِ وَنَفْيِ الْجَهْلِ عَنْ نَفْسِهِ، بَاحِثًا عَنْ مَعْنى يَجِبُ الْوُقُوفُ فِي الدِّيَانَةِ عَلَيْهِ، فَلَا بَأْسَ بِهِ، فَشِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، وَمَنْ سَأَلَ مُتَعَنِّتًا غَيْرَ مُتَفَقِّهٍ وَلَا مُتَعَلِّمٍ، فَهُوَ الَّذِي لَا يَحِلُّ قَلِيلُ سُؤَالِهِ وَلَا كَثِيرُهُ.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِي: الَّذِي يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَشْتَغِلَ بِهِ هُوَ بَسْطُ الْأَدِلَّةِ، وَإِيضَاحُ سُبُلِ النَّظَرِ، وَتَحْصِيلُ مُقَدِّمَاتِ الْاجْتِهَادِ، وَإِعْدَادُ الْآلَةِ الْمُعِينَةِ عَلَى الْاسْتِمْدَادِ، قَالَ: فَإِنْ عَرَضَتْ لَكَ مَسْأَلَةٌ: أُتِيتَ مِنْ بَابِهَا، وَنُشِدَتَ مِنْ مَظَانِهَا، وَاللَّهُ يَفْتَحُ وَجْهَ الصَّوَابِ فِيهَا» انْتَهَى[1].

وَقَالَ ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ». رواه الترمذي[2] وغيره[3].

وَلَا شَكَّ فِي تَكْفِيرِ مَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ، وَلَكِنْ مَنْ تَأَوَّلَ حُكْمَ الْكِتَابِ لِشُبْهَةٍ عَرَضَتْ لَهُ، بُيِّنَ لَهُ الصَّوَابُ لِيَرْجِعَ إِلَيْهِ، وَهُوَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ؛ لِكَمَالِ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، لَا بِمُجَرَّدِ قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ، كَمَا يَقُولُ جَهْمُ

---

(١) تفسير القرطبي (٦/ ٣٣٣).

(٢) برقم (٢٣١٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٩٧٦)، وابن حبان (١/ ٤٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٠٣)، وأحمد (١/ ٢٠١) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

وَأَتْبَاعُهُ، وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَةُ بَيَانٍ عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَلَا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ).

قال الشيخ:

قوله: (قَالَ الْقُرْطُبِيُّ) القرطبي إمام مشهور وله كتاب التفسير الكبير الذي سماه «الجامع لأحكام القرآن».

قوله: (نَاقِلاً عَنْ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ)، ابن عبدالبر عالم مغربي له مؤلفات كثيرة ومن أكبرها كتابه «التمهيد» في شرح الموطأ، وله «جامع بيان العلم وفضله»، وهذا البحث في كتابه «التمهيد»[١].

قوله: (فَمَنْ سَأَلَ مُسْتَفْهِمًا رَاغِبًا فِي الْعِلْمِ وَنَفْيِ الْجَهْلِ عَنْ نَفْسِهِ، بَاحِثًا عَنْ مَعْنًى يَجِبُ الْوُقُوفُ فِي الدِّيَانَةِ عَلَيْهِ، فَلَا بَأْسَ بِهِ)، يتكلم ـ رحمه الله ـ عن الذي يسأل، نقول: هل سؤالك رغبة في العلم حتى تنفي الجهل عن نفسك، وتبحث عن المعنى الذي يجب الوقوف عليه ومعرفة الحكم فيه؟ فهذا سؤال جائز، بل قد يكون واجبًا على الإنسان أن يسأل عما أشكل عليه.

قال: (فَشِفَاءُ الْعَيِّ السُّؤَالُ، وَمَنْ سَأَلَ مُتَعَنِّتًا غَيْرَ مُتَفَقِّهٍ وَلَا مُتَعَلِّمٍ، فَهُوَ الَّذِي لَا يَحِلُّ قَلِيلُ سُؤَالِهِ وَلَا كَثِيرُهُ)، وقد ورد أيضًا ذم المتعنتين في بعض الأحاديث،

---

(١) (٢١/ ٢٩٢).

مثل قوله ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»[1]، ونحو ذلك.

قوله: (قَالَ ابْنُ الْعَرَبِي)، ابن العربي المفسر المشهور الذي له كتاب أحكام القرآن، وله أيضًا كتب أخرى، يقول: (: الَّذِي يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَشْتَغِلَ بِهِ هُوَ بَسْطُ الْأَدِلَّةِ)، يعني: معرفة الأدلة، (وَإِيضَاحُ سُبُلَ النَّظَرِ)، يعني: توضيح السبيل الذي تنظر فيه وجه الدلالة، (وَتَحْصِيلُ مُقَدِّمَاتِ الِاجْتِهَادِ)، حتى تكون قادرًا على الاجتهاد ومعرفة الأدلة، ومعرفة الأحكام، فإن للاجتهاد مقدمات مذكورة في كتب أصول الفقه، (وَإِعْدَادُ الْآلَةِ الْمُعِينَةِ عَلَى الِاسْتِمْدَادِ)، الآلة: إما الحصول على الكتب والمراجع، ومثلها في هذه الأزمنة الأشرطة ونحوها، وإما القدرة على الفهم، وذلك بالفهم والعقل والتعقل والتفهم ونحو ذلك.

ثم قال: (فَإِنْ عَرَضَتْ لَكَ مَسْأَلَةٌ: أُتِيتَ مِنْ بَابِهَا، وَنُشِدَتَ مَنْ مَظَانِهَا)، أي: إذا أتتك مسألة ابحث عنها في مظانها، (وَاللَّهُ يَفْتَحُ وَجْهَ الصَّوَابِ فِيهَا)، إلى هنا انتهى كلام القرطبي.

ثم استدل أيضًا بقوله ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»، وهذا حديث شريف، وهو من أحاديث الأربعين النووية التي شرحها ابن رجب ـ رحمه الله ـ في «جامع العلوم والحكم»[2] الذي شرح فيه خمسين حديثًا من جوامع الكلم، وقد وسع الكلام فيه رحمه الله.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٢٤٠).

(٢) (ص١١٣).

يقول: (وَلَا شَكَّ فِي تَكْفِيرِ مَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ)، الذين يردون حكم الكتاب عنادًا هؤلاء كفرة، وأما الذي يتأول حكم الكتاب، فيتأول بعض الآيات، أو بعض الأحاديث لشبهة عرضت له، وهذا ما يحصل لكثير من المعتزلة ومن الأشاعرة ونحوهم، ومن المبتدعة كالمتصوفة والقبوريين ونحوهم، فإنهم إذا جاءتهم بعض الأدلة يؤولونها ويحملونها على محامل بعيدة، فنقول: إن هذا الاعتراض خطأ، وإن هذا التأويل خطأ، الذي تسمونه تأويلاً وهو في الحقيقة تحريف للكلم عن مواضعه، فاعرفوا الصواب، يتبين لك الصواب، الصواب في المسألة كذا وكذا، إذا كانت من مسائل العقائد نبين له القول فيها، وإذا كانت من مسائل الأحكام الخلافية نبين له أيضًا الخلاف فيها، والصواب فيها، ومع الأسف أن كثيرًا من المجتهدين أو المقلدين يؤولون بعض الأدلة، فالحنفية إذا وردت عليهم بعض الأدلة تخالف ما رُوي في كتبهم حرصوا على أن يتكلفوا في ردها، وهذا خطأ، فالصواب واجب الرجوع إليه، والله ـ سبحانه وتعالى ـ حكيم في أمره لا يُسأل عما يفعل لكمال حكمته، قال تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣]، فلكمال حكمته ورحمته وعدله نعترف بذلك؛ لأنه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة، ولكن لا نتكلف ونسأل عن كذا وكذا.

قوله: (لَا بِمُجَرَّدِ قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ)، ليس معنى كونه لا يُسأل لمجرد قهره وقدرته، بل لأنه حكيم عليم في كل ما يأمر به.

قوله: (كَمَا يَقُولُ جَهْمٌ وَأَتْبَاعُهُ)، الجهمية يقولون: لا يُسأل عما يفعل لقهره

لا لحكمته. أما نحن فنقول: لا يُسأل عما يفعل؛ لأنه حكيم وعادل.

فهذا هو الواجب، والشارح سوف يتوسع في هذه المسألة عند قول الطحاوي: (وَلَا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ)، وكأنه يعتذر ويقول: إن الواجب أن الإنسان يرضى ويسلم بما جاءه عن الله تعالى، وأما المسائل الخلافية إذا كانت في الفروع فإننا لا نكفر بها، فكم حصل من خلافات بين الفقهاء، بين الحنفية والشافعية خلافات كثيرة، وكذلك بين الشافعية والمالكية خلافات كثيرة، ومع ذلك لم يكونوا يكفر بعضهم بعضًا، حتى سُئل الشافعي: هل نصلي خلف من يقلد مالكًا؟ فاستعظم ذلك وقال: «أو لست أصلي خلف مالك؟»، يعني: أن مالكًا هو إمامه وهو شيخه الذي استفاد منه، ومع ذلك هذه الخلافات مثل كون الشافعية يجهرون بالبسملة ويجهر بعضهم بالنية، ولم يفعل ذلك المالكية هذه من مسائلهم الاجتهادية، وكذلك بقية المسائل التي حصل فيها خلاف، أما إذا كانت عقائدية فإننا نحذر منها، مثل: مسألة زيادة الإيمان ونقصانه، أو مسألة كون الإيمان مجرد التصديق كما تقوله الحنفية اتباعًا لرواية عن الإمام أبي حنيفة، وقد أجاب عن ذلك الشارح وجعل الخلاف لفظيًا، والصحيح أنه معنوي كما هو معروف.

وبكل حال فإننا نعرف أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حكيم فيما أمر به وفيما نهى عنه، وأنه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وأن العلماء ـ رحمهم الله ـ قد تكلموا على الحِكَم والمصالح التي في الأوامر والنواهي، حتى يعرفوا ويعرّفوا أن الله تعالى ما أمر بشيء إلا وفيه مصلحة، ولا نهى عن شيء إلا وفيه مضرة، والله أعلم.

قال الطحاوي:

فَهَذَا جُملةُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَنْ هُوَ مُنَوَّرٌ قَلْبُهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّـهِ تَعَالَى، وَهِيَ دَرَجَةُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ عِلْمَانِ:

عِلْمٌ فِي الخَلْقِ مَوْجُودٌ، وعِلْمٌ فِي الخَلْقِ مَفْقُودٌ.

فَإِنْكَارُ العِلْمِ المَوْجُودِ كُفْرٌ، وادِّعاءُ العِلْمِ المَفْقُودِ كُفْرٌ، وَلَا يَثْبُتُ الْإِيمَانُ إِلَّا بِقُبُولِ الْعِلْمَ الْمَوْجُودِ، وَتَرْكِ طَلَبِ الْعِلْمِ المَفْقُودِ.

قال الشارح:

الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: (فَهَذَا) إِلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، مِمَّا يَجِبُ اعْتِقَادُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ. وَقَوْلُهُ: (وَهِيَ دَرَجَةُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ)، أَيْ: عِلْمِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، نَفْيًا وَإِثْبَاتًا.

وَيَعْنِي بِالْعِلْمِ المَفْقُودِ: عِلْمَ الْقَدَرِ الَّذِي طَوَاهُ اللَّـهُ عَنْ أَنَامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ، وَيَعْنِي بِالْعِلْمِ المَوْجُودِ: عِلْمَ الشَّرِيعَةِ، أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا.

فَمَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَمَنِ ادَّعَى عِلْمَ الْغَيْبِ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ.

قال الشيخ:

قوله: (مِمَّا يَجِبُ اعْتِقَادُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ)، أي: من أول ما ابتدأ هذه العقيدة إلى هذا الموضع؛ وكذلك ما بعد هذا الموضع إلى آخر العقيدة بكل ما جاءت به الشريعة.

ثم يقول الماتن: (وَهِيَ دَرَجَةُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ)، يعني: المتمكنين، الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران:٧]، أي: راسخون في علم ما جاء به الرسول ﷺ جملة وتفصيلاً، نفيًا وإثباتًا، متمكنين من هذا العلم؛ لأنهم حفظوه وشرحوه وفهموه وتلقوه بالقبول فيما يتعلق بالنفي؛ كالصفات السلبية مثل قوله: ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ونحو ذلك، أو إثباتيه كقوله: ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾ [طه:١١٠]، ويعني بقوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴾: العلم المفقود، وهو: (عِلْمَ الْقَدَرِ الَّذِي طَوَاهُ اللَّهُ عَنْ أَنَامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ).

قوله: (وَيَعْنِي بِالْعِلْمِ الْمَوْجُودِ: عِلْمَ الشَّرِيعَةِ)، قد ذكر الماتن أن العلم: إما علم في الخلق موجود، أو علم في الخلق مفقود، فأراد بالعلم الموجود علم الشريعة، في الأصول والفروع.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، الْآيَة. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾ [لقمان:٣٤]، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ خَفَاءِ حِكْمَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا عَدَمُهَا، وَلَا انْتِفَاؤُهَا جَهْلَنَا حِكْمَتِهِ، أَلَا تَرَى أَنَّ خَفَاءَ حِكْمَةِ اللَّـهِ عَلَيْنَا فِي خَلْقِ الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبِ وَالْفَأْرِ وَالْحَشَرَاتِ، الَّتِي لَا يُعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا الْمَضَرَّةُ، لَمْ يَنْفِ أَنْ يَكُونَ اللَّـهَ تَعَالَى خَالِقًا لَهَا، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ لَا يَكُونَ فِيهَا حِكْمَةٌ خَفِيَتْ عَلَيْنَا؛ لِأَنَّ عَدَمَ الْعِلْمِ لَا يَكُونُ عِلْمًا بِالْمَعْدُومِ.

قال الشيخ:

الآيات في إثبات العلم لله تعالى كثيرة، ومنها هـذه الآية في سورة (الجن): ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾، فقـد أخـبر تعـالى أنـه تفـرد بعلـم الغيب، ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴾، فقـد يطلع بعض رسله على بعض الأمور المغيبات التي لا يعلمها إلا هو.

ذكر الله مفـاتح الغيـب إجمـالاً بقولـه: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعـام:٥٩]، وفي آيـة (لقـمان)، جـاء فيهـا تفـصيل مفـاتح الغيـب التـي لا يعلمها إلا الله، أنها خمس:

الأول: ﴿ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾، أي: متى تقوم الساعة، لا يعلم ذلك إلا الله؛ وذلك لأنها من الأمور المستقبلة.

الثاني: ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾، فلا يعلم متى ينزل إلا الله حيث إنه من الأمور الغيبية، متى ينشئ الله السحب، متى يرسل الله الرياح، متى يصرفه ويسوقه إلى الأرض التي قدر الله أنه ينزل فيها؟ متى ينزل؟ وفي أي بلد؟ لا يعلم ذلك إلا الله.

الثالث: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾، يعني: ما تشتمل عليه أرحام النساء، وكذلك أرحام البهائم: الإبل والبقر والغنم والفيلة وسائر الحيوانات لا يدري ما في أرحامها إلا الله، هل هو واحد أو أكثر؟ هل هو حي أو ميت؟

الرابع: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾، أية نفس لا تدري ماذا يحصل لها في اليوم الذي بعد هذا اليوم، هل يحصل لها خير أو شر؟ الله تعالى هو الذي يعلم ذلك.

الخامس: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾، قريبة أو بعيدة؟ قد يكون موتها في بلد بعيد، ثم يجعل الله لها حاجة إلى ذلك البلد، فيحصل بذلك الوفيات وما أشبهها.

قوله: (وَلَا يَلْزَمُ مِنْ خَفَاءِ حِكْمَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا عَدَمُهَا)، أي: لا يلزم إذا خفيت علينا حكمة الله أن تكون معدومة، بل لله تعالى حكمة وإن كانت خافية علينا.

قوله: (وَلَا انْتِفَاؤُهَا جَهْلَنَا حِكْمَتِهِ)، أي: ولا يلزم إذا جهلنا انتفاء الحكمة أن تكون منتفية ليس هناك حكمة، بل لله تعالى حكمة في كل شيء، حتى في خلق

الدواب الضارة، نعلم أن الله تعالى هو الذي خلق الحيات والعقارب والفأر والحشرات والذباب والبعوض ونحو ذلك، وكذلك الذئاب والسباع والأسود وما أشبهها، الله هو الذي خلقها، ونحن نقول: إن فيها مضرة، ولكن قد يكون فيها حكم لا يعلمها إلا الله، فالله تعالى حكيم عندما خلقها وخلق غيرها من الشرور والسموم وما أشبه ذلك، فكوننا لا نعلم منها إلا المضرة، لا ينفي أن يكون الله تعالى هو خالقها، ولا ينفي أن يكون فيها حكمة ومصلحة عظيمة، ولا يلزم أن لا يكون فيها حكمة خفيت علينا، فلله تعالى حكم كثيرة في كل المخلوقات، وفي الحشرات، ونحو ذلك، فعدم العلم بالشيء لا يكون علمًا بأنه معدوم.

قال الطحاوي:

وَنُؤْمِنُ بِاللَّوْحِ وَالْقَلَمِ، وَبِجَمِيعِ مَا فِيهِ قَدْ رُقِمْ.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ[1] بِسَنَدِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، صَفَحَاتُهَا مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، قَلَمُهُ نُورٌ، وَكِتَابُهُ نُورٌ، لِلَّهِ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سُتُّونَ وَثَلَاثُ مِئَةِ لَحْظَةٍ، يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيُمِيتُ وَيُحْيِي، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيَفْعَلُ مَا يَشَاؤُهُ».

اللَّوْحُ الْمَذْكُورُ: هُوَ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ فِيهِ، وَالْقَلَمُ الْمَذْكُورُ: هُوَ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ وَكَتَبَ بِهِ فِي اللَّوْحِ الْمَذْكُورِ الْمَقَادِيرَ، كَمَا فِي سُنَنِ أَبِي دَاودَ[2]، عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

---

(١) في الكبير برقم (١٢٥١١)، ورواه موقوفًا على ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بنحو هذا اللفظ من طريق أخرى برقم (١٠٦٠٥).

(٢) برقم (٤٧٠٠)، وأخرجه الترمذي (٢١٥٥)، وأحمد (٥/ ٣١٧).

قال الشيخ:

ذكر الطحاوي هنا أن من عقيدة أهل السنة الإيمان بأن الله تعالى خلق اللوح والقلم، وأنه كتب فيه ورقم فيه مقادير المخلوقات.

أقول: نؤمن بأن الله تعالى هو خالق كل شيء، وأنه خلق اللوح الذي كتب فيه هذه المخلوقات، من أول ما يكون في الدنيا إلى آخرها، ويُسمى (أم الكتاب)، قال الله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩]، فأم الكتاب هو: اللوح المحفوظ، وكل شيء مكتوب فيه، كل كلام بني آدم من أول الدنيا إلى آخرها قد كتبه الله في ذلك اللوح، ثم وكل الملائكة أن يكتبوا الموجودات، يُكتب عمل كل إنسان، وتُكتب أقواله، وإذا عُرضت يوم القيامة محا الله منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب، وأثبت ما فيه حسنات أو سيئات،كما قال: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، وأصول ذلك موجودة في اللوح المحفوظ الذي ذكره الله، وهو أم الكتاب.

وفي هذا الحديث عند الطبراني ـ رحمه الله ـ: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ**»، لا يعلم قدر هذا اللوح إلا الله، وذكر أنه من در، وكونه من الدر يدل على نفاسته، «**صَفَحَاتُهَا مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاء**»، يعني: طرفاه وحافتاه، وذكر أن «**قَلَمُهُ نُورٌ**»، أي: القلم الذي كتب به، وفي رواية: «**وَعَرْضُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**»، مقدار ما بين السماء والأرض خمسمائة سنة هذا عرضه فكيف بطوله؟! قال: «**لِلَّهِ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سُتُّونَ وَثَلَاثُ مِئَةِ لَحْظَةٍ**»، أي: عدد أيام السنة، وبكل نظرة يخلق ما في

هذا اللوح: «يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيُمِيتُ وَيُحْيِي، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيَفْعَلُ مَا يَشَاؤُهُ»، وهذا دليل على عظمة هذا اللوح، وكذلك عظمة الرب تعالى الذي هو خالق كل شيء.

قوله: (اللَّوْحُ المَذْكُورُ: هُوَ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ فِيهِ)، أي: ما هو كائن إلى يوم القيامة، كل شيء مكتوب في ذلك اللوح: الكلام والأعمال والبشر، وعدد المخلوقات وعدد الحيوانات وكلها.

وفي حديث عبادة ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»[1]، وفي رواية: «قال: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هو كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[2]، فنحن نؤمن بهذا اللوح ونؤمن بهذا القلم.

(١) تقدم قريبًا.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٨١).

قال الشارح:

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ: هَلِ الْقَلَمُ أَوَّلُ الْمَخْلُوقَاتِ، أَوِ الْعَرْشُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، ذَكَرَهُمَا الْحَافِظُ أَبُو الْعَلَاءِ الْهَمَدَانِي، أَصَحُّهُمَا: أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلَ الْقَلَمِ؛ لِمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ»[1] مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدَّرَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

فَهَذَا صَرِيحٌ أَنَّ التَّقْدِيرَ وَقَعَ بَعْدَ خَلْقِ الْعَرْشِ، وَالتَّقْدِيرَ وَقَعَ عِنْدَ أَوَّلِ خَلْقِ الْقَلَمِ، بِحَدِيثِ عِبَادَةَ ﷺ هَذَا، وَلَا يَخْلُو قَوْلُهُ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ» إِلَى آخِرِهِ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ جُمْلَةً أَوْ جُمْلَتَيْنِ: فَإِنْ كَانَ جُمْلَةً -وَهُوَ الصَّحِيحُ- كَانَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ عِنْدَ أَوَّلِ خَلْقِهِ قَالَ لَهُ: «اكْتُبْ»؛ كَمَا فِي اللَّفْظِ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ» بنصب (أَوَّلَ) و(الْقَلَمَ).

وَإِنْ كَانَ جُمْلَتَيْنِ، وَهُوَ مَرْوِيٌّ بِرَفْعِ (أَوَّلُ) وَ(الْقَلَمُ)، فَيَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَى أَنَّهُ أَوَّلُ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ، فَيَتَّفِقُ الْحَدِيثَانِ؛ إِذْ حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْعَرْشَ سَابِقٌ عَلَى التَّقْدِيرِ، وَالتَّقْدِيرُ مُقَارِنٌ لِخَلْقِ الْقَلَمِ.

وَفِي اللَّفْظِ الْآخَرِ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ».

فَهَذَا الْقَلَمُ أَوَّلُ الْأَقْلَامِ وَأَفْضَلُهَا وَأَجَلُّهَا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣) بلفظ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قبل أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قال: وَعَرْشُهُ على الْمَاءِ».

وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ(١): إِنَّهُ الْقَلَمُ الَّذِي أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم:١].

وَالْقَلَمُ الثَّانِي: قَلَمُ الْوَحْيِ: وَهُوَ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ وَحْيُ اللَّهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَأَصْحَابُ هَذَا الْقَلَمِ هُمُ الْحُكَّامِ عَلَى الْعَالَمِ، وَالْأَقْلَامُ كُلُّهَا خَدَمٌ لِأَقْلَامِهِمْ. وَقَدْ رُفِعَ النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى مُسْتَوَى يَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ(٢)، فَهَذِهِ الْأَقْلَامُ هِيَ الَّتِي تَكْتُبُ مَا يُوحِيهِ اللَّهُ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُدَبِّرُ بِهَا أَمْرَ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ.

قال الشيخ:

هكذا ذكر العلماء هذا الاختلاف، هل القلم أول المخلوقات أو العرش أول المخلوقات؟ فيه قولان، ذكرهما أبو العلاء الهمداني، أصحهما أن العرش قبل القلم، وأشار إلى ذلك ابن القيم ـ رحمه الله ـ في النونية(٣)، فيقول فيها:

وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي الْقَلَمِ الَّذِي ... كُتِبَ الْقَضَاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ
هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هُوَ بَعْدَهُ ... قَوْلَانِ عِنْدَ أَبِي الْعَلَاءِ الْهَمَدَانِي

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ١٦)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٢)، والتبيان في أقسام القرآن (ص١٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث ابن عباس وأبي حبة الأنصاري رضي الله عنهم.

(٣) انظر النونية مع شرح ابن عيسى (١/ ٣٧٧).

وَالحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلُ لِأَنَّهُ قَبْلَ الْكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَرْكَانِ

فرجح كما رجح الشارح هنا أن العرش قبل المخلوقات كلها، وأن العرش قبل القلم، واستدل بهذا الحديث عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قَدَّرَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ،وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ**»، والتقدير هاهنا هو كتابة مقادير المخلوقات، وهذا التقدير قبل خلق السَّمَوَاتِ والأرض، ولكن كان بعد خلق العرش، وكان عرشه على الماء، وقد دل على ذلك أيضًا قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾[هود:٧].

وسُئل ابن عباس - رضي الله عنهما -: على أي شيء الماء؟ فقال: «على متن الريح»(١)، فدل على أن هذا الماء مخلوق، وأن الريح مخلوقة، وأن العرش مخلوق، ويمكن أن يكون العرش قد أمسكته قدرة الله، وإن لم يكن معتمدًا على شيء قبل الماء وقبل الريح ونحو ذلك، فالله تعالى قدر مقادير الخلائق، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ قبل خلق هذه الأجرام العلوية والسفلية التي هي السَّمَوَاتِ والأرض بخمسين ألف سنة، ليس بسنة ولا بعشر سنين ولا بألف سنة، بل بخمسين ألف سنة، فهذا الحديث صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش، يعني: أن العرش كان موجودًا عند تقدير مقادير الخلائق، والتقدير وقع أول

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥/ ٩٠)، والطبري (١٢/ ٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٠٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٨)، والحاكم (٢/ ٣٣٧) وصححه.

خلق القلم، عندما خلق الله القلم أمره فكتب؛ لهذا الحديث.

أما قوله في حديث عبادة ﷺ:أن النبي ﷺ قال: «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ»، فهل هذا جملة أو جملتان؟ إذا كان جملة ـ وهذا هو الصحيح ـ فلا دلالة فيه على أن القلم سابق للعرش؛ لأن المعنى: (أَنَّهُ عِنْدَ أَوَّلِ خَلْقِهِ قَالَ لَهُ:«اكْتُبْ»)، أي: أول ما خلقه الله قال له: اكتب، فيكون النصب فيهما، والتقدير: أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، يعني: ساعة ما خلق القلم قال له: اكتب، ولا يدل على أنه سابق لخلق العرش، بل إنه أَمَرَه الله عند أول خلقه، هذا إذا كان جملة واحدة: «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ،قَالَ لَهُ: اكْتُبْ». هذا هو الصحيح، أي أنه عند أول خلقه أُمر أن يكتب، وجاء في الرواية الأخرى:«إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ:اكْتُبْ»، أي: إن أول أمره أُمر بأن يكتب بنصب (أَوَّلَ) و(الْقَلَمَ).

أما إن كان جملتين، فالتقدير: أولُ ما خلقَ اللهُ القلمُ، فقال له: اكتب، يكون برفع (أولُ) و(القلمُ)، فيكون (أولُ) مبتدأ و(القلمُ) خبر، أي: أول شيء خلقه الله هو القلم، وعلى هذا (فَيَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَى أَنَّهُ أَوَّلُ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ)، أي: من هذا العالم المشاهد الذي هو السَّمَوَاتِ وما فيهن وما بينهما، لا أنه سابق للعرش. (فَيَتَّفِقُ الْحَدِيثَانِ؛ إِذْ حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْعَرْشَ سَابِقٌ عَلَى التَّقْدِيرِ)، الذي هو كتابة المخلوقات، وكتابة اللوح، (وَالتَّقْدِيرُ مُقَارِنٌ لِخَلْقِ الْقَلَمِ)، ساعة ما خُلق القلم أُمر بأن يكتب مقادير الخلائق، ولكن العرش سابق على التقدير.

وقد جاء في رواية أخرى: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ»، فهو صريح

بأنه ليس هو أول المخلوقات، وإنما هو الذي أُمر بأن يكتب عندما خلقه، لما خلقه قال له: اكتب.

قوله: (فَهَذَا الْقَلَمُ أَوَّلُ الْأَقْلَامِ وَأَفْضَلُهَا وَأَجَلُّهَا)، أي: الذي كتب الله به مقادير الخلائق.

قوله:(وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ: إِنَّهُ الْقَلَمُ الَّذِي أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾)، أقسم الله بالنون، وأقسم بالقلم، وأقسم بما يسطرون.

قوله: (وَالْقَلَمُ الثَّانِيُّ: قَلَمُ الْوَحْيِّ: وَهُوَ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ وَحْيُّ اللَّهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ) يعني: الذي يكتب به الملائكة وحي الله إلى أنبيائه ورسله.

قوله: (وَأَصْحَابُ هَذَا الْقَلَمِ) الذي هو قلم الوحي،

قوله: (هُمُ الْحُكَّامِ عَلَى الْعَالَمِ)، أي: الملائكة الذين ذكرهم الله بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، هؤلاء الذين يكتبون وحي الله، ويكتبون كلام عباد الله، (وَالْأَقْلَامُ كُلُّهَا خَدَمٌ لِأَقْلَامِهِمْ).

وفي حديث الإسراء يقول ﷺ: «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ»[1]، يعني: رُفع إلى ما فوق السَّمَوَاتِ السبع فسمع صريف

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٣٥).

الأقلام، يعني صريف كتابتها، فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله - تبارك وتعالى - من الأمور التي يدبرها، من أمر العالم العلوي والسفلي، وقيل: إنها التي تكتب أمور بني آدم في صحفهم في قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤]، كل ذلك ممكن، ولكن يظهر مما ذكره الشارح أن المراد أقلام الملائكة الذين يكتبون تدبير الخلائق وما هو حادث، وما يمكن أن يحدث.

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قال الطحاوي:

فَلو اجْتَمَعَ الخَلْقُ كُلُّهم عَلَى شَيْءٍ كَتبَهُ اللَّـهُ تعالى أَنَّه كَـائِنٌ، لِيجْعلُوهُ غَيْرَ كَائِن، لَمْ يَقْدرُوا عَلَيْهِ، وَلَو اجْتَمعُوا كُلُّهُم عَلَى شَيْءٍ كَتبَهُ اللَّـهُ تَعَالَى فِيهِ أَنَّهُ غَيْرِ كَائِنٍ لِيَجْعَلُوهُ كَائِنًا، لَمْ يَقْدرُوا عَلَيْه، جَفَّ القَلَمُ بمَا هُوَ كَائِنٌ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ.

قال الشارح:

تَقَدَّمَ حَدِيثُ جَابِرٍ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ، قَالَ: «جَاءَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ، فقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّـهِ بَيِّنْ لنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا الآنَ فِيمَ الْعَمَلُ الْيَوْمَ؟ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلامُ وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ، أَمْ فِيمَا نَسْتَقْبِلُ؟ قَالَ: لاَ، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلامُ وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ»[1].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ: «كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلامُ أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّـهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّـهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّـهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّـهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّـهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّـهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». رواه الترمذي[2]، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٣٨).

(٢) برقم (٢٥١٦).

وَفِي رِوَايَةِ غَيْرِ التِّرْمِذِي[(١)]: «احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وما أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مع الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مع الْكَرْبِ، وَأَنَّ مع الْعُسْرِ يُسْرًا».

قال الشيخ:

يتكلم الشارح ـ رحمه الله ـ هنا على المقادير السابقة، وفي ذلك رد على غلاة القدرية الذين ينكرون العلم السابق، فينكرون أن الله يعلم الأشياء قبل أن توجد، ويقولون: إن الأمر أنف. يعني: أنه مستأنف، وأن جميع هذه الموجودات لا يعلمها حتى توجد، وكان أول من قال ذلك معبد الجهني وغيلان الدمشقي، اشتهرا بهذا القول الذي هو إنكار علم الله السابق، فينكرون أن الله يعلم الأشياء قبل أن توجد مع أنه هو الذي أوجدها ، والذي قدر أوقاتها وحددها، والذي كتب في اللوح المحفوظ كل ما هو كائن مما يحدث في الأمور المستقبلة، وقد ذكر العلماء أن التقدير أربعة أقسام:

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (١/ ٢١٤)، والطبراني في الكبير (١١٢٤٣)، والحاكم (٣/ ٥٤٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٠٣). قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص١٨٤): «رواه عبد بن حميد في مسنده بإسناد ضعيف». وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٦٦): «رواه عبد بن حميد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ رفعه ... وذكره مطولاً بسند ضعيف، ورواه أحمد، والطبراني، وغيرهما بسند أصح رجالًا وأقوى».

التقدير الأول: التقدير العام، وهو: الذي كُتب في اللوح المحفوظ، كتابة ما هو كائن من جميع الحوادث والأقوال.

التقدير الثاني: التقدير السنوي، الذي يكون في ليلة القدر إلى مثلها، بمعنى: أن الملائكة يكتبون بأمر الله تعالى في تلك السنة ما هو كائن إلى مثلها؛ ولذلك سميت ليلة القدر، أي: ليلة التقدير على هذا القول، مع أن ذلك مكتوب قبلهم أو موجود في اللوح المحفوظ، ولكن يكتبونه حتى يوافق ما يحدث.

التقدير الثالث: التقدير العمري، وهو: الذي يأمر الله الملك أن يكتب على الإنسان وهو في الرحم ما هو عامله إذا قدر الله تعالى أنه سيحيا، يأمر الله تعالى الملك أن يكتب أربع كلمات، وهي: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد[1]، هذا تقدير خاص لكل فرد في حياته من أول ما يولد إلى أن يخرج من الدنيا.

والتقدير الرابع: اليومي، التي هي حوادث كل يوم، وهي المذكورة في قول الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن:٢٩].

فالمقادير المستقبلة قد علمها الله تعالى، كما قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في الواسطية[2]: «وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَينِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ، فَالدَّرَجَةُ الأُولَى: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِالْخَلْقِ، وَهُمْ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلاً وَأَبَدًا». يعني: العلم القديم الذي هو صفته.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٣٩).

(٢) (ص٣٥).

في حديث سراقة بن مالك بن جعشم ﵁، قال: (يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيِّنْ لَنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا الآنَ)، أي: بين لنا حتى نعرف كأننا خلقنا الآن (فِيمَ الْعَمَلُ الْيَوْمَ؟)، أي: في أي شيء عملنا الآن؟ (أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلامُ وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ)، يعني: أننا نعمل أشياء قد كُتبت علينا وقد قُدرت علينا؟ (أَمْ فِيمَا نَسْتَقْبِلُ؟)، يعني: أننا نستقبل أشياءً ما كُتبت وإنما نحن الذين نخلقها؟ فقال ﷺ: «لاَ، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلامُ وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ» فأخبر ﷺ بأن أعمال البشر مقدرة قبل أن يوجدوا، وأن الأقلام قد كتبت ذلك وجفت يعني يبست، وأن المقادير قد قُدرت.

وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو أحد الأربعين النووية، يقول ﵁: (كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا)، أي: كأنه يمشي وراءه أو قريبًا منه، فعلمه بهذه الكلمات فحفظها، ناداه بقوله: «يَا غُلامُ»، وذلك لأنه كان شابًا يافعًا، يعني: عمره قريب من ثلاثة عشر عامًا، ولكنه كان ذكيًا قوي الذاكرة، فقال له ﷺ: «أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ» يعني: أرشدك إلى هذه الكلمات:

الجملة الأولى: قال: «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ»، تكلم العلماء على كيفية حفظ الله، فبينوا أن المراد حفظ أوامره ونواهيه، وحفظ حدوده، وحفظ كلامه، وما أشبه ذلك، وأن من حفظ الله حفظه الله، أي: من حفظ حدود الله وحفظ أوامره ونواهيه فإن الله تعالى يحفظه من المكاره، ولو كادته السَّمَوَاتِ والأرض، والله تعالى قد قدر أنه ينجو لما قدروا عليه، هذا معنى «يَحْفَظْكَ»، أي: يحفظك الله تعالى من كيد الكائدين.

الجملة الثانية: قال: «احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ»، عرفنا أن حفظ الله حفظ

أوامره ونواهيه، وذكر أن من حفظ الله وجد هذا الحفظ، «تُجَاهَكَ» يعني: أمامك، كما في رواية، أي: تجد هذا، فأجر حفظك لله تجده أمامك في الآخرة، أي تجد ثوابه وتجد فعله وأن الله تعالى يثيبك عليه.

الجملة الثالثة: قال: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ»، أي: لا تسأل غير الله، بل سل الله كل شيء، فاسأل ربك كل ما أنت محتاج إليه، والله تعالى قال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦]، فمعنى ذلك: لا تسأل غير الله، بل أسأل ربك كل شيء أنت بحاجة إليه؛ ولذلك قال بعض الشعراء[(١)]:

لَا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْجَبُ
اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسْئَلُ يَغْضَبُ

أي: أن الإنسان إذا كررت سؤاله فإنه يغضب منك ويمل، أما الله تعالى فإنه يحب السائلين ويعطيهم ويجيبهم ويثيبهم، وفي الحديث: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»[(٢)].

(١) ذكر هذين البيتين أبو سليمان الخطابي في كتابه «العزلة» (ص٦٧) وعزاهما إلى الخزيمي.
(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٢٩)، والترمذي (٣٣٧٣)، وأحمد (٢/ ٤٤٢)، والحاكم (١/ ٤٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وانظر: فتح الباري (١١/ ٩٥)، وتهذيب التهذيب (١٢/ ١٤٥)، وقال ابن كثير في تفسيره لسورة غافر آية (٦٠): «تفرد به أحمد، وهذا إسناد لا بأس به».

الجملة الرابعة: قال: «وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»، الاستعانة: طلب العون، والله تعالى يعين عباده، كما في قول الله تعالى: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١١٢]، وفي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، أي: لا تستعن إلا بالله، بل استعن بالله على أمورك وعلى عباداتك حتى يعينك عليها، وعلى معاملاتك، وعلى مكاسبك، وعلى أهلك، وعلى أولادك،وعلى جميع ما أنت بحاجة إليه، تسأل الله أن يعينك عليه، فإذا أعانك فإنه يسهل عليك كل عسير، وإذا لم يعنك صعبت عليك الأمور ولو كنت ذا علم وذا حذق وذا قوة.

الجملة الخامسة: هذه الجملة تتعلق بالقدر، أي: بعلم الله السابق وبالحوادث، قال: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ»، الله تعالى كتب ما هو كائن، كتب رزقك قبل أن يخلق المخلوقات، ثم كتبه كتابة ثانية وأنت في الرحم، فالخلق كلهم لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء -أي: بعطاء أو بنفع أو بمال أو نحو ذلك- لم ينفعوك إلا بأشياء قد كتبها الله لك، وقدر أنها تأتي إليك على أيديهم،كذلك «وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ» أي: لا إذا قدر الله تعالى حمايتك وحفظك لم يصلوا إلى أي ضرر يريدون أن يضروك به، بل يردهم الله.

ويجب أن نعرف أن هذا لا ينافي فعل الأسباب التي جعلها الله تعالى أسبابًا، فالإنسان لا يجلس في بيته ويقول: يأتيني رزقي ويدخل عليَّ من وراء الأبواب

ومن وراء الحيطان، بل يؤمر بأن يتسبب، وهذه الأسباب قد كتبها الله وجعلها أسبابًا، فالأسباب التي أُمرت بها أسباب للرزق الذي كتبه الله لك وأنت في الرحم أو قبل أن يخلق الدنيا، فكتب الأسباب، وكتب ثمرتها، وكتب مزاولتك لها، وأمرك بأن تزاولها، كذلك أيضًا أنت مأمور بأن تتقي الشرور وأن تتقي أسباب الضرر؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل:٨١]، فهذه من أسباب الوقاية التي جعلها الله تعالى أسبابًا، يعني: هذه الدروع التي يلبسها المقاتل لا ترد من قدر الله شيئًا، ولكن جعلها الله تعالى أسبابًا، فالأمة لا يفعلون إلا شيئًا قد كتبه الله وقدره على عباده، لو اجتمعوا على إنسان ليضروه والله تعالى قد قدر أنهم لا يضرونه لم يصلوا إليه، ولا يضرونه إلا بشيء قد كتبه الله.

ثم قال: «رُفِعَتِ الأَقْلَامُ» التي تكتب المقادير، «وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» أي: يبست الحروف التي كُتبت في هذه الصحف، وفُرغ من الأمر، هذا حد رواية الترمذي، وقد رواه غير الترمذي كالإمام أحمد(١) وغيره، وفيه زيادة: «احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ»، هذا بمعنى: «احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ»، أي: تجد ثواب هذا الحفظ أمامك عند الله تعالى.

---

(١) في المسند (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧) من عدة طرق.

ثم قال: «تَعَرَّفْ إِلَى اللَّـهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ» مادمت في سعة وفي رخاء فعليك أن تتعرف إلى الله، بمعنى أنك تعمل الأعمال الصالحة حتى تكون معروفًا بها عند الله، وكذلك معروفًا أيضًا عند الملائكة الذين يكتبون أعمالك، ومعروفًا أيضًا عند أهل السَّمَوَاتِ حيث تصعد أعمالك إلى السَّمَوَاتِ، فيقول: إذا كنت في الرخاء وفي السعة فأكثر من الأعمال الصالحة، حتى إذا دعوت الله تعالى في شدة فإنه يعرفك، يعني: يجيبك ويعطيك، كما حصل ليونس ـ عليه السلام ـ لما أُلقي في البحر والتقمه حوت كبير، فدعا ربه وهو في بطن الحوت، قال: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]، وفي بعض الآثار أن الملائكة قالوا: يا رب هذا صوت ضعيف معروف في بلاد غريبة، قال: «أَمَا تَعْرِفُونَ ذَلِكَ؟» قالوا: يا رب، ومن هو؟ قال: «ذَلِكَ عَبْدِي يُونُسَ»، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يُرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة! قالوا: يا رب، أَوَلا يُرحم بما كان يصنع في الرخاء، فتنجيه من البلاء؟ قال: «بَلَى»، فأمر الحوت فطرحه بالعراء[1]، فهذا معنى «يَعْرِفُكَ فِي الشِّدَّةِ».

كذلك يقول: «وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وما أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ»، وهذا معنى ما ذكر، «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ١٠٠)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٢٨)، والطبراني في الدعاء (ص٣٥) من حديث أنس ﷺ.

يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ»، فالذي أخطأك لم يُكتب أنه سوف يصيبك، والذي أصابك وحصل عليك مكتوب عليك ولا يخطئك، ومع ذلك أنت مأمور بالتحفظ، وأنت مأمور بفعل الأسباب التي تقيك الأشياء، فإذا ابتعدت عن الأخطار كان ذلك سببًا مكتوبًا عليك، إذا تعرضت للأخطار وأُصِبت وتعاطيت الأسباب التي توقعك في شر فإن ذلك يعتبر خطأ ويعتبر تهورًا.

ثم يقول: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مع الصَّبْرِ»، الصبر: هو الصبر على المصائب وما أشبهها، والصبر على المحن ونحو ذلك، والصبر أيضًا عند القتال، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾ [الأنفال:٤٥]،أي: اصبروا، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، فإذا صبروا نصرهم الله، وكذلك أيضًا كل من صبر ظفر، يعني: صبر على طاعة الله فإن الله تعالى يثيبه، صبر نفسه يعني حبسها عن المعاصي فإن الله تعالى يثيبه، صبر على المكاره وصبر على المصائب فإن الله تعالى ينصره ويثيبه.

يقول: «وَأَنَّ الْفَرَجَ مع الْكَرْبِ» أي: إذا أصابك كرب فارتقب وانتظر أن يأتيك الفرج من الله، كما قال بعضهم[1]:

عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِنَّهُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرُ

---

(١) ذكر هذه الأبيات ابن حبان في روضة العقلاء (ص١٥٩) ونسبها إلى المنتصر بن بلال الأنصاري.

عَسَى مَا تَرَى أَنْ لَا يَدُومَ وَأَنْ تَرَى ... لَهُ فَرَجًا مِمَّا أَلَحَّ بِهِ الْعُسْرُ
إِذَا اشْتَدَّ عُسْرٌ فَارْجُ يُسْرًا فَإِنَّهُ ... قَضَى اللَّهُ أَنَّ الْعُسْرَ يَتْبَعُهُ الْيُسْرُ

فإذا حصل الكرب ودعا العبد ربه فإن الله يفرج الكروب ويزيل الشدائد عن بعض الذين يرغبون إليه وإن كان قد يبتليهم ببعض المصائب وما أشبهها.

يقول: «وَأَنَّ مع الْعُسْرِ يُسْرًا»، العسر: يراد به الشدائد، فإذا نزلت الشدائد بالإنسان أعقبها الله تعالى باليسر، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وجاء قوله ﷺ: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»(١)، ولعله يشير إلى قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥، ٦]، فإن العسر في الآيتين معرف فهو شيء واحد، وأما اليسر فإنه مُنَكَّر، فيدل على أن هناك يسران، فهذا معنى قوله: «وَأَنَّ مع الْعُسْرِ يُسْرًا»، فمتى حصل العسر فإن الله تعالى يعقبه باليسر، وقد قضى الله أن العسر يتبعه اليسر.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٣٨٠)، والطبري (٣٠/ ٢٣٥، ٢٣٦)، والحاكم (٢/ ٥٢٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٠٦) من حديث الحسن البصري مرسلاً، وله شاهد موقوف على عمر ﷺ، أخرجه مالك في الموطأ (٩٦١)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢٢٢)، والحاكم (٢/ ٣٠١) وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٠٥).

قال الشارح:

وَقَدْ جَاءَتِ الْأَقْلَامُ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَغَيْرِهَا مَجْمُوعَةً، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ لِلْمَقَادِيرِ أَقْلَامًا غَيْرَ الْقَلَمِ الْأَوَّلِ، الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مَعَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ. وَالَّذِي دَلَّتْ عَلَيهِ السُّنَّةُ أَنَّ الْأَقْلَامَ أَرْبَعَةٌ - وَهَذَا التَّقْسِيمُ غَيْرُ التَّقْسِيمِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ -:

الْقَلَمُ الْأَوَّلُ: الْعَامُ الشَّامِلُ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهُوَ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مَعَ اللَّوْحِ.

الْقَلَمُ الثَّانِي: خَبَرُ خَلْقِ آدَمَ، وَهُوَ قَلَمٌ عَامٌ أَيْضًا، لَكِن لِبَنِي آدَمَ، وَرَدَ فِي هَذَا آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ وَأَرْزَاقَهُمْ وَآجَالَهُمْ وَسَعَادَتَهُمْ، عُقَيبَ خَلْقِ أَبِيهِمْ.

الْقَلَمُ الثَّالِثُ: حِينَ يُرْسَلُ الْمَلَكُ إِلَى الْجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، كَمَا وَرَدَ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ[1].

الْقَلَمُ الرَّابِعُ: الْمَوْضُوعُ عَلَى الْعَبْدِ عِنْدَ بُلُوغِهِ، الَّذِي بِأَيْدِي الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ، الَّذِينَ يَكْتُبُونَ مَا يَفْعَلَهُ بَنُو آدَمَ، كَمَا وَرَدَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

قال الشيخ:

هكذا جاء تقسيم هذه الأقلام أنها أربعة، وقد تقدم أن هناك قلمان، وهذه

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٤٩).

الأقلام الأربعة غير القلمين الأولين، الله تعالى ذكر: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:١]، ولكن يُراد بذلك هذه الأقلام التي تكتب هذه الأعمال، فالأقلام جاءت في هذه الأحاديث في قوله: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ» ونحو ذلك، دل على أن المقادير لها أقلام غير القلم الأول الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ.

والذي دلت عليه السنة بتتبع الأدلة أن الأقلام أربعة، وأن تقسيمها إلى أربعة غير التقسيم المتقدم إلى قسمين.

قوله: (الْقَلَمُ الْأَوَّلُ: الْعَامُ الشَّامِلُ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ)، وهو الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ، الذي هو أول ما خلق الله وأمره أن يكتب ما هو كائن.

قوله: (الْقَلَمُ الثَّانِيُّ: خَبَرُ خَلْقِ آدَمَ، وَهُوَ قَلَمٌ عَامٌ أَيْضًا، لَكِن لِبَنِي آدَمَ، وَرَدَ فِي هَذَا آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ وَأَرْزَاقَهُمْ وَآجَالَهُمْ وَسَعَادَتَهُمْ، عُقَيبَ خَلْقِ أَبِيهِمْ)، ولعل من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾[الأعراف:١٧٢]، ونحو ذلك، وما ثبت أيضًا من قوله ﷺ: «أَخَذَ اللهُ الْمِيثَاقَ من ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ - يَعْنِي: عَرَفَةَ - فأخرج من صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا، فَنَثَرَهُمْ بين يَدَيْهِ كَالذَّرِّ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلاً، قال: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قالوا: بَلَى شَهِدْنَا...»(١)، يعني: استنطقهم،

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٠٣).

فشهدوا على أن الله هو ربهم، وهو الذي خلقهم.

فلما خلق الله تعالى آدم أخرج ذريته، وكتب على كل فرد من أول الدنيا إلى آخرها ما هو عامل، وفي بعض الروايات: «وَجَعَلَ بين عَيْنَيْ كل إِنْسَانٍ منهم وَبِيصًا من نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ على آدَمَ، فقال: أَيْ رَبِّ من هَؤُلاءِ؟ قال: هَؤُلاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلاً منهم فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ ما بين عَيْنَيْهِ، فقال: أَيْ رَبِّ من هذا؟ فقال: هذا رَجُلٌ من آخِرِ الأُمَمِ من ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ له: دَاوُدُ...»[1] إلى آخر القصة.

القلم الثالث: خاص بكل إنسان (حِينَ يُرْسَلُ الْمَلَكُ إِلَى الْجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ)، وذلك بعد الأربعين الثالثة، (وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ)، هكذا ورد في حديث ابن مسعود ﷺ، وغيره من الأحاديث الكثيرة التي أوردها ابن رجب ـ رحمه الله ـ في «جامع العلوم والحكم»[2] في شرح هذا الحديث، وأنه يُكتب ذلك وهو في بطن أمه، وذلك لا ينافي أنه مكتوب قبل أن يُخلق، وقبل خلق المخلوقات، وإنما هذه كتابة جديدة حينما يُرسل الملك إلى الجنين ويكتب ما هو كائن وما هو عامل.

القلم الرابع: (الْمَوْضُوعُ عَلَى الْعَبْدِ عِنْدَ بُلُوغِهِ)، في حديث أنه ﷺ قال: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبَرَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٠٥).

(٢) (ص٤٦ وما بعدها).

حَتَّى يَعْقِلَ أَوْ يُفِيقَ»[(١)]. هذا يُسمى (قلم التكليف)، فإذا بلغ العبد وُضِع عليه هذا القلم الذي هو قلم التكليف، بمعنى أنه يصير من الذين تكتب الملائكة أعمالهم في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾ [الانفطار:١٠، ١١]، أي: الملائكة الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم، فإذا بلغ العبد وكُلِّف فعند ذلك يتولى الملائكة كتابة أعماله كما في قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦]، وقوله: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨]، أي: يكتبون كل ما يتلفظ به.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٩٨)، والنسائي (٥٥٩٦)، وابن ماجه (٢٠٤١)، وأحمد (٦/ ١٠١)، والحاكم (٢/ ٥٩) وصححه، من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال الشارح:

وَإِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ أَنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَالْوَاجِبُ إِفْرَادُهُ سُبْحَانَهُ بِالْخَشْيَةِ وَالتَّقْوَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤]، ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠]، ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة:٤١]، ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور:٥٢]، ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦]، وَنَظَائِرُ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ.

وَلَابُدَّ لِكُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَتَّقِيَ أَشْيَاءَ، فَإِنَّهُ لَا يَعِيشُ وَحْدَهُ، وَلَوْ كَانَ مَلِكًا مُطَاعًا، فَلَابُدَّ أَنْ يَتَّقِيَ أَشْيَاءَ يُرَاعِي بِهَا رَعِيَّتَهُ، فَحِينَئِذٍ فَلَا بُدَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَتَّقِيَ، فَإِنْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ اتَّقَى الْمَخْلُوقَ، وَالْخَلْقُ لَا يَتَّفِقُ حُبُّهُمْ كُلُّهُمْ وَبُغْضُهُمْ، بَلِ الَّذِي يُرِيدُهُ هَذَا يُبْغِضُهُ هَذَا، فَلَا يُمْكِنُ إِرْضَاؤُهُمْ كُلُّهُمْ، كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ ﷺ: «رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ، فَعَلَيْكَ بِالْأَمْرِ الَّذِي يُصْلِحُكَ فَالْزَمْهُ، وَدَعْ مَا سِوَاهُ فَلَا تُعَانِهِ، فَإِرْضَاءُ الْخَلْقِ لَا مَقْدُورٌ وَلَا مَأْمُورٌ، وَإِرْضَاءُ الْخَالِقِ مَقْدُورٌ وَمَأْمُورٌ»[1].

قال الشيخ:

في هذا ما يجب على الإنسان المكلف، لاشك أنه عرض على كل، وعلم أن كلاً من عند الله، عرف عظمة ربه سبحانه وجلاله وكبرياءه، وعلم حقه عليه،

(١) أخرجه الخطابي في العزلة (٧٦)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١٢٣).

فأنت تعلم حق الله تعالى عليك وأنك عبد من عبيده، وأنه كلفك بعبادته وحده، فالواجب أن تفرده سبحانه بالخشية والتقوى، والخشية: هي شدة الخوف؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾، أي: لا تخف من الناس، بل عليك أن تخاف من الله وحده، وجاء في بعض الآثار: «من خاف الله خاف منه كل شيء، ومن خاف غير الله خاف من كل شيء»(١)، فعليك أن يكون خوفك من الله وخشيتك منه، وإذا خشيت الله تعالى فإنه يحرسك ويحميك وإن كنت مأمورًا بالأسباب.

كذلك قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾، الرهب هو: شدة الخوف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠]، فلا ترهب إلا من الله وحده، ولا ترهب من غيره.

وقال تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾، التقوى: العمل بطاعة الله، كما جاء في بعض الآثار: «التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخشى عقاب الله»(٢)، فلا تتق غير الله، ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾، وتقديم الضمير يقتضي التخصيص، مثل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥٤١) من كلام الفضيل بن عياض، وقال: «وقد روى هذا اللفظ عن واثلة بن الأسقع مرفوعًا، غير أن إسناده مجهول».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٤٦) من كلام طلق بن حبيب، وذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص١٥٩).

نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥]، أي: لا نعبد غيرك، إياك نرهب أي: لا نرهب غيرك، إياك نتقي أي: لا نتقي غيرك، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور:٥٢]، أي: من جمع بين هذا كله: طاعة الله ورسوله بامتثال الأوامر وترك النواهي، وخشية الله التي هي شدة الخوف، وتقوى الله التي هي مراقبته والخوف من عذابه، أولئك هم الفائزون الذين هم أهل الفوز والسعادة في الآخرة.

وقال تعالى: ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر:٥٦]، أي: الرب ـ سبحانه وتعالى ـ أهل أن يتقيه العباد، وأهل أن يغفر لهم إذا اتقوه.

ثم يقول: (وَنَظَائِرُ هَذَا المَعْنَى فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ)، يعني: الأوامر والإرشادات التي فيها أمر العباد بأن يخافوا من الله ولا يخافوا غيره، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران:١٧٥]، ونحو ذلك كثير.

يقول: (وَلَابُدَّ لِكُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَتَّقِيَ أَشْيَاءَ)، يعني: كما أنه يتقي الله فيتقي المعاصي ويتقي الذنوب، يتوقى يعني: يجعل بينه وبينها وقاية، ولابد أيضًا أنه يتوقى الشرور ويتوقى الآفات، فلا يتهور ولا يخاطر بنفسه، ولا يفعل الأسباب التي فيها ضرر عليه، بل يتوقاها.

قوله: (فَإِنَّهُ لَا يَعِيشُ وَحْدَهُ)، الإنسان مدني بالطبع، فلا يمكن أنه ينفرد وحده ويعيش، بل لابد أن يكون مع الناس.

قوله: (وَلَوْ كَانَ مَلِكًا مُطَاعًا، فَلَابُدَّ أَنْ يَتَّقِيَ أَشْيَاءً يُرَاعِي بِهَا رَعِيَّتَهُ)، الملوك ولو بلغوا ما بلغوا لابد أن يتقي أحدهم أشياء يراعي بها رعيته الذين تحت سلطته.

قوله: (فَحِينَئِذٍ فَلَا بُدَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَتَقِيَ)، أي: لابد من صفة التقوى، (فَإِنْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ اتَّقَىٰ المَخْلُوقَ)، يعني: يتقي شرور الناس، اتق شر من أحسنت إليه، حتى قال بعضهم[1]:

اِحْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً ... وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّة

فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ ... فَكَانَ أَخْبَرَ بِالمَضَرَّة

فالذي يتقي الله يقيه الله المخاوف، وكذلك أيضًا يتقي شرور الناس يتقي أضرارهم، يتوقى ذلك بقدر ما يستطيع.

قوله: (وَالخَلْقُ لَا يَتَّفِقُ حُبُّهُم كُلُّهُم وَبُغْضُهُم)، ليس كلهم يتفقون على حب إنسان، بل لابد أن يكون فيهم من يبغضه، حتى الأنبياء جعل الله لهم أعداء يقاطعونهم ويؤذونهم، فكذلك الإنسان كل فرد له أولياء وله أعداء، هؤلاء يحبونه وهؤلاء يبغضونه.

قوله: (بَلِ الَّذِي يُرِيدُهُ هَذَا يَبْغُضُهُ هَذَا)، قد يكون إنسان يحبك، وآخر يبغضك ويحقد عليك، (فَلَا يُمْكِنُ إِرْضَاؤُهُمْ كُلُّهُم)، يعني: أنهم كلهم يرضون عنك، (كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ ﷺ: «رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ»)، يعني: رضا

(١) ذكر هذين البيتين الثعالبي في يتيمة الدهر (٣/ ١٢٦)، ونسبهما لابن حجاج.

الناس كلهم، فلا يمكن أنه يرضوا عن الإنسان، بل لابد أن يكون فيهم من لا يبلغ رضاه.

ثم يقول: (**فَعَلَيكَ بِالْأَمْرِ الَّذِي يُصْلِحَكَ فَالْزَمْهُ**)، أي: الشيء الذي يصلحك ويكون فيه صلاحك لازمه، (**وَدَعْ مَا سُوَاهُ فَلَا تُعَانِهِ، فَإِرْضَاءُ الخَلْقِ لَا مَقْدُورٌ وَلَا مَأْمُورٌ، وَإِرْضَاءُ الخَالِقِ مَقْدُورٌ وَمَأْمُورٌ**)، فأنت مأمور بأن تلتمس رضا الله، وأن تبتعد عن سخطه ولو سخط عليك الخلق، وفي الحديث المشهور قول النبي ﷺ: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللَّهِ عَنْهُ وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ**»(١).

فَالمسْلم عليه أن يقصد رضا الله، وأن يعمل بما يرضي الله، ومتى كان كذلك فإن الله تعالى يرضي عنه الخلق ولو كانوا يبغضونه، يعرفون أنه ليس له هدف، وأنه ليس له غرض خاص في بغض هذا أو في بغض هذا، إنما يبغض من يبغضهم الله؛ لأجل خصال اتصفوا بها، فيحب أولياء الله لا لغرض دنيوي، ولا لأمر خاص، بل يعرف أن هؤلاء أولياء الله الذين يحبهم فيحب من يحبهم الله، وأن هؤلاء أعداء لله يبغضهم الله فيقول: أولياء الله وأحباب الله أنا أواليهم،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، وابن حبان (١/ ٥١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.
وأخرجه بنحو هذا اللفظ الطبراني في الكبير (١١٦٩٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ولو أنهم بعيدون من النسب، بعيدون مني نسبًا، ولو ما حصلت منهم لي منفعة دينية أو دنيوية، ولكن بما أنهم يحبون الله، ويحبون الخير، يقصدونه ويعملون به فأنا أحبهم. وإذا قُدّر أنهم كرهوك وقدحوا فيك وأبغضوك وحاولوا إضرارك فلا يضر السحاب نبح الكلاب، عليك بأن تصبر وتصابر على أذى الناس، ولابد أن يكون هناك أذى لكل إنسان، فإذا صبرت فالله تعالى وعدك بالصبر، وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - السابق يقول: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مع الصَّبْرِ»، فتصبر على أذى الناس وعلى ما ينالك منهم؛ لتكون بذلك سعيدًا إن شاء الله تعالى.

فإرضاء الخلق ليس بمقدور، لو التمست رضا الناس كلهم لم تقدر على ذلك؛ لأن ربنا سبحانه فاوت بين الخلق، وجعلهم متقاطعين، جعل فيهم حسدة ومفسدين، فالذين يحسدون يريدون لك الشر ويعملون على ما يقدرون عليه من إضرارك حسدًا وبغضًا، كما يقول بعض الشعراء[1]:

حَسَدُوا الْفَتَىٰ إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ ... فَالقَوْمِ أَعْدَاءٌ لَهُ وخُصُوْمُ
كَضَرَائِرِ الحَسْنَاءِ قُلْنَ لِوَجْهِهَا ... حَسَدًا وَبُغْضًا إِنَّهُ لَدَمِيْمُ

فما حمل الذين يحسدونك ويحقدون عليك ويتتبعون الهفوات إلا الحسد الذي يكنونه في قلوبهم، وعادة أنهم يكتمون الخير ويظهرون السوء أو الشرور،

---

(١) هذان البيتان ينسبان إلى أبي الأسود الدؤلي، انظر: جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٦٢)، والفصول المفيدة في الواو المزيدة (ص٢١١).

حتى قال بعضهم[١]:

صُـمٌّ إِذَا سَـمِعُوا خَيْرًا ذُكِـرْتَ بِـهِ وَإِذَا ذُكِـرْتَ بِـسُوءٍ عِنْـدَهُمْ أَذِنُـوا

إِنْ يَـسْمَعُوا سَيِّئًا طَـارُوا بِـهِ فَرِحًـا عَنِّي وَمَـا سَـمِعُوا مِنْ صَـالِحٍ دَفَنُـوا

فهكذا لابد أن الإنسان يتحمل ويصبر وينصره الله تعالى ويظهره، ولا يضره من احتال أو حاول أن يمكر به.

(١) هذان البيتان ينسبان إلى قعنب بن أم صاحب، انظر: لسان العرب (٤/ ٤٣٤).

قال الشارح:

وَأَيْضًا فَالْمَخْلُوقُ لَا يُغْنِي عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، فَإِذَا اتَّقَى الْعَبْدُ رَبَّهُ، كَفَاهُ مَؤُونَةَ النَّاسِ، كَمَا كَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ، رُوِيَ مَرْفُوعًا، وَرُوِيَ مَوْقُوفًا عَلَيْهَا: «مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ لَهُ ذَامًّا»[1]، فَمَنْ أَرْضَى اللَّهَ كَفَاهُ مُؤْنَةِ النَّاسِ وَرَضِيَ عَنْهُ، ثُمَّ فِيمَا بَعْدُ يَرْضَوْنَ؛ إِذِ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ فَيُحِبُّهُ النَّاسُ، كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[2] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»، وَقَالَ فِي الْبُغْضِ مِثْلَ ذَلِكَ.

قال الشيخ:

قوله: (وأيضًا فالمخلوق لا يغني عنه من الله شيئًا)، أي: أن الخلق كلهم لا يغنون من الله شيئًا.

ثم ذكر أثر عائشة رضي الله عنها، وقد رُوي مرفوعًا وموقوفًا عليها قالت: «مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنْ أَرْضَى

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ لَهُ ذَامًّا»، هكذا إذا أرضى الله تعالى ولو سخط عليه الناس، فإن الناس يعذرونه ويقولون: إنه لم يكن محابيًا، ولم يكن ملتمسًا لمصلحة دنيوية، ولكنه يريد رضا الله تعالى. فيرضى الله تعالى عنه، ويرضي عنه الناس.

وأما الذي يعمل بسخط الله، ويسخط الله بعمل المعاصي والمحرمات، فإن الله يسخط عليه الناس، ولو أنهم أصدقاؤه، ولو أنهم أقارب له، فإنهم يعودون يذمونه.

هذا معنى قوله: «عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ لَهُ ذَامًّا»، وفي رواية: «سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ».

وهذا الأثر الذي رُوي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعًا وموقوفًا دليل على أن الإنسان عليه أن يلتمس رضا ربه ولو سخط عليه الناس، فيصدع بالحق ويقول به، ولا يخاف في الله لومة لائم، وإذا علم الناس حُسن قصده، وأنه لا يبالي بأحد، وأنه يعرف أن هذا رضا لله تعالى فإنهم يعذرونه ويرضون عنه، ويرضيهم الله عنه، وأما الذي يعصي الله تعالى ويسخطه لأجل أن يرضى عنه الناس، ويعطيهم ما يهوونه وما يناسبهم وهو يعلم أن في ذلك سخط الله تعالى، فإن الله يعاقبه بحيث يسخط عليه الناس، والذين يحمدونه يعودون يذمونه.

قوله: (فَمَنْ أَرْضَى اللَّهَ كَفَاهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ وَرَضِيَ عَنْهُ)، وكفى بذلك منزلة رفيعة، إذا أرضى الله تعالى، إذا علم أن في هذا الأمر رضا الله تعالى فيكفيه مؤنة الناس ولو حاولوا أن يضروه، ويرضى الله تعالى عنه، ثم فيما بعد يرضون عنه إذا

علموا حسن مقصده وأنه لا يريد إلا ما عند الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه:١٣٢]، يعني: النهاية لأهل التقوى، ولاشك أيضًا أن الناس يحبونه، إذا أحبه الله حبَّب إليه الناس حيث؛ لأنه والحال هذه قد قدم رضا الله تعالى على رضا كل أحد، ولم يبالِ بالناس، ولم يلتفت إلى رضا أحد، وعلم أن هذا الأمر أمر الله وأنه مقدم على أمر كل أحد.

ثم استدل الشارح بما في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «إذا أَحَبَّ الله الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ له الْقَبُولُ فِي الأَرض»، وقال في البغض مثل ذلك: «وإذا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فيقول: إني أُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضْهُ، قال: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضُوهُ، قال: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ له الْبَغْضَاءُ فِي الأَرض»؛ وذلك لأن الله تعالى موصوف بأنه يحب أولياءه، ويحب المتقين، ويحب عباده الصالحين، وإذا أحبهم فإنه لأجل صلاحهم ولأجل تقاهم، ولأجل ديانتهم؛ ولأنهم يلتمسون رضا الله، ولو سخط عليهم جميع الناس، ويقولون: لا حاجة لنا برضا الناس إذا سخط الله علينا، نقول الحق ونجهر به، ونعلم أن هذا هو الذي يحبه الله منا، أما الذي يلتمس رضا الناس ويتنازل على ما يريدون ويحل لهم الحرام؛ لأجل أن يحبوه، ولأجل أن يوسع عليهم، ويقول: الناس لا يحبون إلا من تنازل لهم عن الأشياء وتسامح معهم، وما أشبه ذلك، لاشك أن هذا وما أشبهه يعتبر تركًا

للحق، وإفسادًا له، ويعتبر تسببًا في بغض الله تعالى للعبد الذي فعل ذلك، ثم بغض الملائكة له، ثم بغض أهل الأرض له، بخلاف من قدم محبة الله فإن الله تعالى يحبه ويحبب إليه الناس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم:٩٦]، أي: مودة فيما بين الناس.

قال الشارح:

فَقَدْ بَيَّنَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْ أَنْ يَتَّقِيَ: إِمَّا الْمَخْلُوقَ، وَإِمَّا الْخَالِقَ، وَتَقْوَى الْمَخْلُوقِ ضَرَرُهَا رَاجِحٌ عَلَى نَفْعِهَا مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ، وَتَقْوَى اللَّهِ هِيَ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَهْلٌ لِلتَّقْوَى، وَهُوَ أَيْضًا أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَغْفِرُ الذُّنُوبَ، لَا يَقْدِرُ مَخْلُوقٌ عَلَى أَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ وَيُجِيرَ مِنْ عَذَابِهَا غَيْرُهُ، وَهُوَ الَّذِي يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ. قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا احْتَاجَ تَقِيٌّ قَطُّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣]، فَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ مَخْرَجًا مِمَّا يَضِيقُ عَلَى النَّاسِ، وَأَنْ يَرْزُقَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، فَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ دَلَّ عَلَى أَنَّ فِي التَّقْوَى خَلَلًا، فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَلْيَتُبْ إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، أَيْ: فَهُوَ كَافِيهِ، لَا يُحْوِجُهُ إِلَى غَيْرِهِ.

قال الشيخ:

قوله: (فَقَدْ بَيَّنَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْ أَنْ يَتَّقِيَ: إِمَّا الْمَخْلُوقَ، وَإِمَّا الْخَالِقَ)، وهذا معلوم، فمن اتقى الله تعالى وخافه وأطاعه والتمس رضاه واتقى عذابه، فإن الله تعالى يقيه من كل سوء، وأما الذي يتقي المخلوقين ويخاف منهم ويرضيهم ولو أسخط الله تعالى، فإنهم لا ينفعونه، ولو نفعوه نفعًا عاجلاً دنيويًا، فإن ذلك يكون وبالاً عليه في الآخرة.

قوله:(وَتَقْوَى الْمَخْلُوقِ)، أي: كونه يخاف من المخلوقين ويتقيهم، (ضَرَرُهَا رَاجِحٌ عَلَى نَفْعِهَا مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ)؛ لأنه لَمَّا خافهم واتقاهم تساهل في حقوق الله تعالى، فيكون ذلك كأنه خوف من الناس، وكأنه عبادة للمخلوق والعياذ بالله.

قال: (وَتَقْوَى اللَّـهَ هِيَ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)، هكذا ذكروا أن من خاف الله تعالى خاف منه كل شيء، ومن لم يخف الله خاف من كل شيء، والذي يخاف الله هو الذي يلتمس رضا الله، ويتقي الله تعالى، وقد ذكر الله فائدة التقوى فقال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق:٢]، وقال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق:٥]؛ لأن الله تعالى هو أهل التقوى وأهل المغفرة، أهل أن يتقيه العباد، ثم هو يغفر لهم، فإنه هو الذي يغفر الذنوب جميعًا كما في قول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣]، ولكن قال بعد ذلك: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر:٥٤].

قوله: (لَا يَقْدِرُ مَخْلُوقٌ عَلَى أَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ وَيُجِيرَ مِنْ عَذَابِهَا غَيْرُهُ)، بل القادر على ذلك هو الله وحده، وأما المخلوق فقدرته قدرة محدودة، والله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي يجير ولا يجار عليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٩]، فالله تعالى يجير من استجار به ويحميه، ولا أحد يجير عنه، ولا أحد يرد أمر الله تعالى إذا أراد أمرًا فإنه لا معقب لقضائه ولا راد لحكمه.

قوله: (قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا احْتَاجَ تَقِيٌّ قَطْ)، أي: الذي يتقي الله تعالى لا يحتاج أخذًا من هذه الآية: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[الطلاق:٢، ٣]، فعليه بتقوى الله وتحقيقها حتى يرزقه من حيث لا يحتسب.

قوله: (فَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ مَخْرَجًا مِمَّا يَضِيقُ عَلَى النَّاسِ)، أي: من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ومن كل بلاء عافية، ومن كل عسر يسرًا، هكذا ثمار التقوى، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾، ولو تكالب عليه الناس، ولو اشتدت عليه الكروب، يجعل الله له مخرجًا، ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾، أي: ييسر له الرزق ويأتيه الرزق من وجه لا يقدر له، أي من حيث لا يحتسب، أما إذا لم يتق الله فإنه لا يحصل له ذلك.

قوله: (فَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ دَلَّ عَلَى أَنَّ فِي التَّقْوَى خَلَلًا)، أي: إذا رأيته قد وقع في شدة، وفي أزمة، وفي فقر فاعرف أن تقواه قليلة، وأن في تقواه خلل، فأرشده إلى أن يستغفر الله ويتوب إليه، وذكره بهذه الآية: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾، أي: فهو كافيه، لا محوجه إلى غيره.

قال الشارح:

وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ التَّوَكُّلَ يُنَافِي الِاكْتِسَابَ، وَتَعَاطِي الْأَسْبَابِ، وَأَنَّ الْأُمُورَ إِذَا كَانَتْ مُقَدَّرَةً فَلَا حَاجَةَ إِلَى الْأَسْبَابِ! وَهَذَا فَاسِدٌ، فَإِنَّ الِاكْتِسَابَ: مِنْهُ فَرْضٌ، وَمِنْهُ مُسْتَحَبٌّ، وَمِنْهُ مُبَاحٌ، وَمِنْهُ مَكْرُوهٌ، وَمِنْهُ حَرَامٌ، كَمَا قَدْ عُرِفَ فِي مَوْضِعِهِ. وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَفْضَلُ الْمُتَوَكِّلِينَ، يَلْبَسُ لَأْمَةَ الْحَرْبِ(١)، وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لِلِاكْتِسَابِ(٢)، حَتَّى قَالَ الْكَافِرُونَ: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٧]؛ وَلِهَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِمَّنْ يَرَى الِاكْتِسَابَ يُنَافِي التَّوَكُّلَ يُرْزَقُونَ عَلَى يَدِ مَنْ يُعْطِيهِمْ، إِمَّا صَدَقَةً، وَإِمَّا هَدِيَّةً، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مِنَ مَكَّاسٍ، أَوْ وَالِي شُرْطَةٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ، لَا يَسَعُهُ هَذَا الْمُخْتَصَرُ. وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى بَعْضِ الْأَقْوَالِ الَّتِي فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩].

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، قَالَ الْبَغَوِيُّ(٣): قَالَ مُقَاتِلُ: نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ حِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْضِي يَوْمَ السَّبْتِ! قَالَ الْمُفَسِّرُونَ(٤):

---

(١) يأتي تخريجه قريبًا في كلام الشيخ حفظه الله.

(٢) كما في حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: «كنت مع رسول اللَّهِ ﷺ في سُوقٍ من أَسْوَاقِ الْمَدِينَةِ ...» الحديث، أخرجه البخاري (٥٨٨٤).

(٣) في تفسيره (٤/ ٢٧٠).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١٣٥)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٤).

مِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيَرْزُقُ، وَيُعِزُّ قَوْمًا وَيُذِلُّ آخَرِينَ، وَيَشْفِي مَرِيضًا، وَيَفِكُّ عَانِيًا، وَيُفَرِّجُ مَكْرُوبًا، وَيُجِيبُ دَاعِيًا، وَيُعْطِي سَائِلاً، وَيَغْفِرَ ذَنْبًا، إِلَى مَا لَا يُحْصَى مِنْ أَفْعَالِهِ وَإِحْدَاثِهِ فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ.

قال الشيخ:

صحيح أن التوكل هو الثقة بالله تعالى مسبب الأسباب، ولكنه سبحانه أمر بتعاطي الأسباب، كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [الملك:١٥]، هذا سبب، وفي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة:١٠]، هذا من الأسباب، وفي قوله: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل:٢٠]، هذا من الأسباب، لم يقل: اجلسوا في بيوتكم ويأتيكم الطعام والشراب ونحو ذلك؛ لأن هذا من الغرور، أمرنا الله تعالى بأن نتوكل عليه، ونثق بأنه هو الرزاق ذو القوة المتين، ولكن مع ذلك أمرنا بأن نفعل هذه الأسباب.

قوله: (فَإِنَّ الِاكْتِسَابَ)، الذي هو طلب الرزق، قد يكون فرضًا، وقد يكون مستحبًا، وقد يكون مباحًا، وقد يكون مكروهًا، وقد يكون حرامًا، يعني: أنه تتعلق به الأحكام الخمسة، فالله تعالى أمر المقاتلين بأن يفعلوا الأسباب بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء:٧١]، يعني: من الكفار تحصنوا، وفي قوله تعالى: ﴿ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ [النساء:١٠٢]، وفي قوله: ﴿ وَلْيَأْخُذُواْ

حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ [النساء:١٠٢].

قوله: (وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَفْضَلُ المُتَوَكِلِينَ)، ومع ذلك كان يلبس لأمة الحرب التي يتقي بها والتي يقاتل بها، وذكر الله أنه كان يمشي في الأسواق للاكتساب، وذكر ذلك أيضًا عن الأنبياء بقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان:٢٠]، حتى قال الكافرون: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان:٧]، فأخبر الله تعالى أن الأنبياء كذلك، وأن هذا سبب من الأسباب.

يقول: (وَلِهَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِمَّنْ يَرَى الِاكْتِسَابَ يُنَافِي التَّوَكُلَ يُرْزَقُونَ عَلَى يَدِ مَنْ يُعْطِيهِمْ، إِمَّا صَدَقَةً، وَإِمَّا هَدِيَّةً، وَقَدْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنَ مَكَّاسٍ، أَوْ وَالِي شُرْطَةٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ...)، يعني: أن كثيرًا ممن يقولون: نحن متوكلون لا نفعل سببًا، ولا نحرك ساكنًا، ولا نتسبب في طلب الرزق أبدًا لا شك أنهم يحتاجون إلى القوت، والقوت لا ينزل لهم من السماء، لا ينزل من السماء أرغفة، ولا ينزل الله عادة من السماء طعامًا وتمرًا، إنما ينزل المطر الذي جعل الله تعالى فيه هذه البركة، ولكن أمر بالسبب، ولكن ليعرف الإنسان أن هذه الأسباب الله تعالى هو الذي يسببها، ولهذا قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٥]، فأضاف الحرث إليهم: ﴿ تَحْرُثُونَ ﴾، فدل على أنهم هم الذين يحرثون الأرض، وهم الذين يبذرون فيها البذر، وهم الذي يسقونها، والله تعالى هو الذي يسر لهم ذلك، وهو الذي جعل

لهم هذا الماء في هذه الأرض يخرجونه ثم يسقون به حروثهم، أو أنبع الماء لهم حتى إذا نبع ذلك الماء يسقون منه حروثهم وأشجارهم، ولو شاء جعل زرعهم حطامًا.

فهؤلاء الذين يتركون الاكتساب لاشك أنهم مفرطون ومهملون؛ ولهذا روي أن بعض الناس كانوا يَحُجُّونَ ولا يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فإذا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا الناس، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[1] [البقرة:١٩٧]، أمرهم بأن يحملوا معهم زادًا، فالذين يتركون الاكتساب يحتاجون إلى عطية، قد يعطيهم ويهدي إليهم بعض أهل المكاسب المحرمة، فيعطيهم من هو صاحب مكس، يعني: مكوسًا يأخذها ضرائب على الناس، أو والي شرطة، أي: الشرطة الذين يعملون بشيء من المعاصي ونحو ذلك.

يقول: (وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى بَعْضِ الْأَقْوَالِ الَّتِي فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩])، أي: في بيان أن الله تعالى مسبب الأسباب، وأنه أمرنا بأن نعمل وأن ذلك مكتوب في أم الكتاب، وأننا نثق بأن الملائكة يكتبون أعمالنا، ثم يمحو الله ما يشاء بالتوبة من السيئات ونحو ذلك، ويثبت التوبة وما أشبه ذلك وعنده أم الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٢٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قولـه تعـالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الـرحمن:٢٩]، أي: أن الله تعـالى كـل يـوم يحدث مـا يـشاء مـن الأمـور التـي أحـدثها والتـي تتجـدد في عبـاده، فـيرزق قومًـا ويسهل لهم الرزق وآخرين يمنعهم، يحيي هؤلاء ويميت هؤلاء، ويعز قومًا ويذل قومًـا بـإذن الله تعـالى، ويتـصرف في خلقـه كـما يـشاء، كـل هـذا داخـل في التقـدير اليومي، فأخبر سبحانه أنه كل يوم هو في شأن.

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قال الطحاوي:

وَمَا أَخْطَأَ الْعَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَمَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَه.

قال الشارح:

هَذَا بِنَاءً عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ الْمَقْدُورَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ حَيْثُ يَقُولُ:

مَا قَضَى اللَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَه ... وَالشَّقِيُّ الْجَهُولُ مَنْ لَامَ حَالَه

والقائل الآخر:

اقْنَعْ بِمَا تُرْزَقُ يَا ذَا الْفَتَى ... فَلَيْسَ يَنْسَى رَبُّنَا نَمْلَه

إِنْ أَقْبَلَ الدَّهْرُ فَقُمْ قَائِمًا ... وَإِنْ تَوَلَّى مُدْبِرًا نَمْ لَه

قال الشيخ:

قول الطحاوي ـ رحمه الله ـ: (وَمَا أَخْطَأَ الْعَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَه، وَمَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَه)، مأخوذ من قول النبي ﷺ: «وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»[1]، ومع ذلك الإنسان مأمور بأن يتحفظ، ومأمور بأن يتحصن بقدر ما يستطيع، كما في قول الله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:٧١]، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:١٠٢]؛ ولأن النبي ﷺ

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٤١).

في القتال ظاهر بين درعين[١]، وأخذ لأمته؛ كما في قصة خروجه ﷺ يوم أُحُدٍ لَـمَّا شَاوَرَ أَصْحَابَهُ فِي الْمُقَامِ في المدينة أو الْخُرُوجِ لِمُلاقَاةِ الْعَدُو، فَرَأَوْا لـه الْخُرُوجَ، فَلَمَّا لَبِسَ لأْمَتَهُ وَعَزَمَ قالوا: أَقِمْ، فلم يَمِلْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ الْعَزْمِ، وقال: «**لَيْسَ لِنَبِي إذا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتى يُقَاتِلَ**»[٢]، ولبس على رأسه المجن الذي هو الترس الذي يقيه من وقع السلاح؛ كما في حديث أنس ﷺ قال: «كان أبو طَلْحَةَ يَتَتَرَّسُ مع النبي ﷺ بِتُرْسٍ وَاحِدٍ، وكان أبو طَلْحَةَ حَسَنَ الرَّمْيِ، فَكَانَ إذا رَمَى تَشَرَّفَ النبي ﷺ فَيَنْظُرُ إلى مَوْضِعِ نَبْلِهِ»[٣]، وسُئِلَ سَهْلِ بن سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ عن جُرْحِ النبي ﷺ يوم أُحُدٍ، فقال: «جُرِحَ وَجْهُ النبي ﷺ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَهُشِمَتْ الْبَيْضَةُ على رَأْسِهِ»[٤]، وجاء في حديث أنس ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ دخل عَامَ الْفَتْحِ وَعَلَى رَأْسِهِ الْمِغْفَرُ»[٥].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٩٠)، والنسائي في الكبرى (٨٥٢٩)، وابن ماجه (٢٨٠٦)، وأحمد (٣/ ٤٤٩) من حديث السائب بن يزيد ﷺ.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٧٦٠٠)، وأحمد (٣/ ٣٥١) من حديث جابر ﷺ. وذكره البخاري معلقًا في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ـ باب قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (٩/ ١١٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٠٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٩١١)، ومسلم (١٧٩٠).

(٥) أخرجه البخاري (١٨٤٦). والمِغْفَر: زَرَدٌ من الدِّرْعِ يُنْسَجُ على قَدْرِ الرَّأْسِ يُلْبَسُ تَحْتَ القَلَنْسُوَة، ويُقَالُ: هو رَفْرَفُ البَيْضَةِ أَو حلَقٌ يَتَقَنَّعُ بِهَا الْمُتَسَلِّحُ. انظر: لسان العرب =

فكل ذلك من فعل الأسباب، مع الثقة بأن الله إذا قدَّر المصيبة فلا يردها شيء، وما أصاب العبد فإنه مكتوب، ولا يقول: ليتني وليتني، وقد جاء في الحديث قول النبي ﷺ: «احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ولا تَعْجَزْ»[1]، أي: افعل الأسباب النافعة ولا تتكاسل ولا تظهر العجز، ثم قال: «وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»، أي: أن الله تعالى هو الذي يعينك إذا شاء، «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ» أي: إذا قُدر أنه أصابك ذنب أو أصابتك مصيبة أو حدث حادث أو نحو ذلك، أو فاتك شيء من الفوائد أو نحو ذلك، فلا تتلوم ولا تقل: ليتني فعلت كذا وكذا، ولا تقل: لو أني تقدمت، أو لو أني تأخرت، أو لو أني اشتريت هذا لربحت، أو لو أني بعت في هذا المكان لربحت، ولكن اعلم أن هذا مقدر، وقل: «قَدَرُ اللَّهِ»، أي: أن هذا قدر الله، «وما شَاءَ فَعَلَ، فإن لو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

قوله: (الْمَقْدُورُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ)، أي: أن المقدر كائن ولو تحصن منه المتحصن لابد أنه يحصل، فما قدره الله فإنه حاصل، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فكل شيء كتبه الله وقدره فلابد أن يحصل، ولو حصل ضد ذلك المقدر كائن.

وقول القائل:

مَا قَضَى اللَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَه ... وَالشَّقِيُّ الْجَهُولُ مَنْ لَامَ حَالَه

أي: أن كل ما قدره الله بأنه كائن، فلا محالة من كينونته، ولا محالة من

=

(٥/ ٢٧)، والقاموس المحيط (٥٨٠)، وتاج العروس (١٣/ ٢٤٨).

(١) تقدم تخريجه (١/ ٥٢٨).

وقوعه، أما الشقي الجهول فإنه الذي يتلوم، يلوم حالته التي وقعت له، هذا يعتبر جهولًا.

وأنشد أيضًا الشارح قول الآخر:

اقْنَعْ بِمَا تُرْزَقُ يَا ذَا الْفَتَى فَلَيْسَ يَنْسَى رَبُّنَا نَمْلَه
إِنْ أَقْبَلَ الدَّهْرُ فَقُمْ قَائِمًا وَإِنْ تَوَلَّى مُدْبِرًا نَمْ لَه

القناعة: كون الإنسان يرضى بما أعطاه الله تعالى، مع كونه يسعى في طلب الرزق، ويعلم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٨]، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود:٦]، وقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ [العنكبوت:٦٠]، ولـمَّا قال النبي ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ على اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»[1]، عرفوا بأن الطير تتسبب، فالطير لا تجلس في أوكارها ولا في أعشاشها، بل تذهب وتتلمس الرزق وتتطلب، وكذلك بقية الحيوانات تتطلب الرزق، حتى السباع لا تجلس في جحرها، وحتى الدواب لا تجلس في جحورها، فالضب - مثلاً - والأرنب والوبر واليربوع تنتشر في الأرض تطلب الرزق، ومع ذلك فإن الله تعالى هو الذي يرزقها، فيقول: (فَلَيْسَ يَنْسَى رَبُّنَا نَمْلَه)، أي: واحدة النمل.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، والنسائي في الكبرى (١١٨٠٥)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وأحمد (١/ ٣٠)، وابن حبان (٢/ ٥٠٩) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

وقوله: (إِنْ أَقْبَلَ الدَّهْرُ فَقُمْ قَائِمًا)، الدهر: المراد به هنا الزمان أو الحظ إذا أقبل عليك، فإنك تقبل وتتلقى ما قدر الله وما أعطاك الله، حتى يُكتب لك وتحصل على ما كتب الله، فإذا أقبلت عليك الدنيا وتيسرت لك أسبابها فإنك تتقبل ذلك وترضى به، وتفعل ما تقدر عليه، وإذا تولت عنك الدنيا فنم ولا تهتم، ولا تقل: ليتني وليتني، أو فاتني كذا وفاتني كذا، وهذا كله لا يدل على ترك الأسباب، إنما الله تعالى أمرنا بأن نفعل الأسباب، ونثق بأن الله تعالى هو مسبب الأسباب، وهو الذي جعلها مؤثرة ومفيدة، وإذا فعلنا أي سبب فإن الله تعالى هو الذي ينفع بهذه الأسباب.

قال الطحاوي:

وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ فِي كُلِّ كائِنٍ مِن خَلْقِهِ، فَقَدَّرَ ذَلِكَ تَقْدِيرًا مُحْكَمًا مُبْرَمًا، لَيْسَ فِيهِ ناقِضٌ، وَلَا مُعَقِّبٌ، وَلَا مُزِيلٌ، وَلَا مُغَيِّرٌ، وَلَا مُحَوِّلٌ، وَلَا نَاقِصٌ، وَلَا زَائِدٌ مِنْ خَلْقِهِ فِي سَمَٰوَاتِهِ وَأَرْضِهِ.

قَالَ الشَّارِحُ:

هَذَا بِنَاءً عَلَى مَا تَقَدَّمَ، مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِالْكَائِنَاتِ، وَأَنَّهُ قَدَّرَ مَقَادِيرَهَا قَبْلَ خَلْقِهَا، كَمَا قَالَ ﷺ: «قَدَّرَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ»(١)، فَيُعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ عَلِمَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَصِيرُ مَوْجُودَةً لِأَوْقَاتِهَا، عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ، فَكَانَتْ كَمَا عَلِمَ، فَإِنَّ حُصُولَ المَخْلُوقَاتِ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ غَرَائِبِ الحِكَمِ لَا يُتَصَوَّرُ إِيجَادُهَا إِلَّا مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ عَلَى إِيجَادِهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

وَأَنْكَرَ غُلَاةُ الْمُعْتَزِلَةِ أَنَّ اللَّهَ كَانَ عَالِمًا فِي الْأَزَلِ، وَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعْلَمُ أَفْعَالَ الْعِبَادِ حَتَّى يَفْعَلُوهَا! تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا. قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ: «نَاظِرُوا الْقَدَرِيَّةَ بِالْعِلْمِ، فَإِنْ أَقَرُّوا بِهِ خُصِمُوا، وَإِنْ

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٨٤).

أَنْكَرُوا كَفَرُوا»[١]، فَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا مُسْتَطِيعٌ يَفْعَلُ مَا اسْتَطَاعَهُ فَيُثِيبُه، وَهَذَا مُسْتَطِيعٌ لَا يَفْعَلُ مَا اسْتَطَاعَهُ فَيُعذِّبُهُ، فإِنَّما يُعَذِّبُهُ؛ لأَنَّه لَا يَفْعَلُ مَعَ الْقُدْرَةِ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُ، وَمَنْ لَا يَسْتَطِيعُ لَا يَأْمُرُهُ وَلَا يُعَذِّبُه عَلَى مَا لَمْ يَسْتَطِعْهُ.

وَإِذَا قِيلَ: فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ العَبْدُ قَادِرًا عَلَى تغيِيرِ عِلْمَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ، فَإِذَا قَدَرَ عَلَى الْفِعْلِ، قَدَرَ عَلَى تَغْيِيرِ عِلْمِ اللَّهِ.

قِيلَ: هَذِهِ مَغْلَطَةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ مُجَرَّدَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْفِعْلِ لَا تَسْتَلْزِمُ تَغْيِيرَ الْعِلْمِ، وَإِنَّمَا يَظُنُّ مَنْ يَظُنُّ تَغْيِيرَ الْعِلْمِ إِذَا وَقَعَ الفِعْلُ، وَلَو وَقَعَ الْفِعْلُ، لَكَانَ الْمَعْلُومَ وَقُوعَهُ لَا عَدَمَ وُقُوعَهُ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَحْصُلَ وُقُوعُ الْفِعْلِ مَعَ عِلْمِ اللَّهِ بِعَدَمِ وُقُوعِهِ، بَلْ إِنْ وَقَعَ، كَانَ اللَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ يِقَعُ، وَإِنْ لَمْ يَقَعَ، كَانَ اللَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقَعُ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ عِلْمَ اللَّهِ إِلَّا بِمَا يَظْهَرُ، وَعِلْمُ اللَّهِ مُطابِقٌ لِلْوَاقِعِ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَقَعَ شَيْءٌ يَسْتَلْزِمُ تَغْيِيرَ الْعِلْمِ، بَلْ أَيُّ شَيْءٍ وَقَعَ كَانَ هُوَ المَعْلُومَ، وَالْعَبْدُ الَّذِي لَمْ يَفْعَلْ لَمْ يَأْتِ بِمَا يُغَيِّرُ الْعِلْمَ، بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى فِعْلٍ لَمْ يَقَعْ، وَلَوْ وَقَعَ، لَكَانَ اللَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ يَقَعَ، لَا أَنَّهُ لَا يَقَعُ.

وَإِذَا قِيلَ: فَمَعَ عَدَمِ وُقُوعِهِ يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ لَا يَقَعُ، لَوْ قَدَرَ الْعَبْدُ عَلَى وُقُوعِهِ، قَدَرَ عَلَى تَغْيِيرِ الْعِلْمِ؟ قِيلَ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلِ الْعَبْدُ يَقْدِرُ عَلَى وُقُوعِهِ وَهُوَ لَمْ يُوقِعْهُ، وَلَوْ أَوْقَعَهُ، لَمْ يَكُنِ المَعْلُومُ إِلَّا وُقُوعَهُ، فَمَقْدُورُ الْعَبْدِ إِذَا وَقَعَ، لَمْ يَكُنِ المَعْلُومُ إِلَّا وُقُوعَهُ، وَهُؤَلَاءِ فَرَضُوا وُقُوعَهُ مَعَ الْعِلْمِ بِعَدَمِ وُقُوعِهِ! وَهُوَ فَرْضٌ

---

(١) راجع (١/ ٥٤٠).

مُحَالٌ، وَذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَقُولُ: افْرِضْ وُقُوعَهُ مَعَ عَدَمِ وُقُوعِهِ! وُهُوَ جَمْعٌ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَ وُقُوعُهُ مَعَ عِلْمِ الرَّبِّ بِعَدَمِ وُقُوعِهِ مُحَالًا لَمْ يَكُنْ مَقْدُورًا؟ قِيلَ: لَفْظُ الْمُحَالِ مُجْمَلٌ، وَهَذَا لَيْسَ مُحَالًا لِعَدَمِ اسْتِطَاعَتِهِ لَهُ، وَلَا لِعَجْزِهِ عَنْهُ، وَلَا لِامْتِنَاعِهِ فِي نَفْسِهِ، بَلْ هُوَ مُمْكِنٌ مَقْدُورٌ مُسْتَطَاعٌ، وَلَكِن إِذَا وَقَعَ، كَانَ اللَّهُ عَالِمًا بِأَنَّهُ سَيَقَعُ، وَإِذَا لَمْ يَقَعْ، كَانَ عَالِمًا بِأَنَّهُ لَا يَقَعُ، فَإِذَا فُرِضَ وُقُوعُهُ مَعَ انْتِفَاءِ لَازِمِ الْوُقُوعِ، صَارَ مُحَالًا مِنْ جِهَةِ إِثْبَاتِ الْمَلْزُومِ بِدُونِ لَازِمِهِ. وَكُلُّ الْأَشْيَاءِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ هِيَ مُحَالٌ!

وَمِمَّا يُلْزِمُ هَؤُلَاءِ: أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ قَادِرًا عَلَى شَيْءٍ، لَا الرَّبُّ، وَلَا الْخَلْقُ، فَإِنَّ الرَّبَّ إِذَا عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيَفْعَلُ كَذَا لَا يَلْزَمُ مِن عِلْمِهِ ذَلِكَ انْتِفَاءُ قُدْرَتِهِ عَلَى تَرْكِهِ، وَكَذَلِكَ إِذَا عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ انْتِفَاءُ قُدْرَتِهِ عَلَى فِعْلِهِ، فَكَذَلِكَ مَا قَدَّرَهُ مِنْ أَفْعَالِ عِبَادِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

قال الشيخ:

الكلام الأول يتعلّق بعلم الله تعالى بالأشياء قبل وقوعها، ويسمّى هذا التقديرَ العام، وهو أنّ الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي سبق كل شيءٍ، فعلِم أعمالهم، وعلم عددهم، وعلم عدد المخلوقات، وأحصى ذلك قبل أن يوجدوا، وخلق القلم وأمره أن يكتب؛ وجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة.

ودليلُ ذلك من القرآن ظاهر مثل قول الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد:٢٢]، ومثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]. والآيات في هذا كثيرة تفيد سعة علم الله بالأشياءِ قبل وجودِها.

وذكر الشارح أنَّ غلاة المعتزلة المتقدِّمين أنكروا هذا النوع، وزعموا أنَّ الله لا يعلم الأشياء حتّى توجد، وقال بعضهم: إنّه يعلم الكلّيات ولا يعلم الجزئيّات، ويعلم عموم الأشياء ولا يعلم تفاصيلها . ومقتضى هذا أنّه يعلم عدد الخلق، ولكن لا يعلم تفاصيل أعمالهم، فيعلم أنّ هذه القبيلة يبلغ عددها كذا وكذا، ولا يعلم أعمال هذا الإنسان حتّى يعملها، وهذا يُعدّ تنقّصًا لعلم الله، والله بكلِّ شيءٍ عليم، والله هو علاّم الغيوب، وهؤلاء الذين أنكروا العلم السابق والعلم الأزلي، هم الذين عناهم الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ بقوله: «نَاظِرُوا الْقَدَرِيَّةَ بِالْعِلْمِ، فَإِنْ أَقَرُّوا بِهِ خُصِمُوا، وَإِنْ أَنْكَرُوا كَفَرُوا». يعني: نسألهم: هل تقرّون بأنّ الله بكلِّ شيءٍ عليم؟ وما قد كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون؟ هل تقرّون بسعة علم الله تعالى؟ فإن أقرّوا خُصموا، فإن العلم بالتفاصيل داخل في ذلك . وإن جحدوا كفروا؛ وذلك لأنّهم إذا جحدوا علم الله تعالى

لزمهم أن يصفوه بالعجز وبالجهل، وبأنّه يكون في الوجود والملك ما لا يريد، فيلزم بذلك التنقّص، وهذا إنكارٌ للأدلّة؛ فيكونون بذلك كفارًا جاحدين لصفاتِ الله تعالى.

وقد أقرّ الأشعريّة بوصف الله تعالى بأنّه عليم، ولكنّهم أنكروا بعض الصفات الفعليّة . أمّا المعتزلة: فأنكروا صفة العلم لله سبحانه وتعالى، ووصفوه بأنّه لا يجهل، هكذا في معتقداتهم، بعد ذلك أخذوا يردّدون شبهات، فيقولون: إذا علم الله أن هذا الإنسان يعمل كذا، وأنّه يعمل كذا، فلا بدّ أن يكون قادرًا على أن يردّه، وأصبح قد رضي بأفعاله التي هي المعاصي، وإذا لم يكن قادرًا أصبح موصوفًا بالعجز، وأشباه ذلك مما مر معنا من هذه التشكيكات التي يردِّدونها على أهل السنَّة، الذين يصفون الله تعالى بالعلم القديم، وقد سبق جواب أهل السنّة عليهم، فإن أهل السنّة يقولون: إنّ كل ما وقع فإنّه مُراد، ولكن منها ما هو مراد ومحبوب كالطاعات، ومنها ما هو مُراد ومقدّر كالمعاصي، فالمراد المقدّر عَلِمه الله وقدّره وقضاه على العبد، ولكنّه كرهه شرعًا، ولم يحبّه، وتوعّد فاعله عليه، والعبد إذا زاوله يوصف بأنّه كافر، أو بأنّه عاصٍ أو فاسق، أو خاطئ أو مذنب؛ لأنه ارتكب هذا وفعله بقدرة واختيار مستطاع له، فهو الذي يُعاتب ويُعاقب عليه. هذا هو معتقد أهل السنّة في هذا؛ ولا يلزم من ذلك أنّه خلق الشرّ وأنّه أراده بل لا يلزم من إرادته كونًا أن يحبّه، وأن يقدّره، وأن يريده شرعًا.

والله تعالى أعطى العبد قدرةً يستطيع بها مزاولة أعماله، فالعبد هو المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر، والمصلّي والصائم، وللعباد قدرة على أفعالهم، ولهم

إرادة، ولكن الله تعالى هو الذي خلقهم وخلق قدرتهم وإرادتهم، ولو شاء لهداهم، ولكنّه بحكمته البالغةِ أضلّ قومًا بعدله، وهدى قومًا بفضله، فله النعمةُ على من هداه، وله الحكمة على من أضلّه، وأعطى كلًّا منهم من الاستطاعة ما يزاول به أعماله، وهذا مما يذكر في الردّ على هؤلاء الذين يطيلون الجدل في مثل علم الله تعالى وإرادته، فنحن إذا قلنا: إنّ جميع ما في الوجود مرادٌ قدره، وكلُّ ما هو حادث فهو معلوم لله قبل أن توجد المخلوقات، ومرادٌ كونًا وقدرًا، بحيث إنّ الله قدّره، وإنّه لو شاء ما حصلت هذه الأشياء، فإنّه سبحانه بقدرته لا يمكن أن توجد معصيةٌ قسرًا عليه من دون رضاه، أو دون تقديره، ولكنّه لحكمته جعل هؤلاء من أهل الذنوب وهؤلاء من أهل الحسنات حكمةً منه، ولا شكّ أنّ الذين اختاروا هذا، والذين اختاروا هذا لهم من هذا الاختيار ما يؤهّل هؤلاء ليستحقّوا الثواب، وهؤلاء ليستحقّوا العقاب، وحكمة الله تعالى خفيّة لا يطّلع عليها العباد.

هذه الدرجة التي ذكرنا، أو هذه المنزلة التي هي العلم السابق هو الذي لا يتغيّر، يعني: يقال ما كتبه الله في اللوح المحفوظ لا يمكن تغييره، يقول الله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة:٥١]، هذا في المصائب، ويقول تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد:٢٣].

ويقول علقمة -رحمه الله- في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن:١١]: هو الرجل تصيبه مصيبة، فيعلم أنّها من عند الله فيرضى ويسلّم،

يعني: يستسلم لما أصابه بقضاء الله تعالى وبقدره، فيكون بذلك قد اتّقى الله حقّ تقاته، وقد علم أنّ ما حدث فهو بأمر الله تعالى وبتقديره، وفعل ما يقدر عليه، وما هو مأمورٌ بِه، واستسلم لأمر الله تعالى.

وتقدّم لنا وتكرّر أنّ إيماننا بالقضاءِ والقدر لا يستلزم أن نترك الأسباب والأفعال والأعمال التي نعملها، كما أنّنا لا نترك الأسباب الحسيّة في طلب المعاش، فكذلك في طلب الأجر الأخروي، والحسنات الأخروية، فالعبد مأمور أن يفعلها، مع إيمانه بأنّها مقدرة، وأنّها ستأتيه، ولكنّه مأمور بذلك، ويؤمن بأنّ المصائب التي حصلت عليه لا بدّ منها؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤]، ولقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨]، يعني: الذين قالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء:٧٧]، فبين أنّ التحصّن لا يمنع قدر الله الذي قدّره.

فعلى كل حال هذه الدرجة تقتضي الإيمان بسعة علم الله تعالى، وواسع علمه بتفاصيل المخلوقات لا ينافي فعل الأسباب وحدوث المسببات بعد أسبابها.

قال الطحاوي:

وَذَلِكَ مِنْ عَقْدِ الْإِيمَانِ، وَأُصُولِ المَعْرِفَةِ، وَالْاِعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَرُبُوبِيَّتِهِ، كَمَا قَالَ تَعالَى فِي كِتابِهِ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨].

قال الشارح:

الْإِشَارَةُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ، وَسَبْقِ عِلْمِهِ بِالْكَائِنَاتِ قَبْلَ خَلْقِهَا، قَالَ ﷺ فِي جَوَابِ السَّائِلِ عَنِ الْإِيمَانِ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، وَقَالَ ﷺ فِي آخِرِ الحَدِيثِ: «يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»، رَوَاهُ مُسْلِم(١).

قال الشيخ:

قول الشارح: (الْإِشَارَةُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ)، يعني: الإشارة بقوله: (وَذَلِكَ مِنْ عَقْدِ الْإِيمَانِ)، ثم استدل على أنه من الإيمان بقطعة من حديث جبريل - عليه السلام - وهو قوله ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، ثم قال في آخر الحديث: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ

---

(١) يوثّم (٨).

السَّائِلُ؟» قال: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَال: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

وهذا صريح في أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان لا يتم الإيمان إلا به، بأن يؤمن العبد أن الله تعالى على كل شيء قدير، وهو معنى ما رُوي عن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ أنه قال: «القدر قدرة الله»[1]، أي: أنه الذي قدر ذلك، فإذا آمن العبد بأنه على كل شيء قدير آمن بأن الله قدَّر كل شيء، وأنه قادر على كل شيء، فيدخل في ذلك أفعال العباد، بمعنى أنه سبحانه قادر على أن يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وأن أفعالهم داخلة في قدرة الله تعالى.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، خلق كل شيء حتى حركات العباد التي هي أفعالهم فهي خلقه ـ سبحانه ـ وتقديره؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨]، أي: ما أمر به فإنه مقدر لابد أن يكون فيؤمن العباد بقضاء الله تعالى وبقدره، ويعلمون أن كل ما في الوجود فإنه كائن بقضاء الله تعالى وقدره.

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة (٢/ ٢٦٢)، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة النبوية (٣/ ٢٥٤)، وابن القيم في شفاء العليل (ص٢٨)، وطريق الهجرتين (ص١٦٣).

قال الطحاوي:

وَالْاِعْتِرَافُ بِتَوْحِيدِ اللَّـهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ.

قال الشارح:

أَيْ: لَا يَتِمُّ التَّوْحِيدُ وَالْاِعْتِرَافُ بِالرُّبُوبِيَّةِ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِصِفَاتِهِ تَعَالَى، فَإِنَّ مَنْ زَعَمَ خَالِقًا غَيْرَ اللَّـهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَزْعُمُ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَخْلُقُ فِعْلَهُ؟ وَلِهَذَا كَانَتْ الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَحَادِيثُهُمْ فِي «السُّنَنِ».

رَوَى أَبُو دَاود[1] عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، إِنْ مَرِضُوا، فَلَا تَعُودُوهُم، وَإِنْ مَاتُوا، فَلَا تَشْهَدُوهُم».

وَرَوَى أَبُو دَاود[2] أَيْضًا عَنْ حُذَيفَةَ بْنِ اليَمَانِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ: «لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ، وَمَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَا قَدَرَ، مَنْ مَاتَ مِنْهُم، فَلَا تَشْهَدُوا جَنَازَتَهُ، وَمَنْ مَرِضَ مِنْهُم فَلَا تَعُودُوهُم، وهُمْ شِيعَةُ الدَّجَّالِ، وَحَقٌّ عَلَى اللَّـهِ أَنْ يُلْحِقَهُم بِالدَّجَّالِ».

وَرَوَى أَبُو دَاود[3] أَيْضًا عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تُجَالِسُوا أَهْلَ القَدَرِ وَلَا تُفَاتِحُوهُمْ».

---

(١) برقم (٤٦٩١).

(٢) برقم (٤٦٩٢)، وأخرجه أحمد (٥/ ٤٠٧).

(٣) برقم (٤٧١٠، ٤٧٢٠)، وأخرجه أحمد (١/ ٣٠).

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ[١] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ بَنِي آدَمَ لَيْسَ لَهُمَا فِي الْإِسْلَامِ نَصِيبٌ: الْمُرْجِئَةُ وَالْقَدَرِيَّةُ».

لَكِن كُلُّ أَحَادِيثِ الْقَدَرِيَّةِ الْمَرْفُوعَةِ ضَعِيفَةٌ، وَإِنَّمَا يَصِحُّ الْمَوْقُوفُ مِنْهَا، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ قَالَ: «الْقَدَرُ نِظَامُ التَّوْحِيدِ، فَمَنْ وَحَّدَ اللَّهَ، وَكَذَّبَ بِالْقَدَرِ، نَقَضَ تَكْذِيبُهُ تَوْحِيدَهُ»[٢]، وَهَذَا لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ يَتَضَمَّنَ الْإِيمَانَ بِعِلْمِ اللَّهِ الْقَدِيمِ، وَمَا أَظْهَرَ مِن عِلْمِهِ بِخِطَابِهِ وَكِتَابِه مَقَادِيرَ الْخَلَائِق، وَقَدْ ضَلَّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ خَلَائِقُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالصَّابِئِينَ وَالْفَلَاسِفَةِ وَغَيْرِهِمْ، مِمَّنْ يُنْكِرُ عِلْمَهُ بِالْجُزْئِيَّاتِ أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِمَّا يَدْخُلُ فِي التَّكْذِيبِ بِالْقَدَرِ.

قال الشيخ:

ذكر الشارح فيما تقدم أنَّ الإيمان بالقدر من تمام الإيمان بصفات الله تعالى، وأن من الواجب على الإنسان أن يؤمن بصفات الله، فيؤمن بأنّه العليم والحكيم، وبأنّه المدبِّر والمتصرِّف في الخلق، وذلك كلّه يتوقّف على الإيمان بالقدر؛ لأنّ القدر يدخل فيه قدرةُ الله، ويدخل فيه علمُ الله، فإنكار قدرة الله تعالى إنكار لصفاته،

---

(١) برقم (٢١٤٩)، وأخرجه ابن ماجه (٦٢).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ٤٥) مرفوعًا عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٩٧): «رواه الطبراني في الأوسط وفيه هانئ بن المتوكل وهو ضعيف». وأخرجه ابن المستفاض في القدر (ص٢٨٥)، والآجري في الشريعة (٢/ ٨٧٦)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦٧٠) موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

ووصفٌ له بالعجز سبحانه وتعالى، وبأنّه يكون معه من يتصرَّف في الكون دون رضاه، وذلك شرك. كذلك إنكار علم الله وصف له تعالى بالجهل، وذلك أيضًا تنقّص، غاية التنقّص لصفات الله تعالى.

فمن آمن بأن الله على كل شيء قدير، وأنّ الله بكلِّ شيءٍ عليم، وآمن بأنّه عزيزٌ حكيم، وبأنّه هو الذي نظّم الخلق، وهو الذي يتصرّف في الكونِ وحده، وهو الذي يعلم السعيد والشقيّ، والفاجر والتقيّ، وهو الذي قدّر المقادير وأوجدها؛ فيلزم في الحال هذه أن يعلم أنَّ هذه المصائب التي تحدث تحدث بعلم الله، وأنّها متى وقعت فليس منها مفرٌّ ولا محيد، ولأجل ذلك أمر النبيّ ﷺ بالإيمان بهذا الأمر بقوله: «وَتُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1]. وقال لابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ في حديثه المشهور: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لم يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لم يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[2]، يعني: يبست الصحف مما كتب فيها، ورفعت الأقلام: فلم يبقَ كتابة، بل الأمر قد فُرغ منه، وقد عُرف أهل الجنّة من أهل النار.

فالإيمان بالقدر من تمام الإيمان بالله تعالى، والذين أنكروه صنفان: صنف أنكروا العلم، وصنف أنكروا القدرة؛ فالذين أنكروا العلم هم غلاة القدرية

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٨٥).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٥٤٧).

الذين يقولون: إن الله لا يعلم الأشياء حتى توجد، أو أنَّه يعلم الكلِّيَّات دون الجزئيات، ومنهم عمرو بن عبيد، وغيلان القدري، ومعبد الجهمي، ثم جاء بعدهم الذين أنكروا قدرة الله عمومًا، واشتهر ذلك عن المعتزلة، ومنهم أبو الهذيل العلاف المعتزلي، وأبو هاشم الجُبَّائي، والقاضي عبد الجبار الهمذاني، والجاحظ المشهور، وأشباههم... هؤلاء من المعتزلة أنكروا قدرة الله، ولأجل ذلك قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «القدر قدرة الله»، يعني: أنَّ الإيمان بقدرة الله إيمان بالقدر، وعلى قول هؤلاء المعتزلة يكون هناك من يخلق مع الله، ولا يكون الله هو الذي يخلق وحده.

عقيدة المعتزلة أنَّ كل إنسان يخلق فعله، وأنَّ الله لا يقدر على أفعال العباد، وأنَّه لا يستطيع أن يهدي هذا ولا يضلَّ هذا، وأنّ قدرة العبد تغلب قدرة الله، وإذا أراد العبد أن يعصي، وأراد الله ألاّ يعصي؛ غلبت قدرة العبد على قدرة الخالق تعالى. فهذا هو معتقدهم في أنّ العبد يخلق أفعاله دون أن يكون لله قدرةٌ على ردّه، ويزعمون أنَّ هذا هو العدل، ويقولون: إنَّه لو خلق الأفعال في العبد، ثم عذَّبه عليها عُدّ ظالمًا له، هذا سبب غلّوهم في القدر، حتّى جعلوا هناك من يخلق مع الله تعالى، ولم يجعلوا الخلق والأمر لله، خالفوا قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، فالخلق لله وحده، والأمر الذي هو الشرع لله وحده.

ولأجل ذلك وردت هذه الأحاديث في أنّ القدريّة مجوس هذه الأمّة، ومع أنها مرويّةٌ بالإسناد، إلا أن فيها مقالًا؛ وإنّما الصحيح الموقوف من كلام الصحابة،

وكلام الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ معتبر، وكذلك تلاميذ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كلامهم معتبر؛ وذلك لأنّهم هم الذين شاهدوا نزول الوحي، وهم الذين نقلوا لنا الشرع عن النبيّ ﷺ، فإذا حذرونا عن هؤلاء القدريّة وقالوا: إنّهم يجعلون مع الله من يخلق، وأنّهم مجوس هذه الأمّة، لم يقولوا ذلك إلا عن توقيف، ولابدّ أنّهم عرفوا ذلك عن طريق الرسول ﷺ، وعن طريق شريعته. هذا هو السبب في كون أقوالهم أصبحت معتبرة.

ومعنى كون القدرية مجوس هذه الأمّة: أنّ المجوس ـ كما تقدّم في أول الكتاب، ويسمّون أيضًا: الثنوية ـ لأنهم شابهوا المجوس الذين يدّعون أنّ الخلق صدر عن اثنين: النور خلق الخير، والظّلمة خلقت الشرّ، وهؤلاء يقولون: إنّ الله هو الذي خلق الإنسان، ولكن الإنسان يخلق أعماله وأفعاله، فيجعلون مع الله من يخلق، ولا يجعلون الأفعال مخلوقةً لله تعالى، ويخالفون قول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦].

وتقدّم أنّهم يخشون بذلك أن يحتجَّ محتجٌّ بالقدر على المعاصي، يقول العلماء: إنّهم لما اعتقدوا هذا الاعتقاد السّيئ، وهو أنّ العبد هو المستقلّ بفعله، وأنّ الله ليس بقادر على أن يخلق أفعال العباد، لا خيرًا ولا شرًّا، خلّى الشيطان بينهم وبين الأعمال، فأصبحوا يتعبّدون ويكثرون من التّمسك بالعبادات، ويأتون بأنواع التنفُّل والقربات، ويبتعدون عن المحرَّمات صغائرها وكبائرها؛ لأنّ من عقيدتهم أنّ الإصرار على الصغيرة يُصيِّرها كبيرة، وأنّ الكبائر مُخرجةٌ من الملّة، ومن

عقيدتهم التكفير بالكبائر، وأنَّ الكبيرة توجب الخلود في النّار، ويسمّى ذلك «إنفاذ الوعيد»، فمن توعّده الله بأي عذاب، فإنّه يُحكم بخلوده في النّار، فأهل المعاصي عندهم مخلّدون في النَّار، لا يخرجون منها، ويستدلون بمثل قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة:٣٧]، وبقوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]، وما علموا أنّ هذه الآيات للكفّار الذين حكم الله بأنّهم مخلّدون في النار، أمّا العصاة الذين أذنبوا ذنوبًا فيخرجون منها بشفاعة الشافعين، أو برحمة أرحم الراحمين.

فهؤلاءِ مجوس هذه الأمّة، هذا من قولهم، وأمّا مخافتهم أن يحتجَّ محتجٌّ بالقدر على فعل المعاصي، فقد ذكرنا أنَّ من عقيدةِ أهل السنَّة أنَّ المعاصي إذا صدرت عن العبد نُسبت إليه مباشرةً، ونُسبت إلى الله تعالى تقديرًا، ولَـمّا كانت تُنسب إلى العبد مباشرةً وإيجادًا، استحقّ ذلك العبد أن يعاتَب عليها، وأن يعاقب. وكذلك الطاعات تنسب إلى العبد مباشرةً، وتنسب إلى الله خلقًا وتقديرًا، وإذا كان كذلك فلا حُجّةَ للمجبرةِ على فعل هذه الذنوب، نعرف بذلك أنَّ كلتا الطائفتين خاطئة؛ القدريَّة الذين ينفون قدرة الله على أفعال العباد، والمجبرة الذين يعذرون العبد في الأفعال، ويقولون: إنَّ تعذيبه على أفعاله ظلم؛ لأنّه ليس له أي اختيار، نقول: إنّ له اختيارًا، لكن اختياره مسبوق باختيار الله تعالى، وله قدرةٌ، ولكن قدرته مغلوبة بقدرةِ الله.

قال الشارح:

وَأَمَّا قُدْرَةُ اللَّـهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِهِ الْقَدَرِيَّةُ جُمْلَةً، حَيْثُ جعَلُوهُ لَمْ يَخْلُقْ أَفعَالَ الْعِبَادِ، فَأَخْرَجُوهَا عَنْ قُدْرَتِهِ وَخَلْقِهِ.

وَالْقَدَرُ الَّذِي لَا رَيْبَ فِي دِلَالَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ عَلَيهِ، وَأَنَّ الَّذِي جَحَدُوه هُمُ الْقَدَرِيَّةُ الْمَحْضَةُ بِلَا نِزَاعٍ: هُوَ مَا قَدَّرَه اللَّهُ مِنْ مَقَادِيرِ الْعِبَادِ، وَعَامَّةُ مَا يُوجَدُ مِنْ كَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالْأَئِمَّةِ فِي ذَمِّ الْقَدَرِيَّةِ يَعْنِي بِهِ هَؤُلَاءِ، كَقَوْلِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -لَمَّا قِيلَ لَهُ: يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ-: «أَخْبِرْهم أَنِّي مِنْهُم بَرِيءٌ، وَأَنَّهُم مِنِّي بُرَآءُ».

وَالْقَدَرُ الَّذِي هُوَ التَّقْدِيرُ الْمُطَابِقُ لِلْعِلْمِ: يَتَضَمَّنُ أُصُولًا عَظِيمَةً:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ عَالِمٌ بِالْأُمُورِ الْمُقَدَّرَةِ قَبْلَ كَوْنِهَا، فَيُثْبَتُ عِلْمُهُ الْقَدِيمُ، وَفِي ذَلِكَ الرَّدُّ عَلَى مَنْ يُنْكِرُ عِلْمَه الْقَدِيمَ.

الثَّانِي: أَنَّ التَّقْدِيرَ يَتَضَمَّنُ مَقَادِيرَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَمَقَادِيرُهَا: هِيَ صِفَاتُها الْمُعَيَّنَةُ الْمُخْتَصَّةُ بِهَا، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، فَالْخَلْقُ يَتَضَمَّنُ التَّقْدِيرَ: تَقْدِيرَ الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ، بِأَنْ يُجْعَلَ لَهُ قَدْرٌ، وَتَقْدِيرَهُ قَبْلَ وُجُودِهِ، فَإِذَا كَانَ قَدْ كَتَبَ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ قَدْرَهُ الَّذِي يَخُصُّهُ فِي كَمِّيَّتِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ، كَانَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي الْعِلْمِ بِالْأُمُورِ الْجُزْئِيَّةِ الْمُعَيَّنَةِ، خِلَافًا لِمَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ، وَقَالَ: إِنَّهُ يَعْلَمُ الْكُلِّيَّاتِ دُونَ الْجُزْئِيَّاتِ! فَالْقَدَرُ يَتَضَمَّنُ الْعِلْمَ الْقَدِيمَ، وَالْعِلْمَ بِالْجُزْئِيَّاتِ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِذَلِكَ وَأَظْهَرَهُ قَبْلَ وُجُودِ المَخْلُوقَاتِ إِخْبَارًا مُفَصَّلًا، فَيَقْتَضِي أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُعْلِّمَ الْعِبَادَ الْأُمُورَ قَبْلَ وُجُودِهَا عِلْمًا مُفَصَّلًا، فَيَدُلُّ ذَلِكَ بِطَرِيقِ التَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الخَالِقَ أَوْلَى بِهَذَا الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ يُعْلِمَ عِبَادَهُ بِذَلِكَ، فَكَيْفَ لَا يَعْلَمُهُ هُوَ؟!

الرَّابِعُ: أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ مُخْتَارٌ لِمَا يَفْعَلُهُ، مُحْدِثٌ لَهُ بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، لَيْسَ لَازِمًا لِذَاتِهِ.

الخَامِسُ: أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى حُدُوثِ هَذَا المَقْدُورِ، وَأَنَّهُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَإِنَّهُ يُقَدِّرُهُ، ثُمَّ يَخْلُقُهُ.

قال الشيخ:

يستدل على إثبات القدر بقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان:٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر:٤٩]، والقدر معناه تحديد الشيء وتقدير مدّته وزمانه، وأنَّ اللَّهَ قدَّر الأعمال: متى تحدث هذه الطاعة، ومتى تنتهي، وقدَّر الأعمار؛ فعمر الإنسان لا يزيد عمَّا قدَّره الله وكتبه ولا ينقص، وقدَّر الوفيات وقدَّر أسبابها، وجعلها مكتوبةً بأنَّ هذا الإنسان لا بدَّ أن يموت بسبب من الأسباب، وليس له مفرٌّ مما كتبه الله عليه، وما أشبه ذلك.

وفي الحديث عن أبي خُزَامَةَ عن أبيه - رضي الله عنهما - أنه سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا، وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ، وَتُقَاةً

نَتَّقِيهَا، هل تَرُدُّ من قَدَرِ اللَّـهِ شَيْئًا؟ قَالَ: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّـهِ»[(١)]، أي: هي مكتوبةٌ أنَّه يزول المرض بهذا السبب، ولأجل ذلك أمر النبيّ ﷺ بالتداوي بقوله: «تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّـهِ، فَإِنَّ اللَّـهَ -عَزَّ وَجَلَّ- لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً، غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ الْهَرَمُ»[(٢)].

فتعاطي هذه الأسباب لا ينافي أنّ العبد مكتوب عليه ما هو فاعل، ولا يقول إنسان: أنا سوف أترك هذا الفعل، ولا بدّ لي من حصول ما كُتب لي؛ لأنّ ترك الأسباب كليًّا نقص في العقل، فلو رأيت إنسانًا عزم على ترك الأكل والشرب واللباس ونحو ذلك، وقال: إذا قدَّر الله أنِّي أتغذى بغير ذلك، وإذا كان الله قد قدَّر لي ذلك، فلا حاجة إلى أن أطعم أو أشرب، وإلى أن ألبس. نقول: هذا نقص في العقل؛ لأنَّ هذه الأشياء جعلها الله أسبابًا حسيَّةً، وأمر بتعاطيها وأباحها، فلا يكون شِبَعٌ إلا بالأكل، ولا ريٌّ إلا بالشرب، ولا ولدٌ إلاَّ بالنّكاح. وكذلك الأرزاق التي أمر بالاكتساب لها؛ فإنّه أمر بفعل هذه الأسباب حتّى يصل من خلالها الرزق، ولو كان هو الذي قدّرها، وهو الذي يسَّرها كما في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤]، فذكر أنّهم يزرعون ويغرسون الأشجار، ويسقونها، ويبذرون الحبوب وينبتونها،

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٥٢٦).

(٢) أخرجه بألفاظ متقاربة: أبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، والنسائي في الكبرى (٧٥١١)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وأحمد (٤/ ٢٧٨) من حديث أسامة بن شريك ﷺ.

فأضاف إليهم الفعل، ولكن أخبر بأنّه هو الذي جعل هذه الأرض قابلة لذلك حتّى تصير منبتةً ومثمرةً، وهو الذي أيضًا أوجد هذا الماء الذي به هذا الشراب، ولو شاء لغيَّره كما في قوله تعالى: ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٠]؛ يعني: ملحًا أجاجًا لا يصلح للشرب ولا للسقي ولا لغير ذلك.

فأصبح بذلك الإيمان بهذا القدر يقتضي بأن نعلم أنَّ تفاصيل الأشياء معلومة وموجودة لله تعالى، ولكن لا نترك الأسباب الحسيّة، بل يفعلها الإنسان، ويعلم أنّها مقدرةٌ من الله، وأنّه هو الذي أمر بها ويسَّرها.

ولا يزال الحديث متصلًا عن ركن الإيمان بالقضاء والقدر، وقد توسّع فيه صاحب المتن، وصاحب الشرح؛ لأنَّ الخلاف فيه مع طائفتين مشهورتين: طائفة تغلو في الإثبات، وطائفةٌ تغلو في النَّفي، والذين يغلون في النَّفي طائفتان أيضًا: منهم من ينفي العلم، ومنهم من ينفي القدرة. وكلُّ الطوائف مبتدعةٌ ضُلاّل، وقد هدى الله أهل السنَّة، فتوسطوا في باب القدر بين الجبريّة والقدريّة:

فالجبرية نفوا قدرة العبد، وجعلوه مجبورًا ليس له أي اختيار، وجعلوه يعاقب على ما لا يفعل، ويثاب على ما ليس له فيه اختيار، فجعلوا حركته كحركة الشجرة التي تحرِّكها الرّياح.

وأمّا القدريّة، فإنّهم نفوا قدرة اللَّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ على أفعال العباد، ووصفوا ربّهم تعالى بالعجز عن الهداية وعن التصرّف في الخلق كما يريد، فلأجل ذلك كانوا مشبّهين بالمجوس، ووردت فيهم آثار وأحاديث ـ وإن لم يصح رفعها كما مرّ

بنا - أنّهم مجوس هذه الأمّة، وأنّهم لخصلتهم هذه ينبغي مقاطعتهم كما ورد في تلك الأحاديث: «**إِنْ مَرِضُوا، فَلاَ تَعُودُوهُم، وَإِنْ مَاتُوا، فَلا تَشْهَدُوهُم**»، مع أنه معلوم أنّ عيادة المريض المسلم من حقّ المسلم على المسلم، فمن حقّ المسلم على المسلم أن يعوده إذا مرض، ويتّبع جنازته إذا مات. ولكن قاطع الصحابة - رضي الله عنهم - وتلامذتهم هؤلاء؛ وذلك لأنّهم أتوا بأمرٍ شنيع، وهو تعجيز الله عزَّ وجلَّ، واتهامه بعدم القدرة، وتفضيل قدرة العباد على قدرته، ولو كانوا في زعمهم يريدون أن ينزِّهوا ربهم عن الظلم، يعني أن يخلق المعصية، ثم يعاقب عليها.

وقد ذكرنا أنّ أهل السنَّة وسط في هذا الباب، باب القدر بين الجبريّة والقدريّة؛ وذلك لأنّهم آمنوا بقدرةِ الله على كل شيء، ثم مع ذلك اعتقدوا أنّ للعبد قدرةً مغلوبةً بقدرة الله، وأنّ الله تعالى أعطى العباد قدرةً يزاولون بها أعمالهم، فبتلك القدرة يفعلون الأعمال التي يُثابون عليها، أو التي يعاقبون عليها، ولو كانت مغلوبة بقدرة الله، فيقال: للعبد قدرة، وله إرادة، فقدرة الله وإرادته غالبة على قدرة العبد وعلى إرادته، وتلك القدرة هي التي يستحقّ عليها أن يثاب على الطاعات ويعاقب على المعاصي، ولولا تلك القدرة لبطلت حكمة الله ولبطل شرع الله؛ وذلك لأن الله تعالى قد شرع الشرع، وأرسل الرسل وأنزل الكتب، وضمّنها أوامر ونواهي، فلا بدَّ أن يكون هذا الأمر والنهي موجّهًا إلى من يستطيع مزاولته، وإذا آمنّا بذلك آمنّا بأنّ الله تعالى أقدَر العبادَ على ما هم قادرون عليه، وأعطاهم القدرة التي تناسبهم، فبها يثابون وبها يعاقبون.

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قال الطحاوي:

فَوَيْلٌ لِمَنْ ضَاعَ لَهُ فِي الْقَدَرِ قَلبًا سَقِيمًا ـ وَفِي نُسْخَةٍ: فَوَيْلٌ لِمَنْ صَارَ قَلْبُهُ فِي الْقَدَرِ قَلبًا سَقِيمًا ـ لَقَدِ الْتَمَسَ بِوَهْمِهِ فِي فَحْصِ الغَيْبِ سِرًّا كَتِيمًا، وَعَادَ بِمَا قَالَ فِيهِ أَفَّاكًا أَثِيمًا.

قال الشارح:

الْقَلْبُ لَهُ حَيَاةٌ وَمُوْتٌ، وَمَرَضٌ وَشِفَاءٌ، وَذَلِكَ أَعْظَمُ مِمَّا لِلْبَدَنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، أَيْ: كَانَ مَيْتًا بِالْكُفْرِ، فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْإِيمَانِ، فَالْقَلْبُ الصَّحِيحُ الحَيُّ إِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ البَاطِلُ وَالقَبَائِحُ، نَفَرَ مِنْهَا بِطَبْعِهِ، وَأَبْغَضَهَا، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، بِخِلَافِ الْقَلْبِ المَيِّتِ، فَإِنَّهُ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الحَسَنِ وَالْقَبِيحِ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «هَلَكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ يَعْرِفُ بِهِ المَعْرُوفَ وَالمُنْكَرَ»(١).

وَكَذَلِكَ الْقَلْبُ المَرِيضُ بِالشَّهْوَةِ، فَإِنَّهُ لِضَعْفِهِ يَمِيلُ إِلَى مَا يَعْرِضُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ قُوَّةِ المَرَضِ وَضَعْفِهِ.

وَمَرَضُ الْقَلْبِ نَوْعَانِ ـ كَمَا تَقَدَّمَ ـ: مَرَضُ شَهْوَةٍ، وَمَرَضُ شُبْهَةٍ، وَأَرْدَؤُهُمَا

---

(١) أخرجه الطبري (٢٧/ ٢٢٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥٠٤)، والطبراني في الكبير (٨٥٦٤).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٧٥): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح».

مَرَضُ الشُّبْهَةِ، وَأَرْدَأُ الشُّبَهِ مَا كَانَ مِن أَمْرِ الْقَدَرِ. وَقَدْ يَمْرَضُ الْقَلْبُ، وَيَشْتَدُّ مَرَضُهُ، وَلَا يَعْرِفُ بِهِ صَاحِبُهُ، لِاشْتِغَالِهِ وَانْصِرَافِهِ عَنْ مَعْرِفَةِ صِحَّتِهِ وَأَسْبَابِهَا، بَلْ قَدْ يَمُوتُ وَصَاحِبُهُ لَا يَشْعُرُ بِمَوْتِهِ، وَعَلَامَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا تُؤْلِمُهُ جِرَاحَاتُ الْقَبَائِحِ، وَلَا يُوجِعُهُ جَهْلُهُ بِالْحَقِّ وَعَقَائِدُهُ الْبَاطِلَةُ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا كَانَ فِيهِ حَيَاةٌ، تَأَلَّمَ بِوُرُودِ الْقَبِيحِ عَلَيْهِ، وَتَأَلَّمَ بِجَهْلِهِ بِالْحَقِّ بِحَسَبِ حَيَاتِهِ، وَ:

.... مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيْلَامُ(١)

وقد يَشْعُرُ بِمَرَضِهِ، وَلَكِنْ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ تَحَمُّلُ مَرَارَةِ الدَّوَاءِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا، فَيُؤْثِرُ بَقَاءَ أَلَمِهِ عَلَى مَشَقَّةِ الدَّوَاءِ، فَإِنَّ دَوَاءَهُ فِي مُخَالَفَةِ الْهَوَى، وَذَلِكَ أَصْعَبُ شَيْءٍ عَلَى النَّفْسِ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْفَعُ مِنْهُ.

وَتَارَةً يُوَطِّنُ نَفْسَهُ عَلَى الصَّبْرِ، ثُمَّ يَنْفَسِخُ عَزْمُهُ، وَلَا يَسْتَمِرُّ مَعَهُ لِضَعْفِ عِلْمِهِ وَبَصِيرَتِهِ وَصَبْرِهِ، كَمَنْ دَخَلَ فِي طَرِيقٍ مَخُوفٍ مُفْضٍ إِلَى غَايَةِ الْأَمْنِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ صَبَرَ عَلَيْهِ، انْقَضَى الْخَوفُ وَأَعْقَبَهُ الْأَمْنُ، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى قُوَّةِ صَبْرٍ، وَقُوَّةِ يَقِينٍ بِمَا يَصِيرُ إِلَيهِ، وَمَتَى ضَعُفَ صَبْرُهُ وَيَقِينُهُ، رَجَعَ مِنَ الطَّرِيقِ، وَلَمْ يَتَحَمَّلْ مَشَقَّتَهَا، وَلَا سِيَّمَا إِنْ عَدِمَ الرَّفِيقَ، وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الْوَحْدَةِ، وَجَعَلَ يَقُولُ: أَيْنَ ذَهَبَ النَّاسُ، فَلِي أُسْوَةٌ بِهِم! وَهَذِهِ حَالُ أَكْثَرِ الْخَلْقِ، وَهِيَ الَّتِي أَهْلَكَتْهُمْ. فَالْبَصِيرُ الصَّادِقُ لَا يَسْتَوْحِشُ مِنْ قِلَّةِ الرَّفِيقِ، وَلَا مِنْ فَقْدِهِ، إِذَا اسْتَشْعَرَ قَلْبُهُ مُرَافَقَةَ

---

(١) شطر بيت للمتنبي، أولـه: «مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيْهِ». انظر: ديوانه بشرح عبدالرحمن البرقوقي (٤/ ٢١٧).

الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

وَمَا أَحْسَنُ مَا قَالَ أَبُو مُحَمَّد عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْمَاعِيلَ المَعْرُوف بِأَبِي شَامَةَ، فِي كِتَابِ «الحَوَادِثُ وَالْبِدَعُ»: «حَيْثُ جَاءَ الْأَمْرُ بِلُزُومِ الجَمَاعَةِ، فَالمُرَادُ لُزُومُ الحَقِّ وَاتِّبَاعَهُ، وَإِنْ كَانَ المُتَمَسِّكُ بِهِ قَلِيلًا، وَالمُخَالِفُ لَهُ كَثِيرًا؛ لِأَنَّ الحَقَّ هُوَ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ الجَمَاعَةُ الْأُولَى مِنْ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، وَلَا نَظَرَ إِلَى كَثْرَةِ أَهْلِ الْبَاطِلِ بَعْدهم». وَعَنِ الحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «السُّنَّةُ ـ وَالَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ ـ بَيْنَ الْغَالِي وَالجَافِي، فَاصْبِرُوا عَلَيْهَا رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَإِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ كَانُوا أَقَلَّ النَّاسِ فِيمَا مَضَى، وَهُمْ أَقَلُّ النَّاسِ فِيمَا بَقِيَ، الَّذِينَ لَمْ يَذْهَبُوا مَعَ أَهْلِ الْإِتْرَافِ فِي إِتْرَافِهِمْ، وَلَا مَعَ أَهْلِ الْبِدَعِ فِي بِدَعِهِمْ، وَصَبَرُوا عَلَى سُنَّتِهِمْ حَتَّى لَقُوا رَبَّهُمْ، فَكَذَلِكَ، فَكُونُوا».

قال الشيخ:

كلام الشارح يتعلّق بمرض القلب وصحّته. ومناسبته أنّ هؤلاء ما أُتوا إلّا من زيغ القلوب، وما صُرفوا عن الحق إلا بسبب مرضها، وأسباب المرض كثيرةٌ؛ ومنها: تلقي الشبهات، والله تعالى قد ذكر أن القلوب تمرض، فقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا﴾ [البقرة: ١٠]، فمرض القلوب نوعان: مرض شهوة، ومرض شبهة.

ذكر الله مرض الشهوة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]، هذا هو مرض الشهوة، وهو الذي يميل إلى الفواحش، ويطمع في الأجنبيّة إذا خضعت في القول، والله سبحانه ينهى نساء المؤمنين عن هذا.

وأما مرض الشبهة، فهو أشدّ؛ لأنه يصد القلب عن الحقِّ، ومتى صُدَّ القلب عنه ابتُلي بالباطل، وقد ذكر الله للقلوب أنواعًا من الأمراض، فمنها:

أولاً: الطبع: قال تعالى حكاية عن اليهود: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:٥٥]، فالطبع عليها معناه: أنّها خُتم عليها بحيث لا يصل إليها الخير، ولا تعرفه ولا تطمئنّ إليه، وهذا الطبع هو أشد الأمراض.

ثانيًا: الختم: وهو بمعنى الطبع، قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة:٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية:٢٣]، ومعلومٌ أَنَّ الخَتْمَ هَوَ تَغْطيةُ الشيءِ، بحيث لا يصل إليه شيء كما في الظروف المختومة التي لا تصل إليها الأيدي؛ فالقلب الذي ختم عليه لا يصل إليه الخير ولا ينتبه للمواعظ ولا يتذكّر، وسبب ذلك هو الشبهات.

ثالثًا: الزيغ: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، والزيغ:

هو الانحراف والميل، ولا شكّ أنّ سببه الشبُهات والتشكيكات التي تجعل الحقَّ عنده باطلًا والباطل حقًا، فيميل عن الحق إلى الباطل، وذلك هو الزيغ . وقد ذكر الله أسبابه، ومنها: أنّهم زاغوا بأنفسهم، فزادهم الله من ذلك: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾، وذكر أيضًا من أسبابه تتبُّع المتشابهات، فقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٧]، إلى قوله عن الرّاسخين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران:٨]، فالزيغ معناه: الانحراف والميل عن الاستقامة، وسببه هذه المعاصي والمخالفات.

رابعًا: القسوة: التي هي قسوةٌ معنويّة، بحيث لا يصل القلب إليه الخير، ولا يلين، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة:٧٤]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد:١٦]، فعاتبهم بأنّهم قست قلوبهم، وأبعدُ القلوب من الله تعالى القلب القاسي، وهو الذي لا يلين لموعظة، ولا يتأثّر بتذكير، ولا يقبل ذكرى، ولا يتأثر بتخويف، وتأتيه الإرشادات وتأتيه النصائح، وكل ذلك يصدُّ عنه صدودًا، ولا يزيده ذلك الأمر إلا نفورًا، وما ذاك إلا أنّه ممتلئٌ من الانحراف وممتلئٌ من الشبهات ولم يبقَ فيه محلٌّ للمواعظ، ولا محلٌّ للاعتبار، ولا لقبول الحق؛ فكان بذلك قلبًا قاسيًا لا يلين، شُبّه بالحجارة أو أشدّ من الحجارة.

خامسًا: الرَّانُ: الذي ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤]، والرَّان أو الرِّين: هو الغطاء الذي يحجُب القلب عن الاعتبار، يحجبه عن التذكر، فلا يصل إليه الخير، وسببه كثرة الذنوب، فكلما كثرت الذنوب صارت أغلفةً على القلب؛ غلافًا فوق غلاف، وغطاءً فوق غطاء، إلى أن يشقّ اختراقها وتنقيتها وإزالتها.

سادسًا: الإقفال: وهو أشدُّ أمراض القلوب ـ كما ذكر بعض العلماء ـ وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد:٢٤]، والقفل هو ما يغلق به الباب ويوصد، ولا يمكن فتحه إلا بمفتاحه الذي صنع له، فالقلب إذا كان قد أُقفل ولم يكن له ما يُفْتَح به، فإنّه يبقى محجوبًا محجوزًا لا يصل إليه خيرٌ.

وهذه الأمراض التي ذكرنا لها أسباب، وقد ورد من أسباب أمراض القلوب: الشبهات، والشهوات، والتشكيكات، وما أشبهها، وكلّما عظُمت تلك الشكوك تراكمت على القلب، فحصل الزَّيغ والانحراف والميل عن الاستقامة، وكلّما لان القلب وقبل الحق، فإنّه يلينُ ويتأثّر، كما ذكر الله تعالى ذلك عن أوليائه المؤمنين بقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣]، تلين جلودهم، وتلينُ قلوبُهم، والقلب الليّن هو الذي إذا سمع موعظة تأثّر، وعلامة تأثّره أنّه يُقبل على الله ويعرض عن الناس، وعلامة تأثُّره كذلك أنّه يحدث فيه خشوع وخوف ويحدث فيه زيادة طاعات وانصراف عن الآثام

والمحرمات، وهذا هو علامة لين القلب، وكذلك أيضًا اطمئنانه إلى الخير، وقد ذكر الله ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، فقلوب المؤمنين هي التي تطمئنّ بذكر الله، وهي التي تلين لكلام الله، وأمّا قلوب أولئك الفسقة ونحوهم، فإنّها قاسية مقفلة لا يصل إليها الخير مهما تكلّم الإنسان، ومهما وعظ، كما وُصِفوا بأنّهم: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨].

على كل حال أسباب ذلك في هؤلاء المبتدعة هي الشبهات، فعلى العبد أولًا: أن يكثر الاستعاذة بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ من زيغ القلب بقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، ونحو ذلك من الأدعية، كذلك يتجنّب تلك الشبهات التي تصل إلى القلب فتقسّيه، ويتجنّب المعاصي التي لها تأثيرٌ على القلوب، ولها سبب في الإعراض عن الحقّ وعدم تقبّله.

وبعد أن عرفنا أنّ الأسباب في قسوةِ القلب هي هذه الشبهات نقول: إنّ هذه الشبهات كثيرًا ما يثيرها أولئك المشبّهون الذين زاغت قلوبهم، فهم يثيرونها حتى يزيغوا غيرهم، فعلى الإنسان أن يحذر من شبهاتهم وتشكيكاتهم الموجودة في مؤلفاتٍ كثيرةٍ، يشكّكون فيها في قدرة الله عزّ وجلّ، وفي آثار علمه، ويشكّكون فيها أيضًا في عذابه وفي ثوابه، وما أشبه ذلك، فإذا عرف العبد أنّ هذه من التشكيكات التي قسّت قلوبهم؛ تجنّبها حتّى يبقى قلبه ليّنا خاشعًا خاضعًا متواضعًا.

ومعلوم أيضًا أنّ هذه المواعظ ونحوها لها آثارٌ على عباد الله، وأنّ العبد إذا قبلها استقام على الخير، واستمرّ عليه وقبله، وإذا أكثر من مجالس الذكر ومجالس العلماء ومجالس العُبّاد، وقبل مناصحتهم وإرشاداتهم تأثّر بذلك أيضًا، ولان قلبه زيادةً على ما يحصل له من كثرة العبادات وكثرة المعلومات.

وهذا هو السبب في أنّ قسمًا من الناس لا يتأثّرون بخير، ولا يقبلون إرشادًا ولا نصحًا ولا غير ذلك؛ لأنّهم عاشوا على البعد عن الخير وعدم تقبّله، وهناك آخرون إذا تكلّم معهم إنسان بكلمة أو بكلمتين لانت قلوبهم وخشعوا، ودمعت أعينهم، وأقبلوا على الله، وتابوا إليه وأنابوا، وسبب ذلك محبّتهم للخير وإقبالهم عليه، فعلى العبد أن يكون من الذين يحبّهم الله، والذين يقبلونه ويقبلون كلامه.

قال الشارح:

وَعَلَامَةُ مَرَضِ الْقَلْبِ عُدُولُهُ عَنِ الْأَغْذِيَةِ النَّافِعَةِ الْمُوَافِقَةِ لَهُ إِلَى الْأَغْذِيَةِ الضَّارَّةِ، وَعُدُولُهُ عَنْ دَوَائِهِ النَّافِعِ إِلَى دَوَائِهِ الضَّارِّ.

فَهَا هُنَا أَرْبَعَةُ أَشْيَاءٍ: غِذَاءٌ نَافِعٌ، وَدَوَاءٌ شَافٍ، وَغِذَاءٌ ضَارٌّ، وَدَوَاءٌ مُهْلِكٌ. فَالْقَلْبُ الصَّحِيحُ يُؤْثِرُ النَّافِعَ الشَّافِيَ عَلَى الضَّارِّ الْمُؤْذِي، وَالْقَلْبُ الْمَرِيضُ بِضِدِّ ذَلِكَ.

وَأَنْفَعُ الْأَغْذِيَةِ غِذَاءُ الْإِيمَانِ، وَأَنْفَعُ الْأَدْوِيَةِ دَوَاءُ الْقُرْآنِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا فِيهِ الْغِذَاءُ وَالدَّوَاءُ، فَمَنْ طَلَبَ الشِّفَاءَ فِي غَيْرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ الْجَاهِلِينَ، وَأَضَلِّ الضَّالِّينَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]، و«مِنْ» في قوله: ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾، لبيان الجنس، لا للتبعيض، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

فَالْقُرْآنُ هُوَ الشِّفَاءُ التَّامُّ مِنْ جَمِيعِ الْأَدْوَاءِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ، وَأَدْوَاءِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَا كُلُّ أحدٍ يُؤَهَّلُ لِلِاسْتِشْفَاءِ بِهِ. وَإِذَا أَحْسَنَ الْعَلِيلُ التَّدَاوِيَ بِهِ، وَوَضَعَهُ عَلَى دَائِهِ بِصِدْقٍ وَإِيمَانٍ، وَقَبُولٍ تَامٍّ، وَاعْتِقَادٍ جَازِمٍ، وَاسْتِيفَاءِ شُرُوطِهِ، لَمْ يُقَاوِمِ الدَّاءُ أَبَدًا، وَكَيْفَ تُقَاوِمُ الْأَدْوَاءُ كَلَامَ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ الَّذِي لَوْ نَزَلَ عَلَى

الجِبَالِ لَصَدَّعَهَا، أَوْ عَلَى الْأَرْضِ لَقَطَّعَهَا! فَمَا مِنْ مَرَضٍ مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ إِلَّا وَفِي الْقُرْآنِ سَبِيلُ الدَّلَالَةِ عَلَى دَوَائِهِ وَسَبَبِهِ وَالحِمْيَةِ مِنْهُ لِمَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ فَهْمًا فِي كِتَابِهِ.

وَقَوْلُهُ: (لَقَدِ الْتَمَسَ بِوَهْمِهِ فِي فَحْصِ الْغَيْبِ سِرًّا كَتِيمًا)، أَيْ: طَلَبَ وَهْمُهُ فِي الْبَحْثِ عَنِ الْغَيْبِ سِرًّا مَكْتُومًا؛ إِذِ الْقَدَرُ سِرُّ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، فَهُوَ يَرُومُ الْإِطِّلَاعَ عَلَى الْغَيْبِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن:٢٦]، إلى آخر السورة.

وَقَوْلُهُ: (وَعَادَ بِمَا قَالَ فِيهِ)، أَيْ: فِي الْقَدَرِ، (أَفَّاكًا): كَذَّابًا، (أَثِيمًا): مَأْثُومًا.

قال الشيخ:

القلوب تمرض ولها شفاء، وهي بحاجة إلى علاج وغذاء. والبدن إذا مرض احتاج إلى الدواء، وإذا جاع احتاج إلى الغذاء. وغذاءُ البدن: الأكلُ والطعام، وعلاجه: الأدويةُ والعقاقير وما أشبهها. وهذا غذاء ودواء حسّي، ولكن لا يفيد ذلك في مرض القلوب، فالقلوب لها غذاء هي بحاجة إليه أشدّ من حاجة الأبدان إلى غذائها، وهو غذاء معنوي، وهذا الغذاء هو كلام الله وكلام رسوله هذا الغذاء وما يستنبط من العلوم الشرعيّة، والعمل به، فما دام القلب مستقيمًا وما دام سليمًا؛ فإنّه بحاجة إلى أن يستمرّ معه هذا الغذاء، وأن يستمرّ العبد على قراءة كلام الله وعلى تعلّمه وعلى تعلّم السنّة النبويّة، وعلى العمل بها، حتّى يبقى قلبه سليمًا،

ويستمرّ على العمل وعلى الفطرة والاستقامة، أما إذا أحسّ بمرض من الأمراض التي ذكرنا فإن لديه العلاج، لديه الشفاء والعلاج النافع، وليس علاجه عند الأطباء وفي الصيدليات ونحوها، بل هو علاج معنويٌّ، وهو أن يتعاطى هذا الكتاب، وأن يعالج به قلبه، فإذا كان المرض من الشبهات فإنّه يزيلها بما يبطلها، فإذا ورد إلى القلب شبهة التشكيك في المعاد، وجد في القرآن علاجًا ودواءً لهذه الشبهة، وإذا مرض القلب بشبهة التشكيك مثلًا في الإيمان بالغيب؛ وجد في القرآن علاجًا ودواءً لهذا المرض، وإذا مرض القلب بشبهة الشكّ في المعاد، أو في المبدأ، أو في أول الخلق أو في آخره، أو شبهة الشكّ في الأسماء والصفات، أو في العبادات والمعاملات، أو في الأوامر والنّواهي، أو ما أشبه ذلك؛ توقّف في ذلك، ووجد العلاج النافع الكامل في كلام الله وفي كلام رسوله ﷺ، ولكن ذلك يحتاجُ إلى قلبٍ حيٍّ واعٍ فطن، ويحتاج إلى تأمّل فيقرأ كتاب الله عز وجل، ويتتّبع السنة النبويّة، وعند ذلك يحيا قلبه بعد أن كان ميتًا، ويصحّ بعد أن كان مريضًا، ويزول ما فيه من الوهم، وتزول الأمراض الكثيرة التي ذكرنا، فيزول الإقفال وتزول الأكِنّة، ويزول الختم، ويزول الطبعَ وتزول القسوة ويزول الرَّين وما أشبهها بإذن الله إذا استعمل كتاب الله فإن في ذلك علاجًا **ودواءً لهذه الأمراض القلبية.**

وقد توسَّع العلماء ـ رحمهم الله ـ في ذكر أمراض القلوب وفي بيان علاجها، وذكر من ذلك جملةً كبيرةً ابن القيم ـ رحمه الله ـ في أول كتابه الذي سمّاه «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان»، وغيره من العلماء الذين تكلَّموا على أمراض القلوب وعلاجها، وذكروا أنّ علاجها في كتاب الله تعالى، وبسنّة نبيّه ﷺ، وأنّه

أيضًا هو غذاؤها، واستدلّوا بالآيات التي فيها وصف القرآن بأنّه شفاء، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]، والذي في الصُّدُوْرِ: هو الشُّكُوك، ومن وقع في قلبِهِ شكٌّ أو وقع في قلبِهِ توقُّف أو شيءٌ من التّردّد أو ما أشبه ذلك، فليعالج قلبه بكتابِ الله عزّ وجلّ، وبذلك يزول ذلك الشكّ ويزول ذلك المرض، كذلك قول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]، فالمؤمنون هم الذين إذا قرأوا القرآن شُفوا سواءً شفاءً حسِّيًّا وهو إزالةُ الأمراض، أو شفاءً معنويًا وهو تصفية القلوب وإزالة ما فيها من الصدأ؛ فإن القلب يصدأ كما يصدأ الحديد، وجلاءه بكلام الله عزَّ وجلَّ، وسنة نبيه وبالعمل بالشريعة؛ فبذلك يصفو القلب ويستنير، ويصير نوره يخرق تلك الظلمات التي يأتي بها أولئك المُشْبِهون.

فعلى العبد أن يقبل على هذا العلاج النافع حتى يؤثر فيه، ولا يُؤثر فيه إلا إذا كان صادق الرغبة في إقباله على الله، وصادقًا في محبّته لكلام الله وكلام رسوله، ومصدّقًا بما وصف به هذا القرآن في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، فوصف بأربع صفات، وكل واحدة منها لها أهمّيتها، كذلك قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٤].

وَقَدْ جرّب كثير من العلماء هذه الآيات، ورأوا أنّها تشفي شفاءً حسّيًا، من الأمراض الحسيّة التي يُبتلى بها بعض النّاس، فقالوا: إنّ المسلم إذا استعمل هذه الآيات وعمل بها وعالج بها قلبه شُفي، وكذلك إذا عالج بها بدنه شُفي، فتزول الأمراض العارضة التي تعرض للإنسان ولا يستطيع علاجها الأطباء؛ فمرض الشياطين الذي هو مرض السَّحَرة ونحوهم، والصرف والعطف، وكذلك مرض الجنّ والإصابة بالجنون وملامسات الجان وملابساتهم، لا يستطيعها الأطباء ولا يعالجونها، ومرض الإصابة بالنظرة وبالعين ونحوها، لا يستطيعها أيضًا الأطبّاء، ولكن علاجها الصحيح هو القرآن الذي فيه هذا الشفاء الذي مدحه الله بهذه الآيات في قوله: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾، فغير المؤمنين لا يعترفون بأنّه كلام الله، كما أنّ أمراضهم مستعصية، وهي قسوة القلوب، فهم لا يتأثّرون به، وهذا القرآن ما جعله الله إلا لأهل ذكره ولأهل عبادته شفاءً، أمّا غير المؤمنين فحرمهم من الانتفاع به .

فإذا أراد الإنسان أن ينتفع بالقرآن وأن تزول به أمراضه، فعليه أن يحقّق الإيمان، وأن يحقّق التّصديق به، وأن يصدق كلام الله الذي جعله شفاءً، وأن يعمل به بكلّ ما يستطيع من العمل، فذلك إذا عالج به بصدقٍ نفعه واستفاد منه،

هكذا ذكر كثيرٌ من المحقّقين من العلماء.

كذلك أيضًا نقول: وجد أيضًا بالتجربة أنّ هناك أمراضًا مستعصيةً عليهم؛ كمرض السرطان ونحوه من الأمراض التي استعصت، ومع ذلك عولجت بكلام الله فشفاها الله، ولكن حصل الشفاء لأناس دون غيرهم؛ لأنه اجتمع أمران: إيمان المريض، وتصديقه بأن القرآن شفاءٌ وعمله به، وكذلك إيمان الراقي، وتصديقه بذلك واستعماله له، فاجتمع الأمران فحصل بذلك الشفاء، وعولج بها الفسقة والعصاة وأهلُ الشبهات والمبتدعة، ونحوهم، فلم يتأثّروا، لا في الأمراض الحسيّة، ولا في الأمراض المعنويّة، وذلك كلّه تحقيق لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].